وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أنطون تشيخوف

السهب وقصص مبكرة



ترجمة:
عدنان جاموس



السـهب

وقصص مبكرة



تصميم الغلاف

أريـج ديـر

السهب

وقصص مبكرة

تأليف: أنطون تشيخوف

ترجمة : عدنان جاموس

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢ م

العنوان الأصلي للكتاب:

СТЕПЬ

И

РАННИЕ РАССКАЗЫ

А. П. ЧЕХОВ

صدرت الطبعة الأولى

عـام ١٩٩٣

منشورات اتحاد الكتاب العرب

السهب وقصص مبكرة / تأليف أنطون تشيخوف؛ ترجمة عدنان جاموس .- .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتـاب، ٢٠١٢م .- ٣٧٢ ص؛ ٢٤سم.

(قصص مختارة؛ ٥)

١- ٨٩١,٧٣ ت ش ي س ٢- العنوان ٣- تشيخوف

٤- جاموس ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص مختارة

«٥»

m

كيف ينمو العود الغضّ في تربة جافة قاسية، تلفحه شمس حارقة آناً، وتسفعه ريح عاتية آناً آخر، بيد أنه يتشبث بالحياة لأنه موعود بها، فيمد جذوره ويضرب بها في الأعماق، إلى أن يقوى ويصلب، وينبت أوراقاً وبراعم، ثم ما يلبث أن يغدو دوحة وارفة تضج بالحياة؟

كيف بدأ الفتى «انتوشا تشيخونته» إبداعه الأدبي بتواضع وقناعة في المجلات الفكاهية الرخيصة، ثم شق طريقه خطوة خطوة إلى عالم الفن الأرحب حتى أصبح «أنطون تشيخوف»؟

الأعمال المنشورة في هذه المجموعة هي الأولى بالعربية التي تتيح لنا إمكانية تتبع التطور الإبداعي لدى تشيخوف منذ بداياته الأولى، فقد احتفظت لنا الصحف الأسبوعية والشهرية الروسية، التي كانت تصدر آنذاك، بكل ما نشره الكاتب، منذ أن كانت الكتابة لديه مصدر رزقٍ وتلبية لدافع مبهم لم يتوضح كنهه بعد، إلى أن أصبحت رسالته الأولى والأخيرة، وقضيته الرئيسة في الحياة.

وكانت نقطة الانطلاق في اختيار هذه الأعمال بالذات، هي إعطاء صورة صادقة عن أدب تشيخوف في تلك الحقبة، فهي تضم بعضاً من أفضل أقاصيصه المبكرة، وبعضاً من أساخيره ومُلَحِه ومعارضاته التي تسهم في تكوين فكرة شبه كاملة عما كان ينشره الكاتب الشاب في صحف ذاك العصر، فضلاً عن قصته «السهب» التي تُعد نقطة تحول رئيسة في تطوره الفني، وتتسم بأهمية استثنائية في مسيرته الإبداعية.

بدأ تشيخوف نشر كتاباته في عام ١٨٨٠ وهو في العشرين، بعد انتسابه إلى كلية الطب في موسكو. كان قادماً لتوه من مدينة تاغانروغ مسقط رأسه، بعد أن أنهى هناك دراسته الثانوية، ومُنح لتفوقه توصية تؤهله للانتساب إلى الجامعة.

فما الذي كان يحمله أنطون الشاب في عقله وقلبه ونفسه من أفكار ومشاعر وانطباعات؟

وما الذي عاناه من الحياة في طفولته وصباه؟

يقول تشيخوف عن نفسه في رسالة كتبها إلى الناشر والكاتب الكسي سوفورين في ١٨٨٩/١/٧ وكان قد أصبح كاتباً مشهوراً:

«... اكتبْ قصة عن شاب ابن قن، عمل بائعاً في دكان، ومنشداً؛ عن تلميذ وطالب رُبِّي على تبجيل أصحاب الرتب، وتقبيل أيدي القساوسة، والإذعان لأفكار الآخرين، والشكر على كل كسرة خبز، وعوقب بالضرب أكثر من مرة، وكان يذهب إلى الدروس دون جرموق(*)، ويتشاجر، ويعذب الحيوانات، ويحب أن يتغدّى على موائد الأقارب الأغنياء، ويداهن الله والناس من دون أي داعٍ سوى إحساسه بتفاهته. صِفْ كيف يعتصر هذا الشاب العبودية من نفسه قطرة قطرة، وكيف استيقظ ذات صباح فشعر بأن الدم الذي يجري في عروقه ليس دم عبد، بل هو دم إنسان حقيقي».

جده كان قناً، وقد افتدى نفسه مع زوجته وأولاده بالمال، وتحرر من القنانة، ولكنه ربّى أولاده بعقلية القن وطباعه. وأبوه، على الرغم من ميوله الفنية، ربى أولاده بالأسلوب نفسه، معتقداً أنه بهذا ينشئهم التنشئة المثلى، كان يحاول أن يملأ كل أوقات فراغهم، ولا يدع لهم أية فرصة يمارسون فيها عبث الأطفال ولهوهم، حرصاً على حمايتهم من «الفساد»، فيستخدمهم في

(*) (الكالوش): خف مطاطي يلبس فوق الحذاء ليقيه من الرطوبة والطين.

دكان البقالة التي يملكها، وفي أداء أصوات الديسكانت والآلتو في فرقة الإنشاد الكنسية التي ألّفها من حدّادي المدينة. وكانوا هم يشعرون في أثناء تأديتهم هذه الواجبات أنهم كالمساجين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة. ولم تكن ظروف حياة التلميذ أنطون في المدرسة بأيسر من ظروف حياته المنزلية. فالمدرسة في تاغانروغ كانت «ثكنة» حقيقية، بل مصنعاً للعبيد، كما وصفها بعض تلاميذها فيما بعد. وهذا ما جعل تشيخوف يقول فيما بعد: «في طفولتي لم أعِشْ الطفولة».

وكان الصبي أنطون وأخواه الكبيران ينتقمون من قسوة الحياة وبؤسها بالضحك والتهكم والسخرية، ولاسيما في تلك المسرحيات المنزلية الساذجة التي كانوا يتسلون بتمثيلها في أوقات فراغهم النادرة أو أمام ضيوف الأسرة. كان أنطون ماهراً في الارتجال، وقادراً على تغيير هيئته ونبرة صوته بسرعة، وكان بارعاً في التنكر، إلى درجة أنه تنكر مرة في زي شحاذ ودخل بيت عمه مستعطياً وعاد إلى منزله من دون أن يعرفه أحد. وكانت أسعد أوقات حياته آنذاك هي تلك التي يقضيها في مطالعة أعمال الأدباء الروس والعالميين الكبار، وفي كتابة مشاهد مضحكة يمثلها مع إخوته، ويتقمص هو فيها شخصيات أناس معروفين في المدينة، ساخراً في أثناء ذلك من كل ما يشمئز منه ويكرهه في الحياة التي حوله: الزيف والكذب والغش والظلم والاستبداد، وكان يجد في هذا متنفساً لما يعتمل في نفسه من توق غامض إلى الإبداع وإعادة خلق الحياة خلقاً تعبيرياً مكثفاً هادفاً.

في عام ١٨٧٥ غادر أخواه الكبيران الكسندر ونيقولاي تاغانروغ إلى موسكو لمتابعة الدراسة في المعاهد العليا، وفي العام التالي لحقت بهما الأسرة كلها ما عداه – والداه وأخته وإخوته الصغار الثلاثة – هرباً من ملاحقة المحكمة لأبيه الذي أفلس وعجز عن قضاء ديونه. وعاشت الأسرة حياة فقر مدقع في شقة قميئة في واحد من أسوأ أحياء موسكو، وبقي أنطون في

تاغانروغ وحده ليتابع دراسته، واضطر إلى العيش غريباً في بيت العائلة، بعد أن انتقلت ملكيته بقرار من المحكمة إلى الشخص الذي قضى ديون أبيه.

وعلى الرغم من أن الفتى كان يحلم دائماً بالحرية، فإن سفر أسرته إلى موسكو، وتخلصه من أسلوب الحياة الذي كان يرهقه ويقيده لم يشعراه بالحرية، ولم يخففا من همومه ومتاعبه. كانت العيون والألسن تلاحقه وتحاصره كابن قن سابق، وابن بقال مفلس هارب من مدينيه. وكانت الظروف تضطره إلى بيع ما تبقى من أمتعة الأسرة وأثاث البيت، وإلى إعطاء دروس خصوصية مأجورة كي ينفق على نفسه، ويساعد أمه التي كانت تجد صعوبة كبيرة في تدبير شؤون الأسرة في موسكو. فأخواه الكبيران لا يكادان يوفران شيئاً مما يكسبانه من عملهما في الصحافة، وأبوه لم يعد يزور العائلة إلاّ لماماً بعد أن وجد عملاً لدى تاجر في ضواحي موسكو وأقام هناك. وكان أنطون عندما يعجز عن إرسال نقود لأمه يحاول أن يخفف عنها ويبث الأمل في نفسها برسائله المرحة. وقد كتبت له مرة تقول: «.. تسلمنا منك رسالتين مليئتين بالمزاح، وفي هذا الوقت لم يكن لدينا سوى ٤ كوبيكات للخبز والنور، وكنا ننتظر أن ترسل لنا نقوداً...».

في تلك السنوات بالذات (١٨٧٦-١٨٧٩)، التي كان على أنطون فيها أن يواجه الحياة وحيداً، أخذت تتكون لديه نفسية المناضل في سبيل الحرية الشخصية والكرامة الإنسانية. كانت نظرته إلى الحياة والمجتمع تتكون وتتكامل من خلال تجربته الحياتية، وتمثله الأفكار والمفاهيم والمبادئ والمثل العليا التي يستقيها عقله وتتشربها روحه من نبع الأدب والفكر الروسي الثر، ومن مؤلفات الأدباء والمفكرين الأجانب، وقد وجد نفسه يخوض معركتين في آن: معركة مع الذات ليعتصر منها ما امتزج بدمه – على حد تعبيره – من أثر العبودية، ويحررها من رواسب الزيف والنفاق والاستكانة والخنوع، وكل العيوب التي كانت الحياة من حوله تزرعها في النفوس وتتعهدها بالعناية،

ومعركة مع الآخرين الذين لا يرون فيه أكثر من صبي مهيض الجناح، عليه أن يطأطئ رأسه لمن حوله كي يعيش. وقد خاض المعركتين بشجاعة وإخلاص مع النفس، واستطاع أن يفرض احترامه على كل من يتعامل معه عن قرب، وأن يحافظ على كرامته ويذود عن حريته واستقلاليته.

وكان نبع الفكاهة الفوار الذي يجيش في نفسه ينهمر فياضاً في رسائله إلى أهله وأقاربه وفي «صحيفة» «التأتاء» التي كان يكتبها بخط يده ويرسلها إلى أخويه في موسكو، فيعوض بها عما كان يجده من بهجة وسعادة في تمثيل المشاهد الساخرة معهما في تاغانروغ قبل رحيلهما عنها.

جاء أنطون إلى موسكو في صيف عام ١٨٧٩. وكانت الدراسة في كلية الطب التي انتسب إليها تتطلب منه كل وقته. ولكن أنّى له ذلك وقد وجد نفسه، وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره، العائل الوحيد لأسرته. كان لابد له من العمل والكسب ليقوم بأود نفسه ويعيل أسرته. ولم يكن له من خيار سوى أن يكون عمله ملبياً لتلك الحاجة الملحة التي ما فتئت تتنامى في داخله منذ الصغر، حتى لتكاد تملك عليه نفسه كلها، وتطغى على كل ما عداها. وكانت الأقاصيص والفكاهات التي يكتبها أخوه الكسندر، والرسوم التي تبدعها ريشة أخيه نيقولاي، قد وجدت طريقها إلى النشر منذ زمن، مما ساعده على إيصال ما كان يكتبه آنذاك إلى الصحف. وقد نشر أولى أقاصيصه «رسالة إلى جار متعلم» في التاسع من آذار عام ١٨٨٠ في مجلة «اليعسوب» التي كانت تصدر في العاصمة بطرسبورغ، وأخذ ينشر ما يكتبه تباعاً في الصحف الأسبوعية الفكاهية التي تصدر في بطرسبورغ وموسكو بأسماء مستعارة أشهرها: انتوشا تشيخونته (بمختلف أشكاله) وشخص بلا طحال الخ.. وكان انتشار هذه الصحف على نطاق واسع في تلك الآونة من السمات المميزة للحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في الثمانينيات، وهي حقبة سادت فيها الرجعية السوداء، ولا سيما بعد اغتيال القيصر الكسندر

الثاني عام ١٨٨١، فكمَّمت الأفواه، وفَرَضَت رقابة صارمة على وسائل النشر، وَوَضَعَت أطراً عامة لا يجوز للصحافة أن تخرج عنها، وقد حرص رؤساء التحرير من جهتهم على الالتزام بهذه الأطر ليضمنوا لصحفهم استمرار الحياة. وكانت هذه الصحف متشابهة على الرغم من تعددها واختلاف أسمائها: «اليعسوب»، «شظايا»، «المنبه»، «المُشاهد» الخ... وهي صحف أسبوعية تهتم بصنف المنمنمات: أقاصيص قصيرة، لوحات وصفية، مشاهد مضحكة، تعليقات لاذعة على رسوم كاريكاتورية، نكات لا تتعدى بضعة أسطر، حواريات من سطرين أو تزيد قليلاً الخ... ولا شك في أن طابع هذه الصحف والتقاليد التي درجت عليها كانت ذات تأثير كبير في أعمال كل من يطمح إلى النشر فيها.

في كنف هذه الظروف بدأ تشيخوف ينشر أقاصيصه ومُلحه المبكرة. فما عساه أن يكتب!

طالب في كلية الطب عليه أن يكرس كل وقته للدراسة، رب أسرة كبيرة تعيش في شقة ضيقة لا مكان فيها لطاولة خاصة به للكتابة، ومع ذلك عليه أن يكتب كل يوم ليدفع غائلة العوز عنه وعن أسرته، صحف فكاهية ضحلة لا تنشر إلاّ ما يتماشى مع طبيعتها وتقاليدها ومزاج رؤساء تحريرها، ومع تعليمات الرقابة الصارمة، وكل ما يهمها هو تسلية القارئ وإضحاكه مهما كان محتوى العمل ضحلاً، بل ربما كان الأفضل هو العمل الضحل الذي لا يتعدى خضرة سطح المستنقع، ولا يطمح إلى الكشف عن قذارة أعماقه، وإلاّ أعيد إلى كاتبه، حتى ولو أجازته الرقابة، بحجة أنه لا ينسجم مع طبيعة الصحيفة وأهدافها.

أليست هذه الظروف كافية لأن تفسر لنا السبب الذي جعل تشيخوف آنذاك يعمد في بعض الأحيان إلى كتابة أساخير ومُلح لا تهدف إلاّ إلى تسلية القراء وإضحاكهم!

ولكن «مكر» التاريخ أبى إلاّ أن يتجلى في خروج عدو الابتذال والضحالة والسطحية من بين صفحات هذه المجلات الضحلة المبتذلة بالذات. فقوة الإبداع الخفية، والصبوة المخلصة إلى الحقيقة كانتا تقودان الكاتب الشاب إلى دروب جديدة لم يسلكها قبله أحد، وشيئاً فشيئاً شرع القراء والنقاد يتذوقون فيما يكتبه انتوشا تشيخونته نكهة جديدة متميزة لم يعهدوها من قبل في مثل هذه الصحف. المواقف ذاتها، الشخصيات ذاتها، بل حتى أساليب الإضحاك ذاتها، ولكن في الوقت نفسه كل هذا لم يكن ذاته بالمرة... لقد ظل تشيخونته ضمن حدود الصنف الأدبي ذاته، ولكنه حقق تغيير هذا الصنف من داخله. الأقصوصة الفكاهية العادية ارتقت بها موهبة الكاتب المتوهجة إلى مرتبة «الجوهرة» الفنية، حسب تعبير تولستوي.

كان تشيخوف في البداية يدافع عن شاعرية الحرية والصدق والعدالة في الحياة، ويناضل من أجل تربية الشخصية الإنسانية الكريمة من دون أن يولي اهتماماً كبيراً تربية الشخصية الفنية في نفسه، بل وحتى من دون أن يعي تماماً أهمية الجديد الذي يبتدعه في الأدب الروسي والعالمي، ولكنه شيئاً فشيئاً أخذ يدرك أن تربية الإنسان وتربية الفنان في نفسه جانبان متكاملان، وأن عليه أن يقدر أدبه حق قدره، ويعطيه ما يستحقه من الجهد والأناة، ويغار عليه ويتحدى به النقاد الذين لا يعترفون بقيمة هذه «النتف» التي يكتبها، ولا يعدونها من الأدب «الكبير». وخاض تشيخوف معركة الإنسان والفن بعناد، وراح يحرز النصر تلو النصر إلى أن أجبر كبار النقاد على الاعتراف به كواحد من أعظم الكتاب في روسيا، وجعل كبريات الصحف «السميكة» التي لا تنشر إلاّ أعمال الكتّاب المشهورين تفتح ذراعيها مرحبة بما يكتبه، وتتنافس وتتفاخر بنشر أعماله. وكانت بداية هذا الانعطاف الكبير في مسيرته الأدبية نشر قصة «السهب» التي أثارت عاصفة من الجدل بين النقاد والقراء جعلت اسم تشيخوف يتردد في جميع الصحف والمحافل الأدبية لمدة طويلة.

* * *

بدأ تشيخوف كتابة «السهب» في نهاية كانون الأول عام ١٨٨٧ وأنهاها في الثاني من شباط عام ١٨٨٨. وكان الدافع المباشر لكتابتها إلحاح الكثيرين من الكتاب والنقاد والناشرين المعجبين بموهبته في إسداء النصح له بكتابة قصة طويلة أو رواية. ومن العجيب أن هؤلاء جميعاً كانوا يشيدون بموهبة تشيخوف، ويبدون إعجابهم الشديد بما يكتبه، ولكنهم يزعمون أن هذه «النتف» و«المنمنمات» التي تبدعها ريشته لا تدخل ضمن مفهوم الأدب «الكبير»، وأنه إذا استمر في كتابتها ولم يوجه موهبته نحو كتابة «أشياء كبيرة» بالمعنى الحجمي للكلمة، فإنه «يقترف إثماً أخلاقياً كبيراً»، كما ورد في رسالة د. ف. غريغوريفتش التي وجهها إلى تشيخوف في ٢٥ آذار ١٨٨٦، تلك الرسالة الشهيرة التي كان لها أكبر الأثر في تعزيز ثقة تشيخوف بنفسه ككاتب، إذ وجد فيها أول اعتراف بموهبته يصدر عن كاتب كبير ومعترف به في روسيا كلها. وعلى الرغم من اعتراف غريغوريفتش بموهبة تشيخوف الفذة فإنه لم يستطع أن ينفذ ببصيرته الفنية إلى جوهر ظاهرة التجديد التي شرع الكاتب يشق لها الطريق لتصل في نهاية المطاف إلى مصاف الأدب «الكبير» كظاهرة فريدة في تاريخ الأدب العالمي. فهو يقول في الرسالة ذاتها «... دع العمل المتعجل... من الأفضل لك أن تجوع كما جعنا نحن في زماننا، صُن انطباعاتك لعمل متروٍّ... عمل واحد كهذا سيقدَّر أكثر بمئة مرة من مئة أقصوصة رائعة مبعثرة في أوقات مختلفة على صفحات الجرائد...». والأعجب من هذا أن ولوج عالم الأدب «الكبير» كان في رأي الكثيرين لا يتوقف على كتابة «أشياء كبيرة» فحسب، بل لابد للكاتب من أن ينشر أعماله في المجلات «السميكة» التي لا تنشر إلاّ أعمال الكتاب المشهورين.

وكان تشيخوف في سنواته الأخيرة يتذكر تلك المرحلة من حياته الإبداعية ويقول للكتاب الشباب بلهجة يختلط فيها المزاح بالجد كما يروي بونين وتيليشوف في ذكرياتهما عنه: إنكم يا كتاب اليوم تنعمون الآن بكتابة الأقاصيص القصيرة، فالجميع قد اعتادوها، وهم يمدحونكم عندما تكتبونها؛ أما

أنا فقد كنت أتعرض أحياناً للذم بسببها، وأي ذم! كانوا يقولون لي إذا كنت تريد أن تسمى كاتباً عليك أن تكتب رواية وإلاّ فلن يصغي إليك أحد ولن يتحدث عنك أحد ولن تقبلك أية مجلة جيدة. أنا الذي هدمت لكم الجدار بجبهتي لأشق أمامكم طريق كتابة الأقصوصة القصيرة.

* * *

نُشرت قصة «السهب» في مجلة «بشير الشمال» استجابة لرجاء رئيس تحريرها ن. ميخايلوفسكي. وكانت هذه أول قصة «كبيرة» يكتبها تشيخوف وينشرها في مجلة «سميكة». وقد أثار العمل الجديد ردود فعل مختلفة. فالكاتب والناشر سوفورين نسي وهو يقرؤها أن يشرب فنجان الشاي، وغيّرته له زوجته ثلاث مرات، والناقد بيترسين أخذ «يسير على رأسه» من شدة الإعجاب، والشاعر بليشييف قرأها بنهم شديد ولم يتوقف عن القراءة إلى أن أنهاها، وقد وجدها هو وكورولينكو بديعة جداً وفيها شاعرية لا حدود لها. وأقدم بعض النقاد على المقارنة بين تشيخوف وكبار الكتاب الروس مثل غوغول وتورغينف وتولستوي معترفين له بالفرادة والأصالة وبأن ما يجمعه بهم هو الروح الواحد المتجسد في التصوير الصادق للحياة والطبيعة والإنسان. بينما وجد نقاد آخرون – وهم الأكثرية – أن مثل هذه المقارنة لا مسوغ لها، وأن تشيخوف لم ينجح في كتابة قصة «طويلة»، بل إن ما كتبه هو مجرد لوحات وصفية رُصفت إحداها إلى جانب الأخرى، وأن وصفه للسهب بالذات لم يصل إلى المستوى الذي بلغه غوغول في قصة «تاراس بولبا».

بعض النقاد سمّى «السهب» قصيدة ملحمية منثورة، ورأى أن كل ما فيها مفعم بالحياة والصدق والشاعرية، وبعضهم وصفها بأنها عمل اثنوغرافي أكثر منه قصصي، ويتسم بالطابع الوصفي البحت. وكانت أكثر الآراء تميل إلى أن العمل ليس له مضمون موحد، بل هو مجموع وصْفِيّات نُضّد بعضها فوق بعض فجاء متعباً للقارئ وباعثاً على الملل أحياناً، وأن القصة يمكن

تجزئتها إلى أقاصيص مستقلة، أو أنها تصلح لأن تكون مَدْخلاً لرواية طويلة يتتبع فيها الكاتب مصائر أبطاله ويطورها فنياً حتى يصل بها إلى غاياتها الموضوعية.

لقد طبق هؤلاء النقاد على القصة الجديدة مقاييسهم القديمة التي تنبثق من مواقفهم الاجتماعية وبرامجهم الجمالية، فنشأ عن هذا وضع طالما تكرر في تاريخ الأدب والفن: وذلك عندما يظهر عمل يتسم بالتجديد الأصيل، ويوضع ضمن أطر التصورات التقليدية والذوق السائد، فإذا به يبدو عملاً ناشزاً لا تتوافر له مقومات النجاح. وكان مما يدعو للاستغراب أن النقاد الذين انتقصوا من قيمة «السهب» كقصة «طويلة» لم يستطيعوا إلاّ الاعتراف بأن العمل بحد ذاته «جيد»، وأن الوصف فيه يبلغ حد الروعة أحياناً، وأن بعض شخصياته تبدو حية من لحم ودم، وأن موهبة الكاتب لا شك فيها الخ... بيد أن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يرى «ذاك المدى الرحب من المضمون الداخلي» الذي كتب عنه الشاعر بليشييف في رسالته إلى تشيخوف بعد قراءة «السهب». كان ما يهمهم في المقام الأول هو المضمون «الظاهري» أو «الأحدوثة» العزيزة جداً على الجمهور، وقد حجب «غيابُها» عن بصيرتهم رؤية المضمون «الداخلي» المبثوث في ثنايا القصة، وسماع نغمة اللحن العامة التي ترافق القارئ من البداية حتى النهاية، واشتمام الرائحة الفاغمة التي تملأ فضاء القصة الرحب، واستشعار «المزاج» الشاعري السائد في العمل كله، مما يجعل من «السهب» نشيداً احتفالياً يضج بفرح الحياة والطبيعة ويتغنى بعظمة الوطن. لقد كان تشيخوف أول فنان يجد في الرتابة الخارجية للمنظر السهبي عالماً كاملاً من الألوان والأصوات، ويصور السهب كائناً حياً يحن إلى السعادة كما يحن لها أبطال القصة الذين يعانون من الوحشة، ويتوقون إلى حياة أخرى، لا تهدر فيها قوى الشعب الإبداعية سدى.. وشيئاً فشيئاً يندمج كيان السهب بكيان الوطن الذي يصبو إلى حياة جديدة يتجلى فيها كأكمل ما

يكون التجلي كُلُّ ما يختزنه من قدرات وثروات ومواهب. أليس في هذا ما يحقق «الوحدة الفنية» التي افتقدها النقاد في القصة؟!

بقيت «السهب» مدة طويلة موضع أخذ ورد، وكان أكثر المعجبين بها هم أدباء ذاك العصر لا نقاده، فقد وصف سالتيكوف شيدرين القصة بأنها «رائعة» وأنه يرى في تشيخوف «موهبة حقيقية»، وقال عنه غارشين الذي «خلبت القصبة لبه»: «... لقد ظهر في روسيا كاتب جديد من الطراز الأول...» وامتدحها تشيرنيشيفسكي في رسالته إلى باريشيف، أما كورولينكو فقد حلل القصة وبين جمالياتها وكشف عن جوهر التجديد فيها، وفند آراء النقاد الذين لم يستطيعوا أن يستشفوا ما «تحت النص» وما «بين السطور»، وكانت «السهب» أحد أربعة أعمال لتشيخوف يمتدحها ليف تولستوي دائماً وهي: «الأطفال» و«وحشة» و«السهب» و«حبوبة».

وأياً كانت آراء القراء والنقاد في «السهب» عند صدورها فإن نشر هذه القصة بالذات دشن مرحلة جديدة في تاريخ أدب تشيخوف ومسيرته الفنية، ولم يعد الأدب بعد ذلك «عشيقته» والطب «زوجته الشرعية» كما كان يقول، بل أصبح الأدب «زوجته الحبيبة» التي وهبها فكره ونفسه وكيانه كله، وغدا على استعداد للتضحية بكل شيء من أجل أن يزين جيدها بقلائد لا يخبو لألاؤها على مر العصور.

المترجم


الهيئة العامة
السورية للكتاب

بسبب التفاح

بين البحر الأسود وسولوفكي[١]، وعلى درجتي الطول والعرض المناسبتين، يقيم الملاّك الصغير تريفون سيميونوفتش في أرضه ذات التربة السوداء منذ زمن طويل. إن لقب[٢] تريفون سيميونوفتش طويل ككلمة «عالم طبيعيات»[٣] ومشتق من كلمة لاتينية عذبة الجرس للغاية تعني إحدى الفضائل الإنسانية الجمة. ويبلغ عدد ديسيتينات[٤] أرضه السوداء ٣٠٠٠. وضيعته، لأنها ضيعة، ولأنه نفسه ملاّك، مرهونة ويجري بيعها. وكانت عملية البيع قد بدأت عندما لم يكن لتريفون سيميونوفتش صلعة بعد، وما زالت مستمرة حتى الآن. وهي، بفضل سهولة تصديق المصرف كل ما يقال له، وسعة حيلة تريفون سيميونوفتش، تسير سيراً متعثراً للغاية. إن هذا المصرف سيفلس يوماً ما لأن تريفون سيميونوفتش، مَثَلُه مَثَلُ أمثاله الذين لا يحصى لهم عدد، قد قبض النقود ولكنه لا يدفع الفوائد، وإذا دفع في بعض الأحيان فإنه يدفع بمراسم كالتي يتصدق بها المحسنون بكوبيك لراحة نفس الموتى أو لبناء معبد. ولو كان العالم غير هذا العالم، وكان يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية لما أطلقوا على تريفون سيميونوفتش اسم تريفون سيميونوفتش، بل اسماً ما آخر. كانوا سموه كما يسمون على العموم الخيول والأبقار. ولنقل بصراحة إن تريفون

---

(١) اسم جزيرة (سولوفيتسكي) القديم في البحر الأبيض شمالي روسيا (المترجم).

(٢) الكلمة مستعملة هنا بمعناها القديم الذي يعبر عنه الآن بكلمة كنية أو شهرة (المترجم).

(٣) عبارة «عالم طبيعيات» بالروسية كلمة واحدة منحوتة من كلمتين «يستيستفو اسبيتاتيل» (المترجم).

(٤) الديسيتينا: وحدة المساحة الروسية القديمة وتعادل ١/٠٩ هكتار (المترجم).

سيميونوفتش ليس أكثر من حيوان محترم. وإنني أدعوه ليوافق بنفسه على هذا. وإذا ما بلغته هذه الدعوة (إذ إنه يتصفح اليعسوب[١] أحياناً) فإنه، على الأرجح، لن يغضب، لأنه، وهو الفهيم، سيوافقني كل الموافقةـ بل ربما أرسل لي من خيراته في الخريف عشر تفاحات أنطونية[٢]، لأنني لم أذع لقبه الطويل على الناس، بل اكتفيت هذه المرة بذكر اسمه وكنيته[٣] فقط. لن أصف جميع فضائل تريفون سيميونوفتش: فهذا أمر يطول. ولاستيعاب صاحبنا كله، بيديه ورجليه، ينبغي العكوف على الكتابة، على أقل تقدير، بقدر ما عكف عليها أوجين سيو[٤] وهو يكتب روايته السميكة الطويلة «اليهودي المتشرد». لن أتحدث عن غشه في البريفيرنس[٥]، ولا عن سياسته التي تجنبه دفع الديون والفوائد، ولا عن احتياله على القسيس والشماس، ولا عن نزهاته في القرية على صهوة جواده مرتدياً حلة من زمن قابيل وهابيل، بل سأكتفي بلوحة واحدة تبين موقفه من الناس الذين أوحت له خبرته خلال ثلاثة أرباع القرن بالمعاظلة التالية في مدحهم: «عاميون، ساذجون، حمقى، مغفلون، خسروا في «المغفلين»[٦]».

في صباح رائع من جميع الوجوه (جرى الأمر في نهاية الصيف) كان تريفون سيميونوفتش يتمشى في الممرات الطويلة والقصيرة في بستانه الوارف الذي نثرت فيه يد سخية بكرم زائد كل ما يلهم السادة الشعراء، وبدا

---

(١) اسم المجلة التي نشرت فيها الأقصوصة (المترجم).

(٢) صنف شهير من التفاح (المترجم).

(٣) الكلمة مستعملة هنا بمعناها القديم، وسيميونوفتش تعني «ابن سيميون».

(٤) روائي فرنسي (١٨٠٤-١٨٥٧) له العديد من الروايات («أسرار باريس»، «أسرار الشعب»، «اليهودي المتشرد» الخ.. وتتألف الرواية الأخيرة من عشرة مجلدات) (الناشر).

(٥) اسم لعبة بورق اللعب.

(٦) اسم لعبة بورق اللعب.

ما حوله كأنه يقول ويشدو: «هاك، خذ أيها الإنسان! تمتع قبل أن يقبل الخريف». لكن صاحبنا لم يكن يتمتع، لأنه كان بعيداً كل البعد عن أن يكون شاعراً، فضلاً عن أن نفسه كانت في هذا الصباح تتذوق النعاس البارد بنهم شديد[١]، كشأنها دائماً عندما يعاني صاحبها الإحساس بالخسارة. خلف تريفون سيميونوفتش كان يسير أجيره المخلص كاربوشكا، وهو شيخ يناهز الستين، جائلاً ببصره فيما حوله. وكاربوشكا هذا يكاد يبز بفضائله تريفون سيميونوفتش ذاته. إنه ينظف الأحذية بشكل رائع، وبشكل أروع يشنق الكلاب الزائدة عن اللزوم، يسرق أي شيء ومن أي كان، ولا يشق له غبار في التجسس. وقد أطلقت عليه القرية بأجمعها، مقتدية بكاتب الديوان، لقب «أوبريتشنيك»[٢]. ولا يكاد يمر يوم لا يشتكي فيه الفلاحون والجيران إلى تريفون سيميونوفتش سوء أخلاق كاربوشكا وطباعه، بيد أن هذه الشكاوى كانت تذهب هباء لأن كاربوشكا لا يمكن الاستغناء عنه في ممتلكات تريفون سيميونوفتش. وكان هذا كلما خرج للنزهة يأخذ معه خادمه المخلص كارب: يحرسه ويسليه. فكاربوشكا يحمل في داخله نبعاً لا ينضب من القصص والأمثال والطرائف المتنوعة، ويتمتع بعدم القدرة على الصمت. إنه دائماً يروي شيئاً ما ولا يصمت إلاّ عندما يكون مصغياً إلى شيء ما شائق. في الصباح المذكور كان كاربوشكا يسير خلف سيده ويروي له قصة طويلة يخبره فيها كيف أن تلميذين يعتمران قبعتين بيضاوين ويحملان بندقيتي صيد مرا من قرب البستان وتوسلا إليه أن يسمح لهما بالدخول ليصطادا، وكيف

---

(١) عبارة: «كانت نفسه تتذوق النعاس البارد بنهم شديد» مقتبسة مع بعض التعديل من مقطوعة شعرية لبوشكين بعنوان «الشاعر» (الناشر).

(٢) أوبريتشنيك: أحد أفراد الأوبريتشنينا وهي فرقة من القوات الخاصة المؤلفة من النبلاء تشكلت في عهد إيفان الرهيب ووضعت تحت تصرف القيصر مباشرة لمحاربة المعارضة في أوساط الأمراء والأعيان. (المترجم).

أغرياه بنصف روبل، وكيف رفض هو بغضب نصف الروبل لأنه يعرف جيداً من يخدم، وكيف أطلق عليهما الكلبين كاشتان وسيرك. وبعد أن أنهى هذه القصة بدأ يصور بألوان فاقعة الأسلوب المستتكر لحياة الممرض الريفي، إلاّ أن التصوير لم يكتمل، فقد تناهى إلى سمع كاربوشكا من أيكة التفاح والكمثرى حفيف مريب. وما إن سمع كاربوشكا الحفيف حتى أمسك لسانه وأصاخ مرهفاً سمعه. وعندما تأكد أن ثمة حفيفاً بالفعل، وأنه حفيف مريب، شد سيده من طرف ردائه وانطلق كالسهم باتجاه مصدر الحفيف. انتفض تريفون سيميونوفتش وهرول بقدميه الهرمتين، ثم ما لبث أن ركض وراء كاربوكشا متوقعاً فضيحة ما. وكان هناك ما يستحق الركض فعلاً.

في طرف البستان وتحت شجرة تفاح قديمة متشعبة كانت تقف فتاة قروية تمضغ شيئاً ما، وبالقرب منها فتى عريض المنكبين، يزحف على ركبتيه ويجمع التفاح الذي أسقطته الريح على الأرض. كان يرمي التفاحات الفجة بين الشجيرات، ويقدم الناضجة بحب على راحته الرمادية العريضة إلى دولتسيناه[1]. ولم تكن دولتسينا على ما يبدو لتخاف على معدتها. فقد كانت تأكل التفاح دون توقف وبشهية عظيمة، أما الفتى فقد نسي نفسه تماماً وهو يزحف ويجمع، ولم يكن في ذهنه سوى دولتسينا وحدها:

كانت الصبية تحرضه هامسة:

- اقطف من الشجرة!

- أخاف.

- وممم تخاف؟ الأوبريتشنيك، أكيد، في الخمارة الآن...

اعتدل الفتى وقفز. قطف تفاحة من الشجرة وقدمها لفتاته. ولكن الفتى وفتاته، كآدم وحواء قديماً، لم يسعدا بهذه التفاحة. إذ ما كادت الفتاة تقضم

---

(١) دولتسينا: محبوبة دون كيشوت المتخيلة، والاسم هنا يستعمل بمنزلة علم جنس. (المترجم).

قطعة منها وتقدمها للفتى، وما كاد الاثنان يحسان بالحموضة اللاذعة على لسانيهما، حتى اعوج وجهاهما، ثم تطاولا وشحبا... لا لأن التفاحة كانت حامضة، بل لأنهما شاهدا أمامهما وجه تريفون سيميونوفتش الصارم وسحنة كاربوشكا القبيحة وقد ارتسمت عليها ابتسامة شامتة.

- مرحبا أيها العزيزان – قال تريفون سيميونوفتش وهو يقترب منهما – ماذا؟ هل تأكلان تفاحاً؟ عسى ألا أكون قد أزعجتكما؟

نزع الفتى قبعته ونكس رأسه، وجعلت الفتاة تحدق إلى مئزرها.

- كيف صحتك يا غريغوري؟ - سأل تريفون سيميونوفتش الشاب – كيف الدنيا معك يا فتى؟

- واحدة فقط – غمغم الشاب – ومن الأرض...

- وأنت يا دوسيا، كيف صحتك؟ - سأل تريفون سيميونوفتش الفتاة.

انهمكت الصبية في التحديق إلى مئزرها بإمعان أشد.

- ألم تقيما عرسكما بعد؟

- ليس بعد... نحن، يا سيدي، والله لم نأخذ سوى واحدة فقط، ثم إننا... هكذا يعني...

- طيب، طيب، شاطر. هل تستطيع القراءة؟

- لا... أقسم بالله، يا سيدي إننا... فقط تفاحة واحدة، ثم إنها من الأرض.

- لا تستطيع القراءة ولكن تستطيع السرقة. ومع ذلك الحمد لله، فأنت لا تحمل عبء المعرفة على كاهلك. هل بدأت السرقة منذ وقت طويل؟

- وهل أنا كنت أسرق؟

- وخطيبتك الحلوة - سأله كاربوشكا – ما لها استغرقت في التفكير ببؤس هكذا؟ ربما لا تحبها كما يجب؟

- اسكت يا كارب – قال تريفون سيميونوفتش – هيا يا غريغوري، احك لنا حكاية...

سعل غريغوري وابتسم، ثم قال:

- أنا يا سيدي لا أعرف حكايات، ثم هل تظنون أنني بحاجة إلى تفاحاتكم أم ماذا؟ عندما أريد أستطيع أن أشتري.

- يسرني جداً، يا عزيزي، أن لديك الكثير من النقود. هيا احك لنا حكاية، أية حكاية. سأستمع أنا، وكارب سيستمع، وخطيبتك الحسناء ستستمع أيضاً. لا ترتبك، كن أكثر جرأة! النفس السراقة يجب أن تكون جريئة. أليس هذا صحيحاً يا صديقي؟

صوّب تريفون سيميونوفتش عينيه الخبيثتين إلى الفتى المتلبس... فتفصد جبين الفتى عرقاً.

وجلجل كاربوشكا بصوته التينور الكريه:

- الأحسن يا سيدي، أن ترغموه على أن يغني أغنية، فمن أين لهذا الغبي أن يحكي حكايات؟

- اسكت يا كارب. ليحك حكاية أولاً، هيا، احك يا عزيزي.

- لا أعرف.

- أحقاً لا تعرف؟ وهل تعرف كيف تسرق؟ ماذا تقول الوصية الثامنة؟

- لماذا تسألونني كل هذه الأسئلة؟ ومن أين لي أن أعرف؟ أقسم بالله يا سيدي أننا لم نأكل سوى تفاحة واحدة، ثم إنها من الأرض...

- احك حكاية!

شرع كاربوشكا يقطع أغصان قرّاص. وكان الفتى يعرف تمام المعرفة لأي غرض يُعدّ هذا القراص. فتريفون سيميونوفتش، مثله مثل أمثاله، يستبد بجمال. فهو إما أن يحبس اللص في القبو يوماً كاملاً، أو يجلده بالقراص، أو أنه يخلي سبيله ولكن بعد أن يجرده تماماً من ملابسه... هل هذا جديد عليكم؟ إنه لدى بعض الناس وفي بعض الأمكنة مألوف وقديم كالعربة. نظر

غريغوري بطرف عينه إلى القراص، وبدا عليه الارتباك ثم ما لبث أن سعل وبدأ... لا بقص حكاية بل بخبص حكاية. بدأ يروي، وهو يزحر ويعرق ويسعل ولا يني ينف، كيف جلد الجبابرة الروس في قديم الزمان رصّاد الكنوز السحرة، وتزوجوا الحسناوات. كان تريفون سيميونوفتش واقفاً يسمع من دون أن يحول بصره عن الراوي. وعندما أصبح حديث الفتى في النهاية محض خلط ولغو قال له:

- كفى! إنك تقص بشكل جيد، ولكنك تسرق بشكل أجود.

ثم التفت إلى الفتاة قائلا:

- هيا يا حسناء، اتلي أنت «أبانا الذي...»!

احمر وجه الحسناء وتلت بصوت لا يكاد يسمع وهي تتنفس بصعوبة «أبانا الذي...»

- طيب، وكيف تتلى الوصية الثامنة؟

أجاب الفتى وهو ينفض يده بيأس:

- ماذا، هل تظنون أننا أخذنا كثيراً؟ أقسم لكم بالصليب إذا كنتم لا تصدقون!..

- سيء يا عزيزَيّ أنكما لا تعرفان الوصايا... ينبغي تعليمكما. أهو الذي علمك السرقة يا حلوة؟ لماذا أنت صامتة يا ملاكي؟ يجب أن تجيبي. هيا تكلمي! تسكتين؟ السكوت دليل الموافقة. هيا إذن يا حسناء اضربي فتاك الوسيم لأنه علمك السرقة!

- لن أفعل – قالت الفتاة هامسة.

- اضربيه قليلاً. الأغبياء يجب تعليمهم. اضربيه يا عزيزتي دوسيا. ألا تريدين؟ إذن سآمر كارب ومتّى أن يداعباك بالقرّاص قليلاً... ألا تريدين؟

- لن أفعل.

- كارب، تعال هنا.

اندفعت الفتاة كالسهم نحو الفتى ولطمته على خده.

ابتسم الفتى بغباء شديد وبكى.

- مرحى يا حلوة! والآن، هيا من شعره أيضاً! دونك إياه يا عزيزتي دوسيا. لا تريدين؟ كارب، تعال إلى هنا!

أمسكت الفتاة بشعر خطيبها.

- لا تتمسكي به، فهذا يوجعه أكثر! جريه منه.

أخذت الفتاة تشد، وطار عقل كاربوشكا ابتهاجاً وجعل يقهقه ويجلجل.

قال تريفون سيميونوفتش:

- كفى، شكراً لك يا دوسيا لأنك عاقبت الشر.

ثم توجه إلى الفتى قائلاً:

- هيا، علّم فتاتك. هي علمتك، والآن علّمها أنت...

- إنكم تتخيلون، أيها السيد، أقسم بالله. لماذا أضربها؟

- كيف لماذا؟ ألم تضربك هي؟ اضربها أنت بالمقابل! هذا سيعود عليها بالفائدة. ألا تريد؟ عبثاً! كارب، نادِ متىّ!

بصق الفتى، وزحر، وقبض على ضفيرة خطيبته بجمع كفه وبدأ بمعاقبة الشر. وفي غمرة معاقبته الشر دخل في حالة من الوجد من غير وعي منه، وانجذب ونسي أنه لا يضرب تريفون سيميونوفتش بل يضرب خطيبته هو. أخذت الفتاة تصرخ، واستمر هو في ضربها طويلاً، ولا أدري كيف كانت ستنتهي هذه القصة لو لم تقفز من خلف الشجيرات ابنة تريفون سيميونوفتش ساشينكا وهي تصيح:

- بابا، تعال اشرب الشاي.

وعندما شاهدت البنت نزوة أبيها أخذت تقهقه بصوت رنان. قال تريفون سيميونوفتش:

- كفى! يمكنكما الانصراف الآن يا عزيزيّ. وداعاً! سأرسل لكما تفاحاً في عرسكما.

وانحنى تريفون سيميونوفتش للمعاقَبَيْن انحناءة خفيفة.

أصلح الفتى والفتاة من هندامهما وانطلقا، هو إلى اليمين، وهي إلى اليسار. ولم يتقابلا بعد ذلك حتى اليوم. ولو لم تظهر ساشينكا آنذاك لكان من الجائز أن يبتلي الفتى والفتاة بتجريب القرّاص... هكذا يسلي تريفون سيميونوفتش نفسه في شيخوخته. وأسرته أيضاً لم تبتعد عنه كثيراً في هذا... فقد اعتادت بناته أن يخطن بقبعات الضيوف «ذوي الرتب الدنيا» بصلا، وأن يكتبن بالطباشير بحروف كبيرة على ظهور الضيوف السكارى من الرتب نفسها «حيمار»[١] و«غبي». أما ابنه الملازم الثاني المتقاعد ميتيا فقد تفوق مرة في الشتاء على أبيه نفسه عندما طلى، بالاشتراك مع كاربوشكا، بوابة أحد الجنود المتقاعدين بالقطران لأن الجندي رفض أن يهدي إليه جرو ذئب، ولأنه يحصّن بناته ضد إغراء كعك وسكاكر السيد الملازم الثاني المتقاعد.

تفضل سمّ تريفون سيميونوفتش بعد هذا تريفون سيميونوفتش!

آب ١٨٨٠

(١) الكلمة الروسية فيها خطأ إملائي مشابه (المترجم).

في المقطورة

قطار البريد رقم كذا يعدو بأقصى سرعته من محطة «تراخ – تاراراخ المرح» إلى محطة «فلينج بنفسه من يستطيع»! القاطرة تصفر وتئز وتفح وتنفخ... والمقطورات ترتج، وعجلاتها غير المشحمة تعوي عواء الذئاب وتنعق كالبوم! في السماء وفي الأرض وفي المقطورات يسود الظلام... والمقطورات التي ترتعش من الشيخوخة تقرقع قائلة: «شيء ما سيحدث، شيء ما سيحدث». وترد القاطرة «أو هو هو - هو هو - أو - أو!» وفي القطار يتجول النشالون وتيارات الهواء. شيء مخيف... أمد رأسي من النافذة وأنظر بلا هدف إلى المدى اللانهائي. كل الأضواء خضراء: إذن يمكن الافتراض أن الفضيحة لا تزال بعيدة. القرص وأضواء المحطة لم يظهرا بعد... ظلمة، ووحشة، وتفكير في الموت، وذكريات الطفولة... يا الهي!

أهمس: - آثم، يا لي من آثم!

شخص ما يدس يده في جيبي الخلفي. في جيبي لا يوجد شيء، ولكن مع ذلك فالأمر فظيع... ألتفتُ. أمامي شخص لا أعرفه يعتمر قبعة من القش ويرتدي سترة رمادية دكناء. أسأله وأنا أتحسس جيوبي:

- ماذا تريد؟

يجيب وهو يسحب يده بسرعة ويلقي بها على ظهري:

- لا شيء! إنني أنظر من النافذة!

يعلو صفير حاد تشوبه بحة، ويتباطأ القطار في سيره شيئاً فشيئاً إلى أن يتوقف تماماً. أخرج من المقطورة وأتجه نحو البوفيه لأشرب ما يبعث فيّ

الجرأة. عند البوفيه يزدحم الجمهور وطاقم القطار. يقول كبير المراقبين الوقور لسيد بدين:

- هـــ.. م... فودكا ولكن ليست مُرّة!

السيد البدين يريد أن يقول شيئاً ولكنه لا يستطيع، فقد اعترضت في حلقه شطيرة عمرها سنة.

أحدهم يصيح من على الرصيف: يا دركي!! يا دركي!! بصوت كالذي كانت تصيح به في زمنٍ ما قبل الطوفان الماستودونتات، والهيكصورات، والبليصورات[1]... أذهب لأستطلع الأمر... أمام إحدى مقطورات الدرجة الأولى يقف سيد يعتمر قبعة عليها شعار رسمي ويلفت نظر الجمهور إلى قدميه. فبينما كان هذا المسكين نائماً شلّحوه حذاءه وجوربيه. إنه لا ينفك يصرخ: - بم سأسافر الآن؟ علي أن أصل إلى ريفيل! يجب أن تنظروا في الأمر!

أمامه يقف دركي يؤكد له أن «الصراخ هنا لا داعي له»... أذهبُ إلى مقطورتي رقم ٢٢٤. هنا لا يزال كل شيء كما كان: ظلام، وشخير، ورائحة تبغ وفودكا رديئة، الجو عابق بالروح الروسية. قربي يشخر محقق قضائي أحمر الشعر مسافر إلى كييف من ريزان... وعلى بعد خطوتين أو ثلاث من المحقق تهوّم حسناء... وثمة فلاح يعتمر قبعة قش، أنفاسه تصفر وتفح وهو يتقلب على كل الجوانب ولا يعرف أين يضع رجليه الطويلتين... وفي الزاوية يأكل أحدهم ويتمطق بصوت عالٍ.. وتحت المقاعد ينام الشعب نوم الجبابرة. الباب يصر وتدخل عجوزان متغضنتان تحمل كل منهما صرة على ظهرها... تقول إحداهما:

- لنجلس يا ستي، هنا! أية عتمة هذه! محنة حقيقية!.. لعلّي لم أدس على أحد... ولكن أين باخوم؟

---

(١) حيوانات ضخمة بائدة.

تحوم العجوز، وتفتح النافذة وتروح تتفحص الرصيف، ثم تصيح بصوت متهدج:

- باخوووم! أين أنت؟ باخوم! نحن ها هنا.

يصرخ شخص ما من خلف النافذة:

- أنا في مصيبة! لا يسمحون لي بالصعود إلى القطار!

- لا يسمحون؟ من هذا الذي لا يسمح؟ لا ترد عليه! لا يستطيع أحد أن لا يسمح لك إذا كانت لديك تذكرة أصلية.

- لقد أوقفوا بيع التذاكر! أغلقوا شباك البيع!

أحدهم يقود حصاناً على الرصيف. تعلو أصوات حوافر ونخير.

يصيح دركي:

- ارجع إلى الوراء! إلى أين تتسلل؟ ما هذه العربدة؟

يئن باخوم منادياً:

- بيتروفنا!

تلقي بيتروفنا الصرة عن ظهرها، وتحمل بيدها إبريق شاي كبير من الصفيح، وتخرج من المقطورة راكضة. يرن الجرس الثاني. يدخل مراقب ضئيل ذو شارب أسود ويخاطب الشيخ الجالس قبالتي:

- لو تقطعون تذكرة! فالمفتش هنا!

- حقاً؟ هـــ.. م.. هذا سيء، من؟ الأمير؟

- ماذا!!. الأمير لا يمكن سوقه إلى هنا ولا بالعصا...

- إذن من؟ صاحب اللحية؟

- نعم، صاحب اللحية.

- إيه، إذا كان هذا، فلا بأس. إنه شخص طيب.

- كما تريدون.

- هل «الأرانب»[١] كثر؟

- نحو الأربعين نفساً.

- لا؟! شطار! يا لهم من تجار!

قلبي ينقبض. فأنا أيضاً أسافر أرنباً. أنا دائماً أسافر أرنباً. في مصلحة السكك الحديدية يطلقون صفة الأرانب على السادة الركاب الذين يُتعبون بصرف النقود لا قاطعي التذاكر بل المراقبين. أمر جيد أيها القارئ أن تسافر أرنباً، فالأرانب يُمنحون، حسب التعرفة التي لم تسجل بعد في أي مكان، حسماً قدره ٧٥%، ولا حاجة بهم إلى التزاحم أمام كوة التذاكر وإبراز التذكرة من الجيب كل دقيقة، والمراقبون يعاملونهم باحترام أكبر و... كل ما تريدون، بكلمة واحدة!

يتمتم الشيخ:

- في حياتي كلها لم أدفع أي شيء على الإطلاق؟ أبداً بتاتاً. إنني أدفع للمراقب فقط. فنقود المراقب أقل من نقود بولياكوف[٢].

يرن الجرس مرة ثالثة. تقول العجوز بقلق:

- آه، يا أمهاتي! أين هي بيتروفنا؟ إنه الجرس الثالث! عقاب ربّاني... لقد تخلفت! تخلفت المسكينة... وأمتعتها هنا... ماذا أفعل بهذه الأمتعة، بهذه الصرة؟ آه يا إخوتي لقد تخلفت!

تفكر العجوز دقيقة ثم تقول:

- فلتتخلف مع أمتعتها.

---

(١) في روسيا يسمون الراكب الذي يسافر في واسطة نقل عامة دون أن يحصل على تذكرة أرنبا (المترجم).

(٢) من أكبر ملوك السكك الحديدية آنذاك. (الناشر).

وتلقي بصرة بيتروفنا من النافذة.

ننطلق باتجاه محطة خالدييفو التي يسميها الدليل «فروم – القبر الجماعي».

يدخل المفتش وكبير المراقبين حاملاً شمعة. يصيح كبير المراقبين:

- التذاكر!

ويتوجه المفتش إلي وإلى الشيخ قائلاً:

- تذكرتيكما!

ننكمش، ننكور، نخبئ أيدينا، وتتشبث عيوننا بوجه كبير المراقبين المشجع. يقول المفتش لمرافقه وهو يبتعد:

- استلم منهما.

لقد نجونا. يلكز كبير المراقبين شاباً نائماً وهو يقول:

- تذكرتك! أنت! تذكرتك!

يستيقظ الشاب ويخرج من قبعته تذكرة صفراء.

يسأله المفتش وهو يقلب التذكرة بين أصابعه:

- إلى أين أنت ذاهب؟ إنك ذاهب إلى مكان آخر.

يقول كبير المراقبين:

- إنك يا بلوط مسافر باتجاه آخر! لقد صعدت إلى قطار غير قطارك أيها الذكي! أنت تريد السفر إلى جيفو ديروفو ونحن ذاهبون إلى خالدييفو. خذ ذ ذا! لا ينبغي أن يكون الإنسان غبياً أبداً!

يطرف الشاب بعينيه بشدة، وينظر ببلادة إلى الجمهور المبتسم، ويشرع في مسح عينيه بكمه. ينصحه الناس قائلين:

- لا تبك! الأحسن أن تسأل! لوح طويل عريض وتبكي! وربما متزوج ولك أولاد.

يتوجه كبير المراقبين إلى حصّاد يعتمر قبعة أسطوانية:

- تذكرتك!

- ها؟

- تذكرتك! تحرك!

- التذكرة؟ أهي لازمة؟

- التذكرة!!!

- نفهم... لماذا لا نقدمها إذا كانت لازمة؟ سنقدمها!

يمد الحصاد ذو القبعة الأسطوانية يده إلى عبه ويسحب من هناك بسرعةِ شبرين ونصف في الساعة ورقة ملوثة بالزيت يقدمها للمفتش.

- ماذا تعطيني؟ هذه هوية! أعطني التذكرة!

- ليس لدي تذكرة غير هذه!

يقول الحصاد الذي بدا عليه الاضطراب.

- كيف تسافر إذن إذا كنت لم تحصل على تذكرة.

- ولكني دفعت.

- لمن دفعت؟ لماذا تكذب؟

- للمُراكب!

- لأي مراقب؟

- الشيطان يعرف لأيّهم! للمُراكب وانتهى.. قال لي لا تأخذ تذكرة، فإننا سنأخذك هكذا، وأنا لم آخذ...

- ونحن سنتحدث معك في المحطة! مدام، تذكرتك!

يصر الباب ويفتح، ولدهشتنا جميعاً تدخل بيتروفنا.

- بعد جهد جهيد، يا ستي، وجدت مقطورتي.. كيف يفرقون بينها، كلها متشابهة... إن باخوم لم يسمحوا ولن يسمحوا له... الأفاعي... أين صرتي؟

- هـــ... م.. محنة.. لقد رميتها لك من النافذة! ظننت أنك تخلفت.

- إلى أين رميتها؟

- من النافذة... من كان يعرف أين أنت؟

- شكراً... من طلب منك هذا؟ يا لك من عجوز شريرة. اغفر لي يا رب! ماذا أفعل الآن؟ صرتك لَمْ ترميها.. أيتها الرذيلة.. كان من الأحسن لو رميت سحنتك! آ.. آ.. آ.. بليت بالعمى.

الجمهور الضاحك ينصحها: - يجب أن ترسلي برقية في المحطة القادمة!

تشرع بيتروفنا بالصراخ والسباب البذيء وصديقتها تتمسك بصرتها وتبكي هي الأخرى. يدخل مراقب ويصيح وهو يحمل بيده أمتعة بيتروفنا:

- لمن هذه الأمتعـــ ـــ ـــاة؟

يهمس لي الشيخ الذي يجلس قبالتي[١] وهو يشير برأسه إلى الحسناء:

- حلوة! ه، م م م – حلـــ لـــ لـــ و ة... يا للشيطان، لا يوجد كلوروفورم، وإلاّ لكنت جعلتها تشمه... ثم قَبِّل بكل ما أوتيت من عزم! نعمة أن الجميع نائمون!..

تتقلّب قبعة القش وتعبر بصوت عالٍ عن غضبها على قدميها العاصيتين، وتدمدم: - العلماء... العلماء... أكيد لن نستطيع مخالفة طبيعة الأشياء والموجودات! العلماء... هـــ م... أكيد لن يصنعوا ما يجعل بالإمكان فك القدمين وتركيبهما حسب الإرادة.

ويهذي جاري المحقق متمتماً:

- أنا لا دخل لي في هذا.. اسألوا الزميل المدعي العام!

في الزاوية القصوى تلميذان، وصف ضابط، وشاب يضع نظارة زرقاء منهمكون في اللعب بالورق على ضوء سكائرهم الأربع.

---

(١) بالفرنسية في الأصل Vis - à - Vis.

إلى يميني تجلس شابة طويلة القامة من صنف «مفهوم ضمناً» تفوح منها روائح البودرة وعطر البتشول.

يهمس أحد الديكة فوق أذنها: - آه ما أجمل هذا الطريق! لا يوجد تقارب أسرع وألذ من التقارب الذي يحدث في الطريق! أحبك يا هذا الطريق.

يهمس هذا بلهجة معسولة حتى... حتى القرف ناطقاً حروف الجيم والنون والراء على نحو متفرنس.

قبلة.. وأخرى.. والشيطان يعرف ماذا!

تستيقظ الحسناء، تلف الجمهور بنظرها و... تضع رأسها عن غير وعي على كتف جارها الكاهن في معبد ثيمس[1]، بينما هو، الغبي، نائم!!

يتوقف القطار في محطة فرعية.

يدمدم صوتُ باس أبح متهدج خارج المقطورة:

- القطار سيتوقف دقيقتين.

تمر دقيقتان، ثم دقيقتان.. ثم خمس وعشر وعشرون دقيقة والقطار لا يزال واقفاً. ما هذه اللعنة؟ أخرج من المقطورة وأتوجه نحو القاطرة.

كبير المراقبين يصيح متوجهاً إلى شخص ما تحت القاطرة:

- ايفان ماتفييتش! ألم تنته بعد؟ يا للشيطان!

يخرج السائق من تحت القاطرة زحفاً على بطنه وهو محمر الوجه ومبتل وعلى أنفه قطعة سخام. يقول لكبير المراقبين:

- هل لك رب أم لا؟ هل أنت إنسان أم لا؟ لماذا تستعجلني؟ ألا ترى؟ آ آ آ... بليتم بالعمى جميعاً! ثم هل هذه قاطرة؟ هذه ليست قاطرة، بل خرقة بالية! لا أقدر على القيادة فيها.

- وما العمل؟

---

(١) ثيمس: ربة العدالة في الميثولوجيا اليونانية القديمة.

- اعمل ما تريد! هات غيرها. أما هذه فلن أسافر فيها! يجب أن تقدر وضعي...

معاونو السائق يتراكضون حول القاطرة العاطلة يدقدقون ويصرخون... ومدير المحطة يقف بسدارته الحمراء على مقربة، يروي لمساعده نكاتاً من حياة اليهود الحافلة بالمضحكات... يهطل المطر، أتوجه نحو المقطورة، يمر بي مسرعاً الشخص المجهول ذو القبعة القشية والسترة الرمادية الدكناء... يحمل بيده حقيبة. يا الهي... إنها حقيبتي!

أيلــول ١٨٨١

اعتراف
أو
أوليا، جينيا، زويا
- رسالة -

إنك يا عزيزتي[1]، يا صديقتي الغالية التي لا تفارق الذاكرة، تسألينني، عرضاً، في رسالتك اللطيفة لماذا لم أتزوج حتى الآن، على الرغم من أنني بلغت التاسعة والثلاثين؟

عزيزتي! إنني أحب الحياة العائلية من كل قلبي، وليس من سبب لعدم زواجي سوى أن القدر الخبيث لم يشأ لي أن أتزوج. عزمت على الزواج نحو خمس عشرة مرة، ولكنني لم أتزوج لأن كل ما في هذا العالم، وحياتي على وجه الخصوص، يخضع للمصادفة، كل شيء يتوقف عليها! المصادفة – طاغية. وها أنا أورد لك بعض المصادفات التي لا أزال بفضلها أعيش حياتي في هذه الوحدة الزرية..

المصادفة الأولى

كان صباحاً حزيرانياً رائعاً. السماء صافية كأصفى لازورد برليني. والشمس تلعب في النهر وتتزلق بأشعتها على العشب الندي. والنهر والخضرة كما لو أنهما قد رصعا بألماس نفيس. والطيور تشدو كما لو كانت تقرأ في

---

(١) بالفرنسية في الأصل ma Chère.

نوتات... كنا نتمشى في ممر مشجر مفروش برمل أصفر، ونعب ملء صدرينا السعيدين أريج الصباح الحزيراني. وكانت الأشجار ترنو إلينا بمودة عميقة، وتهمس لنا بشيء ما لا بد أنه مفعم بالطيبة والحنان... كانت يد أوليا غروزدوفسكايا (وهي الآن زوجة ابن مدير الشرطة عندكم) تستريح على يدي، وخنصرها الصغير يرتعش فوق إبهامي. وكان خداها يلتهبان، أما عيناها... أوه يا عزيزتي، يا لتينك العينين البديعتين! أية عذوبة وصدق وبراءة ومرح وسذاجة طفولية كانت تتلألأ في تينك العينين الزرقاوين! كنت أتملى جدائلها الشقر والآثار الصغيرة التي كانت قدماها الصغيرتان تخلفانها على الرمل...

همستُ وأنا خائف أن ينزلق خنصرها عن إبهامي:

- لقد نذرت حياتي، يا أولغا ماكسيموفنا، للعلم. في المستقبل ينتظرني كرسي أستاذ جامعي.. وفي ذمتي مسائل... علمية... الحياة العملية المفعمة بالهموم السامية الـــ... إنني، يا أولغا ماكسيموفنا، إنسان شريف، أنا لست غنياً، ولكن... أنا بحاجة إلى صديقة يكون حضورها (ارتبكت أوليا وأرخت بصرها وارتعش خنصرها) يكون حضورها... أوليا! انظري إلى السماء! إنها صافية... وكذلك حياتي أنا صافية ولا نهائية...

لم يكد لساني يتخلص من هذا الهراء حتى رفعت أوليا رأسها ونترت يدها من فوق يدي وصفقت بكفيها. كان ثمة إوزات تسير مع فراخها باتجاهنا. ركضت أوليا نحو الوزات ومدت يدها باتجاهها وهي تطلق ضحكة رنانة... أوه يا لتينك اليدين، يا عزيزتي!

- تر... تر... تر...

ترترت الوزات وهي ترفع أعناقها وتنظر إلى أوليا شزراً.

- وز، وز، وز!

صاحت أوليا ومدت يدها نحو أحد الفراخ.

كان نكاء الفرخ يفوق عمره. فقد فر من يد أوليا نحو أبيه، وهو ذكر وز كبير وغبي، واشتكى إليه على ما يبدو. ففرد ذكر الوز جناحيه. ومدت أوليا العفريتة يدها نحو فرخ آخر. وهنا حدث شيء فظيع. أرخى ذكر الوز رقبته نحو الأرض وخطا نحو أوليا مهدداً وهو يفح كالثعبان. زعقت أوليا وتراجعت راكضة فركض ذكر الوز خلفها. التفتت أوليا وزعقت بصوت أعلى وامتقع وجهها. تشوه محياها الفتي الجميل بالفزع واليأس، وكأن ثلاثمئة شيطان يطاردونها.

هرعتُ لنجدتها وضربت ذكر الوز على رأسه بعصاي، بيد أن ذكر الوز الوغد أفلح مع ذلك في نقرها من طرف ثوبها. ارتمت أوليا على صدري وقد اتسعت عيناها وتشوهت قسماتها وسرت الرعدة في جسمها كله.

قلت: - يا لك من جبانة.

قالت: - اضرب الوزة.

وشرعت في البكاء. لا أقول كم من السذاجة، ولا من الطفولة، بل كم من البلاهة كان في هذا الوجه المذعور! إنني يا عزيزتي لا أطيق الجبن! لا أستطيع أن أتصور نفسي زوجاً لامرأة جبانة رعديدة.

أفسد ذكر الوز الأمر كله... وبعد أن هدّأتُ أوليا، ذهبت إلى البيت وقد انحفر في رأسي ذلك الوجه الجبان حتى البلاهة... فقدت أوليا كل فتنتها في عيني. وعدلت عنها.

المصادفة الثانية

تعرفين طبعاً يا صديقتي أنني كاتب. لقد أشعلت الآلهة في صدري النار المقدسة، وبت أعتقد أن ليس لي الحق في ألاّ أعكف على الكتابة. إنني كاهن أبولو.. وقد نذرت كل نبضة من نبضات قلبي، وكل تنهداتي، وباختصار نذرت ذاتي كلها لمذبح عرائس الفن. إنني أكتب وأكتب وأكتب... وأموت إذا انتزعوا القلم من يدي. إنك تضحكين، لا تصدقين... وأقسم لك أن الأمر هكذا.

ولكنك تعرفين طبعاً يا عزيزتي أن الكرة الأرضية مكان سيء للفن. الأرض كبيرة وخيراتها وافرة ولكن لا مكان فيها للكاتب. الكاتب، أبداً، يتيم، طريد، كبش فداء، طفل لا حامي له... إنني أقسم البشرية قسمين: الكتّاب والحسّاد. أولئك يكتبون، وهؤلاء يموتون حسداً، ويدبرون لأولئك شتى المكائد. لقد هلكت، وأَهْلكُ، وسوف أهلك من الحساد. لقد أفسدوا علي حياتي. استولوا على مقاليد الأمور في مضمار الكتابة، وراحوا يسمون أنفسهم رؤساء تحرير وناشرين، ويفعلون كل ما بوسعهم لإغراق أَخَوِيّتنا. عليهم اللعنة!! اسمعي...

في وقت ما كنت أتودد إلى جينيا بشيكوفا. إنك بالطبع تذكرين تلك الطفلة السوداء الشعر، الحلوة، الحالمة... إنها الآن زوجة جاركم كارل ايفانوفتش فانتسيه (بالمناسبة[1]: فانتسيه بالألمانية تعني بقة، لا تقولي هذا لجينيا لئلا تزعل). كانت جينيا تحب فيّ الكاتب. وكانت مثلي تؤمن إيماناً عميقاً برسالتي. كانت تعيش بآمالي، ولكنها كانت بنتاً صغيرة! لم يكن باستطاعتها بعد أن تفهم تقسيم البشرية قسمين كما ذكرت. لم تكن تؤمن بهذا التقسيم! لم تكن تؤمن، وذات يوم رائع... قضي علينا.

كنت أعيش عند عائلة بشيكوف في دارتهم الصيفية. وكانوا يعتبروننا خطيباً وخطيبة. أنا كنت أكتب وهي تقرأ. وأي ناقد كانت، يا عزيزتي! كانت منصفة كاريستيدس[2]، وصارمة ككاتون[3]. وكنت أهدي مؤلفاتي إليها... أعجبت جينيا بأحد هذه المؤلفات أيما إعجاب، وأرادت أن تراه مطبوعاً، فأرسلتُه إلى إحدى المجلات الفكاهية، أرسلتُه في الأول من تموز وتوقعتُ الرد بعد أسبوعين. حل الخامس عشر من تموز. وتسلمت أنا وجينيا العدد

---

(١) بالفرنسية في الأصل (à Propos) (الناشر).

(٢) اريستيدس (٥٤٠-٤٦٧ ق.م) قائد عسكري ورجل دولة اثيني. لقّب بالصديق لنزاهته. يضرب به المثل في الإنصاف. (الناشر).

(٣) كاتون الأكبر (٢٣٤-١٤٩ ق.م) رجل دولة روماني كان يدافع بقوة عن نقاء الأخلاق والتقشف. يضرب به المثل في الصرامة. (الناشر).

المرتقب. فتحناه على عجل وقرأنا الرد في بريد المجلة. احمرت هي وشحبت أنا. فقد كتبوا لي هناك: «قرية شليندوفو. السيد م. ب. ليس لديك ذرة من الموهبة. الشيطان وحده يعرف بم تهرف! لا تبدد الطوابع سدى، ولا تقلق راحتنا. اشتغل بأي شيء آخر».

غباء، طبعاً... من الواضح الآن أن الذين كتبوا هذا أغبياء.

- م م م م م.....

غمغمت جينيا.

يا للأو – غا – دا!!! – دمدمت أنا – كيف هذا؟ وأنتِ يا يفغينيا ماركوفنا، هل ستضحكين بعد الآن من تقسيمي؟

فكرت جينيا، وتثاءبت، ثم قالت:

- وماذا؟ ربما كان حقاً بالفعل أنه ليس لديك موهبة! فهم يعرفون هذا أحسن. في العام الماضي قضى فيودور فيدوسييفتش الصيف بطوله معي في صيد السمك. أما أنت فما تنفك تكتب وتكتب... شيء ممل جداً!

كيف؟! وهذا بعد سهر الليالي معاً في الكتابة والقراءة! وبعد التضحية المشتركة لعرائس الفن... آ؟

فتر اهتمام جينيا بكتابتي، وبالتالي بي شخصياً. وافترقنا. لم يكن بالإمكان غير ذلك...

المصادفة الثالثة

أنت تعرفين بالطبع، يا صديقتي التي لا تفارق الذاكرة، أنني أحب الموسيقى حباً مخيفاً، الموسيقى هي هيامي ودنياي... أسماء موزارت وبيتهوفن وشوبان ومندلسون وغونو لَيْست أسماء بشر بل أسماء عمالقة! إنني أحب الموسيقى الكلاسيكية وأستنكر الأوبريت كما أستنكر الفوديفيل. وأنا من أكثر المشاهدين مواظبة على حضور الأوبرا. خوخلوف، كوتشيتوفا، بارتسال، أوساتوف

كورسوف[1]... أناس مدهشون! وما أشد أسفي لأنني لست من معارفهم. فلو كنت أعرفهم شخصياً لسفحت أمامهم نفسي شكراً وعرفاناً. في الشتاء الماضي كثر ترددي على الأوبرا، لم أكن أذهب وحدي بل مع عائلة بيبسينوف. من المؤسف أنك لست من معارف هذه الأسرة اللطيفة. في كل شتاء يحجز آل بيبسينوف مقصورة لهم في المسرح. وهم مولعون بالموسيقى ولعاً يملك عليهم أنفسهم. وزينة هذه الأسرة اللطيفة زويا ابنة العقيد بيبسينوف. أية فتاة هي، يا عزيزتي! شفتاها الورديتان وحدهما كفيلتان بسلب إنسان مثلي عقله! ممشوقة، جميلة، ذكية... أحببتها حباً مستعراً، مشبوباً، فظيعاً! دمي كان يغلي عندما أجلس بجانبها. إنك، يا عزيزتي[2]، تبتسمين، ابتسمي! فأنت لا تعرفين ما هو حب الكاتب، إنه غريب عنك. حب الكاتب هو إتنا وفيزوف[3] معاً. وزويا أحبتني أيضاً. كانت عيناها دائماً تستريحان على عيني اللتين كانتا مشدودتين إلى عينيها باستمرار. كنا سعيدين، ولم يكن بيننا وبين الزواج سوى خطوة واحدة. ولكن قضي علينا...

كانوا يعرضون «فاوست». و«فاوست» يا عزيزتي ألفها غونو، وغونو من أعظم الموسيقيين. في الطريق إلى المسرح قررت أن أصارح زويا بحبي خلال الفصل الأول الذي لا أفهمه. عبثاً ألّف غونو العظيم هذا الفصل!

بدأ العرض، وانفردت بزويا في البهو. كانت تجلس بجانبي وتعبث آلياً بمروحتها وهي ترتعش من الترقب والسعادة، إنها تحت أضواء المساء، يا عزيزتي[4]، رائعة... رائعة جداً.

شرعت في الاعتراف بحبي:

---

(١) أسماء مغنين أوبراليين مشهورين. (الناشر).

(٢) بالفرنسية في الأصل.

(٣) البركانان المشهوران.

(٤) بالفرنسية في الأصل.

- الافتتاحية، يا زويا يغوروفنا، قد دعتني إلى بعض التأملات.. كم من الأحاسيس، وكم... تصغين وتتوقين... تتوقين إلى شيء ما وتصغين...

فُقتُ ثم أردفت: - شيء ما خاص... تتوقين إلى شيء خارق... الحب؟ الوجد؟ نعم، لابد أنه.. الحب (فقت) نعم. الحب...

ابتسمت زويا وارتبكت، وأخذت تهز مروحتها بشدة. وفقت أنا. إنني لا أطيق الفُواق.

- زويا يغوروفنا! تكلمي، أتوسل إليك! هل عانيت هذا الشعور؟

(فُقتُ) زويا يغوروفنا! إنني أنتظر الجواب.

- أنا... أنا... لا أفهمك.

- لقد دهمني الفواق... إنني أتحدث عن ذلك الشعور الغامر الذي... الشيطان يعرف ما هذا!

- هلاّ شربت ماء!

فكرت: «سأصارحها، وبعد ذلك سأذهب إلى البوفيه». ثم تابعت: - سأتكلم باختصار، زويا يغوروفنا، أنت قد لاحظت بالطبع....

فُقت، ومن غيظي من الفواق عضضت على لساني.

- لاحظتِ بالطبع (فقت)... إنك تعرفينني منذ عام تقريباً.. هـــ م.. أنا إنسان شريف، يا زويا يغوروفنا! أنا كادح! لست غنياً، هذا صحيح، ولكن...

وهنا فُقت وقفزت من مكاني. نصحتني زويا قائلة:

- هلاّ شربت ماء!

خطوت بضع خطوات قرب المقعد، ودسست أصابعي في حلقي، ولكنني فُقت مرة أخرى. لقد كنت يا عزيزتي في وضع فظيع للغاية! نهضت زويا واتجهت نحو المقصورة. تبعتها. وما إن أدخلتها المقصورة حتى دهمني الفواق، فركضت إلى البوفيه. شربت نحو خمس كؤوس من الماء. وبدا لي أن

الفواق قد زال. دخنت بابيروسة[1]، وعدت إلى المقصورة. نهض شقيق زويا وتخلى لي عن مكانه لأجلس بجانب «زويتي»، وما إن جلست حتى.. فُقت. مر نحو خمس دقائق وفُقت، فُقت هذه المرة على نحو خاص، مع شخير. نهضت ووقفت عند باب المقصورة. الفُواق يا عزيزتي عند الباب أفضل من الفواق عند إذن الحبيبة! فُقت... فنظر إلي تلميذ يجلس في المقصورة المجاورة وضحك بصوت عال... يا لتلك اللذة التي ضحك بها هذا الخبيث! ويا لتلك اللذة التي تمنيت أن أقتلع بها إذن هذا الوغد الغر من جذرها! إنه يضحك في الوقت الذي يغنون فيه على الخشبة «فاوست» العظيم! تجديف! لا، يا عزيزتي، عندما كنا أطفالاً كنا أحسن بكثير. وبينما أنا ألعن التلميذ الوقح في سري فقت مرة أخرى.. وعلت الضحكات في المقصورات المجاورة.

- أَعِــدْ[2]!

فح التلميذ.

- الشيطان يعرف ما هذا! – دمدم العقيد بيبسينوف في أذني – كان بإمكانك أن تفوق في البيت، أيها السيد!

تضرجت وجنتا زويا بالحمرة، وفقت أنا مرة أخرى، فضغطت قبضتيّ بحنق مسعور، وخرجت راكضاً من المقصورة. طفقت أذرع الممر جيئة وذهاباً. أمشي وأمشي وأمشي وأفوق بلا انقطاع. لم يبق شيء لم آكله، ولم يبق شيء لم أشربه! وفي بداية المشهد الرابع بصقت على كل شيء وتوجهت إلى البيت. وما إن وصلت حتى كففت عن الفواق، للنكاية... صفعت نفسي على قفاي وصرخت:

- فق الآن! الآن يمكنك أن تفوق، أيها الخطيب المفتضح.. لا، أنت لست مفتضحاً! أنت لم تفضح نفسك! بل فُقت نفسك!

---

(١) لفافة نصفها محشو بالتبغ والنصف الآخر مبسم من الورق المقوى. (المترجم).

(٢) في الأصل "Bis".

في اليوم التالي ذهبت كالعادة إلى بيت بيبسينوف. زويا لم تخرج للغداء، وأمرت بأن يبلغوني أنها لا تستطيع مقابلتي لوعكة ألمت بها، أما بيبسينوف فقد أفاض في الحديث عن أن بعض الشباب لا يحسنون التصرف في المجتمع... جاهل! إنه لا يعرف أن الأعضاء التي تصدر الفواق لا تخضع للدوافع الإرادية. الدافع يا عزيزتي[١] هو المحرك. بعد الغداء توجه إليّ بيبسينوف متسائلاً:

- هل كنت لتزوج ابنتك، لو كان لك ابنة، رجلاً يسمح لنفسه بأن يتجشأ أمام الناس؟ آ؟ ماذا؟

تمتمت: - أزوجها.

- عبثاً!

ضاعت زويا مني. لم تستطع أن تغفر لي الفُواق. وضعت أنا. هل أحدثك بعد عن المصادفات الاثنتي عشرة الباقية؟ أحدثك إذا أردت، ولكن... كفى! عروق صدغيّ انتفخت، ودموعي نفرت من عينيّ، وكبدي تكاد تنفطر..

إخوتي الكتّاب! إن في طالعنا شيئاً ما مشؤوماً! اسمحي لي يا عزيزتي[٢]، أن أتمنى لك كل خير! أشد على يدك واهدي تحياتي إلى زوجك بول. هو كما سمعت، زوج ممتاز، وأب ممتاز، إنه جدير بالثناء! من المؤسف فقط أنه يسكر (هذا ليس من باب اللوم، يا عزيزتي)[٣]. فلتصحبك العافية والسعادة، يا عزيزتي، ولا تنسي أن لديك عبداً مطيعاً.

ماكار بالداستوف

آذار ١٨٨٢

---

(١) بالفرنسية في الأصل ma Chère.

(٢) بالفرنسية في الأصل.

(٣) بالفرنسية في الأصل.

مع أن اللقاء قد تم... لكن...

بعد أن أدى غفوزديكوف الامتحان بنجاح ركب ترام الخيل[1] حتى مدخل المدينة لقاء ستة كوبيكات (كان يركب دائماً في القسم العلوي) وقطع الفراسخ[2] الثلاثة من مدخل المدينة إلى الدارة الصيفية سيراً على الأقدام. عند البوابة قابلته ربة المنزل، وهي سيدة شابة كان غفوزديكوف يعلّم ابنها الحساب لقاء الطعام والسكنى في الدارة وخمسة روبلات نقداً في الشهر. سألته وهي تمد له يدها:

- إيه، ماذا؟ كيف؟ على ما يرام؟ نجحت في الامتحان؟
- نجحت.
- مرحى، يغور اندرييفتش! العلامة عالية؟
- كالعادة... خمسة[3]... هـــ م.

لم ينل غفوزديكوف خمسة، بل ثلاثة مع إشارة «زائد»، ولكن... لكن لِمَ لا يكذب، ما دام هذا ممكناً؟! المُمتحنون يكذبون بالقابلية نفسها التي يكذب بها الصيادون.

عندما دخل غفوزديكوف غرفته أبصر على طاولته رسالة صغيرة مع رقاقة وردية. كانت تفوح من الرسالة رائحة تمر الحناء. مزق غفوزديكوف

---

(١) ترام يسير على سكتين وتجره الخيول. كان يستخدم كواسطة نقل قبل ظهور الترام الكهربائي (المترجم).

(٢) الفرسخ الروسي = ١،٠٦ كم.

(٣) أعلى علامة.

الغلاف وأكل الرقاقة وقرأ الآتي: «هو كذلك. كن في الساعة الثامنة تماماً قرب القناة التي سقطت فيها قبعتك من على رأسك البارحة. سأجلس على المقعد تحت الشجرة. وأنا أحبك أيضاً. لكن لا تكن ثقيل الحركة هاكذا[١]... يجب أن تكون نشيطاً. إنني انتظر المساء بفارغ الصبر. أحبك حباً رهيباً. المخلصة س.

ملاحظــة: ماما[٢] سافرت. وسنتنزه حتى منتصف الليل، آه، ما أسعدني! جدتي ستنام، لن تلاحظ».

ما إن أنهى غفوزديكوف قراءة الرسالة حتى ابتسم ابتسامة عريضة، وقفز عالياً، وأخذ يذرع الغرفة مزهواً.

- أنا محبوب! محبوب! محبوب!!! ما أسعدني، آه، يا للشياطين، أو – أو – أو! ترولاّ – لاّ!

قرأ غفوررزديكوف الرسالة مرة ثانية، وقبلّها، ثم طواها بعناية وخبأها في طاولة التشريح. أحضروا له الغداء، وكانت الرسالة قد غشت تفكيره بالضباب وجعلته ينسى كل شيء في العالم، فأكل كل ما أحضروه له: الحساء واللحم والخبز. وبعد الغداء استلقى وطفق يحلم بشتى الأمور: بالصداقة والحب والوظيفة...

وكان طيف سونيا لا ينفك يخطر أمام عينيه. فكر: «كم هو مؤسف أن لا يكون لدي ساعة! لو كان لدي ساعة لاستطعت أن أحسب كم بقي من الوقت حتى المساء. الوقت، كما لو للنكاية، يتجرجر ببطء شيطاني».

وعندما ملّ من الاستلقاء والأحلام نهض وتمشى قليلاً، ثم أرسل الطباخة لتجلب له بيرة. قال لنفسه: «لنشرب ريثما يحين الموعد، فالوقت بعد الشرب يبدو أسرع...»

---

(١) خطأ إملائي مقصود.

(٢) بالفرنسية في الأصل «P. S. Maman».

احضروا له البيرة. فجلس وصفّ الزجاجات الست كلها أمامه، وعكف على الشرب وهو يتطلع إلى الزجاجات بحب. وما إن شرب ثلاث كؤوس حتى أحس بأن مصباحاً قد أضيء في كل من رأسه وصدره، وشاع في نفسه دفء وضياء وسرور غامر. فكر وهو يتناول الزجاجة الثانية: «إنها ستشكل لي سعادة! إنها... إنها هي التي كنت أحلم بها بالذات... آه، نعم!»

بعد الزجاجة الثانية شعر بأن المصباح الذي في رأسه انطفأ، وسادت بعض العتمة. ولكن بالمقابل ما أشد هذا المرح الذي يحس به! وما ألذ العيش في هذا العالم بعد الزجاجة الثانية! وعندما عكف غفوزديكوف على عب الزجاجة أخذ يهز يده أمام أنفه ويقسم أن لا أحد أسعد منه في هذا العالم. كان يؤدي القسم أمام نفسه ويصدق هذا القسم تصديقاً لا يقبل الطعن. أخذ يتمتم: - إنني أعرف ما الذي أحبته فيّ! أعرف! لقد أحبت فيّ الإنسان المتميز! طبعاً، طبعاً! إنها تعرف من تحب، ولأي شيء تحب... الإنسان المتميز! أنا لست أي واحد كان... نعم... أنا غفوزد.. أنا..

وفيما هو يشرب الزجاجة الرابعة هتف:

- أجل! ليس أي واحد! لقد أحبت فيّ العبقري! العبـــ - قـــ - ر – ي! العبقري العالمي! من أنا؟ وماذا أنا؟ هل تظنون أنني غفوزديكوف؟ نعم، أنا غفوزديكوف، ولكن أي غفوزديكوف؟ ماذا تظنون؟

عندما بلغ منتصف الزجاجة الرابعة خبط الطاولة بقبضته ونفش شعره وقال: - سأريهم من أكون أنا؟ لأكمل دراستي فقط! دعوني فقط أدرس! إنني كاهن علم... لقد أحبت فيّ كاهن العلم، وسأبرهن أنها على حق! ألا تصدقونني؟ اذهبوا عني! وهي لا تصدق؟ هي؟ سونيا؟ فلتذهب هي عني أيضاً في هذه الحالة! سأبرهن! ومنذ هذه اللحظة سأبدأ الدراسة! سأكمل الكأس فقط... أنتم جميعاً سفلة!

استولى الغضب على غفوزديكوف فأفرغ الكأس في جوفه وتناول مجموعة المحاضرات من على الرف، وفتحها وأخذ يقرأ من الوسط: «من أســـ...ـــباب انخلاع الفك السفلي أيضاً الو... الوقوع، والصدمة إذا كان الفم مفتوحاً...»

- هراء! الفك... الصدمة... كذا وكيت... هراء!

أغلق غفوزديكوف مجموعة المحاضرات وعكف على الزجاجة الخامسة. وبعد أن شرب في النهاية الخامسة والسادسة دهمته الكآبة، وطفق يفكر بتفاهة الكون عموماً والإنسان خصوصاً. وفيما هو يفكر امتدت يده بشكل آلي إلى الفلينة فأمسك بها ووضعها على فوهة الزجاجة وراح يسدد إليها وينقفها بإصبعه محاولاً أن يصيب بها البقعة الخضراء التي تومض أمام عينيه. وما إن أصابها حتى أخذت بقع سوداء وخضراء وزرقاء تتراكض أمام ناظريه، وطارت بقعة حمراء – بنية ذات إبر خضراء إلى عينيه وهي تبتسم وأفرزت من داخلها شيئاً ما كالصمغ... شعر غفوزديكوف أن عينيه تنطبقان... قال في نفسه: «في عيني أحد ما يصيء! يجب أن أخرج إلى الهواء الطلق وإلا عميت. يجب أن أتـــ... أتمشى... الجو خانق هنا، لا يزالون يشعلون المدافئ... حمير!!! يصيئون ويشعلون المدافئ! أغبياء!» اعتمر غفوزديكوف قبعته وخرج من الغرفة. كان الظلام قد حَلَّ في الفناء، فالساعة قد تجاوزت التاسعة. وكانت بعض النجيمات تتلألأ في السماء... ولكن القمر كان غائباً، والليلة توعد بأن تكون حالكة. هب على غفوزديكوف نسيم الغابة الأياري المنعش، واستقبلته جميع عناصر الموعد الغرامي[1]: حفيف الأوراق، وشدو العندليب، و... حتى «هي» تلوح بيضاء في قلب الظلمة وهي مستغرقة في التفكير، لقد وصل غفوزديكوف من دون أن يلاحظ ذلك إلى المكان المذكور في الرسالة.

نهضت سونيا عن المقعد وخفّت لملاقاته وقالت وهي تتنفس بصعوبة: - جورج! أنا هنا.

---

(١) بالفرنسية في الأصل rendez - vous.

توقف غفوزديكوف. أنصت وطفق يتطلع إلى الأعلى... إلى قمم الأشجار. خيل إليه أنهم نطقوا اســمه في مكان ما في الأعلى. نادته ثانية وهي تدنو منه أكثر:

- جورج، هذه أنا!

- آ؟

- هذه أنا.

- ماذا؟ مَنْ هنا؟ لِمن؟

- هذه أنا، جورج... تعال نجلس.

فرك جورج عينيه وحدق إليها..

- ماذا يلزم؟

- مضحك! ألم تعرفني؟ أصحيح أنك لا ترى شيئاً؟

- آ آ آ... عفواً، لو سمحت... أي حق لكَ في التجول ليلاً في حديقة غيرك أيها السيد المحترم؟ أجب أيها السيد المحترم، وإلاّ فإنني س س سأناولك.. في وجـــ.. وجـــ.

مد جورج يده إلى الأمام وأمسك بكتفها، فطفقت تقهقه: - يا لك من مضحك! ها – ها – ها... ما أبرعك في التمثيل! طيب، كفى، هيا بنا.. تعال نثرثر...

- نثرثر مَنْ؟ ماذا؟ أنتَ ماذا؟ وأنا لماذا؟ تضحك؟

تعالت قهقهتها أكثر. تأبطت ذراعه واندفعت إلى أمام. فأخذ هو يتراجع إلى الخلف. كان يشبه في هذا حصان عريش[١] حرونا، وكانت هي تشبه حصاناً جانبياً يحاول الاندفاع إلى الأمام. تمتم قائلاً:

- أريد... أريد أن أنام... اتركني. لا أرغب في الانشغال بالتفاهات.

- إيه، كفى، كفى... ما الذي أخّرك نصف ساعة؟ أكنت تدرس؟

---

(١) الحصان الأوسط (الأساس) في العربة الثلاثية (الترويكا). (المترجم).

- كنت أدرس... أنا دائماً أدرس... إن من أسباب انخلاع الفك السفلي الوقوع، الصدمة إذا كان الفم مفتوحاً، وأكثر ما يخلعون فكوكهم في الحانات والخمارات... أريد بيرة... أُمَّ الثلاثة جبال[١].

انجرّا معاً حتى المقعد وجلسا. أسند رأسه إلى قبضتيه واعتمد بمرفقيه على ركبتيه وطفق ينخر. انزلقت القبعة عن رأسه وسقطت على يديها. انحنت وحدقت إلى وجهه، ثم سألته بصوت خافت:

- ماذا بك؟

- هذا ليس من شأنك، ليس من شأنك... ليس لأحد الحق في التدخل بشؤوني. كلهم أغبياء، وأنت... أغبياء.

صمت غفوزديكوف قليلاً ثم اضاف:

- وأنا غبي...

سألته: - هل استلمت الرسالة؟

- استلمتها.. مِن.. سونـــ... كا.. مِن سونيا. أنت سونيا؟ إيه، وماذا؟ غباء... مقطع «هـــ» في كلمة «هكذا» يكتب بالمدّة لا بالألف[٢]. متعلمون! فليأخذكم الشيطان بالمرة!

- ما هذا، هل أنت سكران؟

- لا ولكنني منصف! من أين لك الحـــ... الحـــ... الحق.. البيرة لا يمكن أن تسكر... آ؟ من؟

- إذن لماذا يا عديم الضمير تهذر هذا الهذر إذا كنت لست سكران.

- لا... حالة الرفع – أنا، النصب – إياك، الجر[٢]...

---

(١) نوع من أنواع البيرة (المترجم).

(٢) العبارة معربة. (المترجم).

النتوء الوداجي، العضلة القصّية – الترقوية – الخشائية[1].

أخذ غفوزديكوف يقهقه ثم دلى رأسه فوق ركبتيه. سألته:

- أنت نائم؟

لم يأتها جواب، فشرعت في البكاء وأخذت تعصر كفيها.

أعادت السؤال:

- يغور اندرييفتش، هل أنت نائم؟

فجاءها الجواب شخيراً عالياً أجش. نهضت سونيا ودمدمت قائلة:

- مقرف، فاسد! إذن هذا هو أنت؟ إذن خذ! هاك! هاك!

ومست سونيا بيدها الصغيرة قفا غفوزديكوف نحو خمس مرّات. ولكن أي مس هذا! ثم داست قبعته بقدميها. النساء ولوعات بالثأر.

في اليوم التالي أرسل غفوزديكوف لسونيا رسالة يقول لها فيها:

«أرجو المعذرة، لم أستطع المجيء البارحة لأنني كنت مريضاً جداً. حددي وقتاً آخر، وليكن مساء اليوم مثلاً.»

المحب يغور غفوزديكوف

وكان الرد على هذه الرسالة هو الآتي:

«قبعتك ملقاة بجانب التعريشة. يمكنك أخذها من هناك. شرب البيرة ألذ من الحب، لذلك إشرب بيرة. لا أريد أن أزعجك.»

التي لم تعد مخلصة س

ملاحظـــة: لا ترد علي. إنني أكرهك.

أيـار ١٨٨٢

---

(١) باللاتينية في الأصل .Processus condyloideus et musculus Sterno – cleido – mastoideus.

النطاسيون[1] الريفيون

مستشفى الناحية. صباحاً.

نظراً لغياب الدكتور الذي خرج للصيد مع قائد شرطة الناحية، يقوم الممرضان كوزما يغوروف وغليب غليبتش باستقبال المرضى، الذين يقارب عددهم الثلاثين. وريثما يتم تسجيل الأسماء يجلس كوزما يغوروف في غرفة المعاينة ويحتسي قهوة الهندباء. أما غليب غليبتش، الذي لم يغتسل ولم يتمشط منذ يوم ولادته، فيجلس منبطحاً بصدره وبطنه على الطاولة، ويسجل المرضى وهو حانق. ويجري التسجيل من أجل الإحصاء. يسجلون الاسم والكنية واللقب والفئة الاجتماعية ومكان الإقامة والحالة التعليمية والسن، ومن ثم، بعد المعاينة، نوع المرض والدواء الموصوف.

يحنق غليب غليبتش وهو يخطط في السجل الكبير والبطاقات الصغيرة ألفات ولامات مهولة مغمغماً: - الشيطان يعرف أية ريش هذه! وأي حبر هذا؟ هذا قطران وليس حبراً! أتعجب من مجلس الناحية هذا! يأمر بتسجيل المرضى ولا يخصص سوى كوبيكين في العام لشراء الحبر!

ثم يصيح: - اقترب.

يقترب فلاح معصوب الوجه و«الباس»[2] ميخايلو.

---

(١) العنوان في الأصل: الاسكولابات الريفيون. واسكولاب هو إله الطب عند اليونان والرومان (المترجم).

(٢) منشد صوته من طبقة «باس». (الغليظ – الجهير) (المترجم).

- من أنت؟

- ايفان ميكولوف.

- آ؟ كيف؟ احك بالروسي!

- ايفان ميكولوف.

- ايفان ميكولوف! لا أسألك أنت! ابتعد! أنت! ما اسمك؟

ميخايلو يبتسم ويتساءل:

- ماذا، ألا تعرف؟

- ولماذا تضحك؟ الشيطان يعرف ما بهم! لا وقت لدينا هنا، الوقت ثمين، وهم يمزحون! ما اسمك؟

- ألا تعرف؟ دايخ؟

- أعرف، ولكن يجب أن أسأل لأن الشكليات هكذا... وليس هناك شيء يجعلني أدوخ... لستُ سكيراً مثل حضرتك. لسنا مغرمين بالشرب... الاسم واللقب؟

- ولماذا أقول لك ما دمت أنت نفسك تعرف؟ منذ خمس سنوات تعرف... أم أنك نسيت في السادسة؟

- لم أنس، ولكن الشكليات! هل تفهم؟ أم أنك لا تفهم اللغة الروسية؟ الشكليات.

- إيه، إذا كانت هذه هي الشكليات، فليأخذك الشيطان! اكتب! ميخايلو فيودوتيتش ازموتشينكو...

- ليس ازموتشينكو، بل ازموتشينكوف.

- فليكن ازموتشينكوف... كما تريد، المهم أن تشفيني... ليكن حتى المهرج ايفانيتش... سيان..

- من أي فئة؟

- باس.

- العمر؟

- من أين لي أن أعرف! لم أحضر العماد، لا أعرف.

- أيكون أربعين؟

- يمكن أن يكون، ويمكن ألاّ يكون، اكتب ما تريد.

ينظر غليب غليبتش بعض الوقت إلى ميخايلو، ويفكر ثم يكتب ٣٧، ثم يفكر قليلاً ويشطب ٣٧ ويكتب ٤١.

- تقرأ وتكتب.

- وهل يمكن أن يكون المنشد في الكنيسة أمياً؟ مخ!

- أمام الناس يجب عليك أن تخاطبني بضمير الجمع لا أن تصرخ هكذا. التالي! من أنت؟ ما اسمك؟

- ميكيفور بوغولوفا. من خوبلوفا.

- لا نعالج الخابلوفيين! التالي!

- اعملوا معروفاً لوجه الله... يا صاحب الرفعة، لقد قطعت عشرين فرسخاً[١] على قدمي.

- لا نعالج الخابلوفيين! التالي! ابتعد! ممنوع التدخين هنا!

- أنا لا أدخن، غليب غليبتش!

- وما هذا الذي في يدك؟

- هذا اصبعي معصوب، غليب غليبتش!

- ليست سيكارة ملفوفة؟ لا نعالج الخابلوفيين! التالي!

---

(١) الفرسخ الروسي = ١،٠٦ كم.

ينهي غليب غليبتش التسجيل ويرتوي كوزما يغوروف من القهوة، وتبدأ المعاينة. يتولى الأول المهمات الصيدلانية، ويدخل إلى الصيدلية، ويتولى الثاني مهمة الفحص الداخلي ويرتدي مئزراً مشمعاً. ويبدأ كوزما يغوروف بالمناداة حسب السجل:

- ماريا زابلاكسينا.

- هنا يا محترم!

تدخل غرفة المعاينة عجوز ضئيلة شديدة التغضن ومفلطحة، كأن القدر المشؤوم نفسه قد فلطحها. ترسم شارة الصليب وتتحني للمتناطس باحترام.

- ك هـــ م... أغلقي الباب!... ممم تشكين؟

- رأسي يا محترم.

- هكذا إذن... كله أم نصفه فقط؟

- كله يا محترم... كله.. كله.

- رأسك لا تلفيه هكذا... انزعي هذه الخرقة! الرأس يجب أن يظل في البرد والرجلان في الدفء والجذع في مناخ متوسط.

هل يؤلمك بطنك؟

- يؤلمني يا محترم.

- هكذا إذن... والآن هيا، شدي جفنك السفلي! طيب، يكفي. عندك فقر دم... سأعطيك شراباً تأخذين منه عشر نقاط كل مرة صباحاً وظهراً ومساء.

يجلس كوزما يغوروف ويكتب الوصفة:

- «محلول الحديد»[1] ٣غ، من الموضوع على النافذة. أما الموضوع على الرف فقد أمر ايفان ياكوفليتش بأن لا نفتحه من دونه. عشر نقاط ثلاث مرات في اليوم لماريا زابلاكسينا».

---

(١) باللاتينية في الأصل «Rp. Liquor ferri» (الناشر).

تسأل العجوز بم تخلط النقاط عند الشرب، ثم تنحني وتذهب.

يرمي كوزما يغوروف بالوصفة إلى الصيدلية عبر كوة في الجدار وينادي المريض التالي: - تيموفي ستوكوتي!

- هنا!

يدخل ستوكوتي غرفة المعاينة. إنه شخص نحيل طويل كبير الرأس شديد الشبه من بعيد بعصا ذات مقبض غليظ.

- مِمّ تشكو؟

- القلب، كوزما يغوريتش.

- في أي مكان؟

يشير ستوكوتي إلى خاصرته.

- هكذا إذن.. منذ وقت طويل؟

- من الفصح... كنت من مدة قصيرة أمشي في الشارع، وقد قعدت على الأرض حوالي عشر مرات، أبرد وأسخن يا كوزما يغوريتش.

- هـــ م... وماذا يؤلمك أيضاً؟

- إذا أردت الصراحة يا كوزما يغوريتش فإن كل جسمي يؤلمني، ولكن عالجوا لي القلب فقط، وبالنسبة إلى الباقي لا تشغلوا بالكم. الباقي خل النسوان يعالجنه، هلاّ أعطيتموني كحولاً، أياً كان، كي يتوقف هذا الوخز في جهة القلب. هنا، في جهة القلب أشعر دائماً بوخز، بوخز، ثم يمسكني الألم تلك المسكة، في هذا المكان بالذات، يمسكني ويعصر بحيث أنه يقصم ظهري... وأحس كأن حجراً في رأسي... ولديّ سعال أيضاً.

- عندك قابلية؟

- أبداً بالمرة...

يدنو كوزما يغوروف من ستوكوتي، يحنيه ويضغط بقبضته على خاصرته ويسأله:

- أتشعر بوجع؟

- آخ... آخ.. اف ف ف... وجع!

- وهكذا تشعر بوجع؟

- ف ف... موت أحمر!!

يسأله كوزما يغوروف بضعة أسئلة، ويفكر، ثم يستنجد بغليب غليبتش، ويعقدان كونسيليوم. يقول غليب غليبتش للمريض:

- أرني لسانك!

يفتح المريض فمه على سعته ويدلق لسانه.

- أخرجه أكثر!

- أكثر غير ممكن غليب غليبتش.

- في هذا العالم كل شيء ممكن.

ينظر غليب غليبتش إلى المريض بعض الوقت، ويفكر في أمر ما تفكيراً مضنياً، ثم يهز كتفيه ويخرج من غرفة المعاينة صامتاً.

- على الأغلب، نزلة! – يصيح من الصيدلية.

فيصرخ كوزما يغوروف: - زيت الخروع[1]، وروح النشادر[2]، وليفرك بطنه صباحاً ومساءً! التالي.

يخرج المريض من غرفة المعاينة ويذهب إلى الكوة التي تطل منها الصيدلية على الممر. يملأ غليب غليبتش ثلث كأس شاي بزيت الخروع ويناولها لستوكوتي. يحتسي ستوكوتي الزيت ببطء ويلعق شفتيه، ويغلق عينيه ويفرك سبابته بإبهامه، يعني: أعطني شيئاً أغير به طعم فمي.

يصيح غليب غليبتش وهو يناوله قارورة تحتوي على روح النشادر:

---

(١) باللاتينية في الأصل Olei ricini (الناشر).

(٢) باللاتينية في الأصل ammonia caustici (الناشر).

- هاك الروح! افرك بطنك بقطعة جوخ صباحاً ومساء. أعد الوعاء! لا تستند بكوعك إلى الحافة! ابتعد!

تقترب من الكوة طباخة الأب غريغوري بيلاغيا وهي تغطي فمها بشالها وتضحك ضحكة المعجبة بنفسها. يسألها غليب غليبتش:

- ما هي رغباتكم؟

- ليزافيتا غريغوريفنا تهديكم التحية، يا غليب غليبتش، وترجو أن ترسلوا لها أقراص نعناع.

- بكل سرور. من أجل الشخصيات الرائعة من الجنس اللطيف مستعد لكل شيء!

يتناول غليب غليبتش من على الرف مرطباناً يحتوي على أقراص نعناع ويهيل نصفه في منديل بيلاغيا ويقول:

- اخبريها أن غليب غليبتش ابتسم من شدة التأثر وهو يقدم الأقراص. هل وصلتها رسالتي؟

- وصلتها ومزقتها. ليزافيتا غريغوريفنا لا تتعاطى الحب.

- يا لها من لعوب، قولي لها إنها لعوب!

ينادي كوزما يغوروف:

- ميخايلو ازموتشينكوف!

يدخل «الباس» ميخايلو غرفة المعاينة.

- إلى ميخايلو فيودوتيتش أعمق الاحترام! مم تشكو؟

- من الحلق يا كوزما يغوريتش! لقد أتيت إليك، في الحقيقة، كي تقوم، من بعد إذنك، بالنسبة لصحتي... لا أحس بالوجع بقدر ما أحس بالخسارة... فبسبب المرض لا أستطيع الإنشاد، وقائد الجوقة يحسم أربعين كوبيكا عن كل صلاة

صباحية. والبارحة حسم عن صلاة المساء ربعية[1]. اليوم كان عند السادة قداس تشييع، وقبض المنشدون ثلاثة روبلات ولم يكن لي فيها نصيب بسبب المرض. ومن بعد إذنك، بالنسبة لبلعومي يمكنني أن أخمّن أنه مصاب بتخرش شديد وبحة. وكأن قطاً يجلس في حلقي وبأظافره يعني... ك هـــ م.. ك هـــ م...

- من المشروبات الكحولية إذن؟

- لا أستطيع القول مم بالضبط حصل معي المرض، ولكن أستطيع التعبير لكم أنه، من بعد إذنكم، المشروبات الكحولية تؤثر على أصوات التينور، أما الباسات فلا تتأثر أبداً. الباس يا كوزما يغوريتش يصبح بتأثير المشروبات أكثر كثافة وأكثر فخامة... الباس يؤثر عليه الرشح أكثر.

يبرز رأس غليب غليبتش من الكوة ويسأل:

- ماذا أعطي العجوز؟ الحديد الذي كان على النافذة نفد سأفتح الذي على الرف.

- لا، لا! ايفان ياكوفليتش أمر ألا نفعل! سيغضب.

- إذن ماذا أعطيها؟

- أي شيء كان!

إعطاء «أي شيء كان» بلغة غليب غليبتش يعني «إعطاء صودا».

- لا ينبغي تعاطي المشروبات الكحولية.

- هذا هو اليوم الثالث الذي لا أتعاطاها فيه... سبب مرضي هو الرشح... صحيح أن الفودكا تعطي الباس بحة، ولكن الاوكتاف، كما هو معلوم لديك، يا كوزما يغوريتش، يأتي أحسن مع البحة... المنشد لا يجوز له أن يستغني عن الفودكا. فأي منشد هذا إذا كان لا يتعاطى الفودكا؟ هذا ليس منشداً بل، من بعد إذنك، ليس سوى مسخرة!.. لو لم أكن في هذه الوظيفة لما كنت وضعت هذه اللعينة في فمي. الفودكا هي دم الشيطان...

---

(١) ربع روبل = ٢٥ كوبيكا (المترجم).

- اسمع... سأعطيك مسحوقاً.. ذوبه في زجاجة وتغرغر به صباحاً ومساء.

- ممكن بلعه؟

- ممكن.

- جيد جداً، فمن المزعج أن يكون البلع غير جائز. تتغرغر، تتغرغر، ثم تبصق، شيء مؤسف! وهاك ما كنت أريد في الحقيقة أن أسألك عنه... فأنا بطني ضعيف، ولهذا السبب بالذات، من بعد إذنك، أفصد نفسي كل شهر، واشرب مغلي الأعشاب، هل يمكن لي أن أتزوج زواجاً شرعياً؟

يفكر كوزما يغوروف بعض الوقت ثم يقول:

- لا، لا أنصح بذلك!

- متشكر بحرارة... إنك معالج رائع عندنا يا كوزما يغوريتش، أحسن من أي دكتور! أقسم بالله! كم من الأنفُس تدعو له! إيه، إيه! ما أكثرها!

يسبل كوزما يغوروف عينيه بتواضع ويكتب الوصفة بشجاعة: Natri Bicarbonici أي صودا.

حزيران ١٨٨٢

* * *

القضيـة الضائعـة

(حَادثة فَودفيلية)

لديّ رغبة جارفة في البكاء! يبدو لي أنني إذا انفجرت باكياً سيخف ما بي.

كان المساء بديعاً. تأنقت وتمشطت وتعطرت وانطلقت إليها كدون جوان. إنها تقيم في دارة صيفية في حي سوكولنيكي. وهي فتية وجميلة وبائنتها ٣٠٠٠٠ ومثقفة بعض الشيء، وتحبني، أنا كاتب هذه الأسطر، كالقطة.

عندما وصلت إلى سوكولنيكي وجدتها جالسة على مقعدنا الأثير في ظل تنوبات سامقة ممشوقة. ما إن شاهدتني حتى وثبت واقفة وخفّت لملاقاتي متهللة. قالت:

- ما أقساك! أيجوز أن تتأخر هكذا؟ إنك تعرف كم أشعر بالملل! آه منك.

قبلت يدها الحلوة، وسرت وإياها وأنا أرتعش إلى المقعد. كنت أرتعش، وأتململ، وأحس أن قلبي قد التهب ويوشك أن ينفطر. وكان نبضي كنبض المحموم.

ولا عجب! فقد أتيت لأقرر مصيري نهائياً. فإما النصر، كما يقولون، أو القبر... كل شيء يتوقف على هذه الأمسية.

كان الطقس رائعاً، ولكني كنت مشغولاً عنه، حتى أنني لم أكن أصغي إلى العندليب الذي كان يغرد فوق رأسينا مع أن الإصغاء إلى العنادل أمر لابد منه في أي موعد غرامي[١] يتسم ولو ببعض القيمة.

---

(١) بالفرنسية في الأصل rendez - vous.

- مالك صامتاً؟

تساءلت وهي تحدق إلى وجهي.

- لا شيء... أمسية رائعة جداً... كيف صحة ماماك؟

- جيــدة.

- هــ م... إيه... أنا، يعني، أريد أن أتحدث معك يا ڤارڤارا بيتروفنا... وما أتيت إلاّ من أجل هذا... لقد التزمت الصمت طويلاً، ولكن الآن... أرجو عفوك... لم يعد بمقدوري الصمت.

حنت ڤارڤارا رأسها وقطفت زهرة بأصابع مرتعشة. كانت تعرف ما أريد التحدث عنه. سكتُّ قليلاً ثم تابعت:

- ولِمَ الصمت؟ فمهما صمتُّ، ومهما تهيبت لابد من إطلاق العنان للعاطفة واللسان عاجلاً أو آجلاً. ربما ستشعرين بالإهانة... وربما لن تفهمي... ولكن... مهما يكن...!

سكتُّ. كان عليّ أن أسبك جملة مناسبة. احتجّت عيناها قائلتين: «هيا تكلم! أيها المتردد! لِمَ تعذبني؟»

تابعتُ بعد سكوت قصير:

- أنت طبعاً قد خمنت منذ فترة طويلة لماذا أجيء كل يوم إلى هنا وأثقل عليك بحضوري الطويل. وكيف لك ألا تخمني؟! ولعلك بما تتصفين به من فطنة قد استشَفَّيت فيّ تلك العاطفة التي... (صمت) ڤارڤارا بيتروفنا!

زادت ڤاريا من انحنائها، وتراقصت أصابعها.

- ڤارڤارا بيتروفنا!

- إيــه؟

أنا... وماذا أقول؟! مفهوم بدون قول... أحبك، وهذا كل شيء.. وما لزوم الكلام هنا؟ (صمت). أحبك بعنف! أحبك حباً... بكلمة واحدة اجمعي كل

الروايات الموجودة في هذا العالم، اقرئي كل ما فيها من اعترافات بالحب، وكل ما فيها من أيمان وتضحيات... تعرفي ما في صدري الآن من... ڤارڤارا بيتروفنا! (صمت) ڤارڤارا!! لماذا أنت صامتة هكذا؟!

- ما الذي تريده؟

- أيمكن... لا؟

رفعت ڤاريا رأسها وابتسمت. قلت في نفسي: «آخ. يا للشيطان!» ابتسمتْ وحركت شفتيها وقالت بصوت لا يكاد يسمع: «ولماذا لا؟». اختطفتُ يدها بلهفة، وقبلتها بلهفة، واختطفت يدها الثانية بسعار... فتاة ممتازة! وبينما أنا مشغول بيديها وَضَعَتْ رأسها على صدري، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها مدى روعة شعرها الفاتن!

قبلتها في رأسها، ويا لهذا الدفء الذي شاع في صدري، لكأنهم قد وضعوا فيه سماوراً. رفعت ڤاريا وجهها نحوي، ولم يبق لي إلاّ أن أقبلها في شفتيها.

وعندما أصبحت ڤاريا بين يدي نهائياً، عندما أصبح القرار حول إعطائي ثلاثين ألفاً جاهزاً للتوقيع، عندما كنت، باختصار، قد ضمنت لنفسي تقريباً زوجة حلوة ومبلغاً محترماً ومستقبلاً وظيفياً جيداً احتاج الشيطان إلى أن يشدني من لساني...

فقد ساورتني رغبة في أن أتباهى أمام خطيبتي الموعودة، أن أتألق بمبادئي وأتبجح. وعلى كل أنا نفسي لم أكن أعرف ما الذي كنت أبغيه... ويا لسوء ما انتهى إليه الأمر!

بعد القبلة الأولى ابتدأت الحديث قائلاً:

- ڤارڤارا بيتروفنا، قبل أن آخذ منك وعداً بأن تكوني زوجتي أعتبر أن من أقدس واجباتي، تفادياً لما يمكن أن يحدث من سوء تفاهم، أن أقول لك بضع كلمات. وسأوجز في الحديث... هل تعرفين، يا ڤارڤارا بيتروفنا مَنْ أنا، وماذا أنا؟ نعم، أنا شريف! أنا كادح! أنا... أنا... عزيز النفس! أكثر من ذلك... أمامي مستقبل... ولكنني فقير... إنني لا أملك شيئاً.

قالت ڤارڤارا:

- أعرف هذا. السعادة ليست في المال.

- أجل... ومن قال إنها في المال؟... إنني أعتز بفقري. إن الكوبيكات التي أتقاضاها لقـاء أعمالي الأدبيـة لا أرضى بديلاً عنها، تلك الآلاف التي... بالتي.

- مفهوم. إيه...!

- لقد اعتدت الفقر، فهو بالنسبة لي لا شيء. بمقدوري أن لا أتغدّى طوال أسبوع... لكن أنت! أنت! أمن المعقول أنك أنت التي ليس بمقدورك أن تمشي خطوتين من دون أن تستأجري عربة، أنت التي تلبسين كل يوم ثوباً جديداً، وتلقين بالنقود ذات اليمين وذات الشمال، أنت التي لم تعرفي العوز قط، أنت التي تعتبرين الزهرة غير الدارجة تعاسة كبيرة – أمن المعقول أن توافقي على التخلي عن المتع الدنيوية من أجلي أنا؟ هـ م...

- عندي نقود... عندي بائنة.

- هذا لا شيء. فإنفاق عشرة آلاف أو عشرين ألفاً لا يحتاج سوى إلى بضع سنوات... وبعد ذلك؟ العوز؟ الدموع؟ صدقي، يا عزيزتي، خبرتي! إنني أعرف! أعرف ماذا أقول! فالكفاح ضد العوز يحتـاج إلى إرادة قوية، إلى عزيمة تفوق عزيمة البشر. «أي هراء هذا الذي أجرشه!» فكرت في سري، وتابعت:

- فكّري يا ڤارڤارا بيتروفنا! فكّري في الخطوة التي تقدمين عليها! إنها خطوة لا رجوع عنها! فإذا كانت لديك القوة – سيري خلفي، وإذا لم تكن لديك قوة للكفاح – ارفضي طلبي! أوه! خير لي أن أفقدك من أن تفقدي أنت الطمأنينة! الروبلات المئة التي أكسبها من الأدب كل شهر ليست شيئاً! إنها لا تكفي! فكّري إذن قبل فوات الأوان.

هببت واقفاً.

- فكّري! فحيث العجز هناك الدموع واللوم والشيب المبكر.. إنني أحذرك لأنني إنسان شريف. هل تجدين في نفسك القوة الكافية لتشاطريني حياة لا تشبه بظاهرها حياتك، حياة غريبة عنك.

(صمت).

- لقد قلت لك إن عندي بائنة.

- كم؟ عشرون، ثلاثون ألفاً! ها – ها – مليون؟ ثم إلى جانب كل ذلك، هل سأسمح لنفسي بالاستيلاء على ما... لا! أبداً! إنني عزيز النفس!

سرتُ جيئة وذهاباً عدة مرات قرب المقعد، وثاريا مستغرقة في التفكير. شعرت بالزهو. إذن فهي تحترمني ما دامت قد استغرقت في التفكير.

- وهكذا فإما الحياة معي والحرمان، وإما الحياة بدوني والثروة... اختاري... هل لديك القوة؟ هل لدى ثارياي القوة؟

وتكلمت على هذا المنوال طويلاً جداً. استغرقني الحديث دون أن أنتبه. كنت أتكلم وأشعر في الوقت ذاته بالازدواجية. فنصفي كان مشغوفاً بما أقول، والنصف الآخر كان يحلم: «انتظري يا عزيزتي! سنعيش بآلافك الثلاثين عيشة تجعل السماء نفسها حارة! ستكفينا طويلاً». أصغت ثارثارا وأصغت... ثم نهضت أخيراً ومدت لي يدها وقالت: - أشكرك!

قالتها بصوت جعلني أرتعد وأنظر في عينيها. في عينيها وعلى وجنتيها كانت تتلألأ الدموع...

- أشكرك! حسناً فعلت بأنك كنت صريحاً معي... إنني مرفهة... لا أستطيع... إنني غير جديرة بك...

انفجرت باكية. لقد سقط في يدي... وأنا دائماً أقع في حيرة عندما أرى امرأة تبكي، فما بالك بي الآن. وبينما كنت أفكر كيف أتصرف كتمت نحيبها وكفكفت دموعها وقالت:

- أنت على حق، فإذا أنا تزوجتك أكون قد خدعتك. أنا لا أصلح زوجة لك. إنني ثرية، مرفهة، أتنقل في العربات، آكل الشناقب والفطائر الفاخرة. على الغداء لا أتناول الفتة وحساء الملفوف البتة. حتى أن ماما تعيب علي هذا باستمرار... وأنا لا أستطيع أن أتخلى عن كل هذا.. لا أستطيع أن أتنقل سيراً على الأقدام... أتعب. ثم الملابس... كلها سيكون عليك أن تخيطها لي من حسابك الخاص.. لا! وداعاً!

ثم أومأت بيدها إيماءة تراجيدية على حين غرة:

- أنا لست جديرة بك! وداعاً.

قالت هذا واستدارت وولّت مسرعة. وأنا؟ أنا وقفت كالأبله دون أن أفكر في شيء، لاحقتها بنظراتي، شعرت بأن الأرض تميد تحت قدميّ، وعندما استعدت وعيي وتذكرت أين أنا وأية مكيدة رهيبة دبرها لي لساني ولْوَلتُ. وعندما أردت أن أصيح في إثرها: «عودي» كان أثرها قد تلاشى.

توجهت إلى البيت أجرجر أذيال الخزي والخيبة. لم يكن ثمة ترام خيل عند مدخل المدينة. كما لم يكن لدي نقود لاكتراء عربة، وكان علي أن أذهب إلى البيت سيراً على الأقدام.

بعد ثلاثة أيام ذهبت إلى سوكولنيكي. قالوا لي في الدارة الصيفية أن ڤاريا مصابة بمرض ما وتتأهب للسفر مع أبيها إلى بطرسبورغ لزيارة جدتها، ولم أعد بأية نتيجة.

أنا الآن مستلق على السرير، أعض الوسادة، وأصفع نفسي على قفاي، وأحس أن قططاً تخمش قلبي...

أيها القارئ... كيف أصلح القضية؟ كيف أستعيد كلماتي؟ ماذا أقول أو أكتب إليها؟ هذا فوق طاقة العقل.

لقد ضاعت القضية – ويا للغباء الذي ضاعت به!

حزيران ١٨٨٢

أيُّ الثَلاثـة ؟

(قصة قديمة لكنها جديدة أبداً)

في شرفة الدارة الصيفية الفخمة العريقة التي تملكها زوجة المستشار المدني[١] ماريا ايفانوفنا لانغر كانت تقف ابنتها ناديا وابن التاجر الموسكوفي الشهير ايفان غافريلوفتش.

المساء كان بديعاً. ولو كنتُ بارعاً في وصف الطبيعة لوصفت لكم القمر الذي كان يرنو برقة من وراء الغيوم، ويغمر بنوره البهي الغابة والدارة ووجه ناديا... ولوصفتُ همس الأشجار الخافت وأغنيات العندليب وخرير النافورة الذي لا يكاد يسمع... كانت ناديا تقف معتمدة بركبتها على حافة الكنبة وممسكة بدرابزين الشرفة. عيناها الفاترتان المخمليتان العميقتان كانتا تنظران بثبات إلى الأيكة الخضراء المعتمة... وعلى وجهها الشاحب المضاء بنور القمر كانت تتلاعب ظلال – بقع قاتمة: إنها حمرة الخدود. وكان ايفان غافريلوفتش يقف خلفها ويده المرتعشة تنتف بعصبية بين فينة وأخرى شعيرات من لحيته الخفيفة. وعندما مل من نتف لحيته أخذ يمسد بيد ويجعد باليد الأخرى عنقيّته[٢] العالية البشعة. لم يكن ايفان غافريلوفتش وسيما، وكان يشبه أمه التي تذكرك بطباخة قروية. جبهته صغيرة وضيقة كأنها مفلطحة، وأنفه مرتفع الأرنبة

(١) موظف من المرتبة الخامسة في السلم الوظيفي المؤلف من أربع عشرة مرتبة في روسيا القيصرية. (المترجم).

(٢) ياقة عالية عريضة تغطي أسفل الوجنتين. (المترجم).

وعريضها وذو انخفاض ظاهر في القصبة، وشعره قصير وخشن كالفرشاة. وكانت عيناه الصغيرتان الضيقتان كعيني قطيط صغير تتطلعان إلى ناديا متسائلين. كان يقول وهو يتأتئ ويتنهد بتشنج ويكرر الكلمات:

- اعذريني، اعذريني لأنني أحدثك... عن عواطفي... ولكنني أحببتك حباً جعلني لا أعرف إن كنت لا أزال في وعيي أم لا.. إن بين ضلوعي من العواطف نحوك ما يستحيل التعبير عنه! إنني يا ناديجدا بيتروفنا، ما إن رأيتك حتى... أعني... أحببتك. إنك ستعذرينني طبعاً... ولكن... أعني (صمت) الطبيعة لطيفة الآن.

- نعم، الطقس بديع.

- وفي مثل هذه الطبيعة، كم هو لطيف، أقصد، أن يحب الإنسان شخصاً لطيفاً مثلك... ولكنني لست سعيداً!

تنهد ايفان غافريلوفتش وشد لحيته.

- لست سعيداً بالمرة! إنني أحبك، وأعاني.. و... أنت؟ هل يمكن أن تكني لي عاطفة؟ أنت مثقفة، متعلمة، كل شيء لديك على طريقة النبلاء... أما أنا؟ إنني من فئة التجار و... لا شيء أكثر! لا شيء بكل معنى الكلمة! النقود كثيرة ولكن ما نفع هذه النقود إذا لم تكن هناك سعادة حقيقية؟ فبدون سعادة ليس مع هذه النقود سوى الخطايا وانعدام الجدوى. نأكل جيداً.. نعم... ولا نمشي على الأقدام... حياة فارغة... ناديجدا بيتروفنا.

- إيـــه؟

- لا... لا شيء! أردت، في الحقيقة، أن أزعجك بـــ...

- ما الذي تريده؟

- هل يمكنك أن تحبيني؟ (صمت) لقد عرضت على ماماك... أعني أمك، قلبي ويدي بخصوصك، وقد قالت لي إن كل شيء يتوقف عليك... قالت إنك تستطيعين بدون إرادة أهلك... فبم ستجيبينني؟

ظلت ناديا صامتة. كانت تنظر إلى الأيكة الخضراء المعتمة حيث تكاد العين لا تستبين معالم الجذوع والأوراق الموشاة... كانت منشغلة بالظلال السوداء المتحركة التي تلقيها الأشجار وهي تهز تيجانها برفق عند هبوب النسيم. وكان صمتها يخنق ايفان غافريلوفتش. اغرورقت عيناه بالدموع من شدة المعاناة. كان يخطر له: «وماذا إذا رفضت؟» وكان هذا الخاطر المكدر يجعل الصقيع يسري في ظهره العريض.

- اعملي معروفاً يا ناديجدا بيتروفنا، لا تعذبي روحي... فأنا إذا كنت أتقرب إليك، فإنني أفعل هذا من الحب... لأنه... (صمت) إذا.. (صمت) إذا أنت لم تجيبيني، الموت أهون...

أدارت ناديا وجهها نحو ايفان غافريلوفتش وابتسمت... ثم مدت له يدها وقالت بصوت كان له في أذني التاجر الموسكوفي سحر غناء السيرينة[١]:

- متشكرة جداً لك، يا ايفان غافريلوفتش... إنني أعرف منذ مدة طويلة أنك تحبني، وأعرف كم تحبني... ولكن أنا.. أنا.. أنا أيضاً أحبك يا جان... لا يستطيع الإنسان ألاّ يحبك لقلبك الطيب ولإخلاصك...

فغر ايفان غافريلوفتش فمه واسعاً، وضحك، ومر براحة يده على وجهه والسعادة تغمره: تُرى أليس هذا حلماً؟

ومضت ناديا تقول:

- أعرف إنني إذا تزوجتك، فإنني سأكون أسعد مخلوقة... ولكن أتعرف ماذا، يا ايفان غافريلوفتش؟ أمهلني بعض الوقت لأرد عليك... لا استطيع أن أرد الآن بالإيجاب... عليّ أن أتروى في هذه الخطوة جيداً... التروي واجب..

- وهل سأنتظر طويلاً؟

---

(١) السيرينة: في الميثولوجيا الإغريقية مخلوقة لها رأس امرأة وجسد طير كانت تفتن الملاحين بغنائها فتجذبهم إلى موارد التهلكة (المترجم).

- لا، قليلاً.. يوماً أو يومين على الأكثر.

- هذا ممكن...

- أنت الآن ستغادر، وسأبعث إليك بالجواب في رسالة.. اذهب الآن إلى البيت، وأنا سأذهب لأفكر... وداعاً.. إلى بعد غد..

مدت ناديا يدها فأمسك ايفان غافريلوفتش بها وقبلّها. أومأت ناديا برأسها وقبلّت الهواء، وانسابت من الرواق بخفة وغابت عن ناظريه... وقف ايفان غافريلوفتش دقيقتين أو ثلاثاً، فكر قليلاً وتوجه عبر حوض الأزهار الصغير والغيضة نحو عربته المتوقفة في فسحة وسط الأشجار. ارتخى ووهن من السعادة كما لو أنهم نقعوه يوماً كاملاً في حوض حمام حار... كان يسير ويضحك من السعادة. أيقظ الحوذيَّ النائم قائلاً:

- تروفيم! انهض! هيا بنا! لك خمسة نحاسات إكرامية! أفهمت؟ ها – ها.

في تلك الأثناء كانت ناديا قد انسلت عبر جميع الغرف إلى الشرفة الأخرى، وهبطت منها، وركضت، شاقة طريقها عبر الأشجار والشجيرات والجَنبات صوب فسحة أخرى في الغيضة حيث كان ينتظرها صديق طفولتها، البارون فلاديمير شترال، وهو شاب ألماني لطيف، في السادسة والعشرين من عمره، سمين مكور ولكنه محبب، وقد بدأ الصلع يظهر في مقدمة رأسه. لقد أنهى دراسته الجامعية في هذه السنة، وهو متوجه إلى ضيعته في خاركوف، وقد أتى الآن للمرة الأخيرة من أجل الوداع.

كان ثملاً بعض الشيء، وقد راح يصفر لحن «الرامي»[١] وهو شبه مضطجع على المقعد.

اقتربت ناديا منه لاهثة متعبة من الركض، وتعلقت بعنقه، وأمطرت وجهه الشحيم العرقان بالقبلات وهي تطلق ضحكات رنانة وتجذبه من رقبته وشعره وياقته. قال البارون وهو يطوق خصرها:

---

(١) عنوان أغنية كانت رائجة آنذاك. (الناشر).

- إنني أنتظرك منذ ساعة كاملة...

- قل لي: صحتك جيدة؟

- جيدة.

أمسافر غداً؟

- مسافر.

- أيها البغيض... وهل ستعود سريعاً؟

- لا أعرف.

قبّل البارون ناديا في خدها ونقلها من على ركبتيه إلى المقعد.

قالت: - إيه، كفى قبلات... لندعها إلى ما بعد... أمامنا وقت طويل... لنتحدث الآن بجد. (صمت) فوليا، هل فكرت؟

- فكرت...

- إيه، وماذا، كيف؟ متى... العرس؟

قال البارون وقد تغضن جبينه: - مرة ثانية تتحدثين عن الموضوع نفسه! لقد أعطيتك البارحة بالذات جواباً نهائياً.. من غير الوارد الحديث عن أي عرس على الإطلاق! لقد قلت لك هذا البارحة بالذات... لماذا تعودين إلى الحديث عن أمر قيل وأعيد ألف مرة؟

- لكن يا فوليا علاقتنا يجب أن تنتهي إلى شيء ما! كيف لا تفهم هـذا؟ ألا يجب؟

- يجب ولكن ليس إلى الزواج. أنت يا نادين، أكرر للمرة المئة، ساذجة كطفلة عمرها ثلاث سنوات... إن السذاجة تليق بالنساء الجميلات، ولكن ليس في هذه الحالة يا روحي..

- لا تريد الزواج إذن! لا تريد؟ قل بصراحة، يا صاحب النفس العديمة الضمير، قل بصراحة: لا تريد؟

- لا أريد.. ما الذي يدعوني إلى أن أفسد مستقبلي الوظيفي؟ إنني أحبك، ولكنك ستقضين علي إذا أنا تزوجتك.. لن تمنحيني الثروة ولا الاسم.. الزواج يا صديقتي يجب أن يكون نصف المنصب.. أما أنت.. لا داعي للبكاء.. يجب أن نفكر تفكيراً سليماً.. الزواج عن حب لا يمكن أبداً أن يكون سعيداً، وينتهي عادة بالفشل..

- تكذب... أنت تكذب! هذا هو الواقع!

- تزوجي، ثم موتي جوعاً فيما بعد.. خلِّفي شحاذين.. يجب أن تفكري..

- ولماذا لم تفكر أنت حينئذ... أتذكر؟ حينئذ أعطيتني كلمة شرف بأنك ستتزوجني؟ أعطيتني أم لا؟

- أعطيتك، لكن خططي تغيرت الآن.. أنت طبعاً لن تقبلي الزواج من شخص فقير؟ إذن لماذا ترغمينني على الزواج من فتاة فقيرة! ليست لدي رغبة في أن أتصرف معك تصرفاً سافلاً. إن لدي مستقبلي الذي أنا مسؤول عنه أمام ضميري.

مسحت ناديا عينيها بمنديلها، وفجأة، وعلى غير توقع، ارتمت بعفوية من جديد على عنق الألماني الأرثوذكسي. التصقت به واندفعت تمطر وجهه بالقبلات وهي تتمتم:

- تزوجني! تزوجني، يا عزيزي! إنني أحبك! إنني لا أستطيع أن أعيش من دونك، يا فتنتي، ستقتلني إذا افترقت عني!

ستتزوجني؟ أليس كذلك؟

فكر الألماني قليلاً ثم قال بنبرة حاسمة:

- لا استطيع! الحب شيء حسن، ولكنه لا يأتي بالمرتبة الأولى في هذا العـــالم...

- إذن لا تريد؟

- لا... لا أستطيع.

- لا تريد؟ بالتأكيد لا تريد؟

- لا أستطيع يا نادين!

- نذل، وغد... هذا أنت! غشاش! ألماني حقير! إنني لا أطيقك، أكرهك، أحتقرك! إنك خسيس! وأنا لم أحببك قط! وإذا كنت قد استسلمت لك في تلك الأمسية، فذلك فقط لأنني كنت أحسبك إنساناً شريفاً، ظننت أنك ستتزوجني... إنني آنذاك أيضاً لم أكن أطيقك! أردت أن أتزوجك لأنك بارون وغني!

لوحت ناديا بيديها باشمئزاز وتراجعت بضع خطوات عن شترال، وقذفته بعدة كلمات جارحة أخرى، وتوجهت إلى البيت... «عبثاً ذهبت للقائه الآن – فكرت وهي في طريقها إلى البيت – فقد كنت أعرف أنه لن يوافق على الزواج؟ يا للوغد! لقد كنت حمقاء في تلك الأمسية! لو لم أستسلم له آنذاك، لما كان هناك داع الآن للتذلل أمام هذا... الألماني الحقير».

عندما دخلت ناديا فناء الدارة لم تذهب إلى الغرف، بل تجولت قليلاً في الفناء، ثم توقفت أمام نافذة خافتة الإضاءة. كانت هذه نافذة غرفة يسكنها في موسم الصيف عازف الكمان الأول ميتيا غوسيف المتخرج حديثاً من الكونسيرفوتوار. أخذت ناديا تتطلع عبر النافذة. كان ميتيا، وهو شاب أشقر عريض المنكبين، أجعد الشعر، لا يفتقر إلى الوسامة، مضطجعاً على السرير من دون سترة ولا صدار يقرأ في رواية. وقفت ناديا قليلاً، وفكرت ثم دقّت على النافذة. رفع عازف الكمان رأسه وسأل:

- من هناك؟

- هذه أنا يا دميتري ايفانتيش، أيمكن أن تفتح النافذة لحظة؟!

ارتدى ميتيا سترته على عجل وفتح النافذة. قالت ناديا:

- تعال إلى هنا.. اخرج إلي..

ظهر ميتيا قرب النافذة، وبعد ثانية أصبح إلى جانب ناديا.

- ماذا تريدين؟

- هلم بنا! – قالت ناديا وتأبطت ذراعه – اسمع يا دميتري ايفانيتش، لا تكتب لي يا عزيزي رسائل غرامية. أرجوك لا تكتب لي! لا تحببني ولا تقل لي إنك تحبني.

جالت الدموع في عيني ناديا ثم انهمرت بغزارة على خديها ويديها. كانت دموعاً حقيقية، مُرّة، كبيرة...

- لا تحببني يا دميتري! لا تعزف على الكمان من أجلي! إنني خسيسة، بغيضة، فاسدة.. أنا أستحق الاحتقار والكراهية والضرب..

انتحبت ناديا ووضعت رأسها على صدر ميتيا.

- إنني أخس الخسيسات، وأفكاري خسيسة، وقلبي...

تبلبل ميتيا، وتمتم بهراء ما، وقبل رأس ناديا...

- أنت طيب وممتاز.. وأنا، صدقاً، أحبك... ولكن أنت لا تحبْبني! إنني أحب المال والملابس والعربات أكثر من أي شيء في هذه الدنيا... وأموت عندما يخطر لي أنني لا أملك مالاً... أنا دنيئة، أنانية.. لا تحببني، يا عزيزي دميتري ايفانيتش! لا تكتب لي رسائل! إنني سأتزوج غافريلتش.. أترى أية إنسانة أنا! وأنت ما زلت بعد ذلك... تحبني! وداعاً! سأظل أحبك حتى وأنا متزوجة، الوداع يا ميتيا!

عانقت ناديا غوسيف على عجل، وقبلته في عنقه بسرعة، وانطلقت تركض نحو البوابة.

عندما دخلت غرفتها، جلست إلى الطاولة وكتبت الرسالة الآتية وهي تبكي بمرارة: - «عزيزي ايفان غافريليتش! إنني لك، إنني أحبك، وأريد أن أكون زوجتك... المخلصة ن».

ختمت الرسالة وأمرت الخادمة بإيصالها إلى العنوان المطلوب. «غداً... سيجلب لي معه شيئاً ما» فكرت ناديا وتنهدت بعمق. وكانت هذه التنهدة خاتمة بكائها. جلست قليلاً قرب النافذة إلى أن هدأت، ثم خلعت ملابسها

بسرعة. وفي منتصف الليل تماماً كان اللحاف الثمين المحشو بالزغب والمطرز بالرسوم والزخارف الكتابية يدفئ الجسد النائم الذي يختلج بين فينة وأخرى، جسد الوغدة الشابة الجميلة الفاسقة.

وفي منتصف الليل كان ايفان غافريلوفتش يذرع غرفته ويحلم بصوت مسموع.

وفي الغرفة كان يجلس أبواه ويستمعان إلى أحلامه بسرور. كانا سعيدين بسعادة ابنهما.. كان الأب يقول: - إنها فتـــاة جيدة: نبيلة، ابنة مستشار، ثم إنها حسناء. هناك عيب واحد فقط هو أن كنيتها ألمانية! سيظن الناس أنك تزوجت ألمانية...

تموز ١٨٨٢

* * *

السوق الموسمية

بلدة صغيرة لا تكاد تُرى. يسمونها مدينة مع أنها لا تشبه المدينة إلاّ بمقدار ما تشبهها قرية بائسة. إذا كنت أعرج تسير على عكاكيز يمكنك أن تطوف بها وتجتازها طولاً وعرضاً في عشر دقائق أو خمس عشرة، وربما أقل. بيوتها كلها قميئة متداعية. وأي بيت فيها يمكنك أن تشتريه بخمسة عشر كوبيكا تدفعها بالتقسيط ثلثا ثلثا. سكانها يمكن عدهم على الأصابع: العمدة، والناظر، والقس، والمعلم، والشمّاس، والمراقب في برج الإطفاء، والقندلفت، واثنان أو ثلاثة من الأهالي، ودركيان، ولا أحد بعد على ما يبدو.. جنس الإناث كثير العدد، ولكن هذا الجنس لا يدخله الإحصائيون في الحساب أكثر الأحيان. (الإحصائيون يعرفون أن الدجاجة ليست طيراً والحِجْر ليست فرساً، وزوجة الضابط ليست خانماً...) الوافدون كثيرون جداً: المُلاّك المجاورون، وأصحاب الدارات الصيفية، وملازمو بطارية متلكئة هنا لحين، وشماس أشعر من القرية المجاورة في جبة ليلكية، وله صوت باس خفيض كصوت فرس النهر وهلمجرا.. الطقس بين بين. المطر يهطل تارة بعد تارة مما يبعث في نفوس الباعة والمشترين شيئاً من الكآبة. الهواء رائع. الروائح الموسكوفية لا وجود لها هنا، بل تفوح روائح الغابة وزنابق الوادي والقطران، وكما لو أن ثمة بعضاً من رائحة الحظائر. ومن جميع الأزقة والشقوق والزوايا تنبعث أنفاس التجارة. فعند كل خطوة كشك. صفان من الأكشاك يمتدان في الشارع الرئيسي من بدايته إلى نهايته، ويملآن الساحة التي ينتهي إليها الشارع. عند سور الكنيسة تبيع النساء البذور. وليس ثمة موطئ لقدم. أرتال العربات

والخيول والأبقار والعجول والخناصيص لا حصر لها. الرجال قلة ولكن النساء... النساء!! كل مكان مكتظ بالنساء. وكلهن بأثواب حمراء وبلوزات من المخمل القطني الأسود. إنهن من الكثرة والتلاصق بحيث يمكن لـــ «تجمع جميع الأفواج» أن يعدو بجرأة على رؤوسهن إلى مكان الحريق.

السكارى – أواه! – قلائل لسبب ما. في الجو يخيم باستمرار لغط وصئيّ وزعيق وصرير وثغاء وخوار. ضجة كضجة من يبنون برج بابل آخر.

كل نوافذ الأهالي مشرعة. ومن خلالها ترى السماوات، وأباريق الشاي المكسورة البلابل، ووجوه الأهالي بأنوفهم الحمراء. تحت النوافذ يقف المعارف مع مشترياتهم ويتشاكون الطقس. الشماس بجبته الليلكية وبعض القش على شعره يصافح الجميع ويصيح بصوت عال: «احترامي. أتشرف بالتهنئة بالعيد! آ.. هـــ م!!؟»

جنس الذكور يتجمع حول الخيول والأبقار. التجارة هنا بعشرات، بل مئات الروبلات. وأطول المتاجرين باعاً في مجال الخيل هم، بالطبع، الغجر. يحلفون بالله، ويقسمون الإيمان ويدعون على أنفسهم بشتى البلايا شر دعاء. الفرس المبيع يُسلّم بوساطة الحاشية[1]، ومن هنا يتضح أن من لا حاشية له لا يستطيع بيعاً ولا شراء. وأكثر الخيول من الفعَلة، من الدهماء.

جنس الإناث يدور حول الأقمشة وأكشاك بيع الكعك المحلّى الذي وسمه الزمن الذي لا يرحم بميسمه. إنه مغطّى بصدأ حلو وعفن. اشتروا من هذا الكعك، ولكن، من فضلكم، أبقوه بعيداً عن أفواهكم وإلاّ حلّت المصيبة! الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكمثرى المجففة والكراميلا. أما الأقراص المخبوزة التعيسة فهي مغطاة بخيش ليفي وبالغبار. ولكن النساء لا يهمهن شيء. فالبطن ليس مرآة.

---

(١) المقصود حاشية الثوب. وقد جرت العادة على أن يسلم البائع الشاري زمام الفرس وهو يمسكه بحاشية ثوبه فيتسلمه هذا بالطريقة نفسها. (المترجم).

الذباب يعجز عن التهافت على العسل كما يتهافت الأولاد على كشك الدمى. النقود لديهم – لا وجود لها... وليس لهم إلاّ أن يقفوا ويلتهموا بأعينهم تماثيل الخيول والجنود والمسدسات القصديرية. العين بصيرة واليد قصيرة. ورُبّ جريء يتناول بيده مزماراً، يمسكه قليلاً، يقلبه، يزمر به، ثم يعيده إلى مكانه ويمسح أنفه راضياً. ليس هناك من كشك لا يتسكع حوله عشرون أو ثلاثون صبياً. يقفون ويتطلعون ساعتين أو ثلاثاً بصبر جهنمي حقاً. اشتروا لأي واحد منهم، لفيودوشكا أو بيوتر أو فاسيوتكا، مسدساً أو أسداً له وجه بقرة وخطوط سوداء على الظهر تفعموا قلبه بسعادة لا حد لها.

من وراء مرافق الصبيان تطل البنيات. أبصارهن مشدودة إلى الأحصنة نفسها وإلى الدمى التي ألبسوها تنورات من الشاش. كما يتجمع الأطفال حول بائعي البوظة[١] الذين يبيعون بوظة «سكرية» وفي غاية الرداءة. من يملك كوبيكا يأكل من القدح الأخضر. يأكل طويلاً، بتذوق وتلذذ وتمهل، خائفاً من ألاّ يقتنص لحظة الحبور، متمطقاً متلمظاً، لاعقاً اصابعه. واحد يأكل وعشرون من الذين لا يملكون كوبيكا يقفون «باستعداد» ويرمقون بحسد فم المحظوظ. وهذا يأكل ويتثنى...

- بيوتر، أعطني... ملعقة! – تئن بنت صغيرة وهي تتابع بعينيها يد المحظوظ اليمنى.

- ابتعدي! – يقول المحظوظ وهو يشدد من ضغط قبضته على القدح الأخضر.

- بيوتر! – يئن صبي يعتمر قبعة أبيه – أقرضني!

- مـــاذا؟

- بوظة سكرية.. قليلاً. (صمت) أتعطيني؟ ملعقة. سأعطيك خمس عظمات[٢].

---

(١) أي الآيس كريم

(٢) عظام يلعب بها الأطفال (المترجم).

- رح! يقول المحظوظ.

يأكل المحظوظ نصيبه، يتلمظ قليلاً، ويظل طويلاً طويلاً يعيش بذكرياته عن البوظة السكرية.

آه، لو كانت هناك نقود!! أين أنت يا ذوات الخمسة والخمسة عشر؟ ليس هناك أسوأ وأمض وأشدّ إيلاماً من أن تسير في السوق الموسمية معتمراً قبعة أبيك، وأن ترى وتسمع وتلمس وتشم ولا تملك، في الوقت نفسه، كوبيكا واحداً في جيبك. ما أسعد ذلك الفيودوشكا أو اليغوركا الذي يمكنه أن يأكل بوظة بكوبيك، وأن يطلق من المسدس على مسمع من الجميع، وأن يشتري حصاناً صغيراً بخمسة كوبيكات! سعادة ضئيلة تكاد لا ترى، ولكنها مع ذلك مفقودة.

الباحثون عن الضحك، والسكارى، والمتسكعون في السوق من دون شغل ينجذبون نحو سُرادِقَي الفنانين. ثمة مسرحان أقيما في وسط الساحة أحدهما بجانب الآخر، وكلاهما كئيب المنظر. لقد أقيما على عجل من قضبان وألواح رديئة رطبة زلقة وخرق بالية. على السقف الرقعة فوق الرقعة، والوصلة فوق الوصلة. قماءة مخيفة. على العوارض والألواح التي تمثل المنصة الخارجية يقف مهرِّجان أو ثلاثة يسلون الجمهور الواقف في الأسفل. والجمهور من النوع المتساهل جداً. إنه يضحك لا لأن هناك ما يضحكه، بل لأن الضحك واجب عند النظر إلى المهرج. المهرجون يغمزون، ويعوجون وجوههم ويتكلفون الإضحاك، ولكن.. أواه! إن أسلاف جميع مسارحنا البوشكينية[1] وغير البوشكينية قد انقضى عهدهم منذ زمن بعيد، وأنهوا خدمتهم من مدة طويلة جداً. في وقت ما كانت رؤوسهم أوعيةَ سخريةٍ لاذعة وحقائق مقتبسة من وراء البحار، أما الآن فإن لوذعيتهم تجعلك في حيرة، وفقر موهبتهم ينافس فقر أثاث مسرحهم. تسمعونهم فتصابون بالغثيان. إن الذين أمامكم ليسوا فنانين جوالين، بل ذئاب جائعة تسير

(١) المسرح البوشكيني (المسرح الدرامي الذي أسسه أ. أ. برينكو) كان من أوائل المسارح الخاصة في روسيا (الناشر).

على قدمين. الجوع، وليس أي شيء آخر ساقهم إلى الفن... إنهم يتضورون جوعاً! وتراهم على المنصة جائعين، رثّين، مهترئين، بوجوه سقيمة مهزولة، يتلوون ويجهدون في تعويج سحنهم البلهاء لكي يجتذبوا إلى سرادقهم شخصاً إضافياً يبحث عما يضحكه ويقبضوا عشرة كوبيكات إضافية... وسحنهم في النهاية لا تبدو بلهاء بل مبتذلة رخيصة: خليط من اللامبالاة والتكشير المتكلف المألوف الذي لا يعبر عن شيء. الغمز بالعين، واللطم على الوجه، والتضارب على الظهور، والتحدث إلى الجمهور بتبسط، التحدث إليه من علٍ.. ولا شيء أكثر. لا تصغوا إلى كلماتهم. فالفنانون يتحدثون عن تكلف لا عن إلهام، ولا وفق برنامج مدروس وهادف. كلامهم خال من المعنى. ينطقونه وهم يتمعجون. ولذا، على الأرجح، يكافؤون عليه بالضحك.

- قف باعتدال!

- أنا لست ماريا بيتروفنا بل ايفان فيدوسييف.

هذا نموذج من تنكيتهم. «المهرجون والأطفال يقولون الحقيقة أحياناً». ولكن المهرج كما يُفترض، يجب أن يكون مهرجاً بالسليقة كي يقول أحياناً الحقيقة، ولا ينطق دائماً بالهراء.

أما الجمهور الموقر فإنه يحملق ويستغرق في الضحك، وهو، على أية حال، معذور: فهو لم يشاهد أفضل من هذا، ثم إنه يشعر بالرغبة في الضحك على شيء ما. فالكعك المحلّى السيء، والفراغ، والسُّكْر (على الخفيف) لا ينقصها إلا الضحك، مجرد دفعة وتنفجر الضحكة.

في كل من سُرادِقَيْ الفرجة تُقدَّم كل ربع ساعة عروض باهرة، وفي المساء عروض خاصة خارقة للعادة. هاكم وصفاً لأحد هذه العروض.

أروع عرض قدّم قبل مغادرة الفنانين المدينة، في أول أحد بعد يوم افتتاح السوق. قبل الحفلة بيوم وزع المهرجون الإعلانات في المدينة (مكتوبة بخط اليد). وقد أحضروا إعلاناً لي أيضاً. وهاكم ما ورد فيه:

في مدينت[1] ن ن

بعد ازن المسؤولين في ساحة ن. ستقدم حفلة كبيره جنباظيه وبهلوانية من قبل جوقت الفنانين تحت إشراف ن. غ. ب. مؤلفه من الفنون الجنباظيه والبهلوانية والطآطيء واللوائح وفن الئيماء في فصلين.

١- حيل سحرية مدهشة وترهيفية من السحر الأبيض أو براعة ومهارة الأيادي. سيقدم حتى ٢٠ موضوع من قبل المهرج أوربيرت.

٢- قفزات ونطات شقلبة في الهوا يأديها المهرج دوبيرت والصغار في السن اندرياس ايفانسون.

٣- شخص انغليزي بدون عضام أو الكاوشوك مين الذي كل أعضاءه مرنة مسل المطاط.

٤- طأطوأه هزليه ايفانسون تيروخا يأديها صغير السن، (والبقية على هذا المنوال).

الساعة ٩ مساء سعر المقاعد:

المقعد ١ – ٥٠ ك.

المقعد ٢ – ٤٠ ك.

المقعد ٣ – ٣٠ ك.

المقعد ٤ – ٢٠ ك.

المقعد ٥ – ١٠ ك.

لقد اختصرت الإعلان ولكنني لم أتزيد فيه.

حضر الحفلة المذكورة جميع الوجهاء المحليين (رئيس الشرطة وأسرته، قاضي الصلح وأسرته، الدكتور، المعلم – المجموع ١٧ شخصاً). المثقفون ساوموا ولم يدفعوا سوى عشرين كوبيكا عن المقاعد الأولى. البطاقات يبيعها

---

(١) الأخطاء الإملائية معربة ولا تتطابق مواضعها مع الأصل بالضرورة (المترجم).

صاحب المسرح نفسه، وهو شخصية نموذجية إلى حد كبير. إنه نموذج حسب الذوق السائد في غراتشوفكا وديوكوفكا[1]. دفعنا ودخلنا وجلسنا في المقاعد الأولى. الجمهور يتدفق متدافعاً، والسرادق يمتلئ عن آخره.

السرادق من الداخل أبعد ما يكون عن الفخامة. بدل الستارة التي تقوم في الوقت نفسه بوظيفة الكواليس خرقة من الشيت في نحو ساجن[2] مربع. وبدل الثريا أربع شمعات. والفنانون يقومون عن طيب خاطر بوظيفة الفنانين ومراقبي التذاكر والشرطة. حاذقون في كل مهنة. وأفضل شيء هنا هو الأوركسترا التي استقرت على دكة إلى اليمين. العازفون أربعة. أحدهم يعزف على الكمان، والثاني على الهارمونيكا، والثالث على الفيولونسيل (بثلاثة أوتار كونترباسية) والرابع على الدف. أكثر ما يعزفون لحن «الرامي». وهم يعزفون بآلية وينشّزون تنشيزاً لا مزيد عليه. ناقر الدف يثير الإعجاب: إنه ينقر بكفه وبكوعه وبركبته، بل يكاد ينقر بكعبه. ينقر، كما يبدو، بتلذذ، بإحساس، بانسجام مع نفسه. تمر يده على الدف ببراعة ليست طبيعية، وتتراقص بين أصابعه نغمات لا يستطيع استيعابها حتى عازف الكمان. ويخيل للرائي أن يده تتحرك حول محورين طولي وعرضي.

قبل بدء الحفلة تدخل جوخية[3]، ترسم شارة الصليب وتجلس في أحد المقاعد الأولى. يدنو منها مهرج ويقول برجاء:

- لو سمحت بالجلوس في الرواق. هنا المقاعد الأولى.

- رُح!

- مالك جلست هكذا كالدب! اذهب! هذا ليس مكانك!

---

(١) شارعان في موسكو كانت تعيش فيهما فئة صغار البرجوازيين والتجار (الناشر).

(٢) الساجن: وحدة طول روسية قديمة تعادل ٢،١٣٤م.

(٣) دثار من الجوخ الغليظ يصل حتى الركبتين، غالباً ما يرتديه التجار الأفظاظ، ويكني به تشيخوف عن لابسه. (المترجم).

الجوخية صعبة المراس. إنها ترخي قبعتها فوق عينيها ولا تريد أن تتخلى عن مكانها.

تبدأ الألعاب السحرية. المهرج يطلب من الجمهور قبعة، والجمهور يرفض. يقول المهرج:

- إذن والألعاب السحرية لن تجري! أيها السادة هل هناك من لديه مخمسة[١]؟

الجوخية تعرض مخمستها. يقوم المهرج باللعبة، وبينما هو يتظاهر بأنه يعيد المخمسة يخبئها في كمه، فتخاف الجوخية.

- إيه يا هذا... انتظر! أنت يا أخ، ألاعيبك هنا لا تعرضها! هيا اعطني المخمسة.

المهرج يعلن: - هل منكم من يرغب في أن يحلق ذقنه أيها السادة؟

يخرج من بين الجمهور غلامان. يغطونهما ببطانية قذرة ويدهنون وجه أحدهما بالسخام ووجه الآخر بالنشاء. إنهم لا يجاملون الجمهور.

- وهل هؤلاء جمهور؟ - تصيح زوجة صاحب المسرح – هؤلاء من المغضوب عليهم.

بعد الألعاب السحرية تأتي البهلوانيات، وفيها «شقلبات» غير معهودة، وامرأة – هرقل تحمل بضفائرها أثقالاً يعجز عن حملها الشيطان. في منتصف الحفلة ينهار أحد جوانب السرادق، وفي نهايتها ينهار السرادق بكامله.

الانطباع على العموم ليس حسناً. الباعة والمشترون لم يكونوا ليخسروا إلاّ القليل لو لم يكن في السوق الموسمية مسرح الفرجة هذا. الفنان الجوال لم يعد فناناً. لقد غدا الآن دجالاً.

قرب سُرادِقَي الفنانين ثمة أرجوحة. لقاء خمسة كوبيكات يرفعونكم فوق جميع البيوت خمس مرات وينزلونكم خمس مرات. الآنسات يصبن بالدوار، والصبايا الفلاحات يشعرن بالحبور، كلٌّ وما يعجبه.

تموز ١٨٨٢

---

(١) قطعة نقدية من فئة خمسة الكوبيكات. (المترجم).

الخطبـة والسير

استدعانا للاجتماع في مكتبه، وبصوتٍ مرتعش مندّى بالدمع، صوتٍ مؤثر، رقيق، ودي، ولكنه لا يجيز الاعتراض، ألقى فينا خطبة، قال:

- إنني أعرف كل شيء، كل شيء! نعم! إنني أرى السرائر. لقد لاحظت منذ مدة طويلة هذا... اعني.. الـــ.. الـــ.. روح، الجو، النزعة. أنت يا تسيتسولسكي تقرأ شيدرين[1]. وأنت يا سبيتشكين تقرأ أيضاً شيئاً من هذا القبيل.. أعرف كل شيء.. أنت يا توبونوسوف تؤلف... تلك... أقصد... مقالات هكذا وهكذا... وتتصرف بحرية. أيها السادة! أرجوكم! أرجوكم لا كرئيس، بل كإنسان... في وقتنا هكذا لا يجوز.. هذه الليبرالية يجب أن تختفي.

تكلم على هذا المنوال طويلاً جداً. نال منا كلنا، ونال من النزعة الحالية، وأثنى على العلوم والفنون مع استدراك حول الحدود والأطر التي لا يجوز للعلوم أن تتجاوزها، وتطرق إلى الحديث عن حب الأمهات... كنا نحن نمتقع ونتضرج بالحمرة ونصغي. كانت أرواحنا تتطهر بكلماته. شعرنا بالرغبة في الموت من شدة الندم. شعرنا بالرغبة في تقبيله والركوع أمامه.. والانتحاب. نظرت إلى ظهر أمين الأرشيف وخيل إلي أن هذا الظهر لا يبكي لسبب واحد فقط هو أنه يخشى أن يعكر الهدوء العام.

---

(١) سالطيكوف شيدرين (١٨٢٦- ١٨٩٨) أديب روسي ثوري في كتاباته يفضح السلطة القيصرية ويحرض على الثورة (المترجم).

أنهى خطبته بقوله: - اذهبوا! أنا نسيت كل شيء! إنني لست حقوداً... أنا.. أنا.. أيها السادة! التاريخ يقول لنا.. إذا كنتم لا تصدقونني.. صدقوا التاريخ... التاريخ يقول لنا...

ولكن يا للأسف! لم نعرف ماذا يقول لنا التاريخ. فقد ارتجف صوته واغرورقت عيناه بالدموع، وعرقت نظارته، وارتفعت في اللحظة ذاتها أصوات نشيج: كان تسيتسولسكي يبكي. احمرّ سبيتشكين كسرطان مسلوق. ودسسنا أيدينا في جيوبنا طلباً للمناديل. طفق هو يطرف بعينيه، ومد يده أيضاً ليخرج منديله.

- اذهبوا! – غمغم بصوت باك – اتركوني! اتركو... ني.. نـــ نـــ نعم...

ولكن أواه! إذا نزعتم من الساعة لولباً صغيراً أو ألقيتم فيها حبة رمل تافهة –فإنها تتوقف. والانطباع الذي ولدته الخطبة تلاشى كالدخان وهو على أعتاب ذروته بالضبط. الخاتمة الاحتفالية لم تتحقق... وبسبب ماذا؟ بسبب هنة تافهة!

فقد دس يده في جيبه الخلفي وأخرج منه مع المنديل سَيْراً ما. عن غير قصد بالطبع. تلوّى السير الصغير المتسخ الجاف قليلاً في الهواء كالثعبان وسقط عند قدمي أمين الأرشيف. رفعه هذا بكلتا يديه ووضعه على الطاولة وجوارحه كلها ترتعش احتراماً، همس: - السير...

ابتسم تسيتسولسكي. لاحظت ابتسامته فإذا بي أنفجر ضاحكاً رغم إرادتي وأكتم الضحكة بقبضتي، كأي غبي... كصبي صغير! وبعدي انفجر سبيتشكين ضاحكاً، وبعده تريوخكابيتانسكي، وتدمَّر كل شيء. انهار البناء. سمعت صوتاً مدوياً يسأل: - ما الذي يضحكك يا هذا؟

يا ساتر يا رب! تطلعت: فإذا بعينيه تنظران إليّ، إليَّ وحدي، وبإصرار!

- أين تظن نفسك؟ هل أنت في حانة آ؟ أتنسى نفسك؟ قدم استقالتك، أنا لست بحاجة إلى ليبراليين.

تشرين الأول ١٨٨٢

لوحة رعوية – أواه! وآه!

- عمي إنسان رائع جداً! – قال لي غريشا أكثر من مرة. وهو ابن الأخ الفقير والوارث الوحيد للكابتن ناسيتشكين – إنني أحبه من كل قلبي... زره يا عزيزي، سيكون سعيداً جداً بزيارتك!

كانت الدموع تترقرق في عيني غريشا عندما يتحدث عن عمه. ومما يشرفه أنه لم يكن يخجل من هذه الدموع الطيبة، وكان يبكي أمام الملأ! لبيت رجاءه المتكرر وزرت الكابتن منذ أسبوع. عندما دخلت غرفة الانتظار وتطلعت إلى الصالة شاهدت لوحة مؤثرة. كان الكابتن الشيخ النحيل يجلس على كنبة كبيرة وسط الصالة ويحتسي الشاي. وكان غريشا يركع أمامه على إحدى ركبتيه ويحرك له الشاي بالملعقة بحنان.

حول رقبة الشيخ البنية كانت تلتف يد جميلة، يد خطيبة غريشا... وكان ابن الأخ الفقير وخطيبته يتسابقان في تقبيل العم، ولا يضنان عليه بالقبلات.

غمغم ناسيتشكين وهو يَشْرَق بالسعادة:

- والآن تباوسا أنتما يا وريثيّ!

كانت تربط بين هؤلاء المخلوقات الثلاثة صلة تثير أشد مشاعر الحسد.. وأنا، الإنسان القاسي، كان قلبي يذوب من السعادة والحسد وأنا أنظر إليهم...

قال ناسيتشكين:

- نعم! بإمكاني القول: إنني قد عشت حياتي! وأدعو بهذا للجميع! فكم أكلت من صنف الحفش[١] وحده! فظاعة! لنأخذ، مثلاً، تلك الحفشة التي أكلناها في سكوبين.. هـــ م! حتى في هذه اللحظة يسيل ريقي...

- احكِ لنا، احكِ لنا عنها!

تقول الخطيبة.

- ذهبت مرة، يا ولديّ، إلى سكوبين مع أُلوفي، ورأساً... هـــ.. م.. إلى ريكوف[٢]... السيد ريكوف. إنه شخص... أوه.. إنسان من ذهب! جنتلمان! استقبلني كقريب له.. أي والله! ضيفني قهوة... وبعد القهوة مقبلات... ثم المائدة، وعلى المائدة المشروبات بالجملة والمفرق... الحفش... من الزاوية إلى الزاوية... السرطانات البحرية... الكافيار... مطعم كامل!

دخلتُ الصالة وقطعت حديث ناسيتشكين. كان هذا بالضبط في ذاك اليوم الذي وصل فيه إلى موسكو أول نبأ برقي[٣] عن أن مصرف سكوبين قد أفلس.

قال لي ناسيتشكين بعد التحيات الأولى:

- أَستمتعُ بالأولاد! – ثم التفت إلى «الأولاد» وتابع حديثه متباهياً: والمجتمع نبيل.. موظفون كبار، ورجال دين.. رهبان وكهنة.. وبعد كل كأس نقترب لنوال البركة.. وهو مغطى بالأوسمة، يمرغ أنف أي جنرال.. أكلنا الحفش، قدموا واحداً آخر... أكلناه... ثم قدموا حساء من الحفش الصغير... ودُرّاجا..

قلتُ: - لو كنت مكانك لعانيت الآن من الفُواق والحرقة من هذه الحفوش.. وأنت تتباهى... هل فقدت الكثير من جراء ريكوف؟

---

(١) نوع من السمك الفاخر.

(٢) ايفان غافريلوفتش ريكوف: مدير مصرف سكوبين (الناشر).

(٣) نشر أول خبر عن إفلاس مصرف سكوبين في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٨٨٢ في جريدة «المراسل الروسي» (الناشر).

- ولماذا أفقد؟

- كيف لماذا؟ المصرف قد أفلس!

- مزاح! أسطوانة قديمة... وقبل الآن خوفوني...

- يعني إنك لم تعلم بعد؟ يا الهي! سيرابيون يغوريتش! إن هذا.. هذا.. هذا.. اقرأ!

مددت يدي إلى جيبي وأخرجت جريدة. وضع ناسيتشكين نظارته وأخذ يقرأ وهو يبتسم غير مصدق. وكان كلما قرأ أكثر ازداد شحوبه وتطاولت سحنته.

- أفـــ.. أفـــ.. أفـــ أفـــ فلس – طفق يولول ويرتجف بكل جوارحه – آه يا رأسي المسكين!

احمر غريشا، ثم قرأ الجريدة فاصفر... وامتدت يده المرتعشة إلى قبعته.. وأخذت الخطيبة تترنح...

- أيها السادة! أحقاً لم تعرفوا هذا إلاّ الآن؟ إن موسكو كلها تتحدث الآن عن هذا. أيها السادة! اهدؤوا!

بعد ساعة كنت أقف وحيداً أمام الكابتن وأواسيه:

- كفى يا سيرابيون يغوريتش! طيب، وماذا يعني؟ النقود ضاعت ولكن بقي «الأولاد».

- هذا حق... النقود لا قيمة لها... المهم الأولاد.. هذا صحيح.

لكن أواه! بعد أسبوع التقيت غريشا. قلت له:

- زر يا عزيزي عمك! لماذا لا تزوره؟ هجرت الشيخ بالمرة!

- فليذهب إلى الشيطان! أية حاجة لي إليه الآن! هذا الشيطان الهرم! أحمق! ألم يكن بمقدوره أن يجد مصرفاً آخر؟!

- لكن مع ذلك اذهب لزيارته. إنه عمك على كل حال.

- هو؟ ها – ها!.. أتضحك؟ من أين جئت بهذا؟ إنه ابن ابن عم خالتي زوجة أبي! سبعون جداً لا يجمعني بجده! ابن عم حداد نجارنا!

- طيب أرسل خطيبتك إليه على الأقل!

- نعم! الشيطان شدّك من كمك عندئذ كي تريه الجريدة قبل الزفاف! لم تستطع أن تؤخر أخبارك حتى الزفاف!.. إنها الآن تدير سحنتها، فهي أيضاً كانت تفتح فمها لتقضم فطيرة العم. حمقاء معفرتة... خاب أملها الآن.

وهكذا، وعن غير رغبة مني، هدمت هذا الثلاثي الشديد التماسك... هذا الثلاثي المحسود إلى أبعد حد!

كانون الأول ١٨٨٢

* * *

البَـارون

البارون شيخ ضئيل نحيل في الستين من عمره. يشكل عنقه مع عموده الفقري زاوية منفرجة ستصبح قائمة عما قريب. رأسه كبير ذو زوايا، وعيناه كابيتان، وأنفه كالكوز، وذقنه ليلكي. ثمة زرقة خفيفة تتسفح على كامل وجهه، وذلك، على الأرجح، لأن الكحول موجود في تلك الخزانة التي قلما يوصدها خازن أدوات التمثيل بالمفتاح. إلاّ أنه يتعاطى أحياناً، علاوة على الكحول الرسمي، بعض الشمبانيا التي غالباً ما يمكن العثور عليها في قعور القناني والأكواب في غرف ملابس الممثلين. خدّاه والكيسان اللذان تحت عينيه متهدلة ولا تنفك ترتعش كخرق معلقة لتجف. على صلعته مسحةُ خضرةٍ خفيفة من البطانة الخضراء لقلنسوته الفروية الضافية على الأذنين، التي كان عندما لا يعتمرها يعلقها على مصباح الغاز العاطل الموضوع خلف الكالوس الثالث. صوته يتهدج كطنجرة تقعقع. وبذلته؟ إذا كنتم تضحكون على هذه البذلة فهذا يعني أنكم لا تعترفون بالمشاهير، وهو أمر لا يشرفكم. سترة بنية دون أزرار بمرفقين لماعين وبطانة تحولت إلى شراريب، سترة رائعة. إنها تتدلى من على كتفي البارون الضيقتين كما لو كانت معلقة على مشجب مكسور. ولكن... فيم يضيرها هذا؟ فهي بالمقابل كانت في وقت ما تضم جسماً عبقرياً لواحد من أعظم الممثلين الكوميديين. الصدار المخملي الموشى بزهور زرقاء يحتوي على عشرين خَرقاً وعدد لا حصر له من البقع، ولكن لا يجوز طرحه لأنهم عثروا عليه في الغرفة التي كان ينزل فيها سالفيني[1] الجبار! فمن يستطيع أن

---

(١) تومازو سالفيني: (١٨٢٩-١٩١٦) ممثل ايطالي فذ، زار موسكو ومثّل على مسارحها في نيسان ١٨٨٢. بلغت شهرته القمة في دور عطيل. (الناشر).

يجزم أن هذا الصدار لم يكن يلبسه الممثل التراجيدي نفسه؟ وقد عثر عليه في اليوم التالي لسفر الفنان العملاق، وعلى هذا يمكن القَسم أنه ليس مزيفاً. وشاح الرقبة الذي يدفئ عنق البارون ليس أقل روعة، ويمكن التباهي به مع أن الواجب يقضي، لاعتبارات صحية وجمالية بحتة، الاستعاضة عنه بآخر أكثر متانة وأقل اتساخاً. فُصّل هذا الوشاح من رفات ذاك المعطف العظيم الذي كان يغطي كتفي ارنستو روسي[1] وهو يحاور الساحرات في «مكبث». غالباً ما يقول البارون وهو يفلّي وشاح عنقه بحثاً عن الطفيليات:

- من وشاحي تفوح رائحة دم الملك دونكان!

أما بنطال البارون المرقش المخطط فبوسعكم الضحك منه ما طاب لكم ذلك، إذ لم يكن يرتديه قبلاً أي شخص من المشاهير، على الرغم من أن الممثلين يقولون مازحين إن هذا البنطال قد خيط من شراع السفينة التي سافرت فيها سارة برنار إلى أميركا. وقد ابتيع من مراقب التذاكر رقم ١٦.

ينتعل البارون في الشتاء والصيف جرموقاً ضخماً كي يصون حذاءه ويتقي أضرار البرد بقدميه المصابتين بالروماتيزم في مجرى الهواء الذي يتجول عنده على أرضية حفرة التلقين.

ويمكن مشاهدة البارون في ثلاثة أماكن فقط: كشك التذاكر وحفرة التلقين وغرفة ملابس الرجال خلف المسرح. وهو لا يوجد ولا يكاد العقل يتصوره في غير هذه الأماكن. في كشك التذاكر يبيت ليلاً، ويسجل أسماء حاجزي المقصورات ويلعب الداما مع قاطع التذاكر نهاراً.

وقاطع التذاكر الهرم المصاب بداء الخنزرة هو الشخص الوحيد الذي يصغي إلى البارون ويجيب عن أسئلته. أما في حفرة التقلين فإن البارون يقوم بواجبه المقدس. هنا يكسب لقمة عيشه الضرورية، وحفرة التلقين هذه مطلية

---

(١) ارنستو روسي (١٨٢٧-١٨٩٦) ممثل ايطالي كبير، اشتهر في أداء مسرحيات شكسبير. مثل في روسيا عامي ١٨٧٧ - ١٨٧٨.

بدهان أبيض لماع من الخارج فقط، أما من الداخل فإن جدرانها مغطاة بنسيج العنكبوت والشقوق والنواتئ الحادة، وتنبعث منها رائحة الرطوبة والسمك المدخن والكحول. خلال الفواصل يقضي البارون الوقت في غرفة ملابس الممثلين. والجُدد من هؤلاء الذين يدخلون الغرفة أول مرة يقهقون ويصفقون عندما يشاهدونه إذ يظنونه ممثلاً، ويصيحون بإعجاب:

- براڤو! براڤو! مكياجك ظريف! يا لهذه السحنة المضحكة! ومن أين حصلت على هذه البذلة المبتكرة؟

يا للبارون المسكين! إن الناس لا يمكنهم الافتراض أن هذا الوجه هو وجهه.

في غرفة الملابس يتمتع بتأمل «النجوم» أو، إذا لم يكن ثمة نجوم، يتجرأ على أن يقحم ملاحظاته في أحاديث الآخرين، والملاحظات عنده كثيرة جداً، ولكن لا أحد يسمعها لأنها قد أبرمت الجميع، وتفوح منها رائحة الروتين. إنهم يسدون آذانهم دونها من غير أية مجاملة. وهم لا يحبون المجاملة عموماً مع البارون. فإذا ما أخذ يروح ويجيء بينهم ويضايقهم يقولون له: انقلع! وإذا ما انخفض همسه من حفرة التلقين أكثر من اللزوم أو ارتفع أكثر من اللزوم ينهالون عليه بالتوبيخ ويهددونه بالتغريم أو الإقالة. وهو يؤدي دور الدريئة التي تسدد إليها أغلبية النكات والتوريات خلف الكواليس. يمكن للمرء أن يجرب لوذعيته فيه بجرأة: فهو لن يجيب.

لقد مر عشرون عاماً منذ أن بدؤوا يشاكسونه بلقب «البارون»، ولكن لم يحدث خلال هذه الأعوام العشرين أن احتج مرة على هذا اللقب.

كما يمكن أيضاً أن يبتسم ويعتذر ويرتبك عندما يدوسون على قدمه. وإذا ما ضربته على خديه المتغضنين أمام الناس فإنه، وأنا أضمن لك هذا بشرفي، لن يشتكي إلى القاضي. وإذا انتزعت من سترته الرائعة التي يحبها بحرارة قطعة من البطانة مثلما فعل ممثل دور الفتى الأول[١] منذ بعض الوقت فإنه

---

(١) بالفرنسية في الأصل «jeune Premier».

لن يفعل أكثر من أن يطرف بعينيه ويتضرج بالحمرة. إلى هذا الحد بلغت به روح المسكنة والرضوخ. لا أحد يحترمه. وهم يحتملونه ما دام حياً، وعندما سيموت سينسونه على الفور. إنه مخلوق يثير الشفقة!

على حين كان ثمة وقت في الماضي كاد فيه البارون أن يغدو رفيقاً وأخاً لأناس كان ينحني لهم ويحبهم أكثر مما يحب الحياة نفسها. (لم يكن بوسعه ألاّ يحب الأشخاص الذين يصبحون أحياناً هاملت أو فرانس مور!). وهو نفسه كاد أن يصير فناناً، وكان، على الأرجح، يمكن أن يصير بالفعل لو لم يحل بينه وبين ذلك أمر تافه مضحك. الموهبة كانت وافرة، والرغبة أيضاً، وفي المرة الأولى كانت هناك الواسطة كذلك، ولم يكن ينقص سوى شيء تافه: الجرأة. كان يخيل إليه دائماً أن تلك الرؤوس التي ترصع الطوابق الخمسة تحت وفوق ستتشرع في الضحك وإطلاق صيحات الاستهجان حالما يسمح لنفسه بالظهور على الخشبة. كان يصفَرُّ ويحمَرُّ ويقشعر جسمه من الرعب عندما كانوا يعرضون عليه أن يبدأ التمثيل.

كان يقول: - سأتريث قليلاً.

وظل يتريث إلى أن شاخ وأفلس، وانتهى به الأمر، بفضل الواسطة، إلى حفرة التلقين.

أصبح ملقناً، ولكن هذا ليس مصيبة. إنهم الآن لن يطردوه من المسرح بحجة أنه لا يملك تذكرة: فهو شخص له وظيفة. إنه يجلس أمام الصف الأول ويرى أفضل من الجميع، ولا يدفع لقاء مقعده أي شيء. هذا جيد. وهو سعيد وراض.

إنه يقوم بواجبه على أروع وجه. قبل العرض يعيد قراءة المسرحية عدة مرات كيلا يخطئ، وعندما يرن الجرس الأول يكون هو قد جلس في الحفرة وراح يقلب صفحات كراسته. من الصعب أن تجد من هو أكثر منه اجتهاداً في المسرح كله.

ولكن مع ذلك يجب طرده من المسرح. إذ لا يجوز التغاضي عن الفوضى هنا. والبارون يسبب في بعض الأحيان فوضى رهيبة. إنه مثير للفضائح.

فعندما يجيدون التمثيل على الخشبة إجادة فائقة يحول بصره عن كراسته ويكف عن الهمس. وفي أحيان كثيرة يقطع قراءته بالهتاف: براڤو! عظيم! ويسمح لنفسه بالتصفيق في أوقات لا يصفق فيها الجمهور. بل إنه أطلق مرة صفرة استهجان كاد أن يفقد وظيفته بسببها.

وعلى العموم ليتكم ترونه وهو يجلس في حفرته النتنة ويهمس. إنه يحمَرُّ ويصفَرُّ ويومئ بيديه ويهمس بصوت عالٍ أكثر مما يجب وتتقطع أنفاسه. في بعض الأحيان يُسمع صوته حتى في الممرات. حيث يتثاءب مراقبو التذاكر قرب مشجب المعاطف. بل إنه يسمح لنفسه بالشتم من حفرته وتوجيه النصائح للممثل. غالباً ما يهمس: ارفع يدك اليمنى! كلماتك حارة ولكن وجهك كالجليد! هذا الدور ليس لك! إنك لا تزال غراً بالنسبة إلى هذا الدور! ليتك رأيت ارنستو روسي وهو يؤديه! ما لزوم المبالغة؟ آه، يا إلهي! لقد أفسد كل شيء بتكلفه الفج!

وهو يهمس بمثل هذه الأشياء بدلاً من الهمس بما هو مكتوب في الكرّاسة. وعبثاً يحتملون هذا الشخص الغريب. لو أنهم طردوه لما كان على الجمهور أن يشهد تلك الفضيحة التي حدثت منذ أيام. وقد حدثت الفضيحة على النحو الآتي:

كانوا يمثلون «هاملت». وكان المسرح ممتلئاً. فشكسبير يجد في أيامنا الإقبال نفسه الذي كان يجده قبل مئة عام. وعندما يقدمون شكسبير يكون البارون في أشد حالات الانفعال. يشرب كثيراً، ويتكلم كثيراً، ولا يني يفرك صدغيه بقبضتيه. وخلف الصدغين يغلي ويفور عمل قاس. يموج الدماغ العجوز بحسد مسعور وباليأس والكره والأحلام... كان ينبغي له هو أن يمثل هاملت، على الرغم من أن هاملت لا ينسجم مع الحدبة ومع الكحول الذي ينسى خازن الأدوات المسرحية أن يغلق دونه بالمفتاح. أجل، له هو، لا

لهؤلاء الأقزام الذين يمثلون اليوم دور الخدم وغداً دور القوادين وبعد غد هاملت! أربعون سنة مرت وهو يدرس هذا الأمير الدانمركي الذي يحلم به جميع الفنانين المحترمين، والذي لم يكلل بالغار هامة شكسبير وحده. أربعون سنة مرت وهو يدرس ويعاني ويحترق بالحلم... الموت لم يعد بعيداً... سيأتي عما قريب ويأخذه من المسرح إلى الأبد... ليته يسعد مرة واحدة في الحياة بالسير على الخشبة في ملابس الأمير قرب البحر، بجانب الصخور.

حيث إقفار المكان وحده

يكاد يسلمك بنفسه

إلى اليأس، عندما تنظر إلى الهاوية

وتسمع فيها اصطفاق الأمواج البعيد

وإذا كانت حتى الأحلام تذيب المرء لا يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، فبأية نار كان سيحترق البارون الأصلع لو أن الحلم تحول إلى واقع. في تلك الأمسية كان على استعداد لأن يزدرد العالم كله من شدة الحسد والحقد. فقد أسندوا دور هاملت إلى صبي يتكلم بصوت تينور رخو، والأدهى أنه أحمر الشعر، فهل كان هاملت أحمر؟

كان البارون يجلس في حفرته كالجالس على الجمر. عندما لا يكون هاملت موجوداً على الخشبة، يظل هادئاً بعض الشيء، ولكن ما إن يظهر التينور الرخو الأحمر الشعر حتى يأخذ يتململ ويحوم ويتذمر. كان همسه أشبه بالأنين منه بالقراءة. وكانت يداه ترتجفان، والصفحات تختلط، والشمعدانات تُقَرَّب تارة وتُبعد تارة أخرى.. كان يغرز عينيه في وجه هاملت ويكف عن القراءة... وتستبد به رغبة جامحة في أن ينتف شعر الرأس الأحمر حتى آخر شعرة. فالأفضل أن يكون هاملت أصلع من أن يكون أحمر! مسخرة! مسخرة فظيعة! يا للشيطان!

في الفصل الثاني لم يعد يهمس بالمرة، بل كان يتضاحك بحقد، ويسب ويصدر أصوات استهجان. ومن حسن حظه أن الممثلين كانوا يعرفون أدوارهم جيداً، فلم يلقوا بالا إلى صمته. كان يسب قائلاً:

- ممتاز هاملت! لا كلام عليه! ها – ها! هؤلاء السادة، خريجو الكلية العسكرية، لا يعرفون مكانهم المناسب! ينبغي لهم أن يركضوا وراء الخياطات لا أن يمثلوا في المسرح! لو كان لهاملت مثل هذا الوجه الغبي، لما كان شكسبير، على ما أظن، قد كتب مأساته! وعندما سئم من السب والشتم عكف على تعليم الممثل الأحمر الشعر. أخذ يومئ بيديه ووجهه ويقرأ ويدق على الكرّاسة بقبضتيه مطالباً الممثل بأن يتبع إرشاداته. كان بحاجة إلى أن ينقذ شكسبير من الإهانة. وهو مستعد لفعل أي شيء من أجل شكسبير: حتى لو أدى الأمر إلى إثارة مئة ألف فضيحة!

كان هاملت الأحمر الشعر فظيعاً وهو يتحدث مع الممثلين. كان يتصنع كذاك «الفتى الضخم الطويل الشعر» الذي يقول عنه هاملت نفسه «ممثل كهذا بوسعي أن أجلده». وعندما بدأ بالإلقاء لم يعد البارون يحتمل. أخذ يدق بصلعته سقف الحفرة وهو يلهث، ووضع يده اليسرى على صدره، وراح يومئ باليمنى. وبصوت هرم منهك قاطع الممثلَ الأحمر وأرغمه على النظر نحو حفرة التلقين:

ملتهباً بالغضب

مكتسياً بالدم الخاثر

وعيناه كجمرتين

راح فرهوس الجهنمي

يبحث عن الشيخ فريام

وخرج البارون بنصفه الأعلى من الحفرة وهز رأسه للممثل الأول، ثم أضاف بصوت تخلى عن نبرة الإلقاء المسرحي وأصبح متهاوناً خابياً:

- تابـــع!

وتابع الممثل الأول ولكن ليس فوراً. تلكأ دقيقة، وران في المسرح خلال هذه الدقيقة صمت عميق. وكان الذي خرق هذا الصمت هو البارون نفسه، إذ بينما كان ينسحب إلى الخلف ارتطم رأسه بحافة الحفرة. وارتفع صوت ضحك.

- براڤو، أيها الطبال!

صاحوا من الشرفة العليا. كانوا يظنون أن الذي قاطع هاملت ليس الملقن بل الطبال الشيخ الذي كان يغفو وهو في الأوركسترا. أخذ الطبال يتبادل الانحناءات بأسلوب تهريجي مع متفرجي الشرفة العليا، وانفجر المسرح كله بالضحك. الجمهور يحب حوادث سوء التفاهم المسرحية، ولو أنهم بدل المسرحيات يقدمون سوء تفاهم لدفع الجمهور ضعف ما يدفعه.

تابع الممثل الأول، وعاد الصمت يستتب شيئاً فشيئاً. لكن البارون الغريب الأطوار عندما سمع الضحك احمرّ خجلاً وأمسك صلعته بيديه ناسياً، على الأرجح، أنها الآن خالية من الشعر الذي كانت تعشقه النساء الجميلات يوماً ما. الآن، فضلاً عن أن المدينة بأسرها وجميع المجلات الفكاهية ستضحك عليه، سيطردونه من المسرح أيضاً! كان يتقد خجلاً ويغتاظ من نفسه، ولكنه في الوقت نفسه كان يرتعش بكل جوارحه ابتهاجاً: فهو قد ألقى إلقاءً مسرحياً!

كان يفكر: «هذه ليست شغلتك أيها المزلاج العجوز الصدئ! شغلتك أن تكون ملقناً فقط، إذا كنت لا تريد أن يصفعوك على قفاك كأي خادم وضيع. ولكن أياً كان الأمر فإن هذا يثير السخط حقاً! الصبي الأحمر لا يريد بحال من الأحوال أن يمثل بشكل معقول، وهل يُؤدّى هذا المشهد هكذا؟!»

غرز البارون عينيه في الممثل وعاد ثانية إلى دمدمة الإرشادات. مرة أخرى لم يحتمل، ومرة أخرى جعل الجمهور يضحك. لقد كان هذا الإنسان الغريب مفرطاً في العصبية. وعندما توقف الممثل قليلاً في أثناء إلقائه المونولوج الأخير من الفصل الثاني من أجل أن يهز رأسه وهو صامت،

ارتفع الصوت مرة أخرى من حفرة التلقين مفعماً بالمرارة والاحتقار والكراهية، ولكن أواه! كان صوتاً واهناً حطمه الزمن:

هذا المرائي المجرم الخليع

هذا الوغد الفاجر الغادر العديم الضمير

صمت البارون نحو عشر ثوان، ثم تنهد بعمق وأضاف بصوت ليس بذاك العلـــو:

ولكن يا لي من حمار! أجل ما أجمل صنيعي

كان يمكن لهذا الصوت أن يكون صوت هاملت الحقيقي، لا هاملت الأحمر، لو لم يكن في الحياة شيخوخة. الشيخوخة تفسد الكثير وتحول دون الكثير.

يا للبارون المسكين! لكن على كل حال، ليس هو الأول ولن يكون الأخير.

الآن سيطردونه من المسرح. وافقوا معي على أن هذا الإجراء ضروري.

كانون الأول ١٨٨٢

* * *

معَانـاة

«لوحَة نفسية»

عيد رأس السنة. خرجت إلى الردهة، حيث كان يقف، إضافة إلى البواب، عدد من زملائنا: ايفان ايفانيتش، بيوتر كوزميتش، يغور سيدوريتش... وقد جاؤوا جميعاً ليوقعوا على الصحيفة التي كان تستقر بجلال على الطاولة. (الورقة، بالمناسبة، كانت من النوع الرخيص رقم ٨).

ألقيت نظرة على الصحيفة. التواقيع كثيرة جداً و... يا للرياء! يا للنفاق! فأين أنت أيتها التلافيف والعطفات والعقفات والذيول؟! كل الحروف هنا مدورة، مستقيمة، ملساء كأنها خدود وردية. إنني أرى أسماء مألوفة ولكنني لا أكاد أعرفها. ألم يغير هؤلاء السادة خطهم يا ترى؟

دسست الريشة في الدواة باحتراس، ولا أدري لم ارتبكت. وحبست أنفاسي، وبحذر خططت كنيتي. عادة لم أكن أكتب في توقيعي التاء المربوطة في الآخر، ولكنني في هذه المرة كتبتها ووضعت النقطتين.

- هل تريد أن أقضي عليك؟

سمعت صوت بيوتر كوزميتش وأحسست بأنفاسه قرب أذني.

- بأية طريقة؟

- ببساطة... أمد يدي وأقضي عليك! آ؟ هل تريد؟ هيء.. هيء.. هيء..

- لا يجوز الضحك هنا يا بيوتر كوزميتش، لا تنس أين أنت.. الابتسام هنا ليس في محله بالمرة... اعذرني، ولكنني أظن أن هذا امتهان، عدم احترام، إنه...

- أتريد أن أقضي عليك؟

- بأية طريقة؟

- بالطريقة نفسها التي قضى بها عليّ الفون كلاوزن منذ خمس سنوات... هيء.. هيء.. هيء.. بمنتهى البساطة، ما عليَّ إلاّ أن أضع بجانب كنيتك عقفة، أو ذيلاً، هيء.. هيء.. هيء.. وأجعل توقيعك يستخف بالآخرين. أتريد؟

شحب لوني. لقد كانت حياتي، بالفعل، بين يدي هذا الإنسان ذي الأنف المزرق. نظرت بخوف وبشيء من الاحترام إلى عينيه المنذرتين بالشر...

ما أقل ما يلزم لسحق الإنسان!

- أو أنني سأنقط حبراً جانب توقيعك. أحدث بقعة... أتريد؟ ران صمت. كلانا سكت... هو، شاعراً بقوته، مهيباً، متكبراً، حاملاً السم القاتل بيده، وأنا، شاعراً بعجزي، بائساً، أقف على شفا الهلاك. غرز عينيه الثاقبتين في وجهي الشاحب، ورحت أتحاشى نظرته...

وفي النهاية قال:

- لقد كنت أمزح.. لا تخف.

قلت:

- أوه، إنني أشكرك.

وشددت على يده وأنا مفعم بالعرفان.

- كنت أمزح.. ومع ذلك فإنني أستطيع.. تذكر هذا.. واذهب ما دمت أمزح... وفيما بعد يصنع الله ما يشاء...

كانون الأول ١٨٨٢

غشّاشون بالرغم منهم

(كذبة رأس السنة)

في منزل زاخار كوزميتش ديايديتشكين سهرة. إنهم يحتفلون بعيد رأس السنة ويهنئون ربة المنزل ميلانيا تيخونوفنا بعيد شفيعها.

الضيوف كثر. وكلهم أناس محترمون، رزينون، صاحون، عمليون. ليس بينهم أي نذل. على الوجوه تبدو الرقة والمسرة وعزة النفس. في الصالة على ديوان مكسو بالمشمع يجلس مالك الشقق المؤجِّر غوسيف وصاحب الدكان رازماخالوف الذي تشتري أسرة ديادتيشكين لوازمها من دكانه «على الدفتر». وهما يتحادثان عن الشبان والفتيات.

يقول غوسيف:

- من الصعب أن تجد الآن شخصاً لا يشرب... ويعول عليه.. شخصاً يعمل بجد... صعب!

- أهم شيء في البيت هو النظام يا ألكسي فاسيليتش! وهذا لن يكون إذا لم يكن في البيت ذاك... الذي.. أقصد النظام في البيت.

- إذا لم يكن في البيت نظام، عندها... كل شيء هكذا... الأغبياء أصبحوا كثيرين في هذا العالم... فمن أين يأتي النظام؟ هــ م...

بالقرب منهما ثمة ثلاث عجائز يجلسن على الكراسي وينظرن إلى فميهما بتأثر، وقد بدت في عيونهن الدهشة من فرط «هذا الذكاء». وفي الزاوية يقف عراب ابن الأسرة غوري ماركوفتش متأملاً الأيقونة. وثمة ضجة في غرفة

نوم أصحاب البيت حيث يلعب الشبان والشابات في اللوتو[1]. مقدار الرهان كوبيك. وقرب الطاولة يقف تلميذ الصف الأول كوليا ويبكي. فهو يريد أن يلعب في اللوتو، إلاّ أنهم لا يسمحون له بالجلوس إلى الطاولة. ولكن ما ذنبه إذا كان صغيراً، ولا يملك كوبيكا، ينصحونه محذرين: - لا تبك أيها الأحمق! ولماذا تبكي؟ هل تريد أن تضربك أمك؟

يرتفع صوت الأم من المطبخ قائلة:

- من الذي يبكي؟ كولكا؟ إنني لم أضربه بما فيه الكفاية.. هذا الشقي.. ڤارڤارا غورييفنا، شدّيه من أذنه!

على سرير رب المنزل المجلّل بغطاء من الشيت الحائل اللون تجلس فتاتان ترتديان ثوبين ورديين، وأمامهما يقف الشاب كوبايسكي الموظف في شركة التأمين، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ووجهه من الأمام شديد الشبه بوجه الهر. إنه يغازلهما. يقول بتصنع وهو يشد بأصابعه ياقته العالية التي تحز عنقه:

- أنا لا أنوي الزواج. المرأة نقطة مشعة في العقل الإنساني، ولكنها يمكن أن تقضي على الإنسان. إنها كائن حقود.

- والرجال؟ الرجل لا يمكنه أن يحب، وهو في أكثر الأحيان فظ.

- ما أشد سذاجتكما! أنا لست كلبيا أو ريبيا، ومع ذلك فإنني أفهم أن الرجل سيظل دائماً يقف في المرتبة العليا من حيث المشاعر.

دياديتشكين نفسه وابنه البكر غريشا لا ينفكان يذهبان ويجيئان من زاوية إلى زاوية كذئبين في قفص. نفساهما تتحرقان. لقد أكثرا من الشراب على الغداء،

---

(١) لعبة توزع على المشتركين فيها صفائح ذات أرقام أو صور ويسحب كل منهم أرقاماً أو صوراً مقابلة وعليه أن يغطي بها الأرقام أو الصور على صفيحته ومن يسبق يربح. (المترجم).

وهما الآن يشعران برغبة طاغية في إزالة الخمار بالمزيد من الشراب... يذهب دياديتشكين إلى المطبخ، حيث ربة المنزل تذر على الفطيرة سكراً مدقوقاً. يقول: - مالاشا، هلاّ قدمت بعض المازة. الضيوف بحاجة إلى مازة...

- فلينتظروا... إذا أكلتم وشربتم الآن كل شيء ما الذي سأقدمه الساعة الثانية عشرة؟ لن تموتوا. اذهب... لا تبرم أمام أنفي!

- قدحاً صغيراً فقط يا مالاشا... هذا لن ينقص من مائدتك شيئاً... ممكن؟

- مصيبة! انصرف قلت لك! اذهب اجلس مع الضيوف! لماذا تحوم في المطبخ؟

يزفر ديايتشكين زفرة عميقة ويخرج من المطبخ... يذهب لينظر إلى الساعة. العقربان يشيران إلى الحادية عشرة وثماني دقائق. بقي حتى اللحظة المنتظرة اثنتان وخمسون دقيقة. هذا فظيع! انتظار الشراب أصعب حالات الانتظار. أفضل للمرء أن ينتظر القطار في الصقيع خمس ساعات من أن ينتظر الشراب خمس دقائق... ينظر ديايتشكين إلى الساعة بكراهية... يتجول قليلاً ثم يقدّم العقرب الكبير خمس دقائق... وغريشا؟ إن لم يعطوا غريشا الآن مشروباً، فإنه سيذهب إلى الحانة ويشرب هناك. إنه ليس مستعداً لأن يموت من الكآبة. يقول:

- ماما، الضيوف حانقون لأنك لا تقدمين لهم مازة! هذه خنزرة فعلاً... ستميتينهم من الجوع! لو تقدمين لهم قدحاً!

- انتظروا... لم يبق إلاّ القليل... قريباً... لا تتسكع في المطبخ.

يصفق غريشا الباب ويذهب للمرة المئة لينظر إلى الساعة.. العقرب الكبير لا يرحم! ما زال في مكانه السابق تقريباً. يقول غريشا مواسياً نفسه: - متأخرة! ويقدّم العقرب بسبابته سبع دقائق.

يمر كولا بالساعة راكضاً. يتوقف أمامها ويشرع في حساب الوقت.. لشد ما يرغب في أن تمر الحياة بأسرع ما يمكن حتى اللحظة التي يصيحون فيها:

«أورا!» [١] العقرب يلدغه بسكونه في صميم القلب. يرتقي الكرسي وينظر حواليه بوجل ويسرق من الأبدية خمس دقائق.

وتقول إحدى الفتاتين لكوبايسكي: - اذهب انظر كيلير ايتيل[٢]؟ أكاد أموت من فراغ الصبر! إنها السنة الجديدة! سعادة جديدة!

ينقر كوبابيسكي الأرض بكعبيه وينطلق مسرعاً نحو الساعة. يدمدم وهو ينظر إلى العقربين:

- يا للشيطان الرجيم، لا يزال هناك وقت طويل! وأنا أتضور جوعاً.. سأقبّل كاتياً حتماً عندما سيصيحون «أورا!».

يبتعد كوبايسكي عن الساعة ثم يتوقف.. يفكر قليلاً ويعود ليقصّر العام القديم ست دقائق... يشرب ديادينشكين كوبين من الماء، ولكن... نفسه تحترق! يمشي ويمشي ويمشي... وزوجته لا تنفك بين فينة وأخرى تطرده من المطبخ... الزجاجات الموضوعة على حافة النافذة تمزق نفسه. ما العمل! لا قدرة له على الصبر! مرة ثانية يلجأ إلى الوسيلة الأخيرة! الساعة في خدمته. يذهب إلى غرفة الأطفال حيث الساعة معلقة فيقع على لوحة لا تسر قلبه كأب: أمام الساعة يقف غريشا ويحرك العقرب.

- أنت.. أنت... أنت ما الذي تفعله؟ آ؟ لماذا حركت العقرب؟ يا لك من أحمق! آ؟ لم هذا؟ آ؟

يسعل ديادينشكينن ويرتبك، ويلوي وجهه بشدة وينفض يده بامتعاض. يقول وهو يدفع ابنه بعيداً عن الساعة:

- لماذا؟ آ – آ – آ... هيا حركه بحيث يموت بالمرة هذا الوغد. ويحرك العقــرب.

---

(١) صيحة يطلقها الروس للتعبير عن الشعور بالحماسة أو البهجة أو النصر أو الاستحسان الخ... (المترجم).

(٢) كم الساعة (بالفرنسية quelle heure est-il) (الناشر).

لم يبق حتى السنة الجديدة سوى إحدى عشرة دقيقة. يتوجه الأب وغريشا إلى الصالة ويبدأأن بإعداد المائدة. يصيح دياديتشكين:

- مالاشا. الآن تبدأ السنة الجديدة!

تخرج ميلانيا تيخونوفنا من المطبخ راكضة وتذهب لتتحقق مما يقوله زوجها... تنظر ملياً إلى الساعة: زوجها لا يكذب. تهمس: ماذا أفعل الآن؟ البسلىّ لم تنضج بعد لوضعها مع لحم الخنزير! هــ م. مصيبة. كيف سأقدمها لهم؟!

وبعد تفكير قصير تؤخر ميلانيا تيخونوفنا العقرب الكبير بيد مرتعشة. وينال العام القديم عشرين دقيقة إضافية.

- يمكنهم الانتظار! تقول ربة المنزل وهي تركض عائدة إلى المطبخ.

كانون الأول ١٨٨٢

* * *

متنكرون

الوقت مساء. في الشارع يسير جمع مبرقش، يتألف من فروات غنم وسترات سميكة مخمورة. ثمة ضحك ولغط ورقص. في مقدمة الجمع يقفز جندي ضئيل يرتدي معطفاً عسكرياً رثاً وسدارة مائلة إلى جانب.

باتجاه الجمع يسير «مساعد ضابط». ينقض «المساعد» على الجندي الضئيل سائلاً:

- لماذا لا تؤدي التحية؟ آ؟ ما السبب؟ قف! أنت من تكون؟ لماذا؟

- يجيب الجندي بصوت أنثوي:

- ولكن يا عزيزي، نحن متنكرون ليس إلاّ!

وينفجر الجميع ومعهم المساعد بقهقة عالية...

* * *

في مقصورة المسرح تجلس سيدة جميلة ممتلئة، من الصعب تحديد سنها، ولكنها ما زالت شابة، وستظل شابة مدة طويلة... وهي ترتدي ثياباً فاخرة، وفي كل من يديها البيضاوين سوار ثخين، وعلى صدرها دبوس ألماسي. بجانبها تقبع فروة تساوي ألف روبل. وينتظرها في الممر خادم ببزة رسمية مقصبة، وفي الشارع حصانان أدهمان مشدودان إلى زلاجة ذات سجف من فرو الدب... الوجه الشبعان الجميل والوضع برمته يقولان: «أنا سعيدة

وغنية» ولكن لا تصدقها أيها القارئ! إنها تقول في نفسها: «أنا متنكرة، فغداً أو بعد غد سيصاحب البارون نادين[١] ويجردني من كل هذا...»

* * *

إلى طاولة القمار يجلس شخص سمين يرتدي حلة سهرة. ذقنه ذو ثلاث طيّات ويداه بيضاوان. بجانب يده كومة نقود. إنه يخسر ولكنه لا يتكدر، بل بالعكس، يبتسم. فمثله لا يبالي بخسارة ألف أو ألفين. في غرفة الطعام بضعة خدم يعدون له القواقع والشمبانيا والدرّاج. فهو يحب أن يتعشى جيداً. وبعد العشاء ستحمله العربة إليها. إنها تنتظره. إنه يعيش حياة رغدة، أليس كذلك؟ إنه سعيد. ولكن تعالوا انظروا أي هراء يدور في ذهنه المتشحم! «أنا متنكر، سيدهمني التفتيش ويعرف الجميع أنني متنكر لا أكثر!»

* * *

في المحكمة محام يدافع عن متهمة... وهي امرأة جميلة يبدو على وجهها حزن لا حدود له. إنها بريئة، يشهد الله أنها بريئة! عينا المحامي تتقدان، ووجنتاه تلتهبان، وصوته مخضل بالدمع... إنه يتألم من أجل المتهمة، وإذا ما جرّموها سيموت غماً! الجمهور يصغي إليه، ويحبس أنفاسه مستمتعاً، ويخشى أن ينهي مرافعته. يهمس المستمعون «إنه شاعر». ولكنه ليس أكثر من متنكر في زي شاعر! يقول في نفسه: «أعطني أيها المدعي مئة روبل أكثر مما أعطتني المتهمة، وسأشويها لك شياً! سأكون في دور المتّهِم أقوى تأثيراً!»

* * *

يسير في القرية رجل سكران يغني ويعزف على الهارمونيكا عزفاً كالعويل. على وجهه يبدو تأثر ثمل. إنه يضحك ويرقص. يعيش حياة مرحة، أليس كذلك؟ لا، إنه متنكر. فهو يقول في داخله: «جوعان، أريد أن آكل».

* * *

---

(١) بالفرنسية في الأصل «Nadine».

طبيب – بروفيسور شاب يلقي محاضرته التمهيدية في الجامعة. إنه يقول: «العلم كل شيء! إنه الحياة!» وطلابه يصدقونه... ولو أنهم سمعوا ما قاله لزوجته بعد المحاضرة لسموه متنكراً. لقد قال لها: - أنا الآن، يا عزيزتي بروفيسور. والعمل متاح للبروفيسور أكثر بعشر مرات من الطبيب العادي. إنني أطمح الآن إلى خمسة وعشرين ألفاً في السنة.

*   *   *

ستة مداخل، وآلاف الأضواء، وجمهور ودرك وصبايا صغيرات. إنه مسرح. وقد كتب فوق أبوابه، كما في ارميتاج لينتوفسكي[1]: «نقد وموعظة» هنا يدفعون مبالغ كبيرة. يكتبون تعليقات نقدية طويلة، يصفقون كثيراً، ونادراً ما يصفرون... معبد!

لكن هذا المعبد متنكر. فإذا ما نزعتم كلمات «نقد وموعظة» لن يصعب عليكم أن تقرؤوا: «كانكان[2] ومسخرة».

كانون الثاني ١٨٨٣

---

(١) م. ف. لينتوفسكي: متعهد مسرحي ومخرج. كان يستأجر حديقة الإرميتاج في موسكو ليقدم فيها عروضاً مسرحية (الناشر).

(٢) رقص استعراضي مشوب بالمجون (الناشر).

اثنـان في واحد

لا تصدقوا هؤلاء اليهوذات والحرابي! في زمننا فقدان التصديق أسهل من فقدان قفاز قديم – وأنا قد فقدته.

كان الوقت مساء. وكنت راكباً ترام الخيل. لم يكن يليق بي كشخص رفيع المقام ركوب هذا الترام، ولكنني كنت آنئذ أرتدي فروة دَلَق كبيرة، وبوسعي مواراة وجهي بياقتها... ثم إن الركوب هنا أرخص كما تعلمون... ومع أن الوقت كان متأخراً والجو بارداً، لم يكن في المقطورة موطئ لقدم. لم يعرفني أحد، فقد كانت ياقة فرو الدلق تخفي حقيقة شخصيتي(١). في الطريق كنت أهوّم وأتصفح وجوه الركاب حولي... فكرت وأنا أنظر إلى شخص قميء ضئيل يرتدي معطفاً من فرو الأرنب: «لا، هذا ليس إياه! هذا ليس إياه! بلى، إنه هو، هو!».

كنت أفكر في هذا وأنا بين مصدق ومكذب لما تراه عيناي... لشد ما كان هذا الشخص الضئيل الذي يرتدي فرو الأرنب يشبه ايفان كابيتونيتش، أحد موظفي الديوان عندي... ايفان كابيتونيتش، ذاك المخلوق الضئيل الذليل المفلطح الذي لا يعيش في الحياة إلاّ من أجل أن يرفع المناديل التي يسقطها الآخرون، ومن أجل التهنئة بالعيد. إنه ما زال شاباً ولكن ظهره محني كالقوس، وركبتيه مثنيتان دائماً، ويديه متسختان ومسبلتان على الجانبين... وجهه كأنه قد أطبق عليه الباب أو ضرب بممسحة مبتلة. وجه كالح بائس، إذا نظرت إليه راودتك الرغبة في أن تغني أغنية «الشظية» وتجأر بالشكوى.

---

(١) باللاتينية في الأصل «incognito».

عندما يراني يرتعش ويمتقع ويحمّر وكأنني أنوي أن آكله أو أذبحه، وعندما أوبخه يرتعد بكل فرائصه كالمقرور.

إنني لا أعرف إنساناً أكثر منه هواناً وصمتاً وتفاهة، بل إنني لا أعرف حتى حيواناً أكثر منه استكانة...

لشد ما كان هذا الشخص الضئيل الذي يرتدي فرو الأرنب يذكرني بايفان كابيتونيتش ذاك. لكأنه هو! إلاّ أن هذا لم يكن مقوس الظهر كذاك، ولم يكن يبدو ذليلاً، بل كان يتصرف بتبسّط، والأنكى من هذا وذاك أنه كان يتحدث في السياسة، وكان كل من في المقطورة يصغون إليه، كان يقول وهو يدور ويلوح بيديه:

- لقد مات غامبيتا[١]! وهذا في صالح بسمارك[٢]. فغامبيتا كان داهية! كان بوسعه أن يحارب الألمان ويفرض عليهم غرامة حربية يا ايفان ماتفيتش! لأنه كان عبقرياً. إنه فرنسي، غير أن نفسه كانت روسية. إنه نابغة!

يا لك من تافه حقير!

عندما دنا منه قاطع التذاكر ترك بسمارك وشأنه، وانقض على قاطع التذاكر مؤنباً:

- لماذا المقطورة عندكم معتمة هكذا؟ أليس لديكم شموع، أم ماذا؟ ما هذه الفوضى؟ ليس من أحد يؤدبكم! لو كنتم في بلد أجنبي لنلتم جزاءكم! ليس الجمهور من أجلكم، بل أنتم من أجل الجمهور! يا للشيطان! لا افهم إلى أين ينظر المسؤولون!

بعد دقيقة طلب منا جميعاً أن نتنحّى.

---

(١) ليون غامبيتا (١٨٣٨-١٨٨٢) زعيم الجمهوريين البرجوازيين اليساريين في فرنسا. قاد المقاومة ضد الاحتلال الألماني بعد هزيمة ١٨٧٠ (المترجم).

(٢) بسمارك (١٨١٥-١٨٩٨) المستشار الألماني الأول في ألمانيا (١٨٧١-١٨٩٠) هزم فرنسا عام ١٨٧٠. (المترجم).

- تنحوا! الكلام لكم! أفسحوا مكاناً للمدام! كونوا أكثر تهذيباً! يا قاطع التذاكر! تعال هنا! أنت تقبض نقوداً، وعليك أن توفر مكاناً! هذه سفالة!

صاح به قاطع التذاكر:

- التدخين ممنوع هنا!

- ومن الذي منعه؟ من يملك الحق في هذا؟ هذا اعتداء على الحرية! أنا لن أسمح لأحد بأن يعتدي على حريتي! أنا إنسان حر!

يا لك من منحط حقير! نظرت إلى سحنته ولم أصدق عيني. لا، هذا ليس إياه! مستحيل! ذاك لا يعرف كلمات مثل «الحرية» و«غامبيتا».

قال وهو يلقي بسيكارته: وماذا نقول! أنظمة رائعة! تفضل عِش مع أمثال هؤلاء السادة! إنهم مهووسون بالشكليات، بحرفية التعليمات! شكليون! إمّعون! إنهم يخنقوننا!

لم أتمالك نفسي وانفجرت مقهقهاً! وما إن سمع قهقهتي حتى نظر إلي لمحا، وارتعش صوته. عرف ضحكتي، ولابد أنه عرف فروتي أيضاً! وفي الحال تقوس ظهره، وكلح وجهه، وخمد صوته، وأسبل يديه على الجانبين، وانثنت ركبتاه. تغير بلحظة! ولم يعد لدي أدى شك: كان هذا هو ايفان كابيتونيتش، الموظف عندي في الديوان. جلس ووارى أنفه في فروته المخيطة من جلد الأرنب.

نظرت الآن إلى وجهه وفكرت: «أحقاً أن هذا الشخص الضئيل الذليل المفلطح يقدر أن يتفوه بكلمات مثل «إمّعون» و«حرية»؟ آ؟ أحقاً هذا؟ أجل إنه يقدر! هذا لا يصدق، ولكنه حقيقي... يا لك من تافه حقير!»

هيا صدق بعد هذا سحنات الحرابي البائسة هذه!

أنا لم أعد أصدق. انتهى. لن أنخدع بعد الآن!

كانون الثاني ١٨٨٣

اعتـراف

كان النهار صحواً، صقيعياً... وكانت نفسي منشرحة، مغتبطة، كنفس حوذي اخطؤوا معه فأعطوه روبلاً ذهبياً بدلاً من عشرينية[١]. كانت تنتابني رغبة في البكاء والضحك والصلاة... كنت أشعر أنني في السماء السادسة عشرة. فأنا الإنسان جعلوا مني أمين صندوق! لم أكن أشعر بالفرح لأنه أصبح باستطاعتي أن أسرق. فأنا حينذاك لم أكن قد صرت لصاً بعد، وكان يمكن أن أهشم من يقول لي إنني مع مرور الزمن سأسرق... بل كنت فرحاً لسبب آخر هو ترقيتي في الوظيفة، والعلاوة التافهة في الراتب – فقط لا غير.

ثم إن هناك أمراً آخر كان يفرحني. فما إن أصبحت أمين صندوق حتى صرت أشعر أن فوق أنفي شيئاً ما يشبه النظارة الوردية. فجأة أخذ يبدو لي أن الناس قد تغيروا. أي بشرفي. كلهم كما لو أنهم قد أصبحوا أحسن مما كانوا. الدميمون أصبحوا جميلين، والأشرار أصبحوا أخياراً، والمتكبرون أصبحوا متواضعين، ومبغضو الناس أصبحوا من محبيهم. لكأن ذهني قد أشرق. صرت أرى في الإنسان خصالاً رائعة لم أكن أفترض وجودها من قبل فيه. كنت أقول وأنا أنظر إلى الناس وأفرك عيني: «غريب! إما أن أمراً ما قد حدث لهم، أو أنني كنت من قبل غبياً ولم أكن ألاحظ كل هذه الخصال. يا لروعة هؤلاء الناس!»

وكان ممن تغيروا في يوم تعييني ز. ن. كازاسوف، أحد أعضاء مديريتنا. وهو شخص متكبر، متعجرف، يتجاهل الأسماك الصغيرة. اقترب مني و...

– ما الذي حدث له؟! – ابتسم لي بلطف، وطفق يربت كتفي وهو يقول:

(١) قطعة نقدية قيمتها عشرون كوبيكا. (المترجم).

- إن كبرياءك يا عزيزي تفوق سنك. لا يحسن هذا! لماذا لا تزورنا بالمرة؟ هذا حرام، أيها المحترم! الشبان والفتيات يجتمعون عندي، والجو مرح جداً. بناتي يسألنني دائماً: «لماذا يا بابا لا تدعو غريغوري كوزميتش؟ إنه إنسان لطيف جداً! فأقول لهن: وهل بإمكاني أن أجُرَّه جراً؟ على كل حال سأحاول أن أدعوه». لا تتدلل يا عزيزي، تعال!

عجيب! ماذا به؟ أتراه فقد عقله. كان من أكلة لحوم البشر، وفجأة... هاك!

عندما عدت إلى البيت في ذاك اليوم أصبت بالذهول. فأمي لم تقدم على الغداء طبقين كعادتها دائماً، بل أربعة أطباق. وقدمت مساء مع الشاي مربّى وخبزاً دسماً محلّى. وفي اليوم التالي عادت ثانية فقدمت أربعة أطباق ومربّى. وجاءنا ضيوف فقدمت لهم شراب الشوكولاته.

قلت لها:

- ما بك يا أمي؟ ما الذي جعلك تتكرمين إلى هذا الحد. يا عزيزتي. راتبي لم يتضاعف، والعلاوة تافهة.

فنظرت إلي مندهشة وتساءلت:

- هــ م. وأين ستذهب بالنقود؟ أم تراك ستدخرها؟

الشيطان وحده يفهمهم! لقد أوصى والدي على فروة لنفسه، واشترى قبعة شتوية جديدة، وصار يتداوى بالمياه المعدنية والعنب (في الشتاء؟!) وبعد خمسة أيام وصلتني رسالة من أخي. وأخي هذا لم يكن يطيقني. كنا قد افترقنا بسبب اختلاف القناعات: فقد كان يبدو له أنني أناني وطفيلي ولست مستعداً للتضحية، ولذا كان يكرهني. وقد قرأت في رسالته ما يأتي: «أخي الحبيب! إنني أحبك، وليس بإمكانك أن تتصور أية آلام جهنمية يسببها لي الخصام بيننا. هيا نتصالح! ليمد كل منا يده للآخر، وليسد بيننا الوئام. أتوسل إليك! وفي انتظار جوابك سأظل أخاك المحب الذي يعانقك ويقبّلك. يفلامبي». آه يا أخي الحبيب! أجبته بأنني أقبّله، وأنني مسرور. وبعد أسبوع وصلتني البرقية

الآتية: «شكراً لك، إنني سعيد، أرسل لي مئة روبل، فأنا بأمس الحاجة إليها. أعانقك. ي.» فأرسلت إليه مئة روبل...

حتى هي تغيرت. لم تكن تحبني. وعندما تجرأتُ مرة ولمحت إلى أن في قلبي اضطراباً ما، نعتتني بالوقح ونخرت في وجهي. ولكن عندما قابلتني بعد أسبوع من ترقيتي ابتسمت، ورسمت غمازتين على وجنتيها وأبدت الخجل...

- ما الذي حدث لك؟ - تساءلت وهي تنظر إلي – لقد أصبحت أجمل بكثير! متى لحقت؟ هيا بنا نرقص...

يا روحي! بعد شهر واحد أصبحت أمها حماتي: إلى هذا الحد أصبحتُ أجمل! وقد احتجت إلى نقود من أجل العرس، فأخذت من الصندوق ثلاثمئة روبل. ولِمَ لا آخذ ما دمت أعلم أنني سأعيدها عندما أقبض الراتب؟ وقد أخذت أيضاً، بالمناسبة، مئة روبل من أجل كازوسوف... فقد رجاني أن أسلفه... ولا يجوز أن لا أعطيه. إنه طويل الباع، وبإمكانه أن يسرِّح من الوظيفة في أية لحظة... (وجد رئيس التحرير أن الأقصوصة طويلة بعض الشيء فحذف من هذا الموضوع بالذات ثلاثة وثمانين سطراً، مُنقِصاً بهذا من المبلغ المستحق للكاتب)...

قبل اعتقالي بأسبوع أقمت لهم حفلة بناء على طلبهم. لهم الشيطان، فليبلعوا ويكرعوا إذا كانت لديهم كل هذه الرغبة في هذا! لم أعدّ الأشخاص الذين حضروا الحفلة، ولكنني أذكر أن غرف البيت التسع جميعها كانت مكتظة، حضر الكبار والصغار... وجاء أشخاص حتى كازوسوف نفسه ينحني أمامهم كالقوس. وكانت بنات كازوسوف (وكُبْراهُنَّ موضع اهتمامي) يبهرن الأبصار بزينتهن.. الأزهار وحدها التي غمرتهن بها كلفتني أكثر من ألف روبل... كان الجو مرحاً جداً... الموسيقى تصدح، والثريات تلمع، والشمبانيا تتدفق... وقد أُلقيتْ كلمات طويلة، ورُفعتْ أنخاب قصيرة... ومدحني أحد الصحفيين بقصيدة غنائية، وآخر بقصيدة ملحمية...

وهتف كازوسوف على العشاء:

- عندنا في روسيا لا يعرفون كيف يقدرون الأشخاص من أمثال غريغوري كوزميتش! وأسفاه! وأسفاه عليك يا روسيا!

وكل هؤلاء الهتافين والمداحين والمقبّلين كانوا يتهامسون ويهزون أصابعهم الوسطى عندما كنت أوليهم ظهري... كنت أرى ابتساماتهم وأصابعهم الوسطى وأسمع تنهداتهم... كانوا يهمسون وهم يبتسمون بشماتة:

- لقد سرق الوغد!

لكن لا هز الأصابع الوسطى ولا التنهدات كانت تمنعهم من أن يأكلوا ويشربوا ويتمتعوا...

حتى الذئاب والمرضى بالسكري لا يأكلون كما أكل هؤلاء... اقتربت مني زوجتي وهي تتلألأ بالألماس والذهب وهمست لي:

- يقولون إنك... سرقت. إذا كان هذا صحيحاً فعليك أن تحترس! ليس بإمكاني أن أعيش مع لص! سأتركك!

كانت تقول هذا وهي تصلح من وضع فستانها الذي اشتريته لها بخمسة آلاف روبل... الشيطان وحده يفهمهن! في أثناء الحفلة أخذ مني كازوسوف خمسة آلاف روبل... كما استدان يفلامبي مبلغاً مماثلاً. وقال لي أخي صاحب المبادئ وهو يضع النقود في جيبه:

- إذا كان ما يهمسون به صحيحاً، فعليك أن تحترس! ليس بإمكاني أن أكون أخاً للص!

بعد الحفلة أخذتُ الجميع في عربات ثلاثية الخيول إلى الضاحية... ولم ننته إلاّ في السادسة صباحاً... كانوا منهكين من الخمر والنساء فتمددوا في الزلاجات استعداداً للعودة... وعندما انطلقت الزلاجات صاحوا بي مودعين:

- غداً تفتيش! شكراً[١]!

---

(١) بالفرنسية في الأصل Merci.

سادتي الأفاضل وسيداتي الفاضلات!

لقد وقعت... وقعت، أو بتعبير أطول: البارحة كنت مستقيماً، شريفاً، وكانوا يغمرون جسمي كله بالقبلات، أما اليوم فأنا نصاب، غشاش، لص... هيا اصرخوا الآن فيَّ واشتموني، وتقوّلوا علي، وانشدهوا من فعلتي، وحاكموني وانفوني، واكتبوا عني الافتتاحيات، وارجموني بالأحجار، ولكن... من فضلكم، ليس كلكم! ليس كلكم!

كانون الثاني ١٨٨٣



* * *

في حفلة تنويم مغناطيسي

تلألأت الصالة الكبيرة بالأنوار، وغصت بالناس، وسيطر عليها المنوم المغنطيسي الذي كان، بالرغم من ضآلة جسمه وقلة هيبته، يشع ويلمع ويتألق. كانوا يبتسمون، ويصفقون له، يطيعونه، ويشحبون عندما يقفون أمامه...

وكان هو يجترح الأعاجيب فعلاً. أنامَ أحدهم، وحجّر آخر، وأسند قفا شخص ثالث إلى كرسي وكعبيه إلى كرسي آخر... ولفّ صحفياً نحيفاً وطويلاً فجعله يبدو كالحلزون. وباختصار كان يفعل أشياء لا يفقهها إلاّ الشيطان. وكان تأثيره قوياً بشكل خاص على السيدات.

كنّ يتساقطن تحت نظراته كالذباب. آه، أيتها الأعصاب الأنثوية! لو لم تكوني موجودة، لكانت الحياة في هذا العالم مملة!

وبعد أن جرّب المنوم المغنطيسي فنه في الجميع، اقترب مني وقال: - يبدو لي أن لك طبيعة جد مطواعة. إنك شديد العصبية، والتعبيرية... هل تريد أن تنام؟

ولِمَ لا أنام؟ تفضل يا عزيزي، جرّب. جلست على كرسي في وسط الصالة، وجلس المنوم المغنطيسي على كرسي مقابل، وأمسك بيدي وأنشب عينيه الثعبانيتين المخيفتين في عيني المسكينتين. وأحاط الجمهور بنا.

- هس... أيها السادة! هس... صمتاً!

ساد الهدوء... وأخذ كل منا ينظر في بؤبؤ الآخر... مرت دقيقة وأخرى، وأحسست بقشعريرة في ظهري، وبخفقان في قلبي، ولكن النوم لم يكن يراودني...

مرت خمس دقائق، سبع... ونحن مازلنا جالسَيْن.

قال أحدهم: - إنه لا يستجيب! برافو! رجل صامد!

ما زلنا نجلس وننتظر... لا تراودني الرغبة في النوم، بل لا أشعر حتى بالنعاس... لو كنت جالساً في اجتماع لمجلس المدينة أو الناحية لنمت منذ فترة طويلة... الجمهور يبدأ بالهمس والضحك... والمنوم يشعر بالخجل ويبدأ يطرف بعينيه... يا للمسكين! ومن الذي يطيب له أن يبوء بالإخفاق؟ أنقذيه أيتها الأرواح! أرسلي مورفيوس(١) إلى أجفاني!

قال الصوت نفسه: - إنه لا يستجيب! كفى، دعكم من هذا! لقد قلت لكم إن كل هذا مجرد ألاعيب!

سمعت ما قاله صاحبنا فتحركت استعداداً للنهوض، وفي هذه اللحظة بالذات أحسَّتْ يدي بشيء يلامس راحتها... أَعملتُ حاسة اللمس لدي، فميزت في هذا الشيء ورقة. أبي كان طبيباً، والطبيب يميز نوع الورقة بلمسة واحدة. وقد ورثت عن أبي، حسب نظرية داروين، هذه الصفة اللطيفة فيما ورثته عنه من صفات. ميزت في الورقة مخمّسة(٢). فغفوت على الفور.

- برافو، أيها المنوم!

اقترب مني الأطباء الذين كانوا في الصالة. حاموا وتشمموا، ثم قالوا: - نـــ... نعم... إنه منوَّم...

جعل المنوِّم المسرور بنجاحه يلوح بيديه فوق رأسي، فأخذت أخطو في الصالة وأنا نائم.

قال أحدهم: - أكزِّ يده! هل تستطيع؟ خلِّ يده تتحجر...

جذب المنوم المغنطيسي (وهو شخص غير هياب) يدي اليمنى وأخذ يجري عليها ألاعيبه: يفركها، وينفخ عليها، ويربّت. ولكن يدي لم تطعه. كانت متهدلة كالخرقة، وليس بنيَّتِها أن تتحجر.

---

(١) مورفيوس: إله النوم والأحلام عند الإغريق (المترجم).

(٢) مخمسة: ورقة من فئة خمسة روبلات (المترجم).

- لم يحصل كزاز! أيقظه، وإلا فإنه سيتأذى... إنه ضعيف وعصبي..

وعندئذ أحست يدي اليسرى بمخمّسة في راحتها... وانتقلت الإثارة عن طريق الارتكاس من يدي اليسرى إلى اليمنى، فتحجّرت هذه على الفور.

- برافو! انظروا كم أصبحت قاسية وباردة! كأنها يد ميت. وأعلن المنوم:

- تخدير تام، انخفاض في درجة الحرارة، وضعف في النبض..

وأخذ الأطباء يتحسسون يدي. قال أحدهم:

- نعم النبض ضعيف. كزاز تام. الحرارة أخفض بكثير...

وسألت إحدى السيدات:

- بم تفسر هذا؟

هز الطبيب كتفيه بحركة ذات مغزى، وتنهد، وقال:

- نحن لا نملك سوى الوقائع! أما التفسيرات فهي، للأسف، معدومة.

أنتم تملكون الوقائع، أما أنا فأملك مخمّستين. وما أملكه أنا أغلى... شكراً للمنوم على هذا، أما التفسيرات فلا حاجة بي إليها...

مسكين أنت أيها المنوم! ما كان أغناك عن التعامل مع خبيث مثلي!

ملاحظة إضافية:

ولكن أليست هذه لعنة؟ أليست خنزرة؟

الآن فقط عرفت أن الذي دس المخمستين في يدي ليس المنوم، بل بيوتر فيودوريتش، رئيسي...

قـــال:

- لقد فعلت هذا لكي أعرف مدى أمانتك..

آه، يا للشيطان!

- عيب يا أخ.. هذا سيء... لم أكن أتوقع..

- ولكن عندي أولاد يا صاحب السعادة... وزوجة... وأم.. وفي هذا الغلاء الحالي...

- هذا سيء.. ثم إنك تريد أن تصدر جريدتك الخاصة... وتبكي عندما تلقي الخطب في الولائم... عيب.. كنت أظنك إنساناً أميناً، فإذا بك.. خابن زي غيفزين[١]..

اضطررت إلى إعادة المخمستين له. ما العمل؟ السمعة أغلى من النقود. إلاّ أن رئيسي قال لي:

- إنني غير غاضب عليك! لك الشيطان، طبيعتك هكذا... ولكن هي! هي! أمر عجيب! هي! الوداعة والبراءة وبلانمانجيه[٢] وما شابه! آ؟ فهي أيضاً قد أغرتها النقود! هي أيضاً نامت!

وكان رئيسي يقصد بكلمة «هي» زوجته، ماترينا نيكولايفنا..

كانون الثاني ١٨٨٣

---

(١) خابن زي غيفزين: تركيب لا معنى له مؤلف من فعلين ألمانيين كان شائعاً في أوساط الموظفين الروس للتعبير عن الرشوة (بالتداعي مع الفعل الروسي «خابت» وهو مصدر فعل «اختلس»). (الناشر).

(٢) من الفرنسية (blanc-manger) نوع من الحلوى الهلامية، كناية عن الرقة. (المترجم).

على المسمار

مجموعة من كتبة الديوان[1] وأمناء السجل[2] خرجوا من الوظيفة وراحوا يجرّون أقدامهم في شارع نيفسكي[3] قاصدين منزل ستروتشكوف الذي كان يقودوهم إلى هناك ليحتفلوا معه بعيد شفيعه. قال صاحب الدعوة وهو يحلم بصوت عال:

- يا للأكل الذي سنأكله الآن أيها الأخوة! سنلتهم الطعام التهاماً! زوجتي أعدت فطيرة. لقد ذهبتُ البارحة مساءً بنفسي لإحضار الدقيق. وهناك كونياك وفودكا فورونتسوفية... زوجتي، أكيد، تنتظرنا بفارغ الصبر.

كان ستروتشكوف يسكن في آخر الدنيا. ساروا.. ساروا.. وأخيراً وصلوا. دخلوا الردهة، وداعبت أنوفهم رائحة الفطيرة والأوزة المشوية.

- هل تشمّون؟ - سألهم ستروتشكوف وهو يقهقه مسروراً – اخلعوا فرواتكم أيها السادة! ضعوها على الصندوق! أين كاتيا؟ هيه.. كاتيا! وصل «تجمّع كل الأفواج».

تساءل أحد أفراد المجموعة وهو يشير إلى الجدار:

- ما هــذا؟

---

(١) كاتب الديوان: موظف من المرتبة الرابعة عشرة وهي أدنى مراتب السلم الوظيفي في روسيا القيصرية (المترجم).

(٢) أمين السجل: موظف من المرتبة الثانية عشرة (المترجم).

(٣) شارع نيفسكي: الشارع الرئيسي في بطرسبورغ (العاصمة آنذاك) (المترجم).

كان يبرز من الجدار مسمار كبير علقت عليه سدارة جديدة ذات حافة براقة وشعار. نظر الموظفون بعضهم إلى بعض وشحبت وجوههم. أخذوا يهمسون متسائلين:

- هذه سدارته. هو... هنا؟!

غمغم ستروتشكوف:

- نعم إنه هنا. عند كاتيا.. هيا بنا نخرج أيها السادة. لنجلس في إحدى الحانات وننتظر ريثما ينصرف.

زرر أفراد المجموعة فرواتهم، وخرجوا، وراحوا يجرون أقدامهم بتثاقل صوب الحانة. قال معاون أمين الأرشيف باستخفاف جريء:

- تفوح عندك رائحة الأوز لأن ذكر أوز يجلس عندك! أية شياطين جاءت به! هل سينصرف بسرعة؟

- بسرعة. أكثر من ساعتين لا يبقى أبداً. إنني جائع! قبل كل شيء سنشرب فودكا ونأكل معها كيلكا[١]... ثم نعيد الكرة أيها الأخوة... وبعد القدح الثاني مباشرة نأكل الفطيرة. وإلاّ فقدنا شهيتنا... زوجتي تجيد صنع الفطائر، وسيكون هناك حساء ملفوف..

- وهل اشتريت سردينياً؟

- اشتريت علبتين. وأربعة أصناف من المرتديلا.. لابد أن زوجتي جائعة أيضاً... لقد فاجأنا الشيطان!

جلسوا في الحانة ساعة ونصفاً، وشرب كل منهم كوباً من الشاي للتسلية، ثم توجهوا ثانية إلى منزل ستروتشكوف.

دخلوا الردهة. كانت الرائحة تفوح بقوة أكبر. وقد شاهد الموظفون عبر باب المطبخ الموارب اوزة وصحنا فيه خيار، واكولينا وهي تخرج شيئاً من الفرن.

- مرة أخرى انتحسنا أيها الأخوة!

---

(١) نوع صغير من سمك الرنكة. (المترجم).

- وماذا هناك؟

تقلصت معدات الموظفين من الأسى: فالجوع لا يرحم، وعلى المسمار الوغد قبعة من فرو الدلق. قال ستروتشكوف:

- هذه قبعة بروكاتيلوف. هيا بنا نخرج أيها السادة! لننتظر في مكان ما... هذا لا يبقى طويلاً...

وتناهى إلى سمعهم صوت باس أجش يقول:

- وعند هذا المقرف مثل هذه الزوجة الحلوة!

فردّ عليه صوت أنثوي:

- السعادة من نصيب الحمقى، يا صاحب السعادة!

قال ستروتشكوف وهو يئن:

- هيا نخرج!

عادوا ثانية إلى الحانة، وطلبوا بيرة. وراح أفراد المجموعة يواسون ستروتشكوف قائلين:

- بروكاتيلوف ذو نفوذ! سيجلس عند زوجتك ساعة، ولكن مقابل ذلك ستقضي أنت عشر سنوات في مسرة! حظ، يا أخ! ولماذا تنزعج؟ لا داعي للانزعاج.

- أعلم من دون أن تقولوا لي أنه لا داعي. القضية ليست في هذا! ما يزعلني أنني أريد أن آكل!

بعد ساعة ونصف توجهوا ثانية إلى بيت ستروتشكوف. كانت قبعة فرو الدلق لا تزال معلقة على المسمار فاضطروا إلى التقهقر من جديد.

ولم يخل المسمار من النزلاء ويصبح بالإمكان تناول الفطيرة إلاّ بعد أن تجاوز الوقت الساعة السابعة! الفطيرة كانت جافة، والحساء فاتراً، والأوزة محروقة. لقد أفسد مستقبل ستروتشكوف الوظيفي كل شيء! لكنهم مع ذلك أكلوا بشهية.

شــباط ١٨٨٣

نصيحة

باب عادي جداً، كأي باب غرفة. إنه مصنوع من الخشب، ومطلي بدهان أبيض عادي، ومثبت بمفصّلات بسيطة، ولكن... ما الذي يجعله مهيباً هكذا؟ وما هذا الوقار الذي يشع منه! خلف الباب يجلس... على كلٍّ هذا ليس من شأننا.

أمام الباب يقف شخصان يتناقشان.

- ميرسي!

- هذا لك، للأطفال من أجل الحليب. لقاء جهودك يا مكسيم ايفانيتش. القضية، كما تعرف، تراوح في مكانها منذ ثلاث سنوات، ليست مزحة... اعذرني إذا كان المبلغ قليلاً... لكن آمل أن تبذل جهدك يا محترم! (صمت) أرغب، أيها المحسن، أن أشكر بورفيري سيميونوفتش... فهو المحسن الرئيسي إلي، وقضيتي تتوقف عليه أكثر من الجميع. وليس ما يمنع من تقديم هدية إليه... مئتين أو ثلاثمئة...

- إليه... مئات؟! ماذا تقول؟! أنت فقدت صوابك يا عزيزي! ارسم شارة الصليب! إن بورفيري سيميونوفتش ليس من النوع الذي...

- لا يأخذ؟ آسف... أنا.. في الحقيقة.. بِنيّة طيبة، يا مكسيم ايفانيتش... هذه ليست رشوة... بل تقدمة مني بقلب مخلص... لقاء الجهود الجبارة... فأنا لست عديم الشعور، إنني أقدر جهده... مَنْ يقبل الآن بحمل هذا العبء على كاهله لقاء الراتب وحده؟ هـــ م... هذا هو الأمر.. إنها ليست رشوة، بل «عطوة»، إذا صح القول، مشروعة...

- لا، هذا مستحيل! إنه إنسان هكذا... إنسان طبعه هكذا!

- أنا أعرفه يا مكسيم ايفانيتش! إنه إنسان رائع! وله قلب شديد الطيبة، ونفس محسنة... إنسانية.. ويا لحنانه... ينظر إليك فيقلب كل نفسيتك... إنني أدعو له في الليل والنهار.. ولكن القضية طالت أكثر من اللازم! على كلٍّ هذا لا شيء... وأنا أريد أن أشكره على كل هذه الفضائل... ثلاثمئة روبل تقريباً...

- لن يأخذها... طبيعته مختلفة! صارمة! ولا تحاول أن تندس إليه.. إنه يعمل، ويقلق، ولا ينام الليالي، أما بالنسبة إلى الشكر أو الأشياء الأخرى – فأبداً، أبداً... مبادئه هكذا. ثم ما حاجته إلى نقودك؟ هو نفسه مليونير!

- يا للحسرة... لكم كنت أود أن أظهر له مشاعري! (بصوت خافت) ثم إن قضيتي كانت ستتحرك... فهي لا تزال تراوح في مكانها منذ ثلاث سنوات يا محترم! ثلاث سنوات (بصوت عال) لا أعرف كيف أتصرف... لقد أصابني الغم، أيها المحسن... أغثني يا محترم! (صمت) ثلاثمئة أقدر عليها، هذا أكيد، في هذه اللحظة حتى...

- هــ م.. نعم... إذن ما العمل؟ (صمت) اسمع ما سأنصحك به بما أنك ترغب في شكره على جمائله وجهوده، إذن... دعني أقل له... أُبْلغه.. فأنا أستطيع أن أقدم له المشورة...

- من فضلك يا محترم! (صمت طويل).

- ميرسي... سيستجيب... ولكن ليس بثلاثمئة.. لا تحاول أن تندس إليه بهذه النقود الجرباء.. فهذه بالنسبة إليه صفر، تفاهة، عدم... أعطه ألفاً...

- ألفين! – يقول شخص من خلف الباب.

تسدل الستارة. أرجو ألا يسيء أحد الظن بما جرى.

شباط ١٨٨٣

امرأة بدون معتقدات بالية

مكسيم كوزميتش سالوتوف شخص طويل القامة، عريض المنكبين، مهيب الطلعة. بنيته يمكن أن نقول عنها بجرأة إنها رياضية. وقوته خارقة. فهو يثني قطع النقد بأصابعه، ويقتلع الأشجار الفتية من جذورها، ويرفع الأثقال بأسنانه، ويقسم أن ليس في الأرض من يتجرأ على أن يصارعه. إنه شجاع وجريء. ولم يعهد عنه يوماً أنه خاف شيئاً ما. بل بالعكس. فالآخرون يخافونه ويشحبون أمامه عندما يتملكه الغضب. الرجال والنساء يحمرون ويزعقون عندما يشد على أيديهم: آخ.. يدي! صوته الباريتون[١] الرائع لا يمكنك أن تصغي إليه لأنه يصم الآذان... إنه إنسان جبار! وأنا لا أعرف له مثيلاً!

ولكن هذه القوة المهولة اللابشرية التي تعادل قوة ثور كانت تغدو شبيهة بالعدم، بالجرذ المسحوق عندما كان مكسيم كوزميتش يبث يلينا غافريلوفنا حبه! كان يشحب ويحمرّ ويرتعش ويصبح عاجزاً عن رفع كرسي عندما يكون مدفوعاً إلى أن يعتصر من فمه الكبير كلمة: «أحبك!». قوته كانت تتلاشى، وجسمه الضخم يتحول إلى وعاء كبير فارغ.

ذات مرة كان يبثها حبه في حلبة التزحلق. كانت هي ترفرف فوق الجليد بخفة الريشة، وكان هو يهمس في إثرها مرتعشاً مدلهاً. المعاناة كانت تطل من وجهه... وقدماه الحاذقتان الرشيقتان كانتا تتقصفان وتتشابكان عندما كان عليه أن يرسم على الجليد ضفيرة معقدة.. هل تظنون أنه كان يخشى الرفض؟ لا.. فقد كانت يلينا غافريلوفنا تحبه، وتتوق إلى اللحظة التي يخطبها فيها..

---

(١) جهير أول (وسط بين الجهير «الباس» والصادح «التينور») (المترجم).

كانت هذه الفتاة الصغيرة الجسم، الحلوة المحيا، ذات الشعر الأسود، تكاد تحترق في كل لحظة من نفاد الصبر...

وهو كان في الثلاثين من عمره، وظيفته ليست عالية، ونقوده ليست بتلك الكثرة، ولكنه بالمقابل على جانب كبير من الوسامة والذكاء والحذق!

إنه بارع في الرقص وماهر في الرمي.. وليس هناك من يفوقه في ركوب الخيل. ذات مرة في أثناء نزهة معها قفز عبر أخدود يعجز أي حصان سباق انكليزي عن اجتيازه. مثل هذا الإنسان لا يمكن ألا يُحَب!

وكان هو يعرف أنها تحبه. كان واثقاً من ذلك. لكنه كان يعاني من فكرة تطبق على دماغه، وتثير جنونه، وتدفعه إلى البكاء، وتمنعه من الطعام والشراب والنوم.. كانت هذه الفكرة تنغص عليه حياته. وفي الوقت الذي كان يقسم فيه على صدق حبه، كانت هذه الفكرة تضطرب في دماغه، وتدق في صدغيه. كان يقول ليلينا غافريلوفنا:

- كوني زوجتي! إنني أحبك! أحبك بجنون، بضراوة!

وكان في الوقت نفسه يفكر: «هل لي الحق في أن أكون زوجاً لها؟ لا، ليس لي حق في هذا! لو كانت تعرف مَنْشئي، لو حدثها أحد عن ماضيّ لصفعتني على وجهي! ماضٍ مخز تعيس! بينما هي كريمة الحسب، ثرية، مثقفة، ولو عرفت حقيقة أمري لبصقت علي!».

وعندما ارتمت يلينا غافريلوفنا عليه، وتعلقت بعنقه، وأقسمت على حبها له، لم يشعر بأنه سعيد.

لقد أفسدت الفكرة كل شيء. وراح في طريق العودة إلى البيت يعض شفتيه ويقول في نفسه: «إنني نذل! لو كنت إنساناً شريفاً لحدثتها بكل شيء! قبل أن أصارحها بالحب كان علي أن أطلعها على سري! ولكنني لم أفعل، إذن فأنا وغد، نذل!»

وافق والدا يلينا على زواجها من مكسيم. فالرياضي كان يعجبها: إنه إنسان مهذب، ومستقبله الوظيفي يبشر بآمال عريضة. وكانت يلينا غافريلوفنا تطير بأجنحة الأحلام ونفسها تطفح بالسعادة. أما الرياضي المسكين فلم يكن سعيداً على الإطلاق! وظل حتى يوم العرس فريسة للفكرة إياها التي كانت تعذبه في أثناء البوح بالحب. كما كان يعذبه كذلك صاحب له يعرف ماضيه كما يعرف أصابعه الخمس.. وكان يضطر إلى أن يقدم لصاحبه هذا كل مرتبه تقريباً.. كان صاحبه يقول له:

- ادعني إلى الغداء في حديقة ارميتاج! وإلاّ سأخبر الجميع... واقرضني أيضاً ٢٥ روبلاً!

نحل جسم المسكين مكسيم كوزميتش، وهزل وجهه، وغارت وجنتاه، وبرزت عروق يديه، ومرض من التفكير، ولولا وجود الحبيبة لأطلق النار على نفسه.. كان يفكر: «إنني نذل، وغد! يجب أن أصارحها قبل الزفاف! ولتبصق علي!».

ولكن قبل الزفاف لم يصارحها. لم يجد في نفسه الشجاعة الكافية.. ثم إن فكرة الاضطرار إلى فراق الحبيبة بعد المصارحة كانت بالنسبة إليه أفظع من كل الأفكار!

حلت ليلة العرس. كلَّلوا العروسين الشابين وهنؤوهما، وأبدى الجميع إعجابهم بسعادتهما. وكان المسكين مكسيم كوزميتش يتلقى التهاني ويشرب ويرقص ويضحك وهو في منتهى التعاسة. «سأرغم ذاتي الحقيرة على المصارحة! لقد كللونا، ولكن الوقت لم يفت بعد! ما زال بإمكاننا أن نفترق!»

وقد صارحها...

عندما حلت الساعة المشتهاة وأوصلوا العروسين إلى غرفة النوم، استوفى الضمير والشرف حقهما... دنا مكسيم كوزميتش منها متهيباً، شاحباً، مرتعشاً، مشوش الذهن، تكاد أنفاسه تتوقف، وأمسك بذراعها وقال:

- قبل أن يصبح كل منا ملكاً للآخر، يجب علي.. يجب على أن أصارحك.

- ما بك يا ماكس؟ إنك... شاحب! وقد كنت طوال هذه الأيام شاحباً وصامتاً... هل أنت مريض؟

- يجب علي... أن أخبرك بكل شيء يا ليليا... لنجلس.. يتحتم علي أن أصعقك.. أن أفسد سعادتك.. ولكن ما حيلتي؟ الواجب قبل كل شيء... سأحدثك عن ماضيّ...

اتسعت حدقتا ليليا وتضاحكت قائلة:

- هيا تحدث.. ولكن عجل من فضلك. ولا ترتعش هكذا.

- لقد... لقد ولدت في تامـــ... تامـــ.. بوف.. والداي لم يكونا من الأعيان، كانا فقيرين جداً.. سأخبرك بحقيقة أمري. وسترتاعين. تريثي.. سترين.. لقد كنت معدماً.. وكنت في صباي أبيع التفاح... والكمثرى...

- أنت؟!

- ترتاعين؟ ولكن يا عزيزتي، هذا ليس مريعاً بعد. أوه، إنني تعيس! ستلعنينني عندما تعرفين!

- هيا، ماذا بعد!

- في العشرين... كنت.. كنت.. سامحيني! لا تطرديني! كنت... مهرجاً في السيرك!

- أنت؟! مهرج؟

غطى سالوتوف وجهه الشاحب بيديه في انتظار اللطمة... وكاد يغمى عليه..

- أنت مهرج؟!

سقطت ليليا عن الأريكة.. ثم هبت واقفة، وأخذت تركض.. ما بها؟ أمسكت بطنها بيديها.. وامتلأت غرفة النوم بقهقهة مدوية تكاد تكون هستيرية..

- ها.. ها.. ها.. أنت كنت مهرجاً؟ أنت؟ مكسينكا.. عزيزي! مثّل شيئاً ما! أثبت أنك كنت مهرجاً! ها – ها – ها! عزيزي!

ثم وثبت إلى سالوتوف وعانقته...

- مثّل شيئاً ما! حبيبي! أرجوك!

- هل تضحكين، أيتها المفجوعة؟ هل تحتقرينني؟

- افعل شيئاً ما! هل يمكنك السير على الحبل؟ هيا، هيا!

غمرت ليليا وجه زوجها بالقبلات، والتصقت به، وراحت تتملقه.. ولم يكن يبدو أنها غاضبة.. وقد لبّى الزوج الذي أحس بالسعادة طلب زوجته دون أن يفهم شيئاً..

اقترب من السرير وعَدّ حتى الثلاثة، وانقلب رأساً على عقب مستنداً بجبهته إلى حافة السرير.

- برافو، ماكس! أَعِدْ! ها – ها! عزيزي! مرة ثانية! تأرجح ماكس وقفز، كما هو، إلى أرض الغرفة، ومشى على يديه..

في الصباح أصيب والدا ليليا بدهشة بالغة، وراحا يتساءلان:

- من هذا الذي يدق فوق؟ العروسان ما زالا نائمين.. لابد أنهم الخدم يتهارشون.. إنهم يثيرون جلبة شديدة! يا لهم من أوغاد!

صعد الأب إلى فوق ولكنه لم يجد خدماً هناك.

وشد ما كانت دهشته كبيرة عندما اكتشف أن الضجة تصدر عن غرفة العريسين.. وقف قرب الباب قليلاً، ثم رفع كتفيه بحيرة ووارب الباب بعض الشيء.. وما إن تطلع إلى الداخل حتى انكمش على نفسه وكاد يموت من شدة الدهشة: كان مكسيم كوزميتش يقف في وسط الغرفة ويتشقلب في الهواء بجرأة لا توصف، وكانت ليليا تقف قربه وهي تصفق. وكان وجهاهما يشعان بالسعادة.

شـباط ١٨٨٣

الغيـور

ظل مدير الخط الحديدي ز – ب – خ عشرين عاماً يعزم على الجلوس إلى طاولة الكتابة، وفي النهاية حزم أمره منذ يومين وجلس. فكرة محرقة، حادة، مقلقة، ظلت نصف عمره تدور في رأسه، تتسبك في صيغة لائقة، وتتكامل، وتتفصل، وتتمو حتى بلغت في النهاية حجم مشروع بالغ الضخامة. جلس إلى الطاولة وتناول الريشة بيده و... وضع قدمه على درب التأليف الشائك.

كان الصباح هادئاً، منيراً، صقيعياً.. وكانت الغرفة دافئة، أنيسة.. وثمة على الطاولة كوب شاي يتصاعد منه بخار خفيف... لا أحد يدق، ولا أحد يصرخ، ولا أحد يندس بأحاديثه.. جو رائع للكتابة! أمسكْ بالريشة وانطلق على هواك!

لم يكن المدير بحاجة إلى الكثير من التفكير ليبدأ.. فقد كان كل شيء قد بدأ في رأسه وانتهى منذ زمن بعيد، وما عليه الآن سوى أن ينقل ما في ذهنه إلى الورق!

عبس، وزم شفتيه، وسحب إلى داخله تياراً من الهواء، وكتب العنوان: «بضع كلمات دفاعاً عن الصحافة». كان المدير يحب الصحافة ويخلص لها بكل نفسه وقلبه وفكره. وكانت كتابة كلمة منه دفاعاً عنها، وقول هذه الكلمة بصوت عال، على مسمع من الجميع، حلمه الأثير الذي ظل يهدهده طوال عشرين عاماً! إنه مدين لها بالكثير الكثير: بتطوره، وبالكشف عن التجاوزات، وبالمنصب.. بالكثير! ينبغي إيفاؤها حقها من الشكر... ثم هناك الرغبة في أن يكون كاتباً ولو يوماً واحداً... فالكتّاب، وإن ذمّهم الناس، إلا أنهم يحترمونهم، ولاسيما النساء.. هـــ م..

بعد أن كتب المدير العنوان أطلق تيار الهواء، وكتب في دقيقة واحدة أربعة عشر سطراً. وجاء ما كتبه جيداً، سلساً... كتب في البدء عن الصحافة عموماً، وبعد أن حبّر نصف صفحة، بدأ الحديث عن حرية الصحافة.. أخذ بالمطالبة، وراحت الاحتجاجات والمعطيات التاريخية والاستشهادات، والأقوال المأثورة، والملامات، والتهكمات تنهمر من سنّ الريشة الحاد انهماراً.

كتب يقول: «نحن ليبراليون. اضحكوا من هذا المصطلح! كشّروا ساخرين! ولكننا نعتز وسنظل نعتز بهذا اللقب إلى أن...»

- وصلت الصحف!

أبلغه الخادم.

كان من عادة المدير أن يطالع الصحف في الساعة العاشرة. ولم يخالف عادته في هذه المرة أيضاً. ترك الكتابة، ونهض. تمطى واضطجع على الأريكة، وعكف على مطالعة الصحف. وما إن أمسك بصحيفة «الأزمنة الحديثة» حتى تضاحك بازدراء، واستعرض الافتتاحية بنظرات عجلى، ثم كف عن القراءة دون أن يكمل. دمدم قائلاً:

- زينة ديميدرون[١]. سأريكم العجب!

وبعد أن قذف بــ «الأزمنة الحديثة» على الكنبة، عكف على مطالعة «الصوت»[٢]. شعت عيناه بمشاعر الطيبة، وتلاعبت الحمرة على خديه. كان يحب «الصوت» وكان هو نفسه قد نشر فيها بعض النتف في وقت ما.

---

(١) زينة ديميدرون: لقب صحيفة أ. س. سوفورين «الأزمنة الحديثة» وديميدرون اسم مطعم في بطرسبورغ. (الناشر).

(٢) «الصوت» جريدة سياسية وأدبية كانت تصدر في بطرسبورغ وقد أوقف إصدارها في شباط عام ١٨٨٣ بسبب اتجاهها الليبرالي. ثم احتجبت نهائياً عام ١٨٨٤. (الناشر)

قرأ الافتتاحية والأخبار المصورة.. وألقى نظرة عجلى على زاوية الأسخورة[١].. وكان كلما أمعن في القراءة ازداد التملق وضوحاً في عينيه الصغيرتين. قرأ زاوية «بين الجرائد والمجلات» وانتقل إلى الصفحة الثالثة..

- نعم، نعم.. هكذا.. وأنا أيضاً تطرقت إلى هذا الموضوع.. صحيح.. صحيح تماماً! هـــ م. وهذا عن ماذا؟

زر المدير عينيه، وأخذ يقرأ:

«في الخط الحديدي ز. ب. خ. تمت المباشرة منذ أيام بدراسة مشروع يتصف بالغرابة إلى حد ما... ومصمم المشروع هو مدير الخط نفسه، الذي كان في السابق...»

بعد نصف ساعة من قراءة «الصوت» كان المدير يجلس إلى طاولة مكتبه أحمر، عرقان، مرتعشاً، ويكتب... كان يكتب «بلاغاً عاماً» يوصي فيه بعدم الاشتراك «ببعض» الجرائد والمجلات..

وقرب المدير الغاضب كانت تتناثر مزق من الورق. لقد كانت هذه المزق منذ نصف ساعة تشكل «بضع كلمات دفاعاً عن الصحافة»..

هكذا يمر المجد الدنيوي[٢]!

شـــباط ١٨٨٣

* * *

---

(١) «الأسخورة» مصطلح مقترح لتسمية خاطرة النقد الساخر التي تأخذ شكل مقامة صحفية نقدية هادفة. (المترجم).

(٢) باللاتينية في الأصل: Sic transit Gloria mundi (الناشر).

مجموعة

اتفق لي أن زرت منذ أيام زميلي الصحفي ميشا كوفروف. كان جالساً على أريكة ينظف أظافره ويشرب الشاي. قدم لي كأساً، فقلت:

- لا أشرب الشاي دون خبز. أرسل أحداً لإحضار الخبز!

- مستحيل! العدو.. نعم.. أقدم له خبزاً، أما الصديق فلا يمكن أبداً.

- غريب... ولماذا؟

- سأريك لماذا... تعال معي!

أخذني ميشا إلى الطاولة وفتح أحد الأدراج: - انظر!

نظرت في الدرج فلم أر شيئاً البتة.

- لا أرى شيئاً... مجرد نفايات... مسامير وخرق وأذناب ما...

- إلى هذا بالذات أريدك أن تنظر! ظللت عشر سنوات أجمع هذه الخرق والأمراس والمسامير، مجموعة مشهودة.

جرف ميشا براحتيه جميع النفايات وحملها وأهالها على صفحة جريدة.

- هل ترى عود الثقاب المحروق هذا؟ - سألني وهو يشير إلى عود ثقاب عادي لفحته النار – إنه عود يستحق الاهتمام. في العام الماضي عثرت عليه في كعكة اشتريتها من محل سيفاستيانوف للمعجنات، وكدت أختنق به. زوجتي، والحمد لله، كانت في البيت، ودقت لي على ظهري، ولولا ذلك لكان هذا العود قد بقي في حلقي. هل ترى هذا الظفر؟ لقد عثرنا عليه منذ ثلاث سنوات في قطعة بسكويت اشتريناها من محل فيليبوف. والبسكويت كما تعلم

بلا يدين ولا قدمين، ولكن له أظافر. لعبة الطبيعة! وهذه الخرقة الخضراء كانت منذ خمس سنوات تقبع في قطعة مرتديلا اشتريتها من أحد أفخم المحال التجارية في موسكو، وهذا الصرصور المجفف كان يوماً ما يغتسل في حساء كنت آكله في بوفيه في إحدى محطات السكك الحديدية. وهذا المسمار عثرت عليه في قرص لحم في المحطة نفسها. أما ذنب الجرذ هذا، وكذلك هذه القطعة من الجلد المدبوغ فقد عثرت عليهما في رغيف واحد من خبز فيليبوف. وهذه الكيلكا التي لم يبق منها سوى الحسك وجدتها زوجتي في التورتة التي أهدوها إليها في عيد شفيعها. وهذا الوحش الذي يسمونه بقّة قدم لي في كوب جعة في إحدى الخمارات الألمانية... أما هذه القطعة الجافة من ذرق الطيور فقد كدت أبتلعها وأنا ألتهم بشهية فطيرة في إحدى الحانات... وهلمجرا، يا عزيزي.

- مجموعة عجيبة!

- نعم، إنها تزن رطلاً ونصف الرطل[1]، وهذا عدا كل ما ابتلعته سهواً وهضمته، وأرجح أن ما ابتلعته يزن خمسة أو ستة أرطال.

أمسك ميشا صفحة الجريدة باحتراس، وتملّى المجموعة مدة دقيقة، ثم أهالها ثانية في الدرج. أمسكت بالكأس ورحت أحتسي الشاي، ولكنني لم أعد أطلب إرسال أحد لإحضار خبز.

شــباط ١٨٨٣

* * *

(١) الرطل الروسي = ٤٠٩،٥ غ. (المترجم).

زهوّ المنتصر

قصة كاتب ديوان[1] متقاعد

في جمعة أسبوع المرافع[2] توجه الجميع لأكل الرقاق عند الكسي ايفانيتش كوزولين. أنتم لا تعرفون كوزولين هذا، وربما كان بالنسبة إليكم عَدَمًا، صِفْرا، ولكنه بالنسبة إلى أمثالنا الذين لم يحلقوا عالياً في أجواز الفضاء شخص عظيم، كلي القدرة، سامي الحكمة. ذهب إليه الجميع، وكلهم منه بمنزلة السفح من الجبل، إذا جاز التعبير. وذهبت أنا ووالدي مع الجميع.

كانت الرقاق من الروعة بحيث أجدني عاجزاً، يا سيدي المحترم، عن وصفها لك: منتفخة، رخوة، محمرة. تأخذ منها واحدة تمجد خالقها، وتغمسها في الزبدة الحارة، وتأكلها – فإذا بأخرى تندس في فمك من تلقاء ذاتها. أما التوابع والزخارف والحواشي فكانت من القشدة والكافيار الطازج، والسلمون الوردي، والجبن المبشور. وكان هناك بحر كامل من الخمر والفودكا. وبعد الرقاق تناولنا حساء الحفش، وبعد الحساء الحجل مع الصلصة. لقد أكلنا أكلاً جعل والدي يفك أزرار سترته عند البطن خلسة، ويستتر بمنديل المائدة كي لا

---

(١) موظف من المرتبة الرابعة عشرة وهي أدنى مراتب السلم الوظيفي في روسيا القيصرية (المترجم).

(٢) الأسبوع الذي يسبق الصوم الكبير عند المسيحيين الشرقيين وفيه يأكل الروس عادة ما أسميه في الأقصوصة بالرقاق وهي أقراص صغيرة من عجين مائع يخبز في المقلاة، ثم تغمس الأقراص المخبوزة بالزبد وتؤكل مع القشدة ومختلف أنواع المربى. وهي شبيهة بالقطايف. (المترجم).

يلحظ أحد تصرفه الليبرالي. أما الكسي إيفانيتش المتمتع بيننا بحقوق الرئيس المباح له كل شيء فقد فك أزرار صداره وقميصه. بعد الغداء شرع الحضور، بعد إذن الرئيس، بتدخين السيجارات وهم جلوس إلى المائدة، وطفقوا يتحادثون. شرع سعادته يتكلم، ونحن نصغي. وكانت المواضيع في غالبيتها ذات طابع فكه، تليق بمناسبة المرافع... كان الرئيس يرغب، على ما يبدو، في أن يكون حديثه ظريفاً. ولا أدري هل كان يقول أشياء مضحكة أم لا، ولكنني أذكر أن أبي كان يلكزني كل دقيقة في خاصرتي ويقول لي: - اضحك!

وكنت أفتح فمي واسعاً وأضحك، حتى أنني زعقت مرة من شدة الضحك، فلفتُّ إليّ بهذا انتباه الجميع. وَشْوشني والدي قائلاً:

- ايوه، هكذا! شاطر! إنه ينظر إليك ويضحك.. هذا جيد، لعله يعيِّنُك بالفعل في مكان معاون المنشئ في الديوان!

- نـــ... ـــعم! – قال رئيسنا كوزولين في أثناء الحديث وهو ينفخ ويزفر – ها نحن الآن نأكل الرقاق، ونتعاطى أطزج الكافيار، ونداعب زوجتنا الناصعة البياض. وبناتي على درجة من الجمال لا تجعل أمثالكم من المستكينين فقط يختلسون النظر ويتنهدون، بل تجعل حتى الأمراء والكونتات يفعلون ذلك. وشقتنا؟ هيء – هيء – هيء.. ها هي أمامكم! ولكن لا تتذمروا ولا تشكوا ما دمتم لم تصلوا إلى نهاية العمر! كل شيء محتمل، ومن الممكن أن تحدث مختلف التغيرات.. لنفرض أنك الآن عدم، صفر، قشة... زبيبة، فمن يدري؟ ربما مع الزمن.. أصبحت تمسك بناصية مصير العباد... كل شيء محتمل!

سكت الكسي ايفانيتش قليلاً، وهز رأسه، ثم أردف:

- أما في السابق، ماذا كان في السابق! آ؟ آه يا إلهي! إنني لا أصدق ذاكرتي. من دون حذاء، في سراويل ممزقة، خائف، مرتعد.. أحياناً أعمل أسبوعين من أجل الحصول على روبل. ثم إنهم لا يعطونك الروبل هكذا، لا!

بل يكورونه في قبضتهم ويقذفون به في وجهك: ابلع! وأي واحد يمكنه أن يسحقك، أن يطعنك، أن يهوي عليك بكعب المطرقة... أي واحد يمكنه أن يحرجك... تأتي لتقدم تقريراً لرئيسك، تنتظر فترى كلباً صغيراً يجلس عند الباب، تقترب من هذا الكليب، وتمسك بكفه متودداً وكأنك تقول: اعذرني لأنني تجاوزتك. عمت صباحاً! فيهر الكلب في وجهك: ر ر ر ر.. ويلكزك البواب بكوعه! فتقول له: «ليس معي قطع نقدية صغيرة يا ايفان بوتابيتش! اعذرني!». وقد عانيت أكثر ما عانيت وتحملت مختلف الإهانات من هذا السلمون المدخَّن.. من هذا... التمساح! من هذا المستكين بالذات، من كوريتسين!

وأشار الكسي ايفانيتش إلى شيخ ضئيل، محدودب الظهر، يجلس بجانب والدي. كان الشيخ يطرف بعينيه المتعبتين الصغيرتين ويدخن سيجاراً بتقزز. لم يكن من عادته أن يدخن البتة. ولكن عندما يقدم له رئيسه سيجاراً فإنه يعد الرفض تصرفاً غير لائق. وما إن شاهد الإصبع المصوبة نحوه حتى ارتبك ارتباكاً شديداً وأخذ يتململ على الكرسي.

ومضى كوزولين يقول:

- لقد عانيت الكثير بفضل هذا المستكين! فقد كان هو أول من وقعتُ تحت يده في البداية. أتوا بي إليه مستكيناً، غفلاً، تافهاً، وأجلسوني إلى طاولته. وأخذ يأكلني... كل كلمة من كلماته كانت سكيناً حادة، وكل نظرة كانت رصاصة في الصدر. إنه الآن فقط يبدو مستضعفاً كالدودة. ولكن كيف كان سابقاً! نبتون[(١)] وقد انشقت عنه السماء! عذبني طويلاً! كنت أكتب له، وأجلب له الفطائر، وأبري له الريش، وأصطحب حماته العجوز إلى المسارح. كنت أفعل كل ما يرضيه. تعلمت تنشق العطوس. نـــ... ـــعم... وكل هذا من أجله... أقول لنفسي: لا يجوز، علبة العطوس يجب أن تبقى معي باستمرار، فلربما طلبها. كوريتسين، هل تذكر؟ مرة جاءت إليه المرحومة أمي.. ورجته العجوز أن

(١) نبتون: إله البحار والملاحة عند الرومان يمثل حاملاً حربة مثلثة الأسنة (المترجم).

يسمح لابنها، أي لي، بإجازة ليومين كي أذهب إلى خالتي لاقتسام إرث. لو رأيتم كيف انقضّ عليها، وكيف حملق بعينيه، وكيف صرخ: «ابنك هذا كسول، وطفيلي، مالك تنظرين هكذا أيتها الحمقاء! إنه سيقدم إلى المحكمة يوماً ما!»

عادت العجوز إلى البيت، واستلقت، ومرضت من شدة الفزع، وأشرفت آنذاك على الموت.

مسح الكسي ايفانيتش عينيه بمنديله، وعب كأس النبيذ دفعة واحدة.

- كان يهم بتزويجي ابنته، ولكنني... لحسن الحظ مرضت في تلك الفترة بالحمّى، ومكثت في المستشفى نصف سنة. هذا ما جرى في السابق! هكذا كنّا نعيش! والآن؟ أوه! الآن أنا فوقه.. هو الذي يصطحب حماتي إلى المسارح، وهو الذي يقدم لي علبة العطوس، وها هو الآن يدخن سيجاراً... هيء – هيء – هيء.. لقد وضعت له في الحياة فلفلاً... فلفلاً! كوريتسين.

- ماذا تأمر؟ - سأل كوريتسين وهو ينهض ويشد جذعه كالوتر.

- مثّلْ تراجيديا!

- حاضر!

مط كوريتسين جسمه، وعبس، ورفع يده إلى الأعلى، ولوى سحنته، وغنّى بصوت أجش متهدج:

- موتي أيتها الغادرة! إنني أتعطش إلى الدم!!

وأغربنا نحن في الضحك.

- كوريتسين! كل هذه القطعة من الخبز مع الفلفل.

أخذ كوريتسين الشبعان قطعة كبيرة من خبز الجودار وأهال عليها الفلفل وراح يمضغها وسط قهقهاتنا العالية. وتابع كوزولين:

- كل التغيرات محتملة الحدوث. اجلس يا كوريتسين! عندما ننهض ستغني شيئاً ما... آنذاك كنت أنت، أما الآن فأنا... نعم.. لقد ماتت العجوز... نعم.

نهض كوزولين وترنح..

- وأنا لزمت الصمت، لأنني كنت صغيراً، غفلاً.. جلادون.. برابرة.. ولكن الآن فأنا بالمقابل.. هيء – هيء – هيء.. هيه أنت! أنت! الكلام لك، يا حليق الشارب! – وصوب كوزولين إصبعه نحو أبي – اركض حول الطاولة وصح كالديك.

ابتسم أبي، وتضرج وجهه بحمرة الارتياح، وأخذ يدب حول الطاولة، وأنا خلفه، ثم شرعنا نصيح بصوت عال: كوكو – كوكو.. وأسرعنا في الركض.

كنت أركض وأقول في نفسي «سأصبح معاون منشئ»!

شـــباط ١٨٨٣

* * *

البـواب العاقل

كان البواب فيليب يقف وسط المطبخ ويلقي موعظة. وكان مستمعوه هم الخدم والحوذي وخادمتَيْ الغرف، والطاهي، والطاهية، وغلامين يساعدان في أعمال المطبخ، وأولاده بالذات. في كل صباح كان لابد من أن يعظ بشيء ما. وكان موضوع خطبته في هذا الصباح هو التعليم. كان يقول وهو يمسك بيديه قبعته الفروية ذات الشعار:

- إنكم جميعاً تعيشون كما لو كنتم قطيع خنازير، تلبدون هنا ببلادة ولا ترى العين فيكم أية مدنية، لا ترى سوى الجهل. ميشكا يلعب الداما، وما ترينا تكسر جوزاً، ونيكيفور يضحك ويتمسخر. فهل هذا من العقل؟ هذا ليس من العقل، بل من الحماقة. ليس فيكم أية قدرات عقلية! ولماذا؟

- هذا واقع يا فيليب نيكاندريتش، - يقول الطاهي – معروف ما هو العقل الذي لنا؟ عقل العوام. من أين لنا الفهم؟

- ولماذا ليس لديكم قدرات عقلية؟ - تابع البواب – لأن أمثالكم ليس لديهم نقطة ارتكاز حقيقية. فأنتم لا تقرؤون الكتب، أما بالنسبة إلى الكتابة فليس لديكم أية فكرة عنها. ماذا لو أخذتم كتاباً وجلستم وقرأتموه. لستم أميين، كما أعتقد، وتستطيعون قراءة المطبوع. أنت يا ميشا. هلاّ أخذت كتاباً وقرأته هنا. أنت تستفيد والآخرون ينبسطون. الكتب تتناول جميع المواضيع. فهناك تجد معلومات عن الطبيعة وعن الإله وعن بلدان الأرض، ومم يصنع كل شيء، وكيف تتكلم الشعوب المختلفة بجميع اللغات، وعن عبادة الأصنام أيضاً. في

الكتب تجد معلومات عن كل شيء. المهم الرغبة. أما أنت فتظل جالساً قرب الفرن تأكل وتشرب. تماماً كالبهائم الوضيعة! تفوه!

قالت الطاهية:

- نيكاندريتش، لقد حان وقت حراستك.

- أعرف، ليس من شأنك أن تنبهيني. خذوني أنا على سبيل المثال. ما هي تسليتي في سن الشيخوخة هذه؟ بم أروّح عن نفسي؟ ليس هناك أحسن من الكتاب أو الصحف. الآن سأذهب للحراسة. سأجلس عند البوابة ثلاث ساعات. هل تظنون أنني سأجلس أتثاءب أو أثرثر مع النسوان في أمور تافهة؟ لا، لست من هذا النوع! سآخذ معي كتيباً. وسأجلس أقرأ وأنا في غاية الاستمتاع. نعم... هكذا..

تناول فيليب من الصوان كتيباً مهترئاً ودسه تحت إبطه.

- هذه هي تسليتي. منذ صغري تعودت. العلم نور والجهل ظلام – سمعتم بهذا أظن؟ أيوه...

اعتمر فيليب قبعته الفرو، وزحر، وخرج من المطبخ وهو يتمتم. ذهب إلى خلف البوابة، وجلس على المقعد وتجهم كسحابة سوداء.

- هؤلاء ليسوا بشراً، بل أشبه بالمشعوذين المخنزرين.

راح يتمتم وهو ما زال يفكر بأهالي المطبخ.

وبعد أن هدأ، أخرج الكتاب، وتنهد برزانة، وعكف على القراءة. وعندما قرأ الصفحة الأولى أدار رأسه إعجاباً وفكر: «مكتوب بشكل جيد إلى حد لا يجعلك تطلب المزيد، صحيح، الرب يهب الحكمة!»

كان الكتيب جيداً، وهو صادر في موسكو، وعنوانه: «زراعة المحاصيل الجذرية، هل نحن بحاجة إلى الرتباج[١]»، وبعد أن قرأ البواب الصفحتين الأوليين هز رأسه هزة ذات مغزى وتنحنح قائلاً: - مكتوب بشكل صحيح.

---

(١) الرتباج أو الروتباغة: ضرب من اللفت.

وعندما قرأ الصفحة الثالثة استغرق في التفكير. ساورته الرغبة في أن يفكر في الثقافة، ولسبب ما في الفرنسيين. ارتخى رأسه على صدره وارتكز مرفقاه على ركبتيه وضاقت عيناه.

ورأى فيليب حلماً. رأى أن كل شيء قد تغير: الأرض هي نفسها، والبيوت هي نفسها، والبوابة كما كانت، ولكن الناس ليسوا كما كانوا على الإطلاق. كل الناس أصبحوا حكماء، وليس بينهم أحمق واحد. وكل من يسير في الشوارع من الفرنسيين. حتى السقّا يفكر: «أنا في الحقيقة غير راضٍ عن المناخ أبداً، وأرغب في النظر إلى ميزان الحرارة» وهو يحمل بين يديه كتاباً سميكاً. يقول له فيليب: - عليك أن تقرأ التقويم.

ومع أن الطاهية غبية إلاّ أنها تتدخل في الأحاديث الذكية وتدس ملاحظاتها. يذهب فيليب إلى القسم ليسجل أسماء الساكنين. ويا للغرابة! حتى في هذا المكان الصارم لا يتحدثون إلاّ في مواضيع ذكية، والكتب تغطي جميع الطاولات. وها هو أحدهم يقترب من الخادم ميشا ويلكزه ويصرخ: «هل أنت نائم؟ إنني أسألك: هل أنت نائم؟»

ويسمع فيليب صوتاً كالرعد يسأل:

- نائم في أثناء الحراسة، أيها الغبي؟ نائم يا وغد، يا حيوان!

هب فيليب واقفاً وفرك عينيه: كان يقف أمامه مساعد رئيس القسم.

- آ؟ نائم؟ سأغرمّك أيها المحتال، سأريك كيف تنام في وقت الحراسة يا سحنة الحيوان.

بعد ساعتين استُدعِيَ البواب إلى القسم، وبعد ذلك ذهب إلى المطبخ. الجميع هنا كانوا قد تأثروا بمواعظه، وقد تحلقوا الآن حول الطاولة وراحوا يصغون إلى ميشا الذي كان يقرأ لهم شيئاً ما متهجِّياً.

اقترب فيليب من ميشا مقطباً، أحمرَ الوجه، وضرب الكتاب بقفازه وقال بتجهم: دعك منه!

آذار ١٨٨٣

الأخ

قرب النافذة كانت تقف فتاة في مقتبل العمر تنظر إلى الشارع الموحل وهي مستغرقة في التفكير. وخلفها كان يقف شاب مرتدٍ سترة الموظفين الرسمية، يشد شعيرات شاربيه الصغيرتين ويقول بصوت مرتعش:

- عودي إلى رشدك يا أختي! لم يفت الوقت بعد! اصنعي هذا المعروف! ارفضي هذا التُوَيْجر الاكرش، هذا الكاتساب[1]! ابصقي على هذا اللعين الشحيم الوجه، ليخسف الرب ما تحته ويهد ما فوقه! اصنعي هذا المعروف أرجوك!

- لا أستطيع يا أخي! لقد أعطيته كلمة!

- أتوسل إليك! أشفقي على أسرتنا! أنت من عائلة كريمة، وقد اكتسبت لقب نبيلة، وتثقفت، بينما هو بائع كفاس[2]، وعاميّ جلف! جلف! افهمي هذا يا قليلة العقل! إنه يتاجر بالكفاس النتن والفسيخ الفاسد! إنه غشاش! البارحة أنت أعطيته كلمة، واليوم صباحاً بَخس طباختنا خمسة كوبيكات! إنه يسحب عروق الشعب المسكين! ثم أين أحلامك؟ آ؟ آه يا إلهي! آ؟ اسمعي. ألست تحبين موظف إدارتنا ميشكا تريوخفوستوف، وتحلمين به! وهو يحبك أيضاً...

احمرت الأخت، وارتعش ذقنها، واغرورقت عيناها بالدموع. كان واضحاً أن أخاها قد ضرب على أشد الأوتار حساسية.

- إنك تدمرين نفسك، وتدمرين ميشكا معك... لقد بدأ المسكين يشرب الخمر! آه، يا أختي، يا أختي! لقد غرّك المال القذر، غرتك الأقراط والأساور.

---

(١) لقب ساخر يطلقه الأوكرانيون على الروس. (المترجم).

(٢) الكفاس: شراب شعبي يصنع من دقيق الجودار أو الخبز المخمر مع الملت. (المترجم).

بدافع الطمع تتزوجين غبياً أحمق.. خنزيراً.. تتزوجين جاهلاً.. لا يعرف كيف يوقع اسمه كما يجب! «ميتري Necolaev»[1]، «Ne» أتسمعين؟ Necolaev.. حـــ حـــ حيوان! إنه عجوز وفظ وأخرق.. هيا اصنعي هذا المعروف!

تهدج صوت الأخ وبح. فأخذ يسعل، ومسح عينيه، وراح ذقنه يرتجف.

- لقد أعطيته كلمة يا أخي... ثم إنني قد سئمت هذا الفقر الذي نحن فيه.

- سأتكلم إذن، ما دام الأمر وصل إلى هذا الحد! لم أكن أريد أن ألوث نفسي في نظرك، ولكنني سأتكلم.. الأفضل لي أن أخسر سمعتي من أن أرى أختي الشقيقة تقع في المهالك.. اسمعي يا كاتيا.. إنني أعرف عن تويجرك هذا سراً... وإذا ما عرفته أنت رفضته على الفور.. وهاك هذا السر... هل تعرفين في أي مكان قذر صادفته مرة؟ هل تعرفين؟ آ؟

- في أي مكان؟

فتح الأخ فمه ليجيب، ولكن مانعاً حال بينه وبين ذلك. فقد دخل الغرفة في هذه اللحظة فتىً يلبس صداراً وجزمة قذرة، ويحمل كيساً كبيراً من الورق. رسم شارة الصليب، ووقف عند الباب وتوجه إلى الأخ قائلاً:

- ميتري تيرينتيتش يهديك السلام، وقد أمر أن أهنئك بيوم الأحد وأسلمك هذا.. هذا الشيء باليد.

عبس الأخ وأخذ الكيس وتطلع إلى داخله وابتسم بازدراء.

- ماذا هنا؟ تفاهة، أكيد هـــ م.. قالب سكر.

أخرج الأخ من الكيس قالب السكر، ونزع عنه الغطاء، ونقفه بإصبعه.

---

(١) الكنية في الأصل مكتوبة باللغة الروسية. ومن الواضح أن الأخ يريد إقناع أخته بأن الذي تريد أن تتزوجه جاهل، فهو يكتب اسمه كما يلفظ باللهجة الدارجة «ميتري» بدلاً من «دميتري»، ويكتب كنيته بشكل خاطئ إذ ينبغي أن يكتب حرف «i» لا حرف «e» بعد حرف «N». (المترجم).

- هــ م... إنتاج أي مصنع؟ بوبرينسكي؟ ايوه هكذا.. وهذا شاي؟ أوف.. ما هذه الرائحة.. هناك سردين.. ومعجون؟ لا أدري ما لزومه هنا.. وزبيب فيه شوائب.. يريد أن يستميلني.. يتزلف.. ولكن لا.. أيها الصديق العزيز! لن تستميلنا! ولماذا دس هنا قهوة هندباء؟ إنني لا أشربها. القهوة مضرة... تؤثر في الأعصاب.. طيب، انصرف! سلِّم!

خرج الفتى وقفزت الأخت نحو أخيها وأمسكت بيده... فقد أثرت فيها كلماته تأثيراً شديداً... كلمة أخرى و...

- هيا تكلم! تكلم! أين شاهدته؟

- لم أشاهده في أي مكان. كنت أمزح! افعلي ما ترينه مناسبا!.

قال الأخ، ونقف قالب السكر بإصبعه مرة أخرى.

آذار ١٨٨٣

* * *

الداهيـة

صاحبان كانا يسيران ساعة العشي في شارع نيفسكي وهما يتبادلان حديثاً رصيناً[1]. الشمس قد مالت للغروب ولكنها لم تغب بعد... ففي بعض الأماكن ما زالت المداخن مغشاة بالذهب، وما زالت صلبان الكنائس تتلألأ... والهواء القارس بعض الشيء كان محملاً بأنفاس الربيع...

- الربيع على الأبواب – قال أحدهما لصاحبه وهو يحاول أن يتأبط ذراعه – مزعج هذا الربيع! الوحول قي كل مكان، والمرض، والمصاريف الكثيرة... واستأجر دارة صيفية، وكذا وكذا... أنت، يا بافل ايفانيتش من الأرياف، ولن تفهم هذا... لا يمكنك أن تفهمه. عندكم في الريف، كما عبّر مرة أحد الكتاب، ليس سوى الرضا وراحة البال.. لا مصائب ولا أتراح. تأكلون وتشربون وتنامون ولا تعرفون أية مشاكل. ليس كحالنا نحن.. لقد بدأ الصقيع يهبط.. هل تلاحظ؟.. على العموم عندكم أيضاً لا تخلو الحياة من المصائب... لديكم أيضاً أتراحكم في الربيع. هيء – هيء – هيء. فعندكم يا سكان الأرياف يبدأ الدم الآن بالفوران.. وتأخذ الشهوات تثور. نحن سكان العاصمة أناس من حجر، من جليد، ليس فينا لهب، ولا نعرف الشهوات، أما أنتم فبراكين، ڤيزوڤات! بش! بش! تنفث! هيء – هيء هيء. أواه! سأحترق! هيا اعترف يا بافل ايفانيتش، أيفور دمك بشدة؟

---

(١) العبارة مقتبسة، مع بعض التحريف، من حكاية للكاتب أي. أ. كريلوف بعنوان «السابلة والكلاب» (الناشر).

أجاب بافل ايفانيتش بتجهم:

- لا شيء يدعوه إلى الفوران..

- إيه، كفى، دعك من هذا! إنك عازب، ولست مسناً، فما الذي يمنعه من الفوران؟ فليفر كما يشاء، ما دام يريد! ثم لا داعي لأن تخجل... لا شيء مخجل في هذا... مجرد حديث! (صمت). أية فتاة يا أخ شاهدت من فترة قريبة، أية فتاة! تجعلك تلعق أصابعك! عندما تشاهدها تتلمظ مئة مرة! نار! جسم! أقسم بشرفي... أتريد أن أعرفك بها؟ بولونية... اسمها سوزي.. أتريد أن أقودك إليها؟

- هـ م... اعذرني يا سيميون بيتروفتش إن قلت لك إن النبلاء لا يليق بهم أن يتصرفوا هكذا! لا يليق! هذه الشغلة للنسوان ولمرتادي الخمارات، وليست لك أنت.. ليست للنبلاء!

قال سيميون بيتروفتش بجبن:

- ما هذا؟ عم أنت تتحدث؟

- عيب يا أخ! المرحوم والدك كان زعيماً عندنا. وأمك محترمة.. عيب! لقد لاحظت فيك خصلة خلال الشهر الذي قضيته في ضيافتك.. إنك لا تترك واحداً من معارفك، ولا تترك رائحاً ولا غادياً إلاّ وتعرض عليه فتاة! تارة لهذا وتارة لذاك.. وليس لك من حديث إلاّ هذا... تشتغل بالخطبة. وكل هذا وأنت متزوج ومحترم وقريباً ستصبح من موظفي المرتبة الأولى، من أصحاب السعادة... عيب وعار! أعيش عندك منذ شهر وها أنت تعرض علي العاشرة... خاطبة!

خجل سيميون بيتروفتش وارتبك كأنهم ضبطوه ويده في جيب إنسان آخر. تمتم قائلاً:

- أنا لا أقصد شيئاً.. أنا، يعني، هكذا فقط، هيء – هيء – هيء... أي إنسان أنت..!

سارا نحو عشرين خطوة صامتين. وبغتة قال سيميون بيتروفتش متنهداً وهو يتضرج بالحمرة ويطرف بعينيه:

- أنا إنسان تعيس! تعيس أنا! أنت على صواب في أنني خاطبة!. على صواب! كنت هكذا وسأظل هكذا حتى يضعوني في التابوت إذا كنت تريد أن تعرف! وسأحترق بنار جهنم جزاء ذلك!

نفض سيميون بيتروفتش يده اليمنى بيأس، ومر باليسرى على عينيه، وانزلقت قبعته العالية إلى قفاه، واشتد صرير جرموقه على الرصيف، واحتقن الدم في أرنبة أنفه..

- سيقصف عمري جزاء سلوكي هذا! لن أموت ميتة طبيعية! بل قتلاً! اشعر يا أخ بالعيب الذي فيّ وأفهمه، ولكنني لا استطيع أن أفعل بنفسي شيئاً. لماذا تراني أتخم الآخرين بالجنس النسائي! غصباً عني يا أخ! أقسم لك، غصباً عني! إنني غيور كالكلب! أعترف لك كصديق... الغيرة غلبتني على امري! لقد تزوجت، كما تعرف، فتاة صغيرة، حسناء... الجميع يتوددون إليها، أعني، ربما لا أحد يريد حتى النظر إليها، ولكنني مع ذلك أتوهم هذا... الدجاجة العمياء، كما تعرف، تظن أي شيء قمحاً. أخاف من كل خطوة... منذ فترة، بعد الغداء، أنت صافحتها لا أكثر، ولكن مع ذلك خيل إلي.. رغبت عندها في أن أطعنك بسكين... أخاف من كل شيء! وهكذا فإنني أضطر غصباً عني إلى استعمال الدهاء. فما إن ألاحظ أن أحداً قد أخذ يحوم حولها حتى آتي إليه ومعي فتاة، وكأنني أقول له: ألا تريد؟ مجرد تحويل انتباه، دهاء عسكري.. أحمق أنا! ما الذي أفعله؟ عيب وعار! وكل يوم أجري في شارع نيفسكي لأجنّد لأصحابي هؤلاء الفاسدات ذوات الأذيال المهتزة... هؤلاء الساقطات! ليتك تعرف كم من النقود أنفق عليهن.. لقد فطن بعض أصحابي لنقطة ضعفي هذه فراحوا يستغلونها... إنهم يتسلون على حسابي، الأوغاد... آه!

زعق سيميون بيتروفتش وشحب لونه. فقد مرت من قرب الصديقين في شارع نيفسكي عربة فيها سيدة شابة، وقبالتها يجلس رجل.

- أترى؟ أترى؟ زوجتي في العربة. فكيف تريدني ألا أغار؟ آ؟ هذه هي المرة الثالثة التي يتنزهان فيها معاً في العربة! ليس عبثاً! يا للخبيث! هل رأيت كيف ينظر إليها؟ وداعاً... علي أن أسرع.. إذن فأنت لا تريد سوزي؟ لا؟ لا تريدها! وداعاً... إذن سأقدمها له.. أقصد سوزي.

أنزل سيميون بيتروفتش قبعته إلى ما فوق عينيه، ودق الأرض بعصاه، وانطلق يركض، محاولاً ألا تغيب العربة عن بصره.

زفر بافل ايفانيتش وقال لنفسه:

- أبوه كان زعيماً، وأمه محترمة، واسرته ذات جاه وحسب. آ آ آخ! لقد تصاغر الناس!

آذار ١٨٨٣



* * *

فرسَان لا يخافون ولا يُلامون

في محطة «رَزْبيْسا» احتشد حفل كبير في مسكن السيد مدير المحطة. كان بينهم مديرو محطات، ورؤساء مراحل وعنابر ورحبات وغير ذلك، متقاعدون وغير متقاعدين، شيوخ وشبان. كانت تُرى بين البزات الرسمية التي يرتديها موظفو السكة الحديدية ألوان أزياء نسوية دارجة[١].وتلوح وجوه أطفال.. كان المجتمعون يشربون الشاي ويلعبون بالورق ويعزفون الموسيقى، ويمتعون أنفسهم بالأحاديث. وكانوا يتحدثون عن الحوادث التي تقع بالمصادفة على الخطوط الحديدية. قصص كثيرة رُويت، ولا يمكن أن نكتب كل ما قيل. السيد أوكوسيلوف وحده تحدث ساعتين... واسمحوا لي أن أكتب بعض ما قاله! وسأتوخى الإيجاز كعادتي.

قال السيد اوكوسيلوف في نهاية حديثه الذي استغرق ساعتين:

- ثلاث مقطورات تحطمت! قتل اثنان، وجرح خمسة، والأدهى من هذا جاء من الشرير: بصورة غير رسمية، يعني.. هيء – هيء – هيء م.. جرح ستة أشخاص من فرقة عمل.. صحت بهم: «إياكم! أي واحد منكم! لأي كان!.. قولوا أُصبنا عرضاً!». وجنديان أعطيت كلا منهما ثلاثة روبلات ليهدأا: اسكت ولا تخبر أحداً! احتياطات كثيرة اتُّخذت، ومع ذلك لم يمر الأمر من دون سوء. عزلوني من منصبي وهددوا بتقديمي للمحاكمة.. ادّعوا أنني، قال، كنت نائماً، ولم أرسل برقية. معنى ذلك أن مدير المحطة لا يجوز له أن

---

(١) بالفرنسية في الأصل: modes et robes.

ينام... أناس بلا ضمير... يحرمون رب أسرة من وظيفته بسبب تفاهات. في إحدى المقطورات كانوا يحملون إلى رئيس الحركة سرطانات طازجة من عزبته، وقد أضاعوها وســط الهرج والمرج. وكان رئيس الحركة يحلم بأن يأكل في تلك الأمسية سرطانات ألا بورداليز. مُربّى على الدلال. ولولا هذه السرطانات الســافلة لما أسرعت لجنة التحقيق إليّ في المحطة، ولما فقدت وظيفتي...

- وأنت الآن بلا وظيفة؟ - سألت ابنة قس القرية المجاورة (كانت قد أتت إلى المحطة لتلتمس «عن طريق المعارف» سفراً مجانياً لوالدتها الذاهبة لزيارة خالتها).

- ماذا! بعد أسبوع توظفت على خط آخر، مع أنني كنت قيد المحاكمة.

- وهاكم أيضاً حادثة – بدأ السيد غارتسونوف حديثه وهو يصب لنفسه قدح فودكا – أنتم طبعاً تعرفون ايفان مخايليتش الذي كان يعمل كبير مراقبين. مكار من الدرجة الأولى! إنسان شريف جداً، نبيل جداً، ولكنه وغد على طريقته، عربيد.. أي أنه ليس وغداً، ولكنه بين بين... عبقري على طريقته، باشق... جاء مرة إلى «جيفوديريفو» في القطار... كان يعمل في قطار البضائع. لم يعيّنوه في قطار الركاب لأنه لم يكن يستطيع أن ينظر إلى النساء بلا مبالاة. كانت تحصل له نوبة. جاء في القطار... وفي هذه الأثناء كان يقف على رصيف المحطة حوالي ثلاثين حصاداً. وكان الوقت وقت عمل.. موسم الصيف كما تعلمون.. سألهم: «إلى أين أيها الحصادون؟ تعالوا أوصلكم إلى المحطة التالية في قطار البضائع. سآخذ من كل واحد عشرة كوبيكات فقط..» أولئك وجدوا هذا يناسبهم طبعاً، فهو بالذات ما كانوا يحتاجون إليه. قبض ايفان ميخايليتش عشرة كوبيكات من كل منهم، وأجلسهم في عربة الخدمة. وسافر حصادونا... وأخذوا من شدة ابتهاجهم يغنون. نكتة! في هذه الأثناء كنت أنا مسافراً في العربة نفسها. كنت أريد أن ألحق حفلة العماد عند

ايليا، ايليا بيتروفتش... فقد كان يعمّد ابنته أوليتشكا... سألته: «لماذا أركبتهم يا ايفان ميخايلوفتش؟ إن في المحطة مفتشاً».

- «صحيح؟»

- «أعدم حياتي..»(١)

أخذ ايفان ميخايليتش يفكر.. لم يكن طبعاً، يريد لنفسه الفضيحة. الأمر بحد ذاته لا أهمية له، تعرفون، الجميع يُركِّبون بدون أجر، والجميع يعرفون هذا تمام المعرفة، ولكن الأمر محرج مع ذلك... ثم إن المفتشين ليسوا كلهم سواء... يصادفك أحياناً مفتش كالشيطان يجعلك تكره حياتك... يحدث! وفي أكثر الأحيان يبلغون عنك من الحقد، أو لأنهم يريدون تبييض الوجه أمام رؤسائهم... «القطار لا يمكن إيقافه – يقول ايفان ميخايليتش – وهؤلاء الشياطين يجب إنزالهم... فما العمل؟»

وهنا قابَلنا قطار فيه ثلاثة مصابيح في عربة الخدمة. وبين المراقبين توجد إشارات من هذا النوع: فإذا كان في عربة الخدمة ثلاثة مصابيح، أو، لنفرض، عَلمان، أو شيء ما آخر متعارف عليه فإن ذلك يعني أن هناك مفتشاً في المحطة. وهكذا تأكدت كلماتي. فكر ايفان مخيايليتش واهتدى إلى حل. نكتة! يفتح باب العربة، ويمسك بالسادة الحصادين من ياقاتهم، ويدفع بهم إلى الخارج والقطار يسير بكامل سرعته: - هيا! اقفز! وأخذ الحصادون يقفزون... هيء – هيء – هيء.. كانوا يتدحرجون كحزم القش. وهو يصيح: «اقفز! اقفز إلى الأمام ولن يصيبك شيء! اقفز، ابن كيت وكيت! شيطان، عفريت!» ونحن ننظر ونكاد نموت من الضحك... قفزوا جميعاً. واحد منهم فقط كسرت ساقه، والباقون سالمون. وهكذا خسروا معشّراتهم.. هيء – هيء – هيء.. بعد أسبوع علموا بصورة ما بهذه الفضيحة، نقّبوا عن

---

(١) تعبير بمنزلة القسم: «أعدم حياتي إن كنت أكذب».

الحصاد الذي كسرت ساقه وجلبوه... وشاية من أحدهم.. ليأخذه الشيطان.. حقد البشر.. أعطوا الحصاد خمسة روبلات وطردوا ايفان ميخايليتش من وظيفته – هيء – هيء – هيء.

- وهو الآن بدون وظيفة؟

- سمعت أنه ينتسب إلى الأوبرا. له صوت باريتون رائع.. أحياناً كان يسكر وهو مسافر في القطار، وهات يا غناء. كانت الوحوش تصغي، والطيور تبكي! إنسان موهوب، لا يمكن أن نقول غير ذلك...

نيسان ١٨٨٣

* * *

الصفصافة

من منكم سافر في طريق البريد بين «ب» و«ت»؟ إن من سافر يتذكر طبعاً طاحونة اندرييفسك التي تقف وحيدة على ضفة نهر كوزيافكا. طاحونة صغيرة بزوجين من الرحى.. عمرها أكثر من مئة سنة، وقد توقفت عن العمل منذ وقت بعيد، لذا فليس عجيباً أن تكون الآن أشبه بعجوز ضئيلة محدودبة الظهر، رثة الملابس، توشك على السقوط في كل لحظة. ولولا أن هذه العجوز تستند إلى صفصافة ثخينة قديمة لسقطت منذ زمن بعيد. كانت الصفصافة من الثخانة بحيث يعجز اثنان عن تطويق جذعها بأذرعهما. وكانت أوراقها اللامعة تتدلى على سطح الطاحونة وفوق السد. بينما تغتسل أغصانها الدنيا في الماء، وتتفرش على الأرض. إنها هي الأخرى عجوز ومحدودبة. وقد شوه تجويف كبير معتم جذعها المقوس. وإذا ما دسست يدك في هذا التجويف انغمست في عسل أسود، وعندها سيدوّي نحل بري حول رأسك ويلدغك. كم عمرها؟ يقول صديقها أرخيب إنها كانت عجوزاً حتى عندما كان هو يخدم عند السيد في فئة «الفرنسيين»[١] ثم عند السيدة في فئة «الزنوج»[٢]. وكان هذا منذ زمن جد بعيد.

وتسند الصفصافة أيضاً جسماً متداعياً آخر – هو جسم أرخيب العجوز الذي يجلس عند أصلها من الصباح إلى المساء يصيد السمك. إنه شيخ محدودب الظهر كالصفصافة، وفمه الأدرد يشبه تجويفها. في النهار يصيد

---

(١) فئة الخدام العليا.

(٢) فئة الخدام الدنيا.

السمك، وفي الليل يجلس عند أصل الشجرة ويفكر. كلاهما، الصفصافة العجوز وأرخيب الشيخ يتهامسان في الليل والنهار.. وكلاهما قد شاهد في حياته الكثير! استمعوا إليهما...

منذ ثلاثين عاماً، في أحد الشعانين[١]، عيد شفاعة الصفصافة العجوز، كان الشيخ يجلس في مكانه المعهود يتفرج على الربيع ويصيد السمك... حوله كان يسود الهدوء كالعادة.. لم يكن يُسمع سوى همس العجوزين، وربما صفقت الماء أحياناً سمكةٌ ممراح. كان الشيخ يصطاد وينتظر انتصاف النهار، فعند الظهر كان يشرع بإعداد حساء السمك. وعندما كان ظل الصفصافة يبدأ بالانحسار عن الضفة الأخرى كان يعرف أن النهار قد انتصف. كما كان أرخيب يعرف الوقت أيضاً من أجراس البريد. فعند الظهر بالضبط كانت عربة بريد «ت» تمر عبر السد.

وقد سمع أرخيب الأجراس في هذا الأحد أيضاً. فترك الصنارة، وطفق يتطلع إلى السد. اجتازت عربة تجرها ثلاثة جياد قمة الأكمة، وهبطت إلى السفح، واتجهت نحو السد بتؤدة. كان مأمور البريد نائماً. وما إن بلغت العربة السد حتى توقفت لسبب ما. منذ زمن بعيد لم يتعجب أرخيب من شيء. ولكنه في هذه المرة تعجب أشد العجب. فقد حدث شيء غير عادي. تلفت السائق وراح يتحرك بقلق، ثم سحب المنديل عن وجه المأمور ورفع هراوة وأهوى بها عليه. لم تصدر عن المأمور أية حركة. وانفغرت على رأسه الأشقر بقعة قانية. قفز السائق من العربة ولوح بيده وضرب ثانية. وبعد دقيقة سمع أرخيب وقع خطوات بالقرب منه: فقد هبط السائق من الضفة، واتجه صوبه مباشرة... كان وجهه المسفوع بالشمس شاحباً، وعيناه تنظران إلى جهة لا يعلمها إلاّ الله. ركض وفرائصه ترتعد نحو الصفصافة، ودس محفظة البريد في التجويف دون أن ينتبه إلى وجود أرخيب، ثم ركض إلى الأعلى

---

(١) أحد الشعانين أو أحد السعف يسمى بالروسية أحد الصفصاف (المترجم).

ووثب إلى العربة. وقد بدا مستغرباً لأرخيب أن يوجه السائق لنفسه ضربة على الصدغ. وبعد أن أدمى وجهه ضرب الخيل بالسوط وشرع يصيح: - النجدة! يذبحوننا! وراح الصدى يردد صياحه. وقد ظل أرخيب مدة طويلة يسمع صيحة «النجدة» هذه.

بعد نحو ستة أيام جاءت إلى المطحنة لجنة تحقيق. رسموا مخططاً للمطحنة والسد، وقاسوا، لسبب ما، عمق النهر ثم تغدوا تحت الصفصافة، وغادروا المكان. أما أرخيب فقد كان طوال مدة التحقيق جالساً تحت الدولاب وهو يرتعش. كان ينظر في المحفظة، فيرى هناك مغلفات عليها خمسة أختام. وكان ينظر إلى هذه الأختام في الليل والنهار وهو يفكر، أما الصفصافة العجوز فقد كانت تصمت في النهار وتبكي في الليل. «حمقاء!» - كان يفكر أرخيب وهو يصغي إلى بكائها. وبعد أسبوع حمل أرخيب المحفظة وتوجه إلى المدينة. سأل عند البوابة: - أين الدائرة الحكومية هنا؟ فدلوه على بناء كبير أصفر يقوم أمام بابه كوخ حراسة مخطط. دخل البناء وشاهد في الردهة سيداً له أزرار فاتحة. كان السيد يدخن غليوناً ويوبخ الحارس لسبب ما. دنا أرخيب منه وروى له وهو يرتجف بكل جسمه ما جرى عند الصفصافة العجوز. تناول الموظف المحفظة، وفك سيورها، فشحب وجهه، ثم تضرج بالحمرة. قال: - الآن!

وركض إلى داخل الدائرة. وهناك أحاط به الموظفون، وراحوا يحومون ويتراكضون باضطراب ويتهامسون... وبعد عشر دقائق خرج الموظف بالمحفظة وناولها إلى أرخيب قائلاً:

- لقد أخطأت في الاتجاه أيها الأخ! اذهب إلى الشارع السفلي وهناك يدلونك. هنا الخزينة يا عزيزي! اذهب إلى الشرطة. أخذ أرخيب المحفظة وخرج.

«ولكن المحفظة أصبحت أخف! – قال في سره – أصبحت أصغر بمرتين».

في الشارع السفلي دلوه على بناء أصفر آخر على بابه كوخا حراسة. دخل أرخيب ولم يجد هناك ردهة، بل كانت الدائرة تبدأ بالدرج مباشرة. اقترب

الشيخ من إحدى الطاولات وروى للكتبة قصة المحفظة. فانتزع هؤلاء المحفظة من بين يديه، وصاحوا في وجهه، وأرسلوا شخصاً يبلغ كبيرهم بالواقعة. جاء رجل بدين ذو شارب كث، وبعد استجواب قصير أخذ المحفظة، وخلا بها في غرفة أخرى وقفل الباب.

وبعد دقيقة ارتفع من الغرفة صوت يسأل:

- وأين النقود؟ المحفظة فارغة! على كل قولوا للشيخ أن بإمكانه أن يذهب! بل أوقفوه! خذوه إلى ايفان ماركوفيتش! لا، على العموم دعوه يذهب!

انحنى أرخيب وخرج. وفي اليوم التالي عادت أسماك الدوع والفرخ[١] ترى لحيته الشمطاء من جديد..

ذات يوم في أواخر الخريف كان الشيخ جالساً يصيد السمك. وجهه كان كئيباً كالصفصافة المصفرّة: فهو لم يكن يحب الخريف. وقد ازداد وجهه كآبة عندما شاهد السائق بقربه. اقترب السائق من الصفصافة دون أن يلحظه، ودس يده في جوفها فزحفت النحلات المبتلة الكسولة على كمه، عيّث بيده قليلاً، وشحب وجهه، وبعد ساعة كان يجلس على كتف النهر وينظر إلى الماء نظرات بلهاء.

- أين هي؟

طفق يسأل أرخيب.

صمت هذا في البداية، وراح يتجنب القاتل متجهماً. ولكنه ما لبث أن أشفق عليه. قال: - أخذتها إلى المسؤولين! ولكن لا تخف أيها الأحمق.. لقد قلت لهم هناك إنني وجدتها تحت الصفصافة.

هب السائق واقفاً وزمجر وانقض على أرخيب. ضربه طويلاً. أدمى وجهه العجوز، وألقاه على الأرض وداسه بقدميه. وبعد أن انتهى من ضربه لم يتركه، بل بقي يعيش معه عند الطاحونة.

---

(١) الدوع والفرخ: جنسا سمك. (المترجم).

كان في النهار ينام، ويلوذ بالصمت، وفي الليل يتمشى فوق السد. وعلى السد كان يتجول طيف مأمور البريد ويتحادث معه. جاء الربيع والسائق ما زال مستمراً في صمته وتجواله. مرة في الليل، اقترب الشيخ منه وقال له وهو يلحظ مأمور البريد بطرف عينه: - كفاك تسكعاً أيها الأحمق. اذهب.

وقال له مأمور البريد الشيء نفسه.. وهمست له الصفصافة بالشيء نفسه. قال السائق:

- لا استطيع! كنت ذهبت، ولكن قدميّ تؤلمانني، ونفسي تؤلمني كذلك.

تأبط الشيخ ذراع السائق وسار به إلى المدينة. أخذه إلى الشارع السفلي، إلى الدائرة نفسها التي سلم فيها المحفظة. ركع السائق على ركبتيه أمام «المسؤول الكبير» واعترف. فبدا العجب على صاحب الشارب الكث. قال له:

- لماذا تفتري على نفسك أيها الغبي؟! هل أنت سكران؟ هل تريد أن أحبسك في الباردة[1]؟ لقد جنّوا جميعاً، الأوغاد! إنهم يعقّدون القضية ليس إلاّ... المجرم لم يعثر عليه – إذن انتهينا! ما الذي تريده بعد ذلك؟ انقلع!

وعندما ذكر الشيخ المحفظة شرع ذو الشارب يقهقه، وتعجب الكتبة. ذاكرتهم كانت، على ما يبدو، ضعيفة.. لم يستطع السائق أن يكفر عن ذنبه في الشارع السفلي.. واضطر للعودة إلى الصفصافة.. ثم اضطر للهرب من ضميره إلى لجة الماء، وتعكير ذاك المكان بالضبط الذي تطفو فيه عوامات صنارة أرخيب. انتحر السائق غرقاً. وصار الشيخ والصفصافة العجوز يشاهدان الآن على السد طيفين... أليس معهما يتهامسان الآن يا ترى؟

نيسان ١٨٨٣

* * *

---

(١) زنزانة التوقيف (النظارة). (المترجم).

كلمات. كلمات. كلمات[١]

كان مأمور البرق غروزديف يضطجع على أريكة كبيرة في غرفة فندق مسنداً رأسه الأشقر إلى قبضتيه، ويتفرس في فتاة صغيرة حمراء الشعر، ويتنهد. وفيما هو يطلق إحدى تنهداته سألها:

- كاتيا، ما الذي جعلك تسقطين هكذا؟ قولي لي! ولكن.. أراك بردانة جداً!

في الفناء كانت الأمسية من أسوأ الأمسيات الآذارية. أضواء القناديل الكابية لا تكاد تنير الثلج القذر المائع. وكل شيء مبلل وقذر وكئيب... والريح تدندن بصوت خفيض متهيب، كأنها تخشى أن يمنعوها من الغناء. وصوت التخويض في الوحل يطرق السمع.. كانت الطبيعة تشعر بالغثيان!

عاد غروزديف يسأل مرة ثانية:

- كاتيا، ما الذي جعلك تسقطين هكذا؟

نظرت كاتيا بتهيب إلى عيني غروزديف. عينان شريفتان، دافئتان، مخلصتان – هكذا بدتا لها. وهذه المخلوقات الساقطة تتهافت على العيون الشريفة، تتهافت وترتمي عليها كالفَراش على النار. لا تقدِّمْ لها طعاماً، بل انظر إليها فقط نظرة أكثر دفئاً. وقد روت كاتيا بخجل قصتها البائسة لغروزديف وهي تعبث بهداب غطاء الطاولة. كانت القصة جد عادية وسافلة: هو، ووَعْد، وخداع. والخ..

دمدم غروزديف بغضب:

---

(١) «هاملت» الفصل الثاني – المشهد الثاني (الناشر).

- يا له من نذل! يوجد أمثال هؤلاء الأوغاد في الدنيا، فليأخذهم الشيطان بالمرة! أهو غني يا ترى؟

- نعم، غني...

- هذا ما ظننته... وأنت أيضاً لا بأس بك، لا شيء يقال. لماذا أنتن، أيتها النساء، تحببن المال إلى هذا الحد! ما حاجتكن إليه؟

أجابت كاتيا هامسة:

- لقد أقسم أنه سيكفلني مدى الحياة. وهل هذا سيء؟ لقد اغترّيت بهذا... ثم إن عندي أماً عجوزاً.

- هـــ م... تعيسات أنتن، تعيسات! وكل ذلك من غبائكن وطيشكن... نفوسكن صغيرة، أيتها النساء، كلكن تعيسات، بائسات... اسمعي يا كاتيا! هذا ليس من شأني، لا أحب أن أتدخل في شؤون الآخرين، ولكن في وجهك من التعاسة ما يجعلني عاجزاً عن عدم التدخل! كاتيا.. ما الذي يمنعك من الاستقامة؟ وكيف لا تشعرين بالخجل؟ إن كل شيء يدل على أنك لم تفسدي تماماً بعد... وأن العودة ما زالت ممكنة... فلماذا لا تحاولين أن تسلكي طريق الرشاد؟ إنك تستطيعين يا كاتيا! إن لك وجهاً صبيحاً وعينين طيبتين، حزينتين... وابتسامتك جذابة جداً..

أمسك غروزديف بيدي كاتيا، وقال لها الكثير من الكلمات الطيبة، بينما كانت نظراته تنفذ من خلال عينيها إلى دخيلة نفسها. كان يتكلم بصوت تينور خافت مرتعش، والدموع في عينيه... وكانت أنفاسه الحارة تغمر وجهها كله وعنقها..

- الاستقامة ممكنة يا كاتيا! أنت ما زلت شابة.. جرّبي!

- لقد جربت، ولكن... لم يُجدِ هذا شيئاً. جربت كل شيء.. حتى أني مرة عملت خادمة. مع أنني من النبلاء! فكرت في الاستقامة. أقذر الأعمال أفضل من شغلتنا. عملت عند تاجر. عشت شهراً، لا بأس.. العيش ممكن.. ولكن ربة

الأسرة غارت على رب الأسرة، مع أنني لم أكن أوليه أي اهتمام... غارت، وطردتني، ولم أجد لي مكاناً و... ومرة ثانية عدت من البداية... مرة ثانية!

فتحت كاتيا عينيها على سعتهما وامتقعت وزعقت بغتة. في الغرفة المجاورة أسقط أحدهم شيئاً على الأرض: لابد أنه فزع من شيء ما. وانتشر صوت بكاء هستيري متقطع عبر جميع الجدران الرقيقة التي تفصل بين الغرف. وثب غروزديف لإحضار ماء... وبعد عشر دقائق كانت كاتيا تتمدد على الأريكة وهي تنتحب:

- سافلة أنا، منحطة! أسوأ من في الوجود! لن أنصلح أبداً، لن أنصلح أبداً، لن أصبح مستقيمة أبداً! وهل بإمكاني هذا؟ دنيئة! هل تشعرين بالخجل، بالألم؟ هذا ما تستحقينه، أيتها القذرة!

كاتيا تكلمت قليلاً، أقل من غروزديف، ولكن ما يمكن فهمه كان كثيراً. كانت تريد الإدلاء باعتراف كامل يعرفه جيداً كل «فاسق شريف»، ولكن خطبتها لم تسفر عن شيء، سوى عن صفع معنوي للذات. روحها كلها تغطت بالخدوش.

ختمت خطبتها قائلة وهي تتنهد وتصلح من شعرها:

- لقد جربت، ولكن دون جدوى بالمرة! بالمرة! هالكة في كل الأحوال!

تطلع الشاب إلى ساعته، ومضت كاتيا تقول:

- لا فائدة ترجى مني! أما أنت فشكراً لك.. هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها مثل هذه الكلمات الرقيقة. أنت الوحيد الذي عاملني بإنسانية، بالرغم من أنني رخيصة، منحطة...

وبغتة كفت كاتيا عن الكلام. فقد مرت في دماغها مرور البرق إحدى الروايات الصغيرة التي كانت قد قرأتها يوماً في مكان ما.. بطل الرواية يأتي إلى منزله بامرأة ساقطة، وبعد أن يعنفها تعنيفاً شديداً، يرشدها إلى جادة

الصواب، ثم يتخذها صديقة له... استغرقت كاتيا في التفكير. أليس غروزديف الأشقر هذا بطلاً لرواية مشابهة؟ هناك تشابه ما... بل تشابه شديد...

أخذت تتطلع إلى وجهه بقلب واجف. وانهمرت الدموع من عينيها ثانية من دون أي سبب. قال غروزديف متنهداً وهو ينظر إلى ساعته:

- إيه يا كاتيا، كفى، هوني عليك! ستتصلحين، سيعينك الرب ما دمت تريدين.

فكت كاتيا الباكية أزرار فروتها الثلاثة العليا بتؤدة، وامحت رواية البطل البليغ من رأسها.

أعولت الريح بيأس عبر فتحة التهوية وكأنها تشهد أول مرة في الحياة أن اغتصاباً يمكن أن ترتكبه لقمة العيش أحياناً. في الأعلى، في مكان ما بعيد خلف السقف شنشنت أوتار غيتار رديء. موسيقى مبتذلة!

نيسان ١٨٨٣

*   *   *

الهِـرّ

استيقظت فارفارا وطفقت تصغي. وما إن تبين لها أن هذا ليس حلماً حتى شحب وجهها، وغدت عيناها السوداوان الواسعتان أكثر اتساعاً، واتقدتا بالخوف.. غطت وجهها بيديها مرتاعة، ثم اشرأبت متكئة على مرفقها، وأخذت توقظ زوجها. كان الزوج المتكور على نفسه يشخر شخيراً خافتاً، ويتنفس على كتفها.

- أليوشا، عزيزي... استيقظ! حبيبي! آه... هذا مريع!

كف أليوشا عن الشخير ومد قدميه. جذبته فارفارا بيتروفنا من وجنته، فتمطى، وتنفس بعمق، واستيقظ.

- أليوشا، عزيزي... استيقظ. هناك شخص يبكي...

- من يبكي؟ ما هذا الذي تتخيلينه؟

- إذن أصغ. هل تسمع؟ شخص ما يئن... يبدو أن أحداً ما قد ترك طفلاً تحت نافذتنا... آه، لا أطيق سماع هذا!

نهض اليوشا بجسمه قليلاً وأخذ يصغي. كان يطل من النافذة المفتوحة على مصراعيها ليل رمادي. وكان النسيم العليل يحمل إلى السرير مع شذى الليل وهمس الزيزفونة الخافت أصواتاً غريبة... أصواتاً لا يستطيع المرء أن يميزها على الفور: أبكاء طفل هي؟ أم غناء لَعازَر[1]؟ أم هي عواء؟.. لا

(١) قول ماثور مأخوذ من المثل الوارد في الإنجيل عن لعازر (لوقا ١٦/٢٠) والمقصود: استغاثة بائس. (المترجم).

يمكن التمييز! أمر واحد فقط كان واضحاً: هو أن الأصوات كانت تنبعث من تحت النافذة، وليس من حنجرة واحدة، بل من عدة حناجر... فقد كان بينها أصوات ديسكانت(١)، وآلتو(٢)، وتينور(٣)...

قال أليوشا:

- هذا نواء قطط.. أيتها الغبية!

- قطط؟ لا يمكن! وأصوات الباس(٤)؟!

- هذا خنزير يقبع(٥). لا تنسي أننا في الدارة الصيفية... أتسمعين؟ إنها بالتأكيد أصوات قطط... والآن، إهدئي، نامي ولا تشغلي بالك.

استلقى الزوجان وتغطيا باللحاف.

سرت من النافذة رطوبة الصباح فأشاعت في الجو لسعة برد خفيفة. فتكور الزوجان على نفسيهما وأغمضا عيونهما. وبعد خمس دقائق تململ اليوشا وانقلب على جنبه الآخر.

- لا يدعننا ننام، ليأخذهن الشيطان! يزعقن...

كان غناء القطط، في أثناء ذلك يتصاعد تدريجياً(٦). وقد انضم إلى المغنين، على ما يبدو، مغنون جدد، تعزيزات جديدة، وتحولت الخشخشة الخفيفة تحت النافذة بالتدريج إلى ضجيج ولغط وجلبة.. الصوت الخافت(٧)

---

(١) صوت الأطفال الحاد أو العالي. (المترجم).

(٢) صوت النساء والأطفال الغليظ، الخفيض. (المترجم).

(٣) صوت الرجال الحاد، العالي. (المترجم).

(٤) صوت الرجال الغليظ، الجهير. (المترجم).

(٥) القباع: صوت الخنزير. (المترجم).

(٦) بالايطالية في الأصل «Crscendo». (المترجم).

(٧) بالايطالية في الأصل «Piano». (المترجم).

الرقيق كالهلام بلغ درجة الصخب[١]. وما لبث الجو أن امتلأ بأصوات مستنكرة. بعض القطط كان يصدر أصواتاً متقطعة، وبعضها كان يترنم بنغمات تطريبية كأنه يقرأ في نوتات تحتوي على ثُمانيات وست عشريات، وبعضها كان يمط صوته بنغمة طويلة رتيبة... وكان ثمة هر هو، على ما يبدو، أكبرها سناً وأكثرها تهيجاً، يغني بصوت ما غير طبيعي، صوت ليس كصوت القطط، تارة بطبقة باس وتارة بطبقة تينور.

- مال.. مال.. تو.. تو... كا ر ر ر ياو..

ولولا البخبخة لما كان ليخطر في الذهن أن هذه قطط تغني... انقلبت فاريا على جنبها الآخر ودمدت بكلمات ما... وهب اليوشا واقفاً، وأرسل لعنة في الهواء، وأوصد النافذة. ولكن النافذة ليست بالشيء السميك. فهي تسرب الصوت والضوء والكهرباء.

شتم اليوشا قائلاً:

- علي أن أنهض في الساعة الثامنة لأذهب إلى الوظيفة، وهذه القطط تعول، لا تدعني أنام، الأبالسة... طيب اصمتي أنت على الأقل... من فضلك. امرأة! تبكي داخل أذني! لا تكف عن النشيج! وما ذنبي أنا؟! هل هي قططي؟!

- اطردها! عزيزي!

انفجر الزوج بالشتائم، وقفز من السرير، واتجه صوب النافذة... كان الليل قد مال نحو الصباح. تطلع اليوشا إلى السماء فلم ير سوى نجمة واحدة، وحتى هذه كانت تومض وكأنها مغشاة بالضباب، تكاد ولا تكاد... وشرعت العصافير تزقزق في شجرة الزيزفون، وقد أجفلتها ضجة انفتاح النافذة. نظر أليوشا إلى الأرض تحت النافذة فرأى نحو عشرة قطط قد نصبت أذنابها، ورفعت ظهورها كالأسنام، وراحت تدور فوق العشب بخطوات مترفقة، وهي

---

(١) بالايطالية في الأصل «Fortissimo». (المترجم).

تنفخ وتغني مُحْدِقَةٍ بقطة حلوة تجلس على طبق غسيل مقلوب. كان من الصعب الحكم أي الشيئين في هذه القطط أكثر: حب القطة أم عزة النفس؟ هل الحب هو الذي أتى بها يا ترى أم الرغبة في إظهار عزتها فحسب؟ كان يُستشف من موقف كل منها تجاه الآخر كراهية شديدة الرهافة... وخلف السياج كانت هناك خنزيرة تحك الحاجز الخشبي بجسمها وتطلب السماح لها ولخنانيصها بالدخول إلى الحديقة.

- بست! – بسبس اليوشا – كش! أنت أيتها الشياطين! بس! هيا!

ولكن القطط لم تعره انتباها. القطة وحدها نظرت إلى ناحيته، ونظرت لمحا، من دون رغبة. لقد كانت سعيدة وليس لديها وقت للنظر.

- بست.. بست.. اللعنة! تفوه، ليأخذكن الشيطان بلا رجعة! فاريا! ناوليني الدورق! سنرشهن بالماء! يا للشياطين!

قفزت فاريا من السرير، ولكنها لم تناوله الدورق، بل إبريق المغسلة. انحنى اليوشا مستنداً بصدره إلى حافة النافذة وأمال الإبريق...

- آخ، يا سادة، يا سادة! – صاح شخص ما من فوق رأسه – آخ، أيها الشباب، أيها الشباب! هل يجوز القيام بمثل هذا العمل؟ آخ؟ آخ – آخ – آخ خ خ... شباب!!

وأعقب ذلك تنهدة. رفع أليوشا وجهه إلى الأعلى فرأى كتفين في ثوب من الشيت ملون بأزهار كبيرة، وأصابع جافة معروقة. ومن بين الكتفين كان يبرز رأس أشيب يرتدي طاقية النوم، وكانت الأصابع تهدد..

كان الشيخ يجلس إلى النافذة ولا يحول نظره عن القطط. وكانت عيناه الضيقتان تشعان بالوجد، وتفيضان بالرغبة، وكأنهما تنظران إلى باليه.

فغر اليوشا فاه، وشحب لونه، وابتسم... ثم سأل بغتة:

- هل ترغب حضرتكم في النوم يا صاحب الســـ... ـــادة؟

- هذا سيء؟ أيها السيـــ... الـــ...ترم! إنك تعاكس الطبيعة، أيها الفتى! إنك تهدم... أي ي... أعني... قوانين الطبيعة! هذا سيء! وما شأنك أنت؟ إن هذا... أي ي... جسم؟ ما رأيك؟ جسم؟ يجب أن نفهم! لا أثني عليك أيها السيـــ... الـــ... ترم!

جبن اليوشا، ومشى نحو السرير على رؤوس أصابعه، وتمدد باستكانة. وتكومت فاريا بجانبه وحبست أنفاسها.

همس اليوشا:

- هذا رئيسنا.. بذاته.. وهو غير نائم. إنه يتفرج على القطط. يا للشيطان الرجيم! الحياة مع الرؤساء لا تسر.

وبعد دقيقة سمع اليوشا صوت الشيخ يناديه:

- أيها الفتى! أين أنت؟ تفضل إلى هنا!

اقترب اليوشا من النافذة وأدار وجهه نحو الشيخ.

- هل ترى هذا الهر الأبيض؟ كيف تجده؟ إنه لي! أبهة.. أبهة! يا للبخترة! انظر.. انظر..! مياو، مياو... فاسكا! فاسيوشكا، أيها المكار! وأية شوارب كبيرة لدى هذا الأشعث! سيبيري، المكار! من أماكن بعيدة... هيء – هيء – هيء... أما القطة فإنها ستقع حتماً في المقدور! هيء – هيء – هري دائماً هو المنتصر. الآن ستتأكد من هذا بنفسك! أبهة.. أبهة.

قال اليوشا إن فروة الهر تعجبه جداً. وبدأ الشيخ يصف أسلوب حياة هره، وعاداته واسترسل في الحديث حتى شروق الشمس. تحدث عن جميع التفاصيل، وكان في أثناء ذلك يتلمظ ويلعق أصابعه المعروقة... وهكذا لم يتح لصاحبنا أن ينام!

وبعد منتصف الليلة التالية شرعت القطط من جديد بإنشاد أغنيتها، ومن جديد أيقظت فاريا. لم يجرؤ أليوشا على طرد القطط، فقد كان بينها هر صاحب السعادة –رئيسه. وظل أليوشا وفاريا يستمعان إلى كونشرتو القطط حتى الصباح.

أيـــار ١٨٨٣

أشياء ما[1]

١ - ماما والسيد لينتوفسكي

في الساعة الواحدة والنصف ليلاً كنت جالساً في مكتبي بهدوء وسكينة أكتب قصة رديئة. لم يكن ثمة ما يزعجني، وكان يمكن أن أستمر في الكتابة حتى انبلاج الفجر، ولكن فجأة... أتوسل إليكم، أيها القراء، أن لا يكون لديكم أمهات!

صلصل الجرس في ردهة المدخل، وتذمرت الطباخة، واقتحمت أمي علي غرفة المكتب. وجنتاها كانتا تتقدان، وعيناها تلتمعان، وشفتاها ترتعشان، ووجهها كله كان طافحاً بالسعادة. ودون أن تخلع قبعتها وجرموقها وتضع حقيبة يدها ارتمت على عنقي وهي مبتلة كلها بالمطر، وملوثة بالوحل، وقالت وهي تئن:

- شاهدت كل شيء.

تساءلت مندهشاً:

- ما بك يا ماما[2]؟ أين كنت؟

- في «الارميتاج». شاهدت كل شيء. نلت الحظوة!

---

(١) اللوحات التي يرسمها تشيخوف هنا مستوحاة من عروض فرقة لينتوفسكي في حديقة الارميتاج في موسكو. و و. ف. لينتوفسكي (١٨٤٣-١٩٠٦) ممثل ورئيس فرقة كان يشرك في فرقته ممثلين من السيرك ينتمون لمختلف القوميات. (الناشر).

(٢) بالفرنسية في الأصل: maman.

- وما الذي شاهدته؟

- الجميع! الأتراك والشركس والتركمان... الجميع! وأية جلابيب، وأية عمائم! شاهدت جميع الأجانب! كلهم سود، يلبسون قبعات فرو! آه!

أجلست أمي على كنبة، وخلعت عنها قبعتها، ومسحت وجهها المبلل المتهلل بمنشفة. بينما مضت هي تقول:

- إنني جد سعيدة! شاهدت جميع الأمم. وقد أعجبني بصورة خاصة أحد الأجانب.. تصور.. شعر أسود، وقامة فارعة، وقوام في غاية التناسق، وكتفان عريضتان، وعيناه السوداوان تظلان تلفحانك بقيظ الجنوب! وقد تسربل بعباءة طويلة جداً، كحلية اللون، تنسدل بجمال أخّاذ حتى كعبيه، وتتجمع في ثنيات جميلة عند الكتفين... أواه! إن هؤلاء الأجانب يعرفون كيف يلبسون! إنه يعتمر قلنسوة جميلة، وينتعل جزمة طويلة ضيقة، ويحمل بيده عصا، وما أثمن الحلي الصغيرة التي يتزين بها، إنه على الأرجح اسباني...

صحت قائلاً: - لكن هذا لينتوفسكي نفسه يا أمي!

- لا يمكن! لقد مشيت وراءه طوال الأمسية، لم أكن أنظر إلى أحد سواه! لا يمكن! وعندما جلس يتعشى ظللت طوال الوقت واقفة قرب المائدة لا أحول بصري عنه!

اضطربت أمي اضطراباً شديداً، وعادت تصف لي كَرّة أخرى كسوة ذاك الأجنبي المثير للاهتمام. وإذ كنت غير راغب في أن أخيب أملها فقد مسحت وجهها المبلل بالمنشفة مرة ثانية، ووافقتها، وتمنيت لها ليلة هادئة.

٢ - الأشرار والسيد يغوروف

في منتصف ليلة بديعة رائعة، رق فيها النسيم، وراح يسري منعشاً عبقاً عبر نافذتي المفتوحة، ويداعب شعلة مصباحي، كنت أجلس مع مقلد الأصوات الشهير السيد يغوروف، نشرب الشاي الممزوج بالروم ونتسامر

على نشيش السماور. كل شيء كان هادئاً، ساكناً، ولم يكن هناك ما يزعجنا، وكان السيد يغوروف على وشك أن يشنف مسامعي بغناء القطط عندما تناهت إلينا خشخشة مريبة من خلف باب مكتبي. واربتُ الباب قليلاً، وتطلعت إلى داخل غرفة نومي فجمد الدم في عروقي. كان هناك رجل ضخم يتسلل من نافذتي وبيده بلطة، وعلى إثره تسلل شخص آخر وثالث، وما لبثت غرفة النوم أن امتلأت بالأشرار. قال أحدهم:

- يجب أن نقتلهم!

- إنني مستعد أيها الزعيم! بلطتي تتحرق شوقاً لفلق هامة شخص ما.

- هيا نفّذ! ونحن سنتولى أمر المجوهرات!

كيف لا يجمد الدم في العروق في هذه الحالة؟ أمسكتُ يد السيد يغوروف بلهفة وهمست:

- لقد هلكنا!

- لا، أبداً، سنطردهم على الفور.

قال السيد يغوروف ذلك وقعد القرفصاء عند الباب، وراح يهر وينبح ككلب مربوط بجنزير. وأخذت أنا أصيح:

- عضه، مزقه! ايفان، بطرس، سيدور، هلموا!

وطفق السيد يغوروف ينبح بعدة أصوات معاً، وامتلأ مسكني المتواضع بالنباح الذي بدا كأنه صادر عن قطيع كامل من الكلاب. ثم ماذا؟ لقد استولى على الأشرار ذعر شديد، ولم يبق لهم أثر. ونجونا نحن. وها أنا أعلن بوساطة الصحافة عن خالص شكري للسيد يغوروف.

٣ - سرعة بديهة السيد رودون[١]

في الساعة الواحدة بعد ظهر العاشر من أيار حدثت فضيحة في حديقة «الارميتاج» في أثناء إجراء البروڤات. فبينما كان السيدان تشيرنوف وفاليانو يدخنان السيكار، أسقطا شرارة على فستان من الموصلين كانت الخادمة قد أحضرته لتوها ووضعته على كرسي صغير فوق خشبة المسرح. وقد شبت النار طبعاً في الفستان، ولم تمض دقيقتان حتى كان اللهب قد امتد إلى الكراسي والطاولات، وانتقل إلى الكواليس وأصبح على وشك أن يلتهم المسرح كله. ويمكنكم أن تتصوروا ذعر الفنانين المختنقين بالدخان، ولوعة السيد لينتوفسكي. أما الفنانات فقد أغمي عليهن. ومن سوء الحظ أن الخشبة كانت خالية من أي إطفائي، ومن الماء كذلك. وعندما راحت ألسنة اللهب تلفح السقف وتتطاول نحو الأوركسترا لتشمل المسرح بأكمله لمعت فكرة في رأس السيد رودون فصاح قائلاً:

- ايفريكا[٢]! لقد نجونا! اتبعوني أيها الأصدقاء!

تبعه الفنانون إلى غرفة الملابس المسرحية، وهناك ارتدى السيد رودون ملابس إطفائي وتنكر بزيه، وحذا رفاقه حذوه، وسرعان ما امتلأت الخشبة برجال الإطفاء وأُنقذ المسرح.

أيـــار ١٨٨٣

* * *

---

(١) ف. أي. رودون. ممثل اوبريت. تخصص في تمثيل دور الكوميدي الذي يؤدي حركات عجيبة مفاجئة، وقد اشتهر بسرعة البديهة والارتجال، وهو الأمر الذي بنى عليه تشيخوف ملحته. (الناشر).

(٢) ايفريكا (وجدتها باليونانية) صيحة أرخميدس الشهيرة.

حفلة على شرف البلبل

(تعليق نقدي)

اتخذنا أماكننا على ضفة النهر. أمامنا كانت الضفة الغضارية السمراء تنحدر بشدة. وخلف ظهورنا كانت ثمة غيضة مترامية تلتف بالعتمة. انبطحنا على بطوننا فوق العشب الغض الفتي، وأسلمنا رؤوسنا إلى قبضاتنا، وأطلقنا لأرجلنا العنان: اندسي حيث تشائين. خلعنا معاطفنا الخريفية، ولكننا لم ندفع لقاء حفظها قطعاً من فئة العشرين كوبيكا. وذلك لأنه لم يكن بجوارنا، والحمد لله، أحد من حافظي المعاطف. الغيضة والسماء والحقل حتى آخر المدى كانت مغمورة بضوء القمر، وفي البعيد كان ثمة نور أحمر يومض خافتاً، والهواء كان هادئاً، شفّافاً، شذياً.. كل شيء كان يُحابي المحتفى به. لم يبق عليه سوى ألاّ يسيء استغلال صبرنا، وأن يبدأ في أسرع وقت. ولكننا انتظرنا طويلاً قبل أن يبدأ... وفيما كنا ننتظره، رحنا نستمع، حسب البرنامج، إلى مؤدين آخرين.

وبدأت الحفلة بغناء الوقواق. شرع هذا يوقوق بكسل في مكان ما بعيد في الغيضة. وقوق نحو عشر مرات ثم سكت. وفي اللحظة نفسها انخطف فوق رؤوسنا صقران صغيران يصرخان صراخاً حاداً. ثم شرعت الصفارية، وهي مغنية معروفة جادة في عملها، تغني بصوت كونترالتو[١]. استمعنا إليها بارتياح، وكان يمكن أن نستمع طويلاً لولا الغربان التي قدمت للمبيت... فقد

---

(١) الصوت الغليظ (الرنان) اخفض الأصوات النسوية (المترجم).

ظهرت في البعيد سحابة سوداء تتجه نحونا ثم حطت فوق الغيضة وهي تنعق. ومرت مدة طويلة من دون أن تصمت.

وفيما كانت الغربان تنعق، علا نقيق الضفادع التي كانت تعيش في شقق أميرية بين القصب، وظلت الساحة الغنائية نصف ساعة كاملاً ملأى بأصوات متنوعة، ثم ما لبثت أن اندمجت كلها في صوت واحد. وصاح شحرور ناعس في مكان ما، فرافقته في الغناء دجاجة نهرية وعصفور قصب. وأعقب ذلك فاصل صمت، فساد هدوء لم يكن يعكره بين الفينة والفينة سوى غناء جدجد كان يجلس على العشب قرب الجمهور. في أثناء الفاصل عيل صبرنا وأخذنا ندمدم على المحتفى به. وعندما هبط الليل على الأرض ووقف القمر في كبد السماء فوق الغيضة بالذات، حان دوره. فبدا في قيقبة فتية، ثم أخذ يرفرف بجناحيه فوق أغصان برقوقة سياج، وأدار ذيله ووقف بسكون. كان يرتدي سترة رمادية... إنه، على العموم، لا يأبه للجمهور، ويظهر أمامه في ثوب العصفور – الفلاح. (عيب أيها الشاب! ليس الجمهور من أجلك، بل أنت من أجل الجمهور!) جلس نحو ثلاث دقائق صامتاً لا يتحرك... وبغتة خشخشت قمم الأشجار، وهبت ريح رخية، واشتد صرير الجدجد، وبمرافقة هذه الأوركسترا أدى المحتفى به ترنيمته الأولى. ثم شرع في الغناء. لن أتولى وصف هذا الغناء، بل أكتفي بالقول إن الأوركسترا نفسها قد صمتت من شدة الانفعال، وسكنت، عندما رفع الفنان منقاره قليلاً، وطفق يصفر، ثم أمطر الغيضة بالتغريد والزقزقة... صوته كان يجمع بين القوة والرخامة.. على كل، لن أعمل على انتزاع لقمة العيش من أفواه الشعراء، دعهم يكتبوا. كان يغني، وكان السكون السائد حوله يرهف السمع. مرة واحدة فقط تذمرت الأشجار، وهسهست الريح، عندما خطر للبومة أن تغني من أجل حجب صوت الفنان.

وعندما تلونت السماء بلون الرماد، وانطفأت النجوم، وأصبح صوت المغني أضعف وأرخم، ظهر في طرف الغيضة طباخ الملاّك – الكونت. انحنى وراح يتسلل خلسة وهو يحمل بيده اليسرى قلنسوته الفروية، وبيده

اليمنى سلة من اللحاء المضفور. لاح من خلل الشجر، ثم ما لبث أن اختفى في عمق الغيضة، وواصل الفنان غناءه قليلاً ثم صمت بغتة. وبينما نحن نتأهب للذهاب سمعنا صوت شخص يقول:

- ها هو ذا، المكار!

وما لبثنا أن شاهدنا طباخ الكونت قادماً نحونا. أرانا قبضته وهو يبتسم بمرح. كان يبرز منها رأس وذيل المحتفى به الذي اصطاده للتو.. يا للفنان المسكين! نجّنا يا رب من مثل حَمْلة التبرعات هذه[1]!

سألْنا الطباخ:

- لماذا اصطدته؟

- لأضعه في قفص!

وعند ملاقاة الصباح صاح الصفرد بأسى، وعلا ضجيج الغيضة التي فقدت مطربها. ودس الطباخ عشيقَ الوردة في سلته، وراح يعدو نحو القرية بمرح.، وذهبنا نحن أيضاً كل في سبيله.

أيـــار ١٨٨٣

* * *

(١) أحياناً كان ريع الحفلة التي تقام على شرف فنان ما ويشارك في إحيائها بنفسه يجمع كتبرعات في صالحه. (المترجم).

المنـدوب

أو كيف فقد ديزديمونوف ٢٥ روبلاً

مهداة إلى ل. أي. بالمين[١]

- هس... هيا بنا إلى غرفة البواب، المكان هنا غير مناسب.. سيسمعنا...

توجهوا إلى غرفة البواب ماكار. ولكي لا يسترق هذا السمع ويشي بهم فقد بادروا لإرساله إلى الخزينة. أخذ ماكار سجل توزيع البريد، واعتمر قبعته الفرو، ولكنه لم يذهب إلى الخزينة بل اختبأ تحت الدرج: كان يعرف أن تمرداً سيحدث.. أول المتكلمين كان كاشالوتوف، وتلاه ديزديمونوف، وبعده تكلم زراتشكوف... واحتدمت عواطف خطرة! سرت التشنجات في الوجوه المحمرّة، وراحت القبضات المضمومة تدق الصدور...

أخذ كاشالوتوف يقول:

- إننا نعيش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وليس في وقت لا يعرفه إلاّ الشيطان، ليس ما قبل الطوفان. إن ما كان مباحاً لكبار الكروش هؤلاء من قبل لا يسمح لهم به الآن! لقد سئمنا في النهاية! انقضى ذاك الوقت الذي... وهلم جرا...

وهدر ديزديمونوف بعبارات مماثلة تقريباً. بينما بلغ الأمر بزراتشكوف إلى التفوه بشتائم بذيئة... وراح الجميع يزعقون! وقد وُجد بينهم، على أية

---

(١) الشاعر ليودور ايفانوفتش بالمين (١٨٤١-١٨٩١) من معارف تشيخوف المقربين.

حال، إنسان عاقل. رسم العاقل علامات الاهتمام على وجهه، ومسح جبينه بمنديله الملوث بالمخاط وقال:

- وهل الأمر يستحق؟ آخ.. طيب لنفرض.. ليكن هذا صحيحاً، ولكن ما الداعي؟ بمثل ما تكيل يُكال لك: سيتمردون عليكم عندما تصيرون رؤساء. صدقوني! إنكم لا تدمرون إلا أنفسكم.

ولكنهم لم يستمعوا للعاقل. لم يدعوه يكمل حديثه. وزحموه حتى الباب. ولما رأى أن العقل لن يجدي فتيلاً، صار أرعن، وأخذ بدوره يجيش.

قال ديزديمونوف:

- لقد حان الوقت، في نهاية الأمر، لكي نجعله يفهم أننا بشر مثله! نحن، أكرر، لسنا عبيداً، لسنا رعاعاً! لسنا من مصارعي الوحوش الأرقاء! لن نسمح لأحد بأن يهزأ منا. إنه يكلمنا بصيغة المفرد، ولا يرد علينا التحية، ويشيح عنا بسحنته عندما نقدم له تقاريرنا، ويشتمنا... في هذا الزمن لا يجوز التكلم بصيغة المفرد حتى مع الخدم، فما بالك بالناس النبلاء! هكذا ينبغي أن يُقال له!

- منذ مدة سألني: «بم لوثت سحنتك؟ اذهب إلى ماكار ليغسلها لك بالممسحة!» مزاح ظريف! وفي مرة أخرى...

قال زراتشكوف مقاطعاً:

- كنت مرة أسير مع زوجتي، وإذا بنا نصادفه... قال لي: «وأنت يا غليظ الشفتين دائماً تتسكع مع بنات الشوارع! حتى في وضح النهار!» قلت له: هذه زوجتي يا صاحب الســـ... ـــادة... فلم يعتذر، بل تمطق بشفتيه فقط! وقد ظلت زوجتي ثلاثة أيام تبكي بحرقة بسبب هذه الإهانة. إنها ليست بنت شوارع، بل بالعكس.. أنتم تعرفون...

- بكلمة واحدة أيها السادة، من المستحيل أن نظل نعيش هكذا... إما نحن، وإما هو، أما أن نعمل وإياه معاً فهذا غير ممكن ولا بحال من الأحوال! فإما أن يذهب هو، أو نذهب نحن! العيش من دون وظيفة أفضل من أن تتمرغ

سمعتنا في الوحل! نحن في القرن التاسع عشر. وكل إنسان له كرامته! وأنا، وإن كنت إنساناً صغيراً، إلاّ أنني لست نكرة لا قيمة له. إنني أملك في داخلي شخصيتي الخاصة! لن أسمح بهذا! هكذا يجب أن يقال له! فليذهب أحدنا وليقل له أن هذا لا يجوز! باسمنا كلنا! هيا! من سيذهب؟ هكذا بالضبط ينبغي أن يقال له بصراحة! لا تخافوا، لن يحدث شيء! من سيذهب؟ تفوه... يا للشيطان... لقد بح صوتي تماماً...

أخذوا يختارون مندوباً. وبعد جدال ونقار طويلين قر الرأي على أن أذكاهم وأفصحهم وأجرأهم هو ديزديمونوف. فهو مشترك في المكتبة، ويكتب بأسلوب رائع، وله معرفة بفتيات مثقفات – أي إنه ذكي: يجد ما يقوله ويعرف كيف يقوله. أما عن جرأته فحدث ولا حرج. فالكل يعرف كيف طلب مرة من ضابط شرطة الحي أن يعتذر عندما ظنه ذاك في النادي «جرسونا». ولم يكن ضابط الشرطة قد قطب حاجبيه بعد رداً على الطلب حتى كان الخبر عن شجاعة ديزديمونوف قد ذاع بين الناس، وشغل الأذهان.

- هيا يا سينيا! لا تخف! قل له هذا بالضبط! أي بمعنى: إنك تنطح صخرة! وليس كل الطيور يؤكل لحمها، يا صاحب الســـ... ـــادة! أنت تعبث! ابحث لنفسك عن عبيد غيرنا، فنحن لسنا أقل من سوانا، نحن أنفسنا يا صاحب الســـ... ـــادة قادرون أيضاً على القيام بتصرفات عجيبة وغريبة... لا داعي لتعمية الأمور! أي نعم هكذا... انطلق يا سينيا.. هيا أيها الصديق.. ولكن تمشط قبلاً... هكذا قل له...

- أنا أيها السادة نزق، وأخاف أن أتلفظ بما لا تحمد عقباه. الأحسن أن يذهب زراتشكوف!

- لا يا سينيا، بل اذهب أنت... زراتشكوف لا يستأسد إلاّ أمام النعاج وعندما يكون في حالة سكر فقط.. إنه أحمق، بينما أنت على الأقل... يعني... اذهب.. يا عزيزنا...

مشط ديزديمونوف شعره، وأصلح من وضع سترته، وسعل في قبضته، وانطلق... وحبس الجميع أنفاسهم. وما إن دخل غرفة المكتب حتى توقف عند الباب، ومر بأصابعه على شفتيه: ترى كيف يبدأ؟ بردت خاصرتاه وانشدّتا، كما بحزام، عندما أبصر أمامه الصلعة ذات الثؤلولة السوداء المعهودة... جالت ريح في ظهره... ولكن هذا ليس بمصيبة على كل حال، يمكن أن يحدث مع أي واحد من قلة العادة، المهم ألاّ يتخاذل... فليتشجع!

- أي ي... ماذا تريد؟

خطا ديزديمونوف خطوة إلى الأمام، وحرك لسانه، ولكنه لم يُصدر أي صوت: أحس بأن شيئاً قد تشبّك في فمه، وشعر في الوقت نفسه بأن التشبك لا يجري في فمه فحسب: بل في أحشائه أيضاً... انتقلت الشجاعة من نفسه إلى بطنه، وجاشت هناك قليلاً ثم مشت عبر فخذيه إلى عقبيه واستقرت في حذائه، وحذاؤه مخروق.. مصيبة!

- أي ي ي... ماذا تريد؟ ألا تسمع؟

- هـــ م... أنا لا شيء... أنا.. هكذا فقط. أنا، يا صاحب السـ ـــادة، سمعت... سمعت...

أمسك ديزديمونوف لسانه، ولكن لسانه لم يطعه وتابع يقول:

- سمعت أن سعادتها طرحت عربتها في اليانصيب... بطاقة، يا صاحب السـ ـــادة... هـــ م... يا صاحب السـ ـــادة...

- بطاقة؟ طيب... بقي لدي خمس بطاقات فقط... هل ستأخذ الخمس؟

- لا.. لا.. يا صاحب السـ ـــادة... بطاقة واحدة... كفاية..

- إنني أسألك: هل ستأخذ البطاقات الخمس؟

- جيد جداً، يا صاحب السـ ـــادة!

- الواحدة بستة روبلات... ولكن منك يمكن أن آخذ خمسة... وقِّع... أتمنى لك الربح من كل قلبي..

- هيء – هيء – هيء... ميرسي... يا صاحب السـ ـادة... هـ م.. أنا في غاية السرور...

- انصرف!

بعد دقيقة كان ديزديمونوف يقف وسط غرفة البواب أحمر كالسرطان.. ويرجو زملاءه والدموع في عينيه أن يسلفوه ٢٥ روبلا.

- لقد أعطيته، يا إخوتي، ٢٥ روبلا، وهي ليست نقودي. لقد أعطتني إياها حماتي لأدفع أجر الشقة... أعطوني أيها السادة أرجوكم!

- وعلام تبكي؟ غداً ستنتقل في عربة...

- في عربة.. في عربة... وهل سأخيف الناس بالعربة؟ إنني لست من رجال الدين! ثم أين سأوقفها إذا ربحتها؟ أين سأضعها؟

تكلموا طويلاً، وفيما كانوا يتكلمون كان ماكار (وهو متعلم) يسجل ما يقولون، وبعد أن سجل... الخ. ستطول القصة أيها السادة! على كل حال، العبرة التي نستخلصها من هذا هي: لا تتمرد!

أيــار ١٨٨٣

* * *

السّيدة البطَلة

خرجت ليديا يغوروفنا إلى الشرفة لتشرب قهوة الصباح. كان الوقت قد اقترب من الظهيرة الحارة الخانقة، إلا أن هذا لم يمنع بطلتي من أن ترتدي فستاناً حريرياً أسود، مزرراً عند الذقن بالضبط، ومشدوداً حول الخصر بمشابك. كانت تعرف أن اللون الأسود ينسجم مع لون شعرها الذهبي الجعد، ومع قسمات وجهها الحادة، ولم تكن تفارقه إلاّ في الليل. وما إن احتست الجرعة الأولى من فنجانها الصيني، حتى اقترب ساعي البريد من الشرفة وناولها رسالة. كانت الرسالة من زوجها: «عمي لم يعطني قرشاً واحداً. وضيعتك قد بيعت. لم استطع أن أفعل شيئاً...». شحب لون ليديا يغوروفنا، واهتزت على الكرسي، وتابعت القراءة: «سأسافر إلى أوديسا لمدة شهرين في شأن هام. قبلاتي».

- أفلسنا! إلى أوديسا لمدة شهرين - تنهدت ليديا يغوروفنا - يعني أنه سافر إلى صاحبته... يا إلهي!

غامت عيناها، وترنحت، فتمسكت بالدربزين. وفيما هي على وشك السقوط سمعت أصواتاً تتعالى من الأسفل. كان هذا ابن عمها وجارها في الدارة الصيفية، الجنرال المتقاعد زازوبرين، الهرم كنكتة الكلب كافكاس، والواهن كقط حديث الولادة، يرتقي درج الشرفة. كان يجر نفسه بمشقة وحذر، ويجس الدرجات بعصاه كأنه يرتاب في متانتها. وفي إثره كان يسير بخطوات متقاربة شيخ ضئيل حليق الذقن هو البروفيسور المتقاعد بافل ايفانوفتش كنوبكا، وقد اعتمر قبعة اسطوانية قديمة العهد، ذات حافة عريضة

مرفوعة إلى الأعلى. كان الجنرال كالعادة في كامل أناقته. أما البروفيسور فكان يُدهش الرائي ببياض ملابسه وملاسة ذقنه. وكان الاثنان يشعان.

- نحن آتيان لزيارتك أيتها الشارمانوتشكا[1]! قال الجنرال بصوت متهدج وهو يشعر بالسرور لأنه استطاع تحوير كلمة «شارمانت» على طريقته الخاصة – أسعدت صباحاً أيتها الحورية! الحورية تحتسي القهوة.

كان تظارف الجنرال غبياً، بيد أن كنوبكا وليديا يغوروفنا قهقها ضاحكين. انتزعت بطلتي يدها عن الدربزين، وشدت قامتها، ومدت كلتا يديها إلى الضيفين وهي لا تكف عن الابتسام. فقبّل صاحبانا اليدين الممدوتين وجلسا.

- أنت، يا ابن العم، دائماً مرح – بدأت ابنة العم حديث الضيافة – طبيعة محظوظة!

- ماذا قلت أنا؟ آه، نعم! الحورية تحتسي القهوة... ها – ها – ها... أما أنا والهر البروفيسور فقد اغتسلنا وتناولنا فطورنا، ونقـوم الآن بزيارات... يا لمصيبتي مع هذا البروفيسور! إنني أشكوه لك أيتها الحورية! مصيبة! أنوي أن أقدمه للمحاكمة! هيء – هيء – هيء... ليبرالي! فولتير، يمكن القول.

ابتسمت ليديا يغوروفنا وقالت:

- ما هذا الكلام؟!

وفكرت: «إلى أوديسا لشهرين... إلى تلك..»

- صدقاً! إنه يدعو لأفكار غريبة... غريبة! أحمر محض! هل تعرف يا صديقي بافل ايفانوفتش من الذي يبهجه اللون الأحمر؟ هل تعرف من؟ هيء – هيء – هيء... هيا أجب! هذه عقبة أمامكم، أيها الليبراليون!

قهقه كنوبكا وهو يعوج ذقنه بتعالم وقال:

- أي إنسان أنت يا جنرال؟ نحن أيضاً يا صاحب السعادة نستطيع أن نضع عقبات أمامكم، أيها المحافظون: الثيران وحدها تخاف اللون الأحمر! ها – ها – ها... ماذا، هل أكلتَها؟

---

(١) تحريف ذو جرس روسي لكلمة Charmante الفرنسية وتعني: فاتنة.

- ياه! ماذا أرى! عندكم دفلى مزهرة!

قال صوت أنثوي من تحت الشرفة، وبعد دقيقة دلفت إلى الشرفة الأميرة دروماديوروفا، صاحبة الدارة المجاورة.

- آخ! عندكم رجال، وأنا مشعثة هكذا! اعذروني من فضلكم! عم تتحدثون؟ أكمل يا جنرال، أنا لن أشوش عليكم...

تابع زازوبرين:

- نتحدث عن اللون الأحمر! ها، على ذكر الثيران.. أنت على حق يا بافل ايفانوفتش بالنسبة للثيران! حدث مرة في جورجيا، حيث كنت آمر كتيبة، أن رأى ثور بطانتي الحمراء، فذعر واندفع نحوي وقرناه موجهان مباشرة إلي.. فما كان لي سوى أن أمتشق سيفي... صدقاً! من دواعي الشكر أن أحد القوزاق كان قريباً مني، وقد أبعد الثور اللعين برمحه... لماذا تضحكون؟ ألا تصدقون؟ أقسم بالله، أبعده...

أبدت ليديا يغوروفنا الدهشة وشهقت، وفكرت:

«إنه في أوديسا الآن... المتهتك!»

وشرع كنوبكا يتحدث عن الثيران والجواميس. وأعلنت الأميرة دروماديوروفا بأن كل هذا ممل. فطفقوا يتحدثون عن البطانة الحمراء... قال زازوبرين وهو يمص قطعة خبز محمص: ما زلت أحتفظ في ذاكرتي بحادثة عن هذه البطانة. كان عندي في الكتيبة عقيد اسمه كونفيرتوف، بيوتر بيتروفتش... كان شيخاً رائعاً، طيب الله ذكراه. بسيط، يحب رواية الحكايات.. ترقّى من جندي عادي إلى مصاف ذوي الرتب العالية لقاء خدماته المتميزة.. وشارك في المعارك. لقد كنت أحبه، عليه الرحمة. عندما رقوه إلى رتبة عقيد كان قد بلغ السبعين، ولم يعد في مقدوره أن يمتطي صهوة الحصان، وكان النقرس يسبب له آلاماً مبرحة. كان أحياناً يجرد سيفه من قرابه في أثناء المناورات ثم لا يستطيع إغماده، فيغمده

له حاجبه. وكان، عفواً، يفك أزرار ملابسه، ثم يعجز عن تزريرها... وكان لدى هذا الضعيف الخائر حلم يسكن رأسه وهو أن يصبح جنرالاً. هرم، ضعيف، مشرف على الموت، ومع ذلك يحلم... طبيعته هكذا... طبيعة محارب! ولم يكن يريد التقاعد من أجل هذه الجنرالية... خدم نحو خمس سنوات برتبة عقيد ثم رشحوه... وماذا تظنون؟ آه!يا للقدر! لقد أصيب بالفالج في الوقت ذاته الذي صدرت فيه ترقيته... المسكين شلَّ الفالج وجنته اليسرى ويده اليمنى، وأصيبت قدماه بوهن شديد... فاضطر على الرغم منه إلى التقاعد، وهكذا لم يتسن لهذا الإنسان الطموح أن يحمل الشارات المعدنية المسكوبة! تقاعد، وسافر مع زوجته العجوز إلى تفليس للراحة. وفي الطريق كان يبكي ويضحك لأن سائق عربته كان يدعوه بصاحب السعادة. إحدى وجنتيه تبكي وتضحك والأخرى جامدة كالتمثال. لم يبق له سوى عزاء واحد: البطانة الحمراء. كان يسير في شوارع تفليس فارداً طرفي معطفه كالجناحين ليرى الناس اللون الأحمر وكأنه يقول لهم: اعرفوا إلى من تنظرون! يظل النهار بطوله يعرج في شوارع المدينة ويتباهى ببطانته.. لم يكن لديه، يا حسرة، من مسرة سوى هذه. كان إذا ذهب إلى الحمّام يفرد معطفه على المصطبة مقلوباً لتظهر بطانته... تعزّى، تعزّى كالطفل الصغير، ثم عمي من الشيخوخة. استأجروا له شخصاً ليقوده في شوارع المدينة كي يعرض بطانته... كان يسير في الطريق أعمى، أشيب، يجر قدميه بصعوبة، يكاد يتعثر بالهواء، بينما وجهه ينطق بالكبرياء! شتاء قارص، برد، ومع ذلك فمعطفه مفتوح... إنسان غريب الأطوار! زوجته ما لبثت أن ماتت بعد ذلك بقليل. وفيما كان يدفنها ويئن متفجعاً، ويطلب أن ينزلوه معها إلى القبر كان يكشف عن بطانته ليريها للقساوسة. عينوا له شخصاً آخر، امرأة أرملة، لترعاه... وكانت الأرملة، بالطبع، تهتم بمصالحها أكثر من اهتمامها بمصالح سيدها. كانت شحيحة... تخبئ السكر والشاي والكوبيكات... وتَنْتُفُه من جميع الجوانب... نتفت نتفت، وحامت حامت، إلى أن بلغ الأمر بهذه الخسيسة نقطة الأوج! فقد فتقت الساقطة بطانته الحمراء وصنعت منها بلوزة لها، وخاطت له

بدلاً منها بطانة رمادية من خام منقط. وكان بيوتر بيتروفتش يسير في الشارع قالباً طرفي معطفه أمام الناس، وهو أعمى لا يرى أن لديه بدلاً من بطانة الجنرال قطعة خام منقّط!

وجدت دروما ديوروفا أن كل هذا ممل جداً، وأخذت تتحدث عن ابنها الملازم. وقبل الغداء حضرت الجارات –بنات كليانتشين وأمهن –وجلسن إلى البيانو، وشرعن يغنين أغنية زازوبرين المفضلة. ثم جلس الجميع إلى مائدة الغداء.

- فجل ممتاز! – لاحظ البروفيسور –من أين تشترينه؟

- إنه الآن في أوديسا... مع تلك المرأة!

أجابت ليديا يغوروفنا.

- مـــاذا؟

- آخ... أنا عن شيء آخر! لا أعرف من أين يحصل عليه الطباخ... ما هذا الذي بي؟

طوحت ليديا يغوروفنا برأسها إلى الخلف وراحت تقهقه ساخرة من شرود ذهنها.. وبعد الغداء جاءت زوجة البروفيسور السمينة مع أولادها. جلسوا يلعبون بالورق. وفي المساء جاء ضيوف من المدينة...

في الليل فقط، وبعد أن ودعت ليديا يغوروفنا الضيف الأخير، ووقفت ساكنة إلى أن كفت عن سماع وقع خطواته، أصبح بإمكانها أن تتمسك بإحدى يديها بالدربزين نفسه، وتترنح وتنخرط في البكاء.

- لم يكفه أنه بدد النقود في اللهو! لم يكفه هذا! بل خانني أيضاً!

ونفرت من عينيها دموع حارة، وشوه اليأس قسمات وجهها الشاحب. الآن لم تعد بها حاجة إلى مراعاة الرسميات، وغدا بإمكانها أن تنتحب! الشيطان وحده يعرف علام ننفق قوانا في بعض الأحيان!

حزيران ١٨٨٣

كيف عقدت قراني الشرعي

أقصوصة قصيرة

بعد أن شربنا البونش[١] تهامس أهلنا قليلاً ثم تركونا. وهمس لي والدي وهو ذاهب:

- هَيّا! صُلْ وجُلْ!

فسألته هامساً:

- ولكن هل بإمكاني أن أبثها حبي إذا كنت لا أحبها؟

- هذا ليس من شأنك... أنت لا تفهم شيئاً أيها الغبي... قال والدي هذا وحدجني بنظرة غاضبة، وخرج من التعريشة. وامتدت يدٌ عجوزٌ عبر الباب الموارب وأخذت الشمعة عن الطاولة. فبقينا في العتمة. فكّرتُ: «لابد مما ليس منه بد!» وتنحنحت، وقلت بحيوية: - إن الظروف تواتيني، يازويا اندرييفنا. فها نحن أخيراً وحدنا. والظلمة تساعدني لأنها تخفي الخجل على وجهي... وما مصدر هذا الخجل سوى العواطف التي تتأجج في صدري...

وتوقفت هنا عن الكلام. فقد سمعت كيف كان قلب زويا جيلفاكوفا يدق، وكيف كانت أسنانها تصطك. كانت الرعشة تسري في جسمها كله، وكنت أسمع هذه الرعشة وأحس بها عبر ارتعاش المقعد. لم تكن البنت المسكينة تحبني، بل كانت تكرهني كما يكره الكلب العصا، وكان تحتقرني إذا ما أمكن

---

(١) شراب كحولي من الروم (أو الويسكي أو الكونياك الخ..) المخلوط بالماء والسكر وعصير الليمون وسواه. (المترجم).

فقط الافتراض بأن الأغبياء قادرون على الاحتقار. أنا الآن أُشبه إنسان الغاب. إنني قبيح، بالرغم من أنني مزدان بالرتب والأوسمة. أمّا حينذاك فقد كنت أُشبه جميع الوحوش: سحنة عريضة مغطاة بالبثور الدهنية، وشعر خشن.. وأنف أحمر منتفخ من الزكام الدائم والمشروبات الكحولية. وحتى الدببة لم تكن لتحسدني على رشاقة حركاتي. أما بالنسبة لخصالي النفسية فحدث ولا حرج، فمنها نفسها، من زويا بالذات، كنت قد أخذت رشوة كافرة قبل أن تصبح خطيبتي. لقد توقفت عن الكلام لأنني أشفقت عليها. قلت لها: - لنخرج إلى الحديقة. الجو هنا خانق...

خرجنا وسرنا في الممر المشجر. وسارع أهلنا الذين كانوا يتنصتون خلف الباب إلى الاختباء بين الشجيرات. انسفح نور القمر على وجه زويا. ومع أنني كنت غبياً آنذاك، إلا أنني استطعت أن أقرأ على هذا الوجه كل عذوبة الأسر! زفرتُ وأردفتُ:

- البلبل يغرد، يسلي زوجته الحبيبة... فمن يا ترى استطيع أن أسلّي، أنا الوحيد؟!

احمرت زويا وأطرقت. لقد أوعزوا لها بأن تمثل على هذا النحو. جلسنا على مقعد يشرف على النهر. قبالتنا على الجانب الآخر كانت تلوح كنيسة، ووراء الكنيسة كان يشمخ بيت السيد الكونت كولداروف حيث يعيش الموظف بولنيتسين، حبيب زويا. ما إن استقرت زويا على المقعد حتى تشبثت نظراتها بذاك البيت... انقبض قلبي وتغضن من الشفقة. يا إلهي، يا إلهي! فليكن مثواكم الجنة يا أهلنا، ولكن... فليمكثوا ولو أسبوعاً في جهنم! أكملت قائلاً:

- سعادتي كلها تتعلق بامرأة واحدة. وأنا أكن لهذه المرأة مشاعر... وأحاسيس.. إنني أحبها، وإذا كانت هي لا تحبني، فمعنى ذلك أنني هلكت.. متّ.. وهذه المرأة هي أنت. هل بإمكانك أن تحبيني؟ آ؟ هل تحبينني؟

همست قائلة: - أحبك.

لأعترف بأن كلمتها هذه صعقتني. كنت قبلاً أظن أنها ستعاند، وتقابلني بالرفض، لأنها تهيم بحب شخص آخر. وكنت أعوّل على هذا كل التعويل، وإذا بالأمر يأتي معكوساً... لم يكن لديها القوة الكافية لمجابهة التيار. كررت قائلة: - أحبك. وشرعت تبكي.

- هذا غير ممكن – قلت وأنا أرتجف بكل جسمي ولا أعي ما أقول – وهل يمكن هذا؟ زويا أندرييفنا، عزيزتي، لا تصدقي! أقسم بالله، لا تصدقي! أنا لا أحبك، لتحل عليّ اللعنة ثلاثاً إن كنت أحبك! وأنت أيضاً لا تحبينني! كل هذا محض هراء لا أكثر... هببت واقفاً، ورحت أركض بجوار المقعد:

- لا داعي! هذه مهزلة ليس إلاّ! إنهم يزوجوننا غصباً، يا زويا أندرييفنا، في سبيل المصالح المادية، فأي حب هذا؟ أسهل علي أن أعلق في رقبتي حجر جلخ من أن أتخذك زوجة لي، هذه هي الحقيقة! أي شيطان هذا! أي حق هذا الذي يملكون؟ ما نحن في نظرهم؟ أقنان؟ كلاب؟ لن نتزوج! نكاية بهم! أناس فاسدون! لقد سايرناهم بما فيه الكفاية! سأذهب الآن وأقول لهم إنني لا أريد أن أتزوجك، وانتهى الأمر!

كف وجه زويا بغتة عن البكاء، وجفت عيناها بمثل لمح البصر. وتابعتُ أقول:

- سأذهب وأقول لهم! وأنت أيضاً ستقولين لهم. ستقولين إنك لا تحبينني بالمرة، وإنك تحبين بولنيتسين. وأنا سأقف إلى جانب بولنيتسين... إنني أعرف مدى حبك الشديد له!

شرعت زويا تضحك من السعادة وسارت بجانبي.

- وأنت أيضاً تحب امرأة أخرى – قالت وهي تفرك يديها – إنك تحب المدموزيل ديبيه.

- نعم، المدموزيل ديبيه. مع أنها ليست أرثوذكسية، وليست غنية، إلا إنني أحبها لذكائها وخصالها الحميدة... فليلعنوني، مع ذلك سأتزوجها. إنني أحبها،

ربما أكثر مما أحب الحياة! لا أستطيع العيش بدونها! وإذا لم أتزوجها، فإنني سأزهد في الحياة! أنا ذاهب... تعالي معي نقل لهؤلاء الشياطين... شكراً لك يا عزيزتي! لقد واسيتني أيما مواساة!

طفحت نفسي بالسعادة، ورحت أشكر زويا، وزويا تشكرني! وأخذ كل منا يقبل يدي الآخر ويدعوه بالنبيل وقلبانا مفعمان بالسعادة والعرفان بالجميل. ورحت أنا أقبل يدها وهي تقبل رأسي ولحيتي الخشنة، بل ربما عانقتها في غمرة نسياني للرسميات. ويمكن أن أقول لكم إن هذه المصارحة بعدم الحب كانت أسعد من أية مصارحة بالحب. وسرنا صوب البيت مبتهجين، متوردين، مرتعشين لنعلن قرارنا لأهلنا.

نسير وكل منا يشجع الآخر. أقول لها:

- ليشتمونا، وليضربونا، بل ليطردونا، فنحن بالمقابل، سنعيش سعيدين!

ندخل البيت فنجد أهلنا واقفين عند الباب ينتظرون. يتطلعون إلينا ويرون أننا سعيدان فيبادرون إلى التلويح للخادم، ويهرع الخادم بالشمبانيا. أبدأ بالاحتجاج وبالتلويح بيدي وبالخبط بهما... وتبكي زويا وتصرخ... ويرتفع ضجيج ولغط... لم يتسن لهم أن يشربوا الشمبانيا، ولكنهم مع ذلك زوجونا.

وها نحن اليوم نحتفل بعيد زواجنا الفضي. لقد عشنا معاً ربع قرن! في البدء كانت الحياة فظيعة. كنت أشتمها وأضربها، وأمارس معها الحب من الهم، وننجب أطفالاً من الهم... وبعد ذلك... انصلح الوضع... اعتدنا.. وها هي زوياتشكا تقف هذه اللحظة ورائي واضعة يديها على كتفيّ، وتقبل صلعتي.

حزيران ١٨٨٣

* * *

شَبَحُ جدي

ليلة خانقة. النوافذ مشرعة على مصاريعها، وبراغيث، وبعوض، وعطش كالعطش بعد أكل السمك المملح. أستلقي على سريري وأتقلب من جانب إلى جانب محاولاً النوم. وخلف الجدار، في الغرفة المجاورة يتقلب جدي من الأرق. وجدي هذا جنرال متقاعد يعيش الآن عالة علي. البراغيث تلسعنا كلينا، وكلانا نغتاظ منها ونتذمر. وجدي لا ينفك يزحر وينخر ويخشخش بقلنسوته المنشاة. يدمدم قائلاً:

- مجنون! غر...! لم يضربوك بما فيه الكفاية، فتى سخيف!

- من الذي تشتمه يا جدي؟

- معروف من... يسايرونكم، يدللونكم، لا يعاقبونكم... (يملأ جدي صدره بالهواء ثم يفرغه بسعال عجائزي).

لو أنهم يمررونك بين الصفين[1] ثلاث مرات لكنت فهمت.. لماذا لم تشتر مسحوقاً فارسياً[2]؟ لماذا، إنني أسألك؟ كسل؟ إهمال؟

- جدي، إنك تمنعني من النوم! اسكت!

---

(١) التمرير بين الصفين: ضرب من العقاب كان متبعاً في الجيوش الأوروبية، وفي الجيش الروسي خلال حقبة ١٧٠١-١٨٦٣، وكان يطبق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الفلاحين المتمردين. وهو يقضي بتمرير الشخص المعاقب بين صفين من الجنود الذين يحملون قضباناً طويلة يضربونه بها. (المترجم).

(٢) مستحضر لمكافحة الحشرات. (المترجم).

- لا تناقش! يجب أن تعرف من تُكلّم! (يحك جدي جسمه بصخب ويرفع صوته) إنني أكرر: لماذا لم تشتر مسحوقاً فارسياً؟ وكيف تجرؤ، أيها السيد المحترم، على أن تسمح لنفسك بهذه التصرفات المستنكرة وتجعل الآخرين يشكونك؟ آ؟ البارحة شكاك العقيد دوبياكين لأنك خطفت زوجته! من الذي سمح لك بهذا؟ وأي حق لك فيه؟

يشتمني جدي طويلاً، ثم ينتقل من الشتم إلى الوعظ: الوصية السابعة، أركان الزواج وما شابه... أقول له:

- كل هذا أفهمه أفضل منك يا جدي. إنني نادم، وضميري يعذبني، ولكنني لا أستطيع أن أفعل بنفسي شيئاً. إنني شبهك في كل شيء! لقد ورثت منك مع اللحم والدم كل فضائلك أيضاً. ومقاومة الوراثة أمر صعب!

- أنا... أنا لم أكن أمسّ زوجات الآخرين... أنت تختلق!

- أهكذا تدّعي؟ إنك منذ عشر سنوات، عندما كنت في الستين، تذكّرْ، لم تخطف امرأة قريبك، ولا مهجورته، بل خطفت خطيبته بالذات! تذكّرْ نينوتشكا.

- ولكنني تزوجتها.

- طبعاً، وكيف لا! ولكن أهل نينوتشكا لم يكونوا يربونها ويرعونها ويجهزونها من أجل شيخ ستيني. فمثل هذه الفتاة الجميلة الذكية كان يمكن أن يتزوجها أي فتى شهم نبيل، وكان قد أتاها العريس المناسب، ولكنك أتيت بمنصبك ونقودك، فأخفت الأهل. وأدرت رأس الفتاة ذات السبع عشرة سنة بمختلف البهارج! وكم بكت عندما تكللت معك! وكم ندمت المسكينة فيما بعد! ثم إنها هربت بعد ذلك مع ملازم سكير لمجرد أن تبتعد عنك... أنت ثعلب يا جدي.

- مهلاً... مهلاً.. هذا ليس من شأنك.. لو أنهم مرروك خمس مرات بين الصفين لما كنت فعلت ما فعلت.. لما كنت نهبت أختك داشا... أيها الظالم... ماذا فعلتْ لتسلبها مئة ديسياتينا[1].

---

(١) الديسياتينا: وحدة روسية قديمة لقياس المساحة تساوي ١،٠٩ هكتار. (المترجم).

- أخذتُ مثلاً منك. أنا شبهك في كل شيء يا جدي! منك تعلمت السلب! هل تذكر عندما كنت تخدم في إدارة التموين العسكري، ثم عندما عينوك في محافظة أوفا، و...

ويطول بنا الجدال على هذه الشاكلة. جدي يتهمني بارتكاب عشرين جريمة، وأنا ألقي تبعة كل هذه الجرائم العشرين على النَسب، على الوراثة. وأخيراً يبحّ جدي، ويأخذ بخرمشة الحائط بأظافره من شدة الحنق.

أقول له:

- اسمع يا جدي. على هذه الحال لن ننام إلاّ بعد وقت طويل. تعال نغتسل ونشرب فودكا. وعندها سننام نوماً هنيئاً!

يرتدي جدي ملابسه وهو يدمدم بغضب، ونذهب معاً إلى النهر. الليلة صافية، مقمرة. نغتسل ونعود إلى البيت. أتناول الدورق من على الطاولة وأصب منه قدحين. يأخذ جدي أحدهما ويرسم شارة الصليب ويقول:

- لو مرروك عشر مرات بين الصفين، لفهمت عندها! اشرب.. أيها السكّير!

يبربر جدي متذمراً، ويشرب بحنق، ويقضم قطعة من المرتديلا. وأنا أيضاً – بما أنني ورثت حب المشروبات الكحولية – أشرب وأذهب إلى فراشي.

وهذا هو شأننا كل ليلة.

حزيران ١٨٨٣

* * *

تَيّس أم وغد؟!

«بعد ظهرٍ» قائظ. على الأريكة في غرفة الضيوف تجلس شبه مضطجعة صبية في الثامنة عشرة من عمرها. على وجهها يتجول الذباب، وعند قدميها يستقر كتاب مفتوح، وفمها نصف مفتوح، وأنفاسها خافتة... إنها نائمة.

يدخل الغرفة شيخ من جنس أمهار غوغول الفأرية[1]. يرى الفتاة النائمة فيتضاحك بخبث ويدنو منها على رؤوس أصابعه. يهمس مغمغماً:

- أية فتنة هذه! الحسناء... هيء – هيء... النائمة... من المؤسف جداً أنني لست رساماً! يا لهذا الرأس... ويا لهذه اليد!

ينحني الشيخ على يد الفتاة ويمسح عليها بيده العجفاء و... يبوسها! تتنفس الفتاة بعمق، وتفتح عينيها، وتنظر إلى الشيخ بحيرة. تتمتم وهي تغالب النوم:

- آه.. هذا أنت أيها الأمير؟ عفواً[2]، يبدو أنني غفوت!

يثغثغ الأمير قائلاً:

- أي نعم، أنت نائمة.. والآن ما زلت نائمة، وأنا أتراءى لك في الحلم.. إنك ترينني في نومك.. نامي، نامي.. إنك تحلمين بي ليس إلاّ...

تصدق الفتاة وتغمض عينيها، وتهمس وهي تستسلم للنوم:

- ما أتعسني! دائماً أرى في نومي إما تيوساً أو أوغاداً!

يسمع الأمير هذا الهمس فيخجل ويتوارى متسللاً على رؤوس أصابعه.

تموز ١٨٨٣

---

(١) إشارة إلى التشبيه الذي أطلقه الكاتب الروسي الشهير غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢).

(٢) بالفرنسية في الأصل: Pardon.

لقد فهم

صباحٌ حزيراني خانق. في الجو يخيم قيظ تلتوي منه أوراق الشجر، ويتغطى وجه الأرض بالشقوق. تحس بأن ثمة شوقاً إلى العاصفة. الطبيعة تود أن تبكي وتجلو وحشة شوقها بدمعة المطر.

والعاصفة، على ما يبدو، آتية. ففي الغرب ثمة شريط أزرق يكفهر. أهلاً وسهلاً!

على طرف الغابة يسير متسللاً فلاح ضئيل الجسم، محدودب الظهر، طوله نحو ذراع[1] ونصف، ينتعل جزمة ضخمة جداً لونها رمادي ضارب إلى السمرة، ويرتدي بنطالاً كحلياً مخططاً بالأبيض. ساقا الجزمة هبطتا حتى المنتصف، والبنطال المرقع الرث للغاية يتهدل عند الركبتين كالكيس، ويهتز كأنه طرفا سترة. والحزام الحبلي المتسخ الذي يتمنطق به قد انزلق من البطن إلى الوركين بينما انشمر القميص بشدة إلى الأعلى نحو اللوحين.

كان الفلاح يحمل بيده بارودة صيد: ماسورة صدئة بطول ذراع، شُعَيْرتها تشبه مسمار إسكافي غليظاً، وقد ركِّبت على أخمص أبيض من صنع منزلي، مقدود بحذق بالغ من خشب التنوب، ومزين بنقوش وخطوط وأزهار محفورة. ولولا هذا الأخمص لما كانت البارودة تشبه البارودة، وهي بالرغم من أخمصها هذا تذكّر بشيء ما من القرون الوسطى، شيء ليس من عصرنا...

---

(١) في الأصل: «طوله نحو أرشين ونصف» والأرشين مقياس روسي قديم يساوي ٧١ سم. (المترجم).

مطرقتها بنيّة اللون من الصدأ، وقد لُفَّت كلها بالأسلاك والخيوط. والمضحك أكثر من هذا كله قضيب التنظيف اللماع الذي قُطع للتو من شجرة صفصاف. إنه رطب وغض وأطول من السبطانة بكثير.

الفلاح شاحب اللون، وعيناه الحولاوان المحرورتان تتطلعان بقلق إلى الأعلى والجانبين. ولحيته التيسية الرقيقة ترتعش مع شفته كخرقة مهلهلة. إنه يسير بخطوات واسعة مائلاً بجذعه إلى الأمام، ويبدو أنه مستعجل. وخلفه تركض كلبة هجينة كبيرة وهزيلة كهيكل عظمي، وقد تشعث وبرها، واندلع لسانها الطويل الذي جعله الغبار رمادياً، وتدلت من خاصرتها وذيلها خصل كبيرة مشعثة من شعر قديم ناسل. إن قائمتها الخلفية مضمدة بخرقة: لابد أنها مصابة. والفلاح لا يني يتلفت بين الفينة والأخرى نحو مرافقته ويقول بخوف:

- هيا...

فتثب الكلبة إلى الخلف وتتطلع حواليها، ثم لا تلبث بعد وقفة قصيرة أن تتابع السير خلف صاحبها.

الصياد يتمنى أن ينحرف قليلاً ويتسلل إلى الغابة، لكنه لا يستطيع: فعلى حافة الغابة تمتد كالجدار شجيرات كثيفة من برقوق السياج الشائك، وخلفه شوكران عال يكتم الأنفاس، وقراص. ولكن ها هو طريق يلوح أخيراً. يُلوِّح الفلاح لكلبته مرة أخرى، ويندفع في الطريق بين الشجيرات فتنشج التربة تحت قدميه: إنها لم تجف بعد. هنا تفوح رائحة الرطوبة ويخف ضيق النفس. وعلى الجانبين تنمو الشجيرات ونبات العرعر، ولكن المسافة حتى الغابة الحقيقية لا تزال طويلة، نحو ثلاثمئة خطوة.

شيء ما في القرب يصدر صوتاً كصوت عجلة لم تُزَيَّت. ينتفض الفلاح وينظر بعينيه الحولاوين إلى شجرة جار الماء الفتية، فيبصر فيها بقعة سوداء تتحرك. يدنو منها فيميز في البقعة زرزوراً فتياً يجثم على غصن، وقد رفع جناحه وراح ينظر تحته. يراوح الفلاح في مكانه، ويلقي بقبعته عن رأسه

ويسند أخمص البارودة إلى كتفه، ويشرع في التسديد. وبعد أن يسدد يرفع المطرقة ويسندها كيلا تهبط قبل اللزوم. ولكن النابض معطوب، والزناد لا يعمل، والمطرقة لا تستجيب: تروح وتجيء على هواها. يرخي الزرزور جناحه ويتطلع إلى الصياد بارتياب. بعد ثانية واحدة سيطير. يسدد الرامي مرة أخرى ويرفع يده عن المطرقة. وخلافاً لكل توقع المطرقة لا تهبط. يقطع الفلاح بظفره خيطاً ما ويزيح سلكاً وينقف المطرقة. فتُسمع طقطقة، ثم يدوي صوت طلقة. وترتد البارودة بقوة إلى كتف الرامي. واضح أنه لم يضن بالبارود. يلقي بالبارودة على الأرض ويركض نحو شجرة جار الماء ويشرع يعيِّثُ في العشب. يجد بالقرب من فرع منخور متعفن بقعة دم وزغباً، وبعد تفتيش قصير يعثر عند الجذع بالذات على جثة صغيرة ما زالت ساخنة يعرف فيها ضحيته.

- أصبته في الرأس!

يقول لكلبته متهللاً.

تشم الكلبة الزرزور وترى أن صاحبها لم يصب الرأس وحده. فثمة جرح فاغر في الصدر، ورجل مكسورة، ونقطة دم كبيرة عالقة بالمنقار... يدس الفلاح يده في جيبه على عجل ليخرج شحنة جديدة فتنهال من جيبه على العشب خرق وأوراق وخيوط. وبعد أن يشحن البارودة ويصبح مستعداً لمتابعة الصيد يستأنف سيره.

وبغتة يظهر أمامه البولوني كرجيفيتسكي، وكيل أعمال السيد، وكأن الأرض قد انشقت عنه. ما إن يشاهد الفلاح وجهه المتغطرس الصارم، وشعره الأحمر حتى تسري القشعريرة في جسمه من الفزع، وتسقط قبعته عن رأسه من تلقاء نفسها. يقول البولوني بلهجة ساخرة: - ماذا تفعل؟ تصطاد؟ هذا مُسرٌّ جداً!

ينظر الصياد بعينه الحولاء إلى جانب فيرى عربة محملة بالحطب يقف بجوارها بعض الفلاحين. لقد استغرقه الصيد إذن فلم يلحظ كيف قادته قدماه إلى حيث الناس. يسأله كرجيفيتسكي رافعاً صوته:

- كيف تجرؤ على إطلاق النار؟ معنى هذا أن الغابة غابتك. أم ربما كنت تعتقد أن عيد مار بطرس(١) قد أتى؟ أنت من تكون؟

- بافل خرومووي – ينطق الفلاح بصعوبة وهو يضم بارودته إليه – من كاشيلوفكا.

- من كاشيلوفكا، ليأخذك الشيطان! ومن الذي سمح لك بالصيد؟ - تابع البولوني يقول محاولاً ألاّ يمد المقطع قبل الأخير من الكلمة(٢) – هات البارودة!

يناوله خرومووي البارودة ويفكر: «الأفضل أن تضربني على وجهي من أن تحملق إلي هكذا...»

- وهات القبعة...

يناوله القبعة كذلك.

- سأريك كيف يكون الصيد! ليأخذك الشيطان! هيا بنا!

يدير كرجيفيتسكي ظهره ويسير خلف العربة التي شرعت في الصرير، فيتبعه بافل خرومووي وهو يتلمس طريدته في جيبه.

بعد ساعة يدخل الاثنان غرفة رحبة، ذات سقف منخفض وجدران زرقاء ناصلة. إنها غرفة مكتب السيد. وبالرغم من خلو الغرفة من الناس، إلاّ أنها تعبق برائحة السكنى. في وسطها تقوم طاولة كبيرة من خشب البلوط، وعلى

---

(١) عيد مار بطرس يصادف التاسع والعشرين من حزيران حسب التقويم القديم (الثاني عشر من تموز حسب التقويم الجديد)، وهو اليوم الذي كان يبدأ فيه موسم الصيد. (المترجم).

(٢) كعادة البولونيين عندما يتكلمون الروسية.

الطاولة سجلان أو ثلاثة للحسابات، ودواة مع نشافة رملية، وإبريق شاي مكسور البلبلة، وكلها تقشر عنها الدهان منذ وقت طويل. وفوق الخزانة صفيحة كيروسين فارغة وقنينة كبيرة تحتوي على مزيج ما. وفي الزاوية الأخرى أيقونة صغيرة مغطاة بنسيج العنكبوت... يقول كرجيفيتسكي: - ينبغي تدوين ضبط. الآن سأبلغ السيد وأرسل في طلب مأمور الشرطة. اخلع جزمتك!

يجلس خرومَوي على الأرض وينزع جزمته بيدين مرتعشتين وهو صامت. يقول الوكيل متثائباً:

- أنت الآن لن تستطيع الهرب. أما إذا هربت وأنت حاف فسيكون هذا أسوأ. اجلس هنا وانتظر حتى يأتي المأمور...

يوصد البولوني باب الخزانة على الجزمة والبارودة ويخرج من المكتب.

بعد ذهاب كرجيفيتسكي يظل خروموي وقتاً طويلاً يحك قذاله الضيق ببطء وكأنه يحل مسألة طرحت عليه: أين هو. يتنهد وينظر حواليه بخوف. الخزانة والطاولة وإبريق الشاي المكسور البلبلة والإيقونة الصغيرة – كلها تنظر إليه بتأنيب وكآبة... والذباب الذي يزخر به مكتب السيد يطن فوق رأسه بالتياع شديد يملأ نفسه بضيق لا يحتمل.

دززز – يطن الذباب – وقعتَ؟ وقعتَ؟

وعلى النافذة يزحف دبور[١] كبير. إنه يريد الانطلاق إلى الخارج، ولكن الزجاج يمنعه. حركاته مفعمة بالملل والوحشة... يتقهقر خروموي حتى المدخل ويقف عند عضادة الباب راخياً يديه على جانبيه، ويستغرق في التفكير...

تمر ساعة، ثم أخرى وهو لا يزال واقفاً عند العضادة ينتظر ويفكر.

عيناه الحولاوان تنظران إلى الدبور. يفكر في نفسه: «لماذا لا يطير هذا الأحمق من الباب؟»

---

(١) في الأصل: دَبر، أو ما نسميه بالعامية: الزرقطة أو الزلقطة الخ.. وهو غير الدبور (الزنبور). (المترجم).

تمر ساعتان أخريان. كل شيء حوله ساكن، صامت، ميت... تبدأ تخامره فكرة تقول له إنهم قد نسوه، وإنه لن يفلت من هنا قريباً، شأنه شأن ذاك الدبور الذي لا يفتأ يقع عن الزجاج بين فينة وأخرى. ولكن الدبور سينام عندما يحل الليل. أما هو فماذا سيفعل؟

- هذا هو حال الناس – يتفلسف خرومَوي وهو ينظر إلى الدبور – والإنسان هكذا إذن... المكان الذي ينبغي له أن ينطلق منه إلى الحرية موجود، وهو يجهله لا يعرف أين هو، لا يعرف أين هذا المكان...

وأخيراً يصفقون الباب في مكان ما. ويسمع وقع خطوات متعجلة... وبعد دقيقة يدخل المكتب شخص ضئيل سمين يرتدي بنطالاً عريضاً جداً مرفوعاً بِحِمالة، ولكنه لا يلبس سترة ولا صداراً. على ظهره يمتد خط من العرق على مستوى اللوحين، وعلى صدره خط مثله. إنه السيد ذاته، المقدم المتقاعد بيوتر يغوريتش فولتشكوف. وجهه الأحمر السمين وصلعته العرقانة يقولان إنه يدفع غالياً لو يحل بدل هذا الحر صقيع كصقيع أيام الغطاس. إنه يعاني من القيظ والجو الخانق. وعيناه المنتفختان الناعستان تدلان على أنه قد نهض للتو من فوق حشيته الريشية الوثيرة للغاية والكاتمة للأنفاس.

بعد دخوله يذرع الغرفة بالطول عدة مرات وكأنه لا يرى خرومَوي، ثم يتوقف أمام الأسير ويحدق إلى وجهه طويلاً بنظرات ثاقبة. يحدق إليه بإصرار واحتقار. في البداية يومض الاحتقار في عينيه فقط وميضاً لا يكاد يلحظ، ثم لا يلبث أن ينسفح شيئاً فشيئاً على وجهه الشحيم بكامله. لا يحتمل خرومَوي هذه النظرة فيرخي بصره. إنه يشعر بالخجل... يهمس فولتشكوف:

- أرني ماذا اصطدت! هيا – هيا أيها الشاطر، يا ويلهلم تيـل[١]! أرني أيها المقرف!

---

(١) ويلهلم تيل: بطل اسطورة شعبية سويسرية تتحدث عن نضال السويسريين ضد الغابسبورغيين في القرن الرابع عشر. اشتهر تيل ببراعته في الرمي بالسهام وإصابة الهدف، وقد استلهم شيللير هذه الأسطورة في مسرحيته الموسومة باسم البطل. (المترجم).

يمد خرومووي يده إلى جيبه ويخرج الزرزور التعيس. كان الزرزور قد فقد هيئة الطير. فقد تغضن بشدة وبدأ يجف.

يضحك فولتشكوف باحتقار ويهز كتفيه:

- غبي! أحمق أنت! سخيف فارغ الرأس! أليس حراماً عليك؟ أليس عيباً عليك؟

- عيب أيها المحترم بيوتر يغوريتش!

يقول خرومووي وهو يغالب حركات الابتلاع التي تمنعه من الكلام.

- لم تكتف أيها اليهوذا المجرم بأن تصطاد في غابتي دون طلب إذن، بل تتجرأ أيضاً على أن تخالف قوانين الدولة! ألم تطلع على القانون الذي يحظر الصيد في غير أوانه؟ القانون ينص على أنه ليس لأحد أن يقدم على الصيد قبل عيد مار بطرس. ألست على علم بهذا؟ تعال هنا!

يدنو فولتشكوف من الطاولة، ويسير خرومووي خلفه نحو الطاولة نفسها. يفتح السيد سجلاً ويقلب صفحاته طويلاً، ثم يبدأ تلاوة المادة التي تحظر الصيد حتى عيد مار بطرس بصوت تينور عال ممطوط. وبعد أن يفرغ من القراءة يسأل:

- ألا تعرف هذا؟

- وكيف لا أعرف. نعم يا صاحب الرفعة. ولكن هل نفهم نحن هذا؟ هل لدينا فهم؟

آ؟ وما شأن الفهم هنا، إذا كنت تفسد ما خلقه الرب دون أي معنى؟ أنت قتلت هذا الطير الصغير. فبأي ذنب قتلته؟ هل تستطيع أن تحييه ثانية؟ إنني أسألك: هل تستطيع؟

- لا أستطيع، أيها المحترم!

- ومع ذلك قتلته... إنني لا أفهم ما الذي أطمعك في هذا الطير! زرزور! لا لحم ولا ريش... هكذا... انسقت لحماقتك وقتلته...

يزر فولتشكوف عينيه ويبدأ يقوّم رجل الزرزور المكسورة، فتنقطع الرجل وتسقط على رجل خروموي الحافية. يردف فولتشكوف:

- لعنة أنت، لعنة! جشِع، مفترس! الجشَع هو الذي جعلك تقترف هذه الفعلة! يرى عصفوراً فيتكدر لأن العصفور يطير بحرية ويمجد ربه! لأقتله، وألتهمه، يقول لنفسه... الجشَع البشري! لا أستطيع أن أنظر إليك! وأنت أيضاً لا تنظرْ إلي بعينيك الحولاوين هاتين! أيها الأحول الخبيث! لقد قتلته، وربما كان لديه فراخ صغار، وهي الآن تصيء...

يكتسي وجه فولتشكوف بتعبير باك. ويخفض يده إلى الأسفل ليشير كم يمكن أن تكون هذه الفراخ صغيرة...

يقول خروموي بصوت مرتعش مبرئاً نفسه:

- إنني لم أفعل هذا من الجشع يا بيوتر يغوريتش.

- إذن من ماذا؟ طبعاً من الجشع!

- لا أبداً، يا بيوتر يغوريتش... إذا كنت قد ارتكبت ذنباً بحق نفسي فهذا ليس من الجشع، وليس من الطمع، يا بيوتر يغوريتش، بل من غواية الشيطان...

- وهل أنت من النوع الذي يغويه الشيطان! أنت قادر على إغواء الشيطان نفسه! كلكم، يا أهل كاشيلوفكا قطاع طرق!

يطلق فولتشكوف من صدره تياراً من الهواء مصحوباً بصفير، ويستنشق وجبة جديدة، ويتابع خافضاً صوته:

- ماذا أفعل بك الآن، آ؟ إذا راعينا ضعف عقلك فمن المفروض أن نخلي سبيلك، ولكن إذا أخذنا بالاعتبار فعلتك ووقاحتك توجبت معاقبتك... وتوجبت حتماً... كفى تدليلاً لكم.. كـــ.. فى! لقد أرسلت في طلب مأمور الشرطة... والآن سندوّن الضبط... أرسلت... الدليل موجود... لا تلم إلاّ نفسك.. لست

أنا من يعاقبك. بل إثمك هو الذي يعاقبك... قدرت على ارتكاب الإثم فكن قادراً على احتمال العقوبة.. أوخ – خو – خ – خو – خ... يا إلهي... اغفر لنا نحن الخطاة! مصيبة مع هؤلاء... إيه، كيف الصيفي[١] عندكم!

- لا بأس... نعمة من الله...

- ولماذا تطرف بعينيك؟

يسعل خرومُوي في قبضته مرتبكاً، ويصلح من وضع حزامه.

- لماذا تطرف بعينيك؟ - يكرر فولتشكوف سؤاله – أنت الذي قتلت الزرزور، والآن تهم بالبكاء؟

يقول خرومُوي بصوت جهوري متهدج ونبرة عالية وكأنه قد استجمع قـــواه:

يا صاحب الرفعة، أنتم، بحكم إنسانيتكم، تألمتم لأنني قتلت، لنفرض، هذا العصفور... وأنتم تؤنبونني، يعني، أقصد، ليس، بالتالي، لأنكم سيد، بل لأنكم متألمون... بحكم إنسانيتكم، وأنا ألست متألماً؟ أنا إنسان غبي، ومع أنني بدون فهم، لكن أنا أيضاً متألم... فليمحقني الله إن كنت أكذب.

- لماذا إذن كنت تطلق النار. إذا كان هذا يؤلمك؟

- الشيطان أغواني. اسمحوا لي أن أتحدث يا بيوتر يغوريتش! ولن أقول إلاّ الصدق المحض. كما لو كنت بين يدي الرب... فليأت المأمور... إنه ذنبي، وأنا مسؤول عنه أمام الله والمحكمة، ولكن دعوني أقل لكم الحقيقة الواقعة كلها، بصدق وصراحة... اسمحوا لي يا صاحب الرفعة.

- وماذا يعني أن أسمح لك؟ سواء سمحت أم لم أسمح فإنك لن تقول شيئاً معقولاً. وما همني أنا؟ لست أنا من سيدوّن الضبط... احك! لماذا أنت صامت؟ احك يا ويلهلم تيل!

---

(١) يقصد الموسم الزراعي الصيفي. (المترجم).

يمسح خروموي شفتيه المرتعشتين بكمه، وتزداد عيناه حولاً وصغراً... ويقــول:

- ليست لي أية مصلحة في هذا الزرزور، حتى لو كان هناك ألف من هذه الزرازير، فأية فائدة منها؟ لا تباع، ولا تؤكل، هكذا فقط، تفاهة لا أكثر. أنتم ذاتكم تعرفون.

- لا، لا تقل لي هذا... أنت صياد، ولكنك لا تفهم... الزرزور إذا كان مقلياً يكون لذيذاً في الحساء.. ويمكن أن تتبّله بالصلصة... مثل دجاجة الحراج – الطعم نفسه تقريباً...

يعبس فولتشكوف ويردف وكأنه يتدارك لهجة اللامبالاة التي بدرت منه:

- ستعرف الآن ما هو طعمه... سترى..

- نحن لا نفهم في الطعوم... المهم أن يوجد خبز، يا بيوتر يغوريتش، نفسكم لا تجهلون هذا... أما الزرزور فقد قتلته من الوحشة... الوحشة حاصرتني..

- أية وحشة؟

- الشيطان يعرف أية وحشة! اسمحوا لي أن أشرح لكم... أخرج صباحاً بعد الصلاة وتقديس الفصح.. وأسير في طريقي.. نساؤنا يمشين أمامنا، وأنا أمشي خلفهن... مشيت، مشيت، ثم وقفت على السد.. أقف وأنظر إلى عالم الله الواسع، وكيف تجري الأمور فيه، كيف أن كل مخلوق، وكل عشبة صغيرة، يمكن القول، يعرف مكانه... أصبح الصباح وأشرقت الشمس، وأنا أرى كل هذا وابتهج وأنظر إلى الطيور، وفجأة، يا بيوتر يغوريتش، شعرت بشيء يمسك قلبي، ويعصره بالتالي!

- وممم هذا؟

- من رؤية الطيور. وعلى الفور خطرت في ذهني فكرة. قلت لنفسي ما ألذ الصيد الآن، ولكن القانون لا يسمح. وهنا مرت في الجو بطتان، وصاح

شنقب في مكان ما خلف النهر. فاشتدت رغبتي في الصيد جداً! وبمثل هذه التصورات وصلت إلى البيت. أجلس وأفطر مع النساء، ولا أرى أمام عينيّ سوى الطيور. آكل وأسمع كيف تضج الغابة، وكيف يصيح الطير: تسفيرين! تسفيرين! آه. يا إلهي! أريد الصيد ولا شيء سواه! وما إن شربت الفودكا بعد أن فطرت حتى طاش صوابي بالمرة. وأصبحت أسمع أصواتاً. صرت أسمع صوتاً رقيقاً كأنه صوت ملاك يرن في أذني قائلاً: اذهب، يا باشكا، إلى الصيد! وسوسة! يمكنني الافتراض، يا صاحب الرفعة، بيوتر يغورويتش، إن هذا هو الشيطان نفسه، ولا أحد غيره، صوت عذب ورقيق جداً كأنه صوت طفل. ومنذ ذاك الصباح استولت علي هذه الوحشة. أجلس على المصطبة الترابية أمام الدار ويداي مرخيتان كالأهبل، وأغرق في التفكير... أفكر، أفكر، وفي خيالي أخوك المرحوم، أعني سيرجي يغوريتش، عليه الرحمة. تذكرت كيف كنت، أنا الغبي، أذهب معه، مع المرحوم، إلى الصيد. لقد كنت لدى رفعتهم، رحمهم الله، في عداد الصيادين الأوائل. وكان ما يثير اهتمامه ويؤثر فيه أنني، أنا الأحول بعيني الاثنتين، فنان في الرمي. أراد أن يأخذني إلى المدينة ليري الأطباء مقدرتي بالرغم من عاهتي. كان هذا مدهشاً ومؤثراً. كنا، يا بيوتر يغوريتش، نخرج أحياناً عند الفجر، وننادي الكلبتين كارا وليودكا و... آه! تقطع ثلاثين فرسخاً[1] في اليوم! وماذا أقول يا بيوتر يغوريتش! يا سيدي النبيل! الصدق أقول لكم أنه لا يوجد ولم يوجد في العالم إنسان حقيقي سوى أخيكم! كان شخصاً قاسياً، رهيباً، شرساً، ولكن لم يكن هناك أحد يستطيع الصمود أمامه في مجال الصيد! صاحب السناء الكونت تيربورك أفنى نفسه في الصيد، ومع ذلك فقد مات وهو يحسده. ومن أين له! لم يكن لديه ذلك الجمال، ولم يكن له أن يحمل بيديه مثل تلك البارودة التي كانت لدى أخيكم! بماسورتين، جنابكم تفهمون، مارسيلية، من إنتاج مصنع ليبليه وشركاه! من مسافة مئتي خطوة تقتل البطة! هل هي مزحة!

---

(١) الفرسخ الروسي = ١،٠٦ كم.

يمسح خرومووي شفتيه بسرعة، ويردف وهو يطرف بعينيه الحولاوين:

- ومنه أصبت أنا بهذه الوحشة. فعندما لا يكون هناك صيد، تحل المصيبة، أشعر باختناق في صدري!

- هذا دلال!

- لا، أبداً يا بيوتر يغوريتش! طوال الأسبوع المقدس كنت أسير كالمخبول، لا آكل ولا أشرب. وفي أسبوع مار توما نظفت البارودة وأصلحتها – فاستراحت نفسي قليلاً. ويوم النصف(١) عاودني الغثيان. شيء ما يشدني ويشدني إلى الصيد، ولا أستطيع الفكاك منه مهما فعلت. ذهبت شربت فودكا – لم استفد شيئاً، بل ازداد الحال سوءاً. ليس دلالاً! بعد تقديس الماء(٢) سكرت.. وفي اليوم التالي أصبحت الوحشة أقوى... شيء ما ينخر عظامك ويسوقك سوقاً من الدار.. يطردك منها بشدة... بعنف! قوة جبارة! أخذت البارودة وخرجت إلى مزرعة الدار ورحت أطلق على الغربان. أصبت منها حوالي عشرة، ولكن هذا لم يخفف عني: نفسي تتوق إلى الغابة... إلى المستنقع. ثم إن العجوز بدأت تسبّني: «هل يجوز صيد الغربان؟ هذا طير غير كريم، وصيده إثم عند الرب: قتل الغراب يجلب القحط». فوجدت نفسي، يا بيوتر يغوريتش، أمسك بالبارودة واكسرها... فليأخذها الشيطان! واستراحت نفسي...

- دلال!

- ليس دلالاً! أقول لكم الصدق، إنه ليس دلالاً، يا بيوتر يغوريتش! اسمحوا لي أن أشرح لكم... أستيقظ البارحة ليلاً. وأروح أفكر وأنا متمدد.

---

(١) يوم النصف: يصادف يوم الأربعاء من الأسبوع الرابع بعد الفصح، وهو اليوم الخامس والعشرون من الأيام الخمسين التي تبتدئ بعيد الفصح وتنتهي بعيد العنصرة أو عيد الخمسين. (المترجم).

(٢) طقس كنسي.

امرأتي نائمة، وليس هناك أحد أفضي له ولو بكلمة. أفكر: «ترى هل يمكن أن أصلح البارودة الآن أم لا؟» ونهضت وأخذت أصلحها.

- إيه؟

- إيه، لا شيء... أصلحتها وخرجت بها راكضاً كالمسلوب.. ثم قبضوا علي... استحق ما يجري لي... وليتكم تأخذون هذا العصفور وتضربونني به على وجهي.. كي أفهم.

- الآن سيأتي مأمور الشرطة... اذهب إلى الدهليز!

- سأذهب.. لقد اعترفت بالحقيقة كلها.. والمحترم، الأب بيوتر أيضاً يقول إن هذا دلال.. ولكن حسب افتراضي الغبي، هذا الأمر كما أفهمه أنا ليس دلالاً، بل هو مرض... مثله مثل إدمان المسكرات.. لعنة واحدة.. أنت لا تريد وشيء ما يشدك غصباً عنك. تتمنى ألا تشرب، تقطع على نفسك عهداً أمام الأيقونة، ونفسك توسوس لك: اشرب! اشرب! كنتُ أشرب، وأعرف...

أنف فولتشكوف الأحمر يصبح قانيا. يقول:

- الإدمان شيء آخر.

- نفس الشيء! فليمحقني الله إن كنت أكذب، نفس الشيء! أقول لكم الصدق.

ساد صمت. صمتا نحو خمس دقائق وكل منهما ينظر إلى الآخر. أنف فولتشكوف القاني يتحول إلى أزرق أدكن.

- كلمة واحدة... الإدمان، جنابكم تفهمون بحكم إنسانيتكم، أي ضعف هو!

المقدم لا يفهم هذا بحكم إنسانيته، بل بحكم خبرته. يقول لخرومو ي:

- اذهب!

خرومو ي لا يفهم.

- اذهب ولا تقع ثانية!

- الجزمة لو تكرمتم!

يقول الفلاح وقد فهم وتهلل وجهه.

- أين هي؟

- في الخزانة...

يتسلم خروموي جزمته وقبعته وبارودته ويخرج من المكتب بنفس مستريحة. ينظر بعينيه الحولاوين إلى الأعلى. في السماء سحابة سوداء متلبدة. والريح تعبث بالعشب والأشجار. وقد شرعت قطرات المطر الأولى تدق السطح الحار. وراح الهواء الخانق يغدو شيئاً فشيئاً أكثر طراوة.

يدفع فولتشكوف النافذة من الداخل فتنفتح بصخب، ويبصر خروموي الدبور يطير منها.

ويحتفل الهواء وخروموي والدبور بحريتهم.

حزيران ١٨٨٣

* * *

الحقيقة الصريحة

ستة كتبة ديوان[1] وواحد من دون مرتبة كانوا جالسين في غيضة الضاحية يسكرون.

الحفلة كانت صاخبة لكنها كئيبة وحزينة. لم تكن تُرى ابتسامات ولا حركات جسدية مبتهجة، ولم يكن يُسمع ضحك ولا لغط مرح... كانت تفوح رائحة شيء ما جنائزي...

منذ أسبوع لا أكثر أتى كاتب الديوان كانيفوليف إلى الدائرة في حالة سكر، وانزلق على بصقة أحدهم فوقع على خزانة زجاجية كسرها وانكسر معها. وفي اليوم التالي لاقترافه هذا الذنب أضاع ورقتين من الاضبارة رقم ٢٤٢٣. وفوق هذا وذاك أتى إلى الدائرة وفي جيبه بارود وكبسولة. إنه على العموم يعيش حياة سكر وعربدة. وقد أخذوا كل هذا بالاعتبار، فطار صاحبنا، وها هو الآن يتناول غداء الوداع.

- فلتبق ذكراك خالدة يا اليوشا! آمين!

كان الموظفون يقولون هذا قبل شرب كل كأس متوجهين إلى كانيفوليف. وكان كانيفوليف الضئيل الحجم، ذو الوجه الطويل الباكي ينشج بعد كل تحية مماثلة، ويخبط الطاولة بقبضته، ويقول:

- في كل الأحوال هالك!

---

(١) كاتب الديوان: موظف من المرتبة الرابعة عشرة، وهي أدنى المراتب في السلم الوظيفي في روسيا القيصرية (المترجم).

ثم يشرب المطرود كأسه بضراوة، وينشج بصوت عالٍ، ويأخذ بتقبيل أصحابه. قال وهو يهز رأسه بحركة مأساوية:

- لقد طردوني! طردوني لأني أشرب! ولكنهم لا يدركون أنني كنت أشرب من الأسى، من الحزن!

- أي حزن؟

- الحزن لأنني لم أكن أطيق النظر إلى باطلهم! كان باطلهم الوغد يفترس قلبي! لم أكن أستطيع النظر دون اكتراث إلى كل دناياهم! لم يريدوا أن يفهموا هذا.. طيب إذن! سأريهم النجوم في عز الظهر! نعم، سأريهم! سأذهب وأبصق في عيونهم مباشرة، سأقول لهم الحقيقة الصريحة كلها! الحقيقة كلها!

- لن تقولها... هذا مجرد تبجح ليس إلاّ... كلنا عندما نسكر نصبح أساتذة في تمزيق حناجرنا بالخطابات، وما إن يحدث شيء حتى نلف أذنابنا ونسكت... وأنت كذلك...

- أتظن أنني لن اقول؟ أتظن؟ آ آ آ... هكذا تظن... طيب.. جيد... سنرى... لتحل علي اللعنة ثلاثاً... لتنفقئ عيناي.. سمّني نذلاً في وجهي، ابصق علي إن لم أقل!

خبط كانيفوليف الطاولة بقبضته وتضرج بالحمرة:

- في كل الأحوال هالك! الآن سأذهب وأقول كل شيء! هذه الدقيقة! إنه يجلس مع زوجته هنا غير بعيد! بما أني قد انتهيت فليكن ما يكون! لكن سأجعلهم يفتحون أعينهم! سأهتك الستر عن كل شيء! سيعرفون من هو اليوشكا كانيفوليف!

وثب كانيفوليف من مكانه وركض وهو يترنح.. وعندما مد أصحابه أيديهم في إثره ليمسكوا به من طرف سترته كان قد ابتعد. وعندما خطر لهم أن يركضوا خلفه ويمسكوا به كان قد وقف أمام المائدة التي يجلس إليها رئيسه وراح يقول:

- أنا يا صاحب السعادة قد اقتحمت عليكم جلستكم بدون إذن مسبق، ولكني فعلت هذا كإنسان شريف، ولذلك اعذروني... صحيح يا صاحب السعادة أنا شارب، ولكني في وعيي! وكل ما يخفيه الصحيان في نفسه يكون لدى السكران على لسانه، وأنا سأقول لكم الحقيقة الصريحة كاملة! نعم يا صاحب السعادة! كفانا صبراً! لماذا، مثلاً، الأرضية عندنا في الديوان لم تدهن منذ وقت طويل؟ ولأي سبب تسمحون للمحاسب بأن ينام حتى الساعة الحادية عشرة؟ ولماذا تسمحون لميتيايف بأن يأخذ الجرائد من الدائرة إلى بيته، ولا تسمحون بذلك للآخرين؟ أنا في كل الأحوال هالك، وسأقول لكم الحقيقة كاملة.

وقد قال كانيفوليف هذه الحقيقة الصريحة بصوت مرتعش ودموع مترقرقة، وهو يدق صدره بقبضته.

وكان رئيسه ينظر إليه بعينين محملقتين دون أن يفهم ما هي القضية.

تموز ١٨٨٣

* * *



الخمّار الفاضل

(نواح مفتقر)

«هات، يا عزيزي، مازوات باردة... إيه، و... فودكا»

كتابة على ضريح

ها أنا الآن جالس أتحسر وأتفلسف.

في وقت ما كان لدي في العزبة التي ورثتها عن العائلة دجاج، وأوز، ودجاج رومي – طيور غبية، خرقاء، ولكنها لذيذة جداً جداً. وفي اسطبل الخيل كانت أفراسي تتوالد وتتكاثر «آه يا أفراسي، يا أفراسي..»، والطاحونة لم تكن تتوقف عن العمل، والمناجم كانت تنتج فحماً، والفلاحات كنّ يجمعن التوت البري، وفي الغيطان كان النبات والحيوان يفيضان فيضاً، فإن شئت – كلْ، وإن شئت – ادرس علم الحيوان والنبات، كان بمقدوري الجلوس في الصف الأول، واللعب بالورق، والتباهي بالخليلة...

الحال الآن ليست كذلك، ليست كذلك على الإطلاق!

منذ سنة مضت، في عيد القديس ايليا، كنت أجلس في الشرفة مكتئباً، وأمامي إبريق أُهيلَ فيه شاي بروبل، قلبي تخدشه القطط، ونفسي تغالب الغثيان...

وفي غمرة الحسرة لم ألاحظ كيف دنا مني يفيم تسوتسيكوف، الخمّار الذي كان في السابق أحد أقناني. اقترب ووقف باحترام قرب المائدة.

- ليتكم يا سيدي تأمرون بدهن السطح! – قال وهو يضع زجاجة فودكا على المائدة – السطح حديدي، وبدون دهان سيصدأ، والصدأ كما تعلمون، يأكل المعدن... ويحدث ثقوباً!

- ومن أين لي بالنقود لأدهن، يا يفيموشكا؟ أنت تعرف.

استدينوا! وإلاّ فإن السقف سيتثقب.. وليتكم تأمرون أيضاً يا سيدي باستئجار حارس للبستان.. فالأشجار تسرق!

- آه، وهذا أيضاً يحتاج إلى نقود!

- أنا أعطيكم... لا فرق... ستعيدونها لي. ليست هذه هي المرة الأولى التي تأخذون فيها...

جاد تسوتسيكوف علي بخمسمئة روبل، وأخذ سنداً وذهب. بعد ذهابه أسندت رأسي إلى قبضتيّ وطفقت أفكر في الشعب وفيما يتسم به من خصال... بل راودتني الرغبة في أن أكتب مقالة لمجلة «روسيا»...

- إنه يحسن إلي، يتكرم... ولقاء ماذا؟ لقاء أنني كنت في وقت ما... أضربه... يا لهذا التعفف عن الحقد! تعلموا، أيها الأجانب!

بعد أسبوع شب حريق في حظيرة صغيرة لي في الفناء. وكان تسوتسيكوف أول من هرع لإطفاء الحريق. قام بهدم الحظيرة بيديه، وأحضر من عنده شوادر ليستر بها بيتي إذا احتاج الأمر. كان يرتعش وقد تضرج بالحمرة وتصبب عرقاً وكأنه يحمي ممتلكاته بالذات. قال لي بعد إطفاء الحريق: - الآن يجب أن تبنوا حظيرة جديدة. عندي بعض الخشب، سأرسله لكم... ليتكم تأمرون يا سيدي بتنظيف الحوض. البارحة بينما كانوا يصيدون السمك تمزقت الشباك كلها بسبب الأعشاب المائية. العملية تكلف ثلاثمئة روبل... خذوا! ليست هذه المرة الأولى التي تأخذون فيها.

وهكذا دواليك... نظفوا الحوض، ودهنوا جميع السطوح، وأصلحوا الاسطبلات، وكل هذا بنقود تسوتسيكوف.

منذ أسبوع جاءني تسوتسيكوف ووقف بالبـــاب وسعل في قبضته باحترام ثم قـــال:

- إن عزبتكم الآن لا تكاد تعرف... أصبحت تليق بكونت أو أمير. فقد نظفنا الأحواض، وبذرنا للشتاء، واقتنينا خيولاً...

قلت وأنا على وشك البكاء من شدة التأثر:

- وكل هذا بفضلك يا يفيموشكا.

ثم نهضت وعانقت الفلاح بمنتهى الإخلاص...

- إن شاء الله ستتصلح الأحوال وأعيد لك كل شيء يا يفيموشكا... مع الفوائد... دعني أعانقك مرة ثانية!

- لقد أصلحنا كل شيء، ونظمنا كل شيء.. بعون الله! لم يبق الآن سوى شيء واحد فقط: أن نطرد الثعلب من هنا...

- أي ثعلب يا يفيموشكا؟

- معروف أي ثعلب...

وبعد صمت قصير أردف تسوتسيكوف:

- لقد جاء مندوب المحكمة... يجب أن تلموا القناني.. أخشى أن يراها المندوب فيظن أن لا شغل لي في ضيعتي سوى السكر... هل تأمرون باستئجار مسكن لكم في القرية أم ستغادرون إلى المدينة؟

وها أنا الآن جالس أتفلسف.

آب ١٨٨٣

* * *

عود الثقاب السويدي(١)

(قصة جنائية)

- ١ -

في صباح السادس من تشرين الأول عام ١٨٨٥ أتى إلى مكتب رئيس المخفر التابع للقسم الثاني في ناحية س شاب حسن الهندام وصرح بأن سيده ملازم حامية الخيالة المتقاعد مارك ايفانوفتش كلاوزوف قد قتل. وكان الشاب في أثناء ذلك شاحباً وفي غاية الاضطراب. يداه كانتا ترتعشان وعيناه تطفحان رعباً.

سأله رئيس المخفر:

- مع من لي شرف الحديث؟

- بسيكوف، مدير أعمال كلاوزوف. اختصاصي زراعي وميكانيكي.

وعندما حضر رئيس المخفر والشهود بصحبة بسيكوف إلى مكان الحادث وجدوا حشداً من الناس قد تجمهر قرب الجناح الذي كان كلاوزوف يسكنه. فقد انتشر الخبر بسرعة البرق في الجوار، وبما أن اليوم كان يوم عيد فقد تقاطر الناس صوب الجناح من جميع القرى المجاورة. وعلا الضجيج واللغط. وكانت تلوح هنا وهناك بعض الوجوه الشاحبة الباكية. وجدوا غرفة نوم كلاوزوف موصدة، والمفتاح في الباب من الداخل.

---

(١) الثقاب السويدي: تسمية كانت تطلق قديماً على الثقاب الفوسفوري الذي كانت السويد أول من بدأ بإنتاجه. (المترجم).

- الظاهر أن المجرمين تسللوا إليه من النافذة.

قال بسيكوف وهو يتفحص الباب.

توجهوا إلى الحديقة التي تطل عليها النافذة. كانت النافذة تبدو متجهمة تنذر بالشؤم، وقد أسدلت عليها ستارة خضراء باهتة. بيد أن إحدى زوايا الستارة كانت مثنية قليلاً، مما أتاح إمكانية التطلع إلى داخل الغرفة. سأل رئيس المخفر:

- هل تطلع أحدكم من النافذة؟

فأجاب البستاني يفريم، وهو شيخ أشيب له وجه مساعد ضابط متقاعد:

- لا، أبداً يا صاحب الرفعة، وهل هذا وقت التطلع وفرائصنا كلها ترتعد!

قال رئيس المخفر متنهداً وهو ينظر إلى النافذة:

- آه يا مارك ايفانيتش، يا مارك ايفانيتش، كنت أقول لك إن نهايتك ستكون سيئة! كنت أقول لك هذا، أيها المسكين، ولكنك لم تكن تسمع! التهتك لا ينتهي بصاحبه إلى السلامة!

قال بسيكوف: - شكراً ليفريم. فلولاه لما فطنّا للأمر. هو أول من خطر بباله أن شيئاً غير طبيعي قد حدث هنا. جاءني اليوم صباحاً وقال: «لماذا لم يستيقظ سيدنا كل هذا الوقت الطويل؟ منذ أسبوع كامل لم يخرج من غرفته!» وما إن قال هذا حتى شعرت كأن فأساً قد أهوت على رأسي.. ولمعت الفكرة في ذهني على الفور... إنه لم يظهر منذ السبت الماضي، واليوم هو الأحد! سبعة أيام، ليست مزحة!

تنهد رئيس المخفر ثانية وقال:

- نعم، المسكين. شخص ذكي، مثقف، طيب. دائماً نجم الحفل، يمكن القول. ولكنه متهتك، أسكنه الله الجنة! كنت أتوقع كل الاحتمالات! ستيبان – قال متوجهاً إلى أحد الشهود – اذهب حالاً إلى مكتبي وأرسل اندريوشكا إلى

مدير الشرطة ليبلغه! قل له: إن مارك ايفانيتش قد قتل! ثم أسرع إلى المأمور ودعه يأت إلى هنا! ما له يتلهى هناك؟ واذهب أنت بأسرع ما يمكن إلى المحقق نيكولاي يرمولايتش وقل له أن يحضر! انتظر، سأكتب له رسالة.

وزع رئيس المخفر الحرّاس حول الجناح، وكتب رسالة للمحقق، وتوجه إلى غرفة مدير الأعمال ليشرب الشاي. وبعد زهاء عشر دقائق كان يجلس على كرسي صغير يقضم قطعة سكر باحتراس ويحتسي الشاي الحار كالجمر. قال لبسيكوف: - هاك.. هاك.. شخص من النبلاء وغني وحبيب الآلهة، يمكن القول، حسب تعبير بوشكين، وإلامَ انتهى؟ إلى لا شيء! كان يسكر ويتهتك و.. هاك! قتلوه.

بعد ساعتين وصل المحقق نيكولاي يرمولايفتش تشوبيكوف، وهو شيخ طويل مكتنز يناهز الستين، مضى عليه ربع قرن وهو في هذا المنصب. وقد اشتهر في الناحية كلها بنزاهته وذكائه ونشاطه وحبه لعمله. ووصل معه إلى مكان الحادث مرافقه الدائم ومساعده وكاتبه ديوكوفسكي، وهو شاب طويل القامة في السادسة والعشرين من عمره.

تساءل تشوبيكوف وهو يدخل غرفة بسيكوف ويصافح الجميع على عجل:

- أحقاً، أيها السادة؟ أحقاً؟ مارك ايفانيتش؟ قتلوه؟ لا، هذا غير ممكن! غيـــ... ر ممـــ... كن!

فتنهد رئيس المخفر:

- هاك... خذ..

- يا إلهي وخالقي! الأسبوع الماضي بالذات قابلته في السوق الموسمية في تارابانكوف! وشربت معه، اعذروني، فودكا!

وتنهد رئيس المخفر ثانية:

- هاك... خذ..

وطفقوا يتنهدون ويستفظعون ما حدث، وشرب كل منهم كأس شاي ثم توجهوا إلى الجناح.

- افسحوا الطريق!

صاح المأمور بالناس. وانكب المحقق فور دخوله على فحص باب الغرفة. كان الباب مصنوعاً من خشب الصنوبر ومطلياً بدهان أصفر وغير مصاب بضرر. ولم تكن فيه علامات خاصة يمكن أن تدل على شيء. فراحوا يعالجونه ليخلعوه.

- أيها السادة، أرجو الانصراف ممن ليس لهم شغل – قال المحقق عندما تراجع الباب أمام القدّوم والازميل بعد طول طرق وطقطقة – أرجو هذا لصالح التحقيق... أيها المأمور، لا تسمح لأحد بالدخول!

فتح تشوبيكوف ومساعده ورئيس المخفر الباب ودخلوا غرفة النوم مترددين، واحداً إثر آخر. ووقعت أبصارهم على المنظر الآتي: قرب النافذة الوحيدة كان ينتصب سرير خشبي كبير عليه حشية زغب ضخمة مدعوكة، وفوقها لحاف مكور ومدعوك. وكانت الوسادة المكسوة بغطاء من الشيت مدعوكة بشدة أيضاً، وملقاة على الأرض. وأمام السرير كان ثمة منضدة صغيرة عليها ساعة فضية وقطعة نقد فضية من ذات العشرين كوبيكا، وإلى جانبهما علبة ثقاب. ولم يكن في غرفة النوم من أثاث سوى السرير والطاولة وكرسي وحيد. تطلع رئيس المخفر تحت السرير فرأى نحو عشرين زجاجة فارغة، وقبعة قش قديمة وربع زجاجة فودكا. وكان هناك تحت الطاولة فردة حذاء مغطاة بالغبار. لف المحقق الغرفة بنظرة وعبس وتضرج بالحمرة، ثم دمدم وهو يضغط قبضتيه:

- الأوغاد!

وتساءل ديوكوفسكي بصوت خافت:

- ولكن أين مارك ايفانيتش؟

فقال له تشوبيكوف بجفاء:

- رجاءً لا تتدخل! وهيا افحص الأرض.

ثم قال لرئيس المخفر خافضاً صوته:

- هذه هي الحادثة الثانية في حياتي العملية يا يفغراف كوزميتش، في عام ١٨٧٠ وقعت لي حادثة مشابهة. لابد أنك تذكرها... مقتل التاجر بورتريتوف. هناك أيضاً هكذا. قتلوه، الأوغاد، وأخرجوا جثته من النافذة...

اقترب تشوبيكوف من النافذة وأزاح الستارة بحذر، ودفع النافذة فانفتحت.

- تنفتح، أي أنها لم تكن موصدة... هــ م! توجد آثار على الحافة. هل تريان؟ وهذا أثر ركبة... أحدهم تسلل من هناك... ينبغي فحص النافذة كما يجب.

قال ديوكوفسكي:

- على الأرض لا يُرى أي شيء غير عادي، ليس هناك بقع ولا خدوش. لم أجد سوى عود ثقاب سويدي مشعول. ها هو! إن مارك ايفانيتش، على ما اذكر، لم يكن يدخن، وفي المجتمع كان يستعمل الثقاب الكبريتي، أما الثقاب السويدي فلم يكن يستعمله على الإطلاق، إن عود الثقاب هذا يصلح لأن يكون بيّنة...

نفض المحقق يده ممتعضاً:

- أوه... اسكت من فضلك! يحشر نفسه هو وعود ثقابه! لا أطيق الرؤوس الساخنة! بدلاً من البحث عن أعواد الثقاب كان من الأفضل أن تتفحص السرير.

فحص ديوكوفسكي السرير وقدم تقريره:

- لا توجد بقع دم ولا أية بقع أخرى... كما لا توجد تمزقات حديثة العهد. على الوسادة توجد آثار أسنان، واللحاف قد ابتل بسائل له رائحة البيرة وطعمها أيضاً... والمنظر العام للسرير يخولنا حق الاعتقاد بأن عراكاً قد جرى فوقه.

- من دونك أعرف أن هناك فودكا! ليس عن العراك يسألونك. بدلاً من البحث عن العراك.. كان من الأفضل أن...

- هنا توجد فردة حذاء واحدة، أما الثانية فغير موجودة.

- طيب، وما يعني هذا؟

- يعني أنهم خنقوه عندما كان يخلع حذاءه، وقبل أن يخلع الفردة الثانية كانوا...

- جمح خيالُه!... ومن أين عرفت أنهم خنقوه؟

على الوسادة آثار أسنان، والوسادة نفسها مدعوكة بشدة وملقاة على بعد ذراعين[١] ونصف عن السرير.

- يفسّر، المهذار! الأفضل أن تذهب إلى الحديقة. لو ذهبت وتقصيت هناك لكان أفضل من أن تنقب هنا... فهذا أفعله أنا بدونك.

وعندما انتقل التحقيق إلى الحديقة تركز قبل كل شيء على تفحص العشب. كان العشب تحت النافذة مدعوكاً. وتبين أن جَنبة الأرقطيون النامية تحت النافذة، لصق الجــدار بالضبط، مدعوكة هي أيضاً. وقد تسنى لديوكوفسكي أن يعثر فيها على بعض الغصينات المكسورة، وعلى قطعة من القطن. كما وجد على ثمارها العليا شعيرات دقيقة من صوف كحلي اللون. سأل ديوكوفسكي بسيكوف:

- ما هو لون آخر بزة كان يرتديها؟

- أصفر كقماش الأشرعة.

- ممتاز. معنى هذا أنهم كانوا يرتدون ملابس كحلية.

قطعوا بعض ثمار الأرقطيون ولفوها بعناية في ورقة. وفي أثناء ذلك وصل مدير الشرطة أرتسيباشيف – سفيستاكوفسكي والدكتور توتويف. ألقى مدير الشرطة التحية وشرع على الفور في إشباع فضوله. أما الدكتور، وهو شخص طويل القامة وفي غاية النحول، له عينان غائرتان وأنف طويل وذقن

---

(١) في الأصل «أرشينين ونصف» والأرشين مقياس طول روسي = ٧١ سم.

مدبب، فقد جلس على أرومة إحدى الأشجار دون أن يحيي أحداً أو يسأل عن أي شيء، وزفر وقال:

- الصرب ثاروا ثانية! ماذا يريدون لا أفهم! آه، يا نمسا، يا نمسا! هذا من فعلك أنت!

لم يسفر تفحص النافذة من الخارج عن أي شيء على الإطلاق. أما تفحص العشب والجنبات القريبة من النافذة فقد زود التحقيق بالعديد من الإشارات المفيدة، إذ تسنى لديوكوفسكي مثلاً أن يميز على العشب خطاً قاتماً طويلاً مشكلاً من بقع متتابعة ويمتد بضعة سواجن[1] من النافذة إلى عمق الحديقة، وينتهي تحت شجيرة ليلك ببقعة بنية داكنة. وقد عثروا تحت الشجيرة نفسها على فردة حذاء تبين فيما بعد أنها قرينة الفردة التي وجدوها تحت السرير. قال ديوكوفسكي وهو يتفحص البقع:

- هذا دم قديم!

فنهض الدكتور عند سماعه كلمة «دم» وألقى على البقع نظرة كسلى وغمغم قائلاً: - نعم، دم.

فقال تشوبيكوف وهو يحدج ديوكوفسكي بنظرة هازئة:

- إذن فهو لم يخنق خنقاً، بما أن هذا دم!

- في غرفة النوم خنقوه، ثم ضربوه بأداة حادة خوفاً من أن تعاوده الحياة. إن البقعة تحت الشجيرة تدل على أنه ظل ممدداً هناك فترة طويلة نسبياً ريثما اهتدوا إلى طريقة لإخراجه من الحديقة وإلى الوسيلة اللازمة لذلك.

- طيب وفردة الحذاء؟

- فردة الحذاء هذه تؤكد أكثر وأكثر اعتقادي بأنهم قتلوه عندما كان ينزع حذاءه. فقد خلع إحدى فردتي الحذاء ولم يتسن له أن يخلع الفردة الأخرى، أي

---

(١) الساجن: مقياس روسي قديم = ٢،١٣٤ م.

هذه، إلاّ إلى النصف. وهذه الفردة المخلوعة إلى النصف وقعت من تلقاء نفسها في أثناء الاهتزاز والسقوط.

- فطانة! – قال تشوبيكوف وهو يبتسم بهزء – يقطع ويرمي، يقطع ويرمي، متى ستقلع عن حشر نفسك وأفكارك؟ بدلاً من التفكير الأفضل أن تأخذ قليلاً من العشب الملوث بالدم للتحليل!

بعد فحص المكان ورسم مخطط له توجه المحققون إلى مقر مدير الأعمال ليكتبوا الضبط ويتناولوا طعام الفطور. وفي أثناء الطعام راح الحضور يتجاذبون أطراف الحديث. بدأ تشوبيكوف الكلام بقوله:

- الساعة، والنقود وما شابه... كلها سليمة، واضح وضوح الشمس أن القتل لم يرتكب بدافع الطمع.

- وأن الذي ارتكبه شخص مثقف.

أضاف ديوكوفسكي.

- مِمَّ تستنتج هذا؟

- يخدمني في هذا عود الثقاب السويدي الذي لا يعرف الفلاحون المحليون استعماله بعد. مثل هذا الثقاب لا يستعمله سوى الملاّكين. وليس كلهم. وبالمناسبة أقول إن من ارتكب الجريمة ليس شخصاً واحداً، بل ثلاثة على الأقل: اثنان أمسكا به، والثالث خنقه. كلاوزوف كان قوياً، والقتلة، لابد، كانوا يعرفون هذا.

- وبم يمكن أن تنفعه قوته، إذا كان، لنفرض، نائماً؟

- لقد دهمه القتلة وهو يخلع حذاءه، وبما أنه كان يخلع حذاءه، إذن فهو لم يكن نائماً.

- لا داعي للاختلاق! كُلْ، أحسن!

قال البستاني يفريم وهو يضع السماور على المائدة:

- حسب فهمي، يا صاحب الرفعة، لم يرتكب هذه الفعلة الشنيعة سوى نيكولاشكا.

فقال بسيكوف: - محتمل جداً.

- ومن هو نيكولاشكا هذا؟

- خادم السيد يا صاحب الرفعة – أجاب يفريم – ومن غيرُه، إذا لم يكن هو؟ إنه مجرم، يا صاحب الرفعة! سكير ومتهتك، اللهم عافِنا. دائماً كان يحضر الفودكا للسيد، ويضجعه في السرير، من إذن، إذا لم يكن هو؟ كما إنني أتجرأ أيضاً على أن أعرض لرفعتكم أن هذا الخبيث تباهى مرة في الخمارة بأنه سيقتل سيده، وكل هذا بسبب اكولكا، بسبب امرأة. كانت عنده زوجة أحد الجنود.. وقد أعجبت السيد، فقربها منه. أما ذاك، فقد غضب طبعاً... وها هو الآن سكران يتمرغ في المطبخ، ويبكي... إنه يكذب... يدعي أنه حزين على سيده..

- وبالفعل يحق للإنسان أن يغضب من أجل اكولينا – قال بسيكوف – إنها زوجة جندي، امرأة من العوام، ولكن... لم يكن مارك ايفانيتش يدعوها نانا[١] عن عبث. فيها شيء ما يذكرك بنانا.. جذابة...

- رأيتها... أعرف – قال المحقق وهو يتمخط بمنديل أحمر.

واحمرَّ وجه ديوكوفسكي وأرخى بصره. وأخذ رئيس المخفر ينقر على صحنه بإصبعه، وسعل مدير الشرطة ومد يده لسبب ما إلى محفظته. وكان يبدو أن الدكتور هو الوحيد الذي لم يحدث لديه ذكر اكولينا ونانا أي رد فعل. أمر المحقق بإحضار نيكولاشكا. دخل نيكولاشكا، وهو شاب طويل نحيل ذو أنف طويل مجدور، وصدر غائر، يرتدي سترى قديمة كانت لسيده يوماً ما،

---

(١) بطلة رواية اميل زولا «نانا» (١٨٨٠ وقد ظهرت ترجمتها الروسية في العام نفسه) وسرعان ما أصبح هذا الاسم علم جنس وانتشر انتشاراً واسعاً في الأساخير الصحفية في روسيا. (المترجم).

دخل غرفة بسيكوف وانحنى أمام المحقق حتى الأرض. كان وجهه ناعساً وباكياً، وكان هو سكران لا يكاد يقف على قدميه. سأله تشوبيكوف: أين السيد؟

- قتلوه، يا صاحب الرفعة.

قال نيكولاشكا وطرف بعينيه وانخرط في البكاء.

- نعرف أنه قتل. ولكن أين هو الآن؟ أين جثته؟

- يقولون إن المجرمين أخرجوها من النافذة ودفنوها في الحديقة.

- هــ م!.. نتائج التحقيق أصبحت معروفة في المطبخ.. هذا سيء.. أين كنت يا عزيزي في الليلة التي قتل فيها سيدك؟ أقصد يوم السبت؟

رفع نيكولاشكا رأسه إلى الأعلى ومط رقبته وأخذ يفكر.

- لا يمكنني أن أتذكر يا صاحب الرفعة، كنت شارباً، ولا أتذكر.

همس ديوكوفسكي وهو يبتسم بسخرية ويفرك يديه:

- إثبات غيبة[١]!

- هكذا إذن. طيب، ومن أين جاء هذا الدم الذي تحت نافذة سيدك؟

رفع نيكولاشكا رأسه إلى الأعلى وأخذ يفكر. فقال له مدير الشرطة:

- عجل بالتفكير!

- الآن. هذا الدم من أمر تافه يا صاحب الرفعة، أنا ذبحت دجاجة. ذبحتها ببساطة، كالعادة، ولكنها انتفضت وأفلتت من بين يدي وأخذت تركض... ومن هنا هذا الدم.

وأفاد يفريم بأن نيكولاشكا يذبح دجاجاً بالفعل كل مساء وفي أماكن مختلفة، ولكن لم يشاهد أحد من قبل أن دجاجة لم تذبح ذبحاً كاملاً يمكن أن تركض في الحديقة، وعلى كل فإن هذا الأمر لا يمكن نفيه نفياً قاطعاً.

---

(١) باللاتينية في الأصل alibi. (المترجم).

قال ديوكوفسكي وهو يبتسم بهزء:

- إثبات غيبة، يا له من إثبات غيبة[١] غبي!

- هل كنت على معرفة باكولكا؟

- حصل هذا الإثم.

- وهل أغواها السيد وأخذها منك؟

- لا، أبداً، الذي سلبني اكولكا هو هذا، السيد بسيكوف، ايفان ميخايليتش. أما السيد الكبير فقد أخذها من ايفان ميخايليتش. هكذا كان الأمر.

ارتبك بسيكوف وطفق يحك عينه اليسرى.

حدق ديوكوفسكي إليه ولاحظ ارتباكه وارتعد. كان مدير الأعمال يرتدي بنطالاً كحلياً لم يكن مساعد المحقق قد انتبه إليه من قبل. وذكّره البنطال بتلك الشعيرات الكحلية التي وجدوها على الأرقطيون. نظر تشوبيكوف بدوره إلى بسيكوف بارتياب.

- انصرف – قال لنيكولاشكا – والآن اسمح لي يا سيد بسيكوف أن ألقي عليك سؤالاً: أنت طبعاً كنت هنا يوم السبت ليلة الأحد؟

- نعم، في الساعة العاشرة تناولت طعام العشاء مع مارك ايفانيتش.

- وبعد ذلك؟

ارتبك بسيكوف ونهض من خلف المائدة، وغمغم قائلاً:

- بعد ذلك.. بعد ذلك.. في الحقيقة لا أذكر، لقد شربت كثيراً آنذاك.. لا أذكر أين ومتى نمت.. ما لكم تنظرون إلي جميعاً هكذا؟ كأني أنا القاتل؟!

- وأين استيقظت؟

- استيقظت في مطبخ الخدم فوق الفرن... كلهم يمكنهم أن يؤكدوا هذا. أما كيف وصلت إلى الفرن فلا أعرف...

---

(١) باللاتينية في الأصل.

- لا تضطرب.. هل كنت على معرفة بأكولينا؟

- ليس في هذا أي شيء غير عادي...

- وقد تركتْكَ وذهبت إلى كلاوزوف؟

- نعم... أحضِرْ مزيداً من الفطر يا يفريم! هل تريد شاياً يا يفغراف كوزميتش؟

ران صمت ثقيل مرهق دام زهاء خمس دقائق. وفي أثناء ذلك لم يكن ديوكوفسكي يحول عينيه الشائكتين عن وجه بسيكوف الشاحب. وقطع المحقق الصمت بقوله:

- ينبغي الذهاب إلى البيت الكبير والتحدث مع أخت المرحوم ماريا ايفانوفنا عساها تعطينا بعض الإشارات المفيدة.

شكر تشوبيكوف ومساعده لمدير الأعمال دعوته للفطور وتوجها إلى بيت السادة. وهناك ألفيا أخت كلاوزوف ماريا ايفانوفنا، وهي عانس في الخامسة والأربعين، تصلي أمام أيقونات العائلة الموضوعة فوق حاملة عالية. وما إن شاهدت المرأة في أيدي الضيفين محفظتين وقبعتين عليهما شعاران حتى شحب لونها.

قال تشوبيكوف الأنيق وهو ينقر أحد كعبيه بالآخر:

- قبل كل شيء أقدم اعتذاري عن تعكير مزاجك الصلوي إذا جاز التعبير. لقد جئناك برجاء. أنت، طبعاً، سمعت... يُشتبه في أن أخاك قد قتل، بصورة ما. إنها مشيئة الرب، تعرفين... الموت حق على الجميع من الملوك إلى الفلاحين.. أليس بمقدورك أن تساعدينا بإشارة أو بإيضاح ما...

- آه، لا تسألاني! – قالت ماريا ايفانوفنا وهي تزداد شحوباً وتغطي وجهها بيديها – لا أستطيع أن أقول لكما أي شيء! أي شيء! أتوسل إليكما! أنا لا... ماذا بإمكاني؟ آه، لا، لا... ولا كلمة عن أخي! أموت ولا أقول!

انخرطت ماريا ايفانوفنا في البكاء وذهبت إلى غرفة أخرى. فتبادل المحققان النظرات، وهزا أكتافهما وعادا أدراجهما. قال ديوكوفسكي وهو خارج من البيت الكبير:

- امرأة الشيطان! يبدو أنها تعرف شيئاً وتخفيه. والخادمة أيضاً ينطق وجهها بشيء ما... انتظرا أيتها الشيطانتان! سنتبين كل شيء!

وفي المساء عاد تشوبيكوف ومساعده إلى البيت في ضوء القمر الشاحب، جلسا في عربتهما الخفيفة وطفقا يستعرضان في ذهنهما حصيلة النهار المنصرم. كلاهما كان مرهقاً وصامتاً. وتشوبيكوف لم يكن على العموم يحب الكلام في الطريق. أما ديوكوفسكي الثرثار فقد كان صامتاً إرضاء للشيخ. بيد أنه في آخر الطريق لم يعد يحتمل الصمت وشرع يقول:

- أن يكون نيكولاشكا متورطاً في هذه القضية أمر لا شك فيه[(١)]. من سحنته واضح من أي نوع هو... وإثبات غيبته[(٢)] يفضحه من الرأس حتى القدم. وليس من شك في أنه ليس هو صاحب المبادرة في هذه القضية. فهو لم يكن أكثر من أداة غبية مأجورة. أتوافقونني؟ ثم إن بسيكوف المتواضع لا يلعب الدور الأخير في هذه القضية. فالبنطال الكحلي، والارتباك، والاستلقاء على سطح الفرن بعد القتل وإثبات الغيبة، واكولكا.

- اجرش يا يميليا فهذا أسبوعك[(٣)]. هذا يعني حسب رأيك أن كل من يعرف اكولكا قاتل؟ آه منك أيها المتهور! إن ما يليق بك هو أن تمص مصاصة لا أن تحقق في قضية! أنت أيضاً كنت تغازل اكولكا فهل يعني هذا أنك متورط في هذه القضية؟

---

(١) باللاتينية في الأصل non dubi tandum est (الناشر).

(٢) باللاتينية في الأصل.

(٣) مثل روسي مستمد من حياة الفلاحين يقال لمن يهذر ولا يقيم السامعون لكلامه وزناً. (المترجم).

- إن اكولكا عاشت عندكم أيضاً مدة شهر تعمل طباخة، ولكن... أنا لا أقول شيئاً. في ليلة الأحد تلك كنت ألعب بالورق معكم، وأجلس معكم، ولولا ذلك لما أعفيتكم أنتم أيضاً من الشبهة. القضية، يا سيدي، ليست في المرأة، القضية في ذلك الإحساس الدنيء الخسيس الفاسد... الشاب المتواضع لم يعجبه أن الغلبة لم تكن له. عزة النفس... كما تعلمون... أراد أن يثأر. ثم... إن شفتيه السميكتين تدلان بوضوح على شهوانيته. هل تذكرون كيف تلمظ عندما شبه اكولكا بنانا؟ إن هذا الوغد يحترق وجدا، هذا أمر لا شك فيه! وهكذا عزة نفس مجروحة وشهوة لم تُرو! هذا يكفي لارتكاب جريمة قتل. اثنان في قبضتنا الآن، ولكن من هو الثالث؟ إن نيكولاشكا وبسيكوف هما اللذان أمسكا بالقتيل. ولكن من الذي خنقه؟ بسيكوف متهيب، وخجول، جبان على العموم. وأمثال نيكولاشكا ليس بمقدورهم الخنق بالوسادة. فهم يستعملون البلطة أو المطرقة... الذي خنقه شخص ثالث، ولكن من هو؟

أرخى ديوكوفسكي قبعته على عينيه وطفق يفكر. وظل صامتا حتى اقتربت العربة من منزل المحقق.

- وجدتها! – قال وهو يدخل المنزل ويخلع معطفه – وجدتها يا نيكولاي يرمولايتش، ولا أدري كيف لم يخطر هذا ببالي من قبل. هل تعرفون من هو الثالث؟

- كف عن هذا من فضلك! ها هو العشاء جاهز! اجلس تعش.

جلس المحقق وديوكوفسكي لتناول العشاء. صب ديوكوفسكي لنفسه قدحاً من الفودكا، ثم نهض، وشد قامته، وقال وعيناه تلتمعان:

- إذن فاعلموا أن الثالث الذي اشترك مع الوغد بسيكوف في فعلته بالخنق كان امرأة! نعم! إنني أتحدث عن ماريا ايفانوفنا، أخت القتيل!

شرق تشوبيكوف بالفودكا وحدق في ديوكوفسكي:

- أنت... لست ملتاثا؟ رأسك... طبيعي؟ لا يؤلمك؟

- أنا معافى. حسن، لنفرض أنني قد جننت، ولكن بم تفسرون ارتباكها عند مرآنا؟ كيف تفسرون عدم رغبتها بالإدلاء بإفادة؟ لنفرض أن كل هذا تفاهات – حسن! طيب! تذكروا إذن علاقاتهما! لقد كانت تكره أخاها! هي متزمتة، وهو متهتك، ملحد... وهنا بالذات تعشش الكراهية! يقولون إنه بأفعاله جعلها تقتنع بأنه من أتباع الشيطان. وكان يمارس استحضار الأرواح أمامها!

- طيب، وما يعني هذا؟

- ألا تفهمون؟ إنها متزمتة، وقد قتلته بدافع التعصب! وفضلاً عن أنها قتلت زؤانة، شخصاً فاسقاً، فهي قد خلصت العالم من الدجال، وفي هذا، كما تتوهم، يقوم فضلها، ومأثرتها الدينية! أوه، إنكم لا تعرفون هؤلاء العوانس المتزمتات! اقرؤوا دوستويفسكي! وماذا يكتب ليسكوف وبيتشيرسكي!... هي، بالتأكيد هي، وأراهن بحياتي على هذا! هي التي خنقته. أوه، يا لها من امرأة خبيثة! ألم يكن سبب وقوفها أمام الأيقونات عندما دخلنا هو صرف أنظارنا فحسب؟ قالت لنفسها لأقف وأصلِّ وسيعتقدون أنني هادئة، وأنني لا أتوقع قدومهم! هذا أسلوب جميع المجرمين الأغرار. عزيزي نيكولاي يرمولايتش! أيها الغالي! أعطني هذه القضية! دعني أتولَّها شخصياً حتى النهاية! أيها الحنون! أنا بدأتها وأنا سأكملها حتى النهاية!

هز تشوبيكوف رأسه يمنة ويسرة وعبس:

- نحن قادرون على معالجة القضايا الصعبة بنفسنا. أما أنت فمهمتك ألاّ تحشر نفسك حيث لا ينبغي. اكتب عندك ما يملى عليك عندما يملون عليك، هذه هي مهمتك!

احمر وجه ديوكوفسكي وصفق الباب خلفه وخرج. وغمغم تشوبيكوف وهو ينظر في إثره: - ذكي، اللعين! ذكي جد.. داً. لكنه يهتاج بسرعة في الوقت غير المناسب. ينبغي أن أشتري له من السوق الموسمية علبة لحفظ السكائر كهدية.

في صباح اليوم التالي أحضروا إلى المحقق من ضيعة كلاوزوفكا شاباً كبير الرأس، مشقوق الشفة العليا. عرف نفسه بأنه الراعي دانيلكا، وأدلى بإفادة جد مثيرة. قال:

- كنت شارباً، وظللت جالساً عند عرّابة ابني حتى منتصف الليل. وفي طريق العودة إلى البيت، وتحت تأثير السكر نزلت إلى النهر اغتسل. وبينما أنا أغتسل نظرت فإذا بشخصين يسيران فوق السد وهما يحملان شيئاً ما أسود. صحت بهما «تيو!» فخافا وانطلقا راكضين بكل ما لديهما من قوة صوب مزارع ماكاريفسكي. فليمحقني الرب إذا كان الذي رأيتهما يحملانه ليس هو السيد!

في اليوم نفسه قبيل المساء أُلقي القبض على بسيكوف ونيكولاشكا ونقلا تحت الحراسة إلى مركز القضاء، حيث أودعا سجن القلعة.

- ٢ -

مر اثنا عشر يوماً.

الوقت صباح. والمحقق نيكولاي يرمولايتش يجلس في مكتبه خلف منضدة خضراء يقلب ملف قضية «كلاوزوف»، بينما ديوكوفسكي يسير بقلق من زاوية إلى زاوية كذئب في قفص. قال وهو يشد شعر لحيته الفتية بعصبية: - أنتم مقتنعون بإدانة نيكولاشكا وبسيكوف. فلماذا لا تريدون الاقتناع بإدانة ماريا ايفانوفنا؟ هل تجدون الأدلة غير كافية أم ماذا؟

- أنا لا أقول إنني لست مقتنعاً. أنا مقتنع، ولكنه أمر لا يصدق... ليس ثمة أدلة حقيقية، كل ما هنالك فلسفة ما... التعصب وكذا وكذا...

- وأنتم بحاجة حتماً إلى بلطة وشراشف مدماة! رجال قانون! ولكني سأثبت لكم! سأجعلكم تكفون عن الاستهانة هكذا بالجانب النفسي من القضية! وماريا ايفانوفنا هذه ستُرسَل إلى سيبيريا لا مناص! سأثبت التهمة! وإذا كانت

الفلسفة لا تكفيكم فإن لدي شيئاً مادياً... وهذا الشيء سيريكم إلى أي حد أنا على حق في فلسفتي! اسمحوا لي فقط بالسفر.

- عم أنت تتحدث؟

- عن عود الثقاب السويدي... أنسيتم؟ أنا لم أنس! سأعرف من الذي أشعله في غرفة القتيل! الذي أشعله ليس نيكولاشكا ولا بسيكوف اللذين لم يسفر التفتيش عندهما عن وجود ثقاب، بل الشخص الثالث، أي ماريا ايفانوفنا. وسأثبت هذا! اسمحوا لي فقط بالتجوال في أرجاء الناحية لاستقصاء المعلومات...

- إيه، طيب، اجلس... لنقم بالاستجواب.

جلس ديوكوفسكي إلى المنضدة، ودس أنفه الطويل في الأوراق. صاح المحقق: - أدخلوا نيكولاي تيتيخوف!

أدخلوا نيكولاشكا. كان شاحباً ونحيلاً كالعود. وكان يرتعش. توجه إليه تشوبيكوف قائلاً: - تيتيخوف! في عام ١٨٧٩ حوكمت أمام قاضي القسم الأول بتهمة السرقة وحكم عليك بالسجن. وفي عام ١٨٨٢ حوكمت مرة ثانية بتهمة السرقة وأرسلت مرة ثانية إلى السجن، إننا نعرف كل شيء...

بدت الدهشة على وجه نيكولاشكا. فقد أذهلته إحاطة المحقق علماً بكل شيء. بيد أن أمارات الدهشة ما لبثت أن تحولت إلى أمارات أسىً عميق. انفجر منتحباً، ورجاهم أن يسمحوا له بالذهاب ليغسل وجهه ويهدأ. أخذوه، وأمر المحقق بإدخال بسيكوف، فأدخلوه. كان وجه الشاب خلال الأيام الأخيرة قد تغير بشدة. هزل، وشحب، وضمر. وكانت عيناه تنطقان باللامبالاة. قال تشوبيكوف:

- اجلس يا بسيكوف! آمل أنك في هذه المرة ستكون عاقلاً ولن تكذب كما في المرات السابقة. ففي الأيام السابقة كلها كنت تنكر اشتراكك في قتل كلاوزوف بالرغم من جميع الأدلة الكثيرة التي تشهد ضدك. هذا ليس من العقل في شيء.. الاعتراف يخفف الجرم. واليوم أتحدث معك للمرة الأخيرة. إذا لم تعترف اليوم، سيكون الأوان غداً قد فات. هيا، ارو لنا ما حدث...

همس بسيكوف:

- أنا لا أعرف شيئاً... وأدلتكم أيضاً لا أعرفها...

- عبثاً! طيب، اسمح لي إذن أن أروي لك أنا كيف حدث الأمر. السبت مساء كنت تجلس في غرفة نوم كلاوزوف وتشرب معه فودكا وبيرة (غرز ديوكوفسكي عينيه في وجه بسيكوف ولم يحول بصره عنه طوال فترة حديث المحقق) وكان نيكولاي يخدمكما. وفي الساعة الواحدة أعلن مارك ايفانوفتش لكما عن رغبته في النوم. فهو ينام دائماً في الساعة الواحدة. وفيما كان يخلع حذاءه ويعطيكما إيعازاته حول إدارة أعماله، قمتما، وفق إشارة متفق عليها، بالإمساك بسيدكما الثمل، وألقيتماه على السرير. جلس أحدكما على قدميه والآخر على رأسه، وفي هذه الأثناء دخلت من الممر المرأة التي تعرفانها مرتدية ثوباً أسود. وكانت قد اتفقت معكما سابقاً على اشتراكها في هذا العمل الإجرامي. أمسكتْ المرأة بالوسادة وحاولت خنقه بها. وفي أثناء العراك انطفأت الشمعة، فأخرجت المرأة من جيبها علبة ثقاب سويدي وأشعلت الشمعة، أليس كذلك؟ على وجهك أرى أنني أقول الحق. لنكمل.. بعد أن خنقتموه وتأكدتم من أنه لا يتنفس جررتماه، أنت ونيكولاشكا، عبر النافذة، ووضعتماه قرب شجيرة الأرقطيون، وخوفاً من أن تعاوده الحياة ضربتماه بأداة حادة، ثم حملتماه ووضعتماه لبعض الوقت تحت شجيرة الليلك. وبعد أن استرحتما وفكرتما قليلاً حملتماه... ونقلتماه عبر السياج... ثم سرتما في الطريق.. حتى وصلتما إلى السد. وقرب السد أخافكما أحد الفلاحين، ولكن ما بك؟

شحب لون بسيكوف حتى غدا كالليمون، ونهض وهو يترنح. قال: - أحس بالاختناق! حسن.. ليكن.. دعني فقط أخرج... من فضلك.

اقتادوه إلى الخارج. وقال تشوبيكوف وهو يتمطى بتلذذ:

- وفي النهاية اعترف. فضح نفسه! ولكن بأية مهارة فائقة أوقعتُ به! انهلتُ عليه انهيالاً.

- وهو لا ينكر المرأة ذات الثوب الأسود – قال ديوكوفسكي وهو يضحك– ولكن ما يعذبني بفظاعة هو عود الثقاب السويدي! لا أطيق الاصطبار أكثر! وداعاً! سأسافر!

اعتمر ديوكوفسكي سدارته وغادر. وبدأ تشوبيكوف استجواب اكولكا. وقد صرحت هذه بأنها لا تعرف أي شيء على الإطلاق... وقالت: - أنا عشت معك فقط... لم أعش مع أحد سواك.

في الساعة السادسة مساء عاد ديوكوفسكي. كان مضطرباً كما لم يكن من قبل قط. يداه كانتا ترتعشان إلى حد جعله غير قادر على فك أزرار معطفه. ووجنتاه كانتا تتقدان. كان واضحاً أنه لم يعد من دون أنباء. قال وهو يندفع إلى غرفة تشوبيكوف ويرتمي على الكنبة: - وصلت، رأيت، انتصرت[١]. أقسم لك بشرفي أنني أؤمن بعبقريتي. اسمع، ليأخذك الشيطان بالمرة! اسمع وتعجب، أيها الشيخ! شيء مضحك ومؤسف. في قبضتك الآن ثلاثة... أليس كذلك؟ وأنا وجدت الرابع، بل على الأصح، الرابعة، لأنها امرأة! وأية امرأة! لِقاء لمس كتفيها مرة واحدة أعطي عشر سنوات من عمري! ولكن اسمع... ذهبت إلى ضيعة كلاوزوفكا، وأخذت ألفُّ وأدور حولها بحركات حلزونية. عرجت في الطريق على جميع الدكاكين والحانات والأقبية طالباً علبة ثقاب سويدي. في كل مكان كانوا يقولون لي «لا يوجد». ظللت أدور حتى هذه اللحظة. عشرين مرة فقدت الأمل، وعشرين مرة استعدته. تسكعت طوال اليوم ولم أعثر على ما أبحث عنه سوى منذ ساعة فقط. على بعد ثلاثة فراسخ[٢] من هنا. أعطوني رزمة تتألف من عشر علب، ولكن علبة منها ليست موجودة.. سألت على الفور: «من اشترى العلبة؟».. امرأة ما.. «أعجبتها.. بْشِكْ، بْشِكْ»، عزيزي!

---

(١) باللاتينية في الأصل: «Veni, vidi, vici» وهي الكلمات التي ابلغ بها يوليوس قيصر مجلس الشيوخ نبأ انتصاره على ملك البنطس فارناسيز عام ٤٧ ق.م. (المترجم).

(٢) الفرسخ الروسي يساوي ١,٠٦ كم.

نيكولاي يرمولايتش! إن ما يمكن أن يفعله أحياناً شخص مطرود من المعهد ورأسه محشو بروايات غابوريو[1]، أمر لا تدركه العقول. منذ اليوم سأبدأ احترم نفسي! أوف ف ف.. إيه، هيا بنا!

- إلى أين؟

- إليها، إلى الرابعة.. يجب أن نسرع وإلا... وإلا، احترقتُ من نفاد الصبر! هل تعرف من هي؟ لن تحزر! إنها تلك الفتاة الشابة، زوجة رئيس مخفرنا الهرم يغفراف كوزميتش، إنها أولغا بيتروفنا – هذه هي! هي التي اشترت علبة الثقاب!

- أنت... لابد... أنك... هل جننت؟

- مفهوم جداً، فهي، أولاً، تدخن. وثانياً كانت غارقة في حب كلاوزوف حتى أذنيها. وقد رفض حبها من أجل تلك المرأة النكرة التي يدعونها اكولكا. الثأر. إنني أتذكر الآن كيف فاجأتهما مرة وهما في المطبخ خلف الساتر. كانت هي تقسم له الأيمان بينما هو يدخن سيكارتها وينفخ الدخان في وجهها. ولكن، على كل. هيا بنا... لنعجل، فقد بدأت العتمة تشتد... هيا بنا!

- أنا لم أفقد عقلي إلى الحد الذي يجعلني أسير وراء طفل صغير لأزعج سيدة نبيلة وشريفة في الليل.

- نبيلة وشريفة... أنت، بعد هذا، لست محققاً، بل خرقة! لم أتجرأ في حياتي على أن أشتمك، أما الآن فأنت تضطرني إلى ذلك! خرقة! متخاذل! هيا يا عزيزي، نيكولاي يرمولايتش! أرجوك!

نفض المحقق يده باشمئزاز وبصق.

- أرجوك! أرجوك لا من أجلي أنا، بل من أجل العدالة! أتوسل إليك، في النهاية! اصنع معي معروفاً ولو مرة في العمر!

---

(١) ايميل غابوريو (١٨٣٥-١٨٧٣) كاتب روايات جنائية فرنسي. كان تشيخوف يقف من كتاباته موقفاً سلبياً (الناشر).

جثا ديوكوفسكي على ركبتيه وأردف:

- نيكولاي يرمولايتش! إنني أستصرخ فيك الطيبة! انعتني بالنذل والوغد إذا تبين أنني مخطئ بخصوص تلك المرأة! القضية في غاية الأهمية! ويا لها من قضية! بل ليست قضية إنما رواية كاملة! ستطبق شهرتك روسيا بأسرها! سيجعلونك محققاً في القضايا الفائقة الأهمية! افهم هذا أيها الشيخ المأفون!

عبس المحقق، ومد يده متردداً إلى قبعته وقال:

- إيه، ليأخذك الشيطان هيا بنا!

عندما وصلت عربة المحقق إلى رواق رئيس المخفر كانت الدنيا قد أظلمت. قال تشوبيكوف وهو يمسك بحبل الجرس:

- يا لنا من خنزيرين! نقلق راحة الناس.

- لا عليك، لا عليك... لا تخف.. سنقول أن نابض العربة انكسر.

استقبلت تشوبيكوف وديوكوفسكي على العتبة امرأة طويلة ممتلئة تناهز الثالثة العشرين، ذات حاجبين حالكي السواد وشفتين مكتنزتين حمراوين. كانت هذه هي أولغا بيتروفنا نفسها. قالت وابتسامتها تملأ وجهها:

- أوه... ما أشد سروري! لقد أتيتما في وقت العشاء بالضبط. زوجي يفغراف كوزميتش غير موجود... جلسته طالت عند القس.. ولكننا سنتدبر الأمر بدونه...

اجلسا! هل أنتما آتيان من التحقيق؟

- نعم، وقد انكسر نابض عربتنا.

قال تشوبيكوف وهو يدخل إلى غرفة الضيوف ويجلس على الكنبة.

- رأساً اصعقها – همس له ديوكوفسكي – اصعقها!

- النابض... م م... نعم... وقد رأينا أن نعرج عليكم.

- اصعقها، أقول لك! ستخمّن إذا أخذتَ تتلكأ!

- إيه، تصرف بمعرفتك، واعفني أنا.

تمتم تشوبيكوف وهو ينهض ويبتعد صوب النافذة – لا أستطيع، أنت من طبخ الطبخة، فهيا كلْها!

- نعم، النابض... – بدأ ديوكوفسكي الحديث وهو يقترب من زوجة رئيس المخفر مغضناً أنفه الطويل – ولم نعرج عليكم من أجل الـــ... الـــ... عشاء، ولا لمقابلة يفغراف كوزميتش، بل جئنا لنسألك أنت يا سيدتي المحترمة! أين هو مارك ايفانوفيتش الذي قتلته؟

- ماذا؟ أي مارك ايفانوفيتش هذا؟ - - قالت زوجة رئيس المخفر متلعثمة وقد تضرج وجهها الكبير بغتة وفي لحظة واحدة بحمرة قانية – أنا... لا أفهم.

- إنني أسألك باسم القانون! أين كلاوزوف؟ نحن على علم بكل شيء!

- ممن؟ - سألت زوجة رئيس المخفر بصوت خافت وهي تنوء بنظرة ديوكوفسكي.

- قولي لنا أين هو!

- ولكن من أين عرفتم؟ من الذي قال لكم؟

- إننا على علم بكل شيء! وأنا أطالبك باسم القانون!

تنشط المحقق عندما رأى ارتباك المرأة فاقترب منها وقال:

- قولي لنا فنذهب. وإلا فإننا...

- وما حاجتكما إليه؟

- لِمَ هذه الأسئلة، أيتها السيدة؟ نحن نرجوك أن تقولي لنا! وأنت ترتعشين وترتبكين... نعم، إنه قد قتل، وإذا كنت تريدين أكثر فأنت التي قتلته! شركاؤك قد أفشوا سرك!

امتقع وجه زوجة رئيس المخفر، وقالت وهي تعصر كفيها:

- هيا بنا. إنه مخبأ عندي في الحمام، لكن لا تقولا لزوجي بحق الرب. أتوسل إليكما! إنه لن يتحمل.

تناولت المرأة مفتاحاً كبيراً معلقاً على الجدار، وقادت ضيفيها عبر المطبخ والمدخل إلى الفناء، حيث كان الظلام مخيماً والمطر يهطل رذاذاً.

سارت المرأة قدماً وتبعها تشوبيكوف وديوكوفسكي وهما يدوسان العشب العالي ويتنشقان روائح القنب البري ومياه الغسيل التي كانت تنشج تحت أقدامهما. كان الفناء واسعاً، وما لبثت مياه الغسيل أن انتهت، وأحست الأقدام تحتها بتربة مفلوحة، ولاحت في الظلام أشباح أشجار، وظهر بينها مبنى صغير تعلوه مدخنة معوجة. قالت المرأة:

- هذا هو الحمام. ولكن أتوسل إليكما ألا تقولا لأحد!

وعندما اقترب تشوبيكوف وديوكوفسكي من الحمام شاهدا على بابه قفلاً ضخماً جداً. همس المحقق لمساعده:

- جهز شمعة وثقاباً!

فتحت المرأة القفل وأدخلت الضيفين إلى الحمام. وأشعل ديوكوفسكي عود ثقاب وأنار ردهة الحمام الخارجية. في وسط الردهة كانت تنتصب طاولة عليها سماور صغير وثخين وإلى جانبه قصعة فيها حساء ملفوف بارد، وصحن يحتوي على بقايا صلصة.

- تابعا السير!

دخلا إلى الغرفة التالية. إلى الحمام. هناك أيضاً توجد طاولة عليها صحن كبير يحتوي على قطعة من لحمٍ الخنزير، وزجاجة فودكا، وأطباق وسكاكين وشوكات. تساءل المحقق:

- ولكن أين هو..؟ أين القتيل؟

همست المرأة وهي ممتقعة ترتعش:

- إنه على الرف العلوي!

أمسك ديوكوفسكي الشمعة بيده، وتسلق إلى الرف العلوي، فرأى هناك جسداً بشرياً مستلقياً بلا حراك على حشية زغب كبيرة.

كان الجسد يصدر شخيراً ضعيفاً...

- إنهم يضللوننا، ليأخذهم الشيطان – صاح ديوكوفسكي – هذا ليس هو؟ هنا يستلقي أحمق حي، هيه، من أنت ليأخذك الشيطان؟

سحب الجسد نفساً مصحوباً بصفير وتحرك. دفعه ديوكوفسكي بمرفقه، فرفع يديه إلى الأعلى وتمطى، ثم رفع رأسه قليلاً وسأل بصوت باس أجش مبحوح:

- من هذا الذي يتسلل إلى هنا؟ ماذا تريد؟

قرب ديوكوفسكي الشمعة من وجه المجهول وأطلق صرخة. ففي الأنف القاني والشعر المشعث المنفوش والشاربين الأسودين كالفحم، اللذين كان أحدهما مفتولاً بعنترية، وينظر نحو السقف بوقاحة، ميز ديوكوفسكي ملازم حامية الخيالة كلاوزوف.

- أأنت مارك... ايفانيتش؟! هذا غير ممكن!

تطلع المحقق إلى الأعلى وجمد...

- هذا أنا، نعم... وهذا أنت، ديوكوفسكي! أي شيطان تريده هنا؟ ومن صاحب هذه السحنة هناك في الأسفل؟ يا الهي، إنه المحقق! ما المناسبة يا ترى؟

نزل كلاوزوف من على الرف على عجل وعانق تشوبيكوف، وانخطفت أولغا بيتروفنا متسللة إلى الخارج.

- ما هذه المصادفة؟ هيا نشرب! ترا –تا –تي –تو –توم... لنشرب. ولكن من الذي أتى بك إلى هنا؟ كيف عرفت أنني هنا؟ على كل هذا لا يهم، لنشرب!

أشعل كلاوزوف المصباح وصب ثلاثة أقداح فودكا!

قال المحقق وهو يفرد ذراعيه متحيراً:

- يعني أنا لا أفهمك، أهذا أنت أم ليس أنت؟

- كفاك... أتريد أن تعظني؟ لا تتعب نفسك! اشرب أيها الشاب ديوكوفسكي قدحك! فلنُمضِ يا صديقي هذه[١]... مالكما تنظران؟ اشربا!

- ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أفهم – قال المحقق تلقائياً وهو يشرب الفودكا – لماذا أنت هنا؟

- ولماذا لا أكون هنا، إذا كنت هنا مبسوطاً؟

شرب كلاوزوف وقضم قطعة لحم خنزير.

- إنني أعيش عند زوجة رئيس المخفر، كما ترى، في المجاهل، في زاوية نائية، كجنّي من عمّار المنازل. اشرب! لقد أشفقت عليها أيها الأخ! أشفقت، وها أنا أعيش هنا، في هذا الحمّام المهجور كالناسك... أتغذى هنا. ولكن أفكر في أن أغادر هذا المكان في الأسبوع القادم. لقد سئمت...

- شيء فوق الإدراك! – قال ديوكوفسكي.

- وما الذي فوق الإدراك في هذا؟

- شيء فوق الإدراك! ولكن كيف بحق الرب وصل حذاؤك إلى الحديقة؟

- أي حذاء؟

- وجدنا إحدى فردتي حذائك في غرفة نومك، والأخرى في الحديقة.

- وما حاجتكما إلى معرفة هذا؟ هذا ليس من شأنكما... اشربا، مالكما ليأخذكما الشيطان. أيقظتماني، فاشربا إذن! إنها قصة طريفة، يا أخ، قصة الحذاء هذه. لم أكن أريد المجيء إلى أوليا. كان مزاجي منحرفاً، كنت ثملاً بعض الشيء، جاءت إلى تحت النافذة وبدأت تشتم... معلومك... ككل النساء.. على العموم.. أنا، من السكر، تناولت فردة الحذاء ورميتها بها هاء.. هاء.. أقصد لا تشتمي. دخلتْ من النافذة وأشعلت المصباح وراحت تغريني.

---

(١) لازمة أغنية طلابية مشهورة آنذاك: «فلنمض يا أصدقاء هذه الليلة بمرح» (الناشر).

وأنا سكران. ألهبتني وجرتني إلى هنا، وأوصدت علي. وأنا أتغذى الآن... حب وفودكا ومازة! إلى أين أنتما ذاهبان، تشوبيكوف، إلى أين؟

بصق المحقق وخرج من الحمام، وخرج ديوكوفسكي في إثره ناكس الرأس، مكتئباً. جلس الاثنان في العربة صامتين وانطلقا. لم يكن الطريق قبل الآن يبدو لهما موحشاً وطويلاً كما بدا لهما هذه المرة. لاذ الاثنان بالصمت. وكان تشوبيكوف يرتعش طوال الطريق من الغيظ، أما ديوكوفسكي فقد خبأ وجهه خلف ياقته العالية وكأنه يخشى أن تتبين الظلمةُ وحباتُ المطر إمارات الخجل على وجهه.

عندما وصل المحقق إلى بيته وجد هناك الدكتور توتويف جالساً إلى الطاولة يقلب صفحات مجلة «نيفا» ويتنهد. قال وهو يستقبل المحقق بابتسامة حزينة:

- أية أمور تجري في هذا العالم! مرة أخرى تفعلها النمسا!... وغلادستون أيضاً بشكل ما...

ألقى تشوبيكوف بقبعته تحت الطاولة وأخذ يرتجف:

- يا هيكل الشيطان العظمي! لا تأت إلي! ألف مرة قلت لك أن لا تأتي إلي بسياستك هذه! هذا ليس وقت السياسة!

أما أنت – قال تشوبيكوف مخاطباً ديوكوفسكي وهو يهز قبضته – أما أنت.. فلن أنساها لك إلى أبد الآبدين!

- ولكن عود الثقاب السويدي! هل كان بوسعي أن أعرف!

- اختنق بعود ثقابك! انصرف ولا تثر غضبي، وإلا صنعت منك ما لا يعرفه إلا الشيطان! هيا ولا ترني وجهك هنا.

زفر ديوكوفسكي وتناول قبعته وخرج.

- سأذهب أسكر! – قرر وهو خارج من البوابة، وسار يجر قدميه بأسى صوب الحانة.

عندما عادت زوجة رئيس المخفر من الحمام إلى البيت وجدت زوجها في غرفة الضيوف. سألها: - ما الذي أتى بالمحقق إلى هنا؟

- جاء يقول لنا إنهم عثروا على كلاوزوف. تصور. لقد وجدوه عند زوجة رجل آخر.

زفر رئيس المخفر وقال وهو يرفع عينيه إلى أعلى:

- إيه، يا مارك ايفانيتش، يا مارك ايفانيتش، لقد قلت لك أن التهتك لا يقود صاحبه إلى السلامة! لقد قلت لك هذا، ولكنك لم تسمع لي!

آب ١٨٨٣

* * *

في البَحر

(حديث بحّار)

لم يعد يُرى سوى الأنوار الباهتة في الميناء التي غادرتها الباخرة، والسماء السوداء كالحبر. كانت تهب ريح باردة رطبة، وكنا نحس بالغيوم الثقيلة فوقنا، ونحس برغبتها في أن تنهمر مطراً. وعلى الرغم من الريح والبرد كنا نشعر بأن الجو خانق.

اجتمعنا، نحن البحارة، في عنبرنا لنضرب قرعة. تعالت أصوات ضحكاتنا الثملة، وانطلقت العبارات الفكهة اللاذعة، وراح أحدنا يصيح كالديك إمعاناً في التسلية.

شعرت بقشعريرة خفيفة تسري في ظهري من نقرتي حتى كعبيّ وكأن في نقرتي ثقباً ينثال منه على جسدي العاري خردق دقيق بارد. كنت أرتعش من البرد ومن أسباب أخرى أود أن أحدثكم عنها هنا.

الإنسان، حسب رأيي، منحط عموماً، والبحّار، يجب أن أعترف، يكون أحياناً أحطّ مَنْ في الوجود، أحط من أخبث حيوان. فالحيوان، على الرغم من كل شيء، لديه ما يشفع له، وهو أنه خاضع للغريزة. ربما أكون مخطئاً لأنني لا أعرف الحياة كما ينبغي، ولكن يبدو لي، مع ذلك، أن لدى البحّار من الأسباب التي تجعله يكره نفسه ويشتمها أكثر مما لدى أي مخلوق آخر. فالإنسان المهدد في كل لحظة بالسقوط عن الصارية، والاختفاء تحت الأمواج، والذي لا يعرف ربه إلا عندما يكون مشرفاً على الغرق وعلى السقوط من علٍ على أم رأسه، لا يهمه أي شيء، ولا يأسف على أي شيء

في الأرض. إننا نعبُّ كثيراً من الفودكا، ونفسق، لأننا لا نعرف ما الحاجة إلى الفضيلة في البحر، ومن الذي يحتاج إليها؟

ولكن لأكمل قصتي.

كنا نضرب قرعة. وكان عددنا، نحن الذين أنهينا نوبتنا وفرغنا من العمل، اثنين وعشرين شخصاً. ومن بين هؤلاء اثنان فقط سيحالفهما الحظ ويتمتعان بالفرجة على مسرحية نادرة. وتتلخص القصة في أن «قمرة المتزوجين حديثاً» في باخرتنا كانت هذه الليلة محجوزة لعروسين، ولا يوجد في جدران هذه القمرة سوى ثقبين. أحدهما أحدثته أنا بمنشار دقيق بعد أن ثقبت الجدار بنازعة سدادات فلينية، والآخر فتحه زميل لي بسكين. وقد عملنا في هذا أكثر من اسبوع:

- أحد الثقبين من نصيبك!

- مِنْ نصيب من؟

أشاروا إليّ.

- والآخر؟

- من نصيب أبيك!

دنا مني أبي، وهو بحار قديم محدودب الظهر، وجهه يشبه تفاحة مشوية، وقال لي وهو يربت كتفي:

- اليوم، يا ولد، أنا وأنت محظوظان، أتسمع؟ الحظ واتاني وواتاك في وقت واحد أيها الصبي. وهذا يعني شيئاً ما.

سأل بنفاد صبر عن الساعة. لم تكن قد تجاوزت الحادية عشرة بعد.

خرجتُ من عنبر البحارة ورحت أدخن غليوني وأنا أنظر إلى البحر. كان الظلام مطبقاً، ولكن ينبغي الافتراض أن عيني كانتا تعكسان كل ما كان يعتمل في داخلي، وذلك لأنني على خلفية الليل السوداء كنت أميز صوراً ما، وأرى ما كنت أفتقده كثيراً في حياتي التي كانت آنذاك لا تزال فتية ولكنها مسحوقة...

في الساعة الثانية عشرة مررت بالقمرة العامة وتطلعت من الباب. كان العريس، وهو قس بروتستنتي شاب ذو شعر أشقر جميل، يجلس إلى طاولة ممسكاً بالإنجيل، ويشرح شيئاً ما لامرأة انكليزية طويلة نحيلة. أما العروس، وهي شابة ممشوقة القوام، بارعة الجمال، فقد كانت تجلس بجانب عريسها ولا تحول عينيها الزرقاوين عن رأسه الأشقر. وكان ثمة مصرفي انكليزي عجوز، طويل وسمين وذو وجه أحمر منفّر، يذرع القمرة من الزاوية إلى الزاوية. إنه زوج المرأة الكهلة التي يتحدث إليها القس. فكرتُ: «القساوسة معتادون أن يتحدثوا ساعات طويلة، إنه لن ينهي حديثه حتى الصباح».

في الساعة الواحدة اقترب مني أبي وقال لي وهو يشدني من كمي: - حان الوقت! لقد خرجا من القمرة العامة.

طرت إلى تحت بمثل لمح البصر على السلم الشديد الانحدار، واتجهت نحو الجدار المعهود. كان بين هذا الجدار وجدار الباخرة حيز مليء بالسخام والماء والجرذان. وسرعان ما سمعت صوت خطوات أبي الثقيلة الذي كان يتعثر بأكياس الخيش وعلب الكيروسين ويطلق الشتائم.

تلمست فتحتي وأخرجت منها قطعة الخشب المربعة التي ظلت أنشرها مدة طويلة، فرأيت قماشة رقيقة شفافة كان يتسلل إلي عبرها نور وردي خافت، ومع النور لامست وجهي رائحة ثقيلة شديدة العذوبة: لابد أنها رائحة مخدع النوم الاستقراطي. ولكي أرى مخدع النوم كان ينبغي أن أزيح القماشة بإصبعيّ، وهذا ما بادرت إلى فعله.

رأيت برونزاً ومخملاً ودانتيلا. وكل هذا كان غارقاً في نور وردي. وعلى بعد ساجن[1] ونصف من وجهي كان ينتصب السرير. قال أبي وهو يلكزني بكوعه بنفاد صبر:

- دعني أنظر من فتحتك. الرؤية منها أفضل!

---

(١) الساجن: مقياس روسي قديم يساوي ٢،١٣٤ م.

لذتُ بالصمت.

- بصرك يا ولد أقوى من بصري، وبالنسبة لك لا فرق على الإطلاق سواء كنت تنظر من قريب أو من بعيد.

قلت: - اهدأ، لا تصدر صوتاً، يمكن أن يسمعانا.

كانت الزوجة الشابة تجلس على طرف السرير مدلية قدميها الصغيرتين فوق فروة، وتنظر إلى الأرض. وكان يقف قبالتها زوجها القس الشاب ويقول لها شيئاً ما. ولكن ما هو بالضبط؟ لا أعرف. فقد كان ضجيج الباخرة يمنعني من السماع.

كان القس يتكلم بحرارة وهو يومئ بيديه وعيناه تلتمعان. وكانت هي تصغي وتهز رأسها بعدم الموافقة...

دمدم أبي بغضب: - يا للشيطان، عضني جرذ!

ازددت التصاقاً بالجدار وكأنني كنت أخشى أن يقفز قلبي من مكانه، والتهب رأسي التهاباً.

ظل العروسان يتحادثان طويلاً. وأخيراً ركع القس على ركبتيه ومد يديه إلى الأمام وراح يتوسل إليها، وهي تهز رأسها بالرفض. عندئذ هب واقفاً وطفق يذرع القمرة. وخمنتُ من تعابير وجهه وحركة يديه أنه يهدد.

نهضت زوجته الشابة وسارت ببطء صوب الجدار حيث كنت أقف، وتوقفت قرب الفتحة بالضبط. وقفتْ بسكون وراحت تفكر، فيما أنا ألتهم وجهها بنظراتي. بدا لي أنها تعاني، وأن صراعاً يجري بداخلها، وأنها تتردد، وفي الوقت نفسه كانت قسماتها تعبر عن الغضب. ولم أستطع أن أفهم شيئاً.

وظللنا واقفَيْن هكذا وجهاً لوجه نحو خمس دقائق على الأرجح، ثم ابتعدتْ ووقفت وسط القمرة، وأومأت برأسها لزوجها، بمعنى أنها موافقة. فابتسم القس بسرور وقبّل يديها وخرج من القمرة. وبعد ثلاث دقائق فُتح الباب

ودخل القس قمرة النوم ودخل في إثره الانكليزي الطويل السمين الذي حدثتكم عنه من قبل. اقترب الانكليزي من السرير وسأل الفتاة الحسناء عن شيء ما، فأومأت هذه بالإيجاب دون أن تنظر إليه، وقد شحب وجهها.

أخرج المصرفي من جيبه رزمة ما، ربما كانت رزمة أوراق نقدية، وناولها للقس. فحصها هذا وعدّها ثم انحنى وخرج. وأوصد الكهل الانكليزي الباب خلفه.

قفزت مبتعداً عن الجدار كالملدوغ. لقد خفت. وخيل لي أن الريح قد حطمت باخرتنا إلى شظايا، وإننا نهبط نحو القاع.

أمسك أبي الشيخ السكير الفاسق بيدي وقال:

- لنخرج من هنا! أنت لا ينبغي لك أن ترى هذا! أنت لا تزال ولداً.

كانت قدماه لا تقويان على حمله، فحملته أنا وصعدت به السلم الملتف الشديد الانحدار إلى السطح، حيث كان يهطل مطر خريفي حقيقي...

تشرين الأول ١٨٨٣

* * *

السَّهْب

/ قصة سفرة /

في بكرة نهار تموزي انطلقت من قضاء ن. في محافظة ز. عربة مخدشة لا نوابض لها، من تلك العربات القديمة التي لم يعد يسافر فيها الآن في روسيا سوى وكلاء التجار وباعة المواشي وفقراء القساوسة، وسارت بصخب في سكة البريد. كانت كلما تحركت تصر وتصأى، فيرد عليها بتجهم دلو معلق بمؤخرتها، وكانت هذه الأصوات والقطع الجلدية البالية المتدلية على جسمها المتسلخ كافية وحدها للدلالة على مدى رثاثتها وإيذانها بالتفكك.

كان يجلس فيها اثنان من أهالي ن: التاجر ايفان ايفانيتش كوزميتشوف الذي غدا، بعد أن حلق ذقنه ووضع نظارته على عينيه واعتمر قبعته القشية، أشبه بالموظف منه بالتاجر، والأب خريستوفور السرياني، قيّم كنيسة نيكولايف في قضاء ن.، وهو شيخ ضئيل ذو شعر طويل، يرتدي قفطاناً من كتان رمادي خشن، ويعتمر قبعة أسطوانية عريضة الحافة، ويتمنطق بحزام ملون ومطرز. كان الأول يحصر فكره في أمر ما وينفض رأسه بين فينة وأخرى ليطرد النعاس، فيما يتصارع على وجهه جفاف رجال الأعمال المألوف ودماثة الإنسان الذي ودع أهله لتوه وشرب جيداً. أما الآخر فكان ينظر بعينين نديتين إلى عالم الله الواسع وقد استولت عليه الدهشة، وانفرجت شفتاه في ابتسامة عريضة جداً حتى لكأنها توشك أن تلامس حِفافَيْ قبعته. وجهه كان أحمر ويبدو كأنه مقرور. كلا الرجلين كانا ذاهبين لبيع الصوف.

وكانا قد ودّعا لتوّهما أفراد أسرتيهما، وأكلا فطائر بالقشدة حتى الامتلاء وشربا بالرغم من الصباح الباكر... وكان مزاجهما رائعاً.

وعدا هذين الاثنين والحوذي دينيسكا، الذي كان يسوط دون كلل الحصانين الكميتين الممراحين، كان يجلس في العربة مسافر آخر: صبي يناهز التاسعة، وجهه مسفوع بالشمس، ومبلل بالدموع. إنه يغوروشكا، ابن أخت كوزميتشوف، وهو الآن ذاهب، بعد إذن خاله، ومباركة الأب خريستوفور إلى مكان ما للانتساب إلى المدرسة. فأمه، أولغا ايفانوفنا، وهي أرملة أمين مكتب[1]، وأخت كوزميتشوف الشقيقة، تحب الناس المثقفين والمجتمع النبيل، وقد توسلت إلى أخيها الذاهب لبيع الصوف أن يأخذ يغوروشكا معه ويدخله المدرسة. وها هو الصبي يجلس الآن على مقعد الحوذي بجوار دينيسكا، ويتمسك بمرفقه كي لا يقع، متقلقلاً كإبريق شاي فوق فوهة موقد، لا يفهم إلى أين هو ذاهب ولماذا. كانت سرعة الجري تجعل قميصه الأحمر ينتفخ كالفقاعة على ظهره، وقبعة الحوذي الجديدة المزدانة بريشة طاووس لا تنفك تنزلق إلى قفاه. لقد كان يحس بأنه إنسان في غاية التعاسة، وبأنه يريد أن يبكي.

وعندما مرت العربة قرب السجن نظر يغوروشكا إلى الحراس الذين كانوا يمشون الهوينى قرب السور الأبيض الشاهق، وإلى النوافذ الصغيرة المسدودة بشِباكٍ حديدية، وإلى الصليب الذي يلمع فوق السطح، وتذكر كيف ذهب مع أمه منذ أسبوع في عيد سيدة كازان إلى كنيسة السجن لحضور عيد القديس الذي سميت الكنيسة باسمه، وكيف كان قبل ذلك قد ذهب في عيد الفصح إلى السجن مع الطباخة لودميلا ودينيسكا حاملاً معه كعك العيد وبيضاً وفطائر ولحم بقر مقلياً. وقد شكره السجناء وهم يرسمون شارة الصليب، وأهدى إليه أحدهم أزرار زينةٍ من القصدير صنعها بنفسه.

---

(١) موظف من المرتبة العاشرة في السلم الوظيفي المؤلف من أربع عشرة مرتبة في روسيا القيصرية. (المترجم).

كان الصبي يحدق بإمعان إلى الأماكن المألوفة، بينما كانت العربة البغيضة تتجاوزها بسرعة مخلفة كل شيء وراءها. ولاحت خلف السجن دكاكين الحدادة المغطاة بالسُخام، وخلفها المقبرة الخضراء الأليفة المحاطة بسور حجري. ومن وراء السور كانت تطل بمرح صلبان وتماثيل بيضاء، تختبئ في خضرة أشجار الكرز وتبدو من بعيد بقعاً بيضاً. تذكر يغوروشكا كيف تختلط هذه البقع البيض بأزهار الكرز، عندما تتفتق أكمامها فتغدو معها بحراً أبيض. وعندما ينضج الكرز تترصع الصلبان والتماثيل البيضاء بنقاط قانية كالدم. وخلف السور، تحت أشجار الكرز، كان ينام والد يغوروشكا وجدته زينائيدا دانيلوفنا طوال الليل والنهار. عندما ماتت جدته وضعوها في تابوت طويل ضيق وغطوا عينيها اللتين أبتا الانغلاق بقطعتي نقد معدنيتين من فئة الخمسة كوبيكات. قبل أن تموت كانت حية، وكانت تجلب من السوق كعكاً طرياً ذُرّت عليه بذور الخشخاش، أما الآن فهي نائمة، نائمة...

خلف المقبرة كانت مصانع القرميد تنفث دخانها، فينطلق الدخان الكثيف الأسود كتلاً كروية كبيرة من تحت السقوف القصبية الطويلة المنكفئة نحو الأرض، ويتصاعد بكسل إلى الأعلى. السماء فوق المصانع والمقبرة كانت سمراء، والظلال الكبيرة التي تلقيها كتل الدخان كانت تزحف في الحقول وعبر الطريق، وكان ثمة أشخاص وخيول يغطيهم غبار أحمر يتحركون وسط الدخان بالقرب من السقوف.

وخلف المصانع كانت تنتهي المدينة وتبدأ الحقول. ألقى يغوروشكا نظرة أخيرة على المدينة، وانكب بوجهه على مرفق دينيسكا وشرع يبكي بحرقة. قال كوزميتشوف:

- هيه، ألم تنته من البكاء بعد يا بكّاء! عدت مرة أخرى إلى العويل أيها المدلل! إذا كنت لا تريد الذهاب ابق هنا، لا أحد يجرك بالقوة!

تمتم أب خريستوفور بسرعة:

- لا بأس، لا بأس، أيها الأخ يغور[١]، لا بأس، لا بأس، يا أخ... استعن بالله.. أنت لا تذهب طلباً لشر بل لخير.. العلم، كما يقولون، نور، والجهل ظلام... هذا حق.

سأل كوزميتشوف: - هل تريد العودة؟

فأجاب يغوروشكا وهو ينشج: - أ... أريد...

- فلنعد إذن. سفرك أصلاً لا جدوى منه.. إلى آخر الدنيا من أجل لا شيء..

عاد الأب خريستوفور يقول: - لا بأس، لا بأس يا أخ. استعن بالله.. لومونوسوف[٢] سافر هكذا مع صيادي سمك، ثم أصبح مشهوراً في أوروبا كلها. الذكاء إذا اقترن بالإيمان يعطي ثماراً ترضي الرب. ماذا يرتلون في الصلاة؟ لتمجيد الباري وإسعاد أبوينا ونفع الكنيسة والوطن... هكذا..

قال كوزميتشوف وهو يشعل سيجاراً رخيصاً:

- نفع عن نفع يختلف... بعضهم يدرس عشرين سنة دون أي فائدة.

- هذا وارد.

- بعضهم يفيده العلم، وبعضهم لا يأتيه منه سوى البلبلة. أختي امرأة لا تفهم. تحرص على أن يكون كل شيء نبيلاً، وتريد ليغوركا أن يصير عالماً، وهي لا تفهم أنني مع كل مشاغلي أستطيع أن أسعد يغوروشكا إلى الأبد. إنني أشرح لك كل هذا لأقول إنه إذا صار الجميع علماء ونبلاء عندها لن يبقى أحد للعمل في التجارة أو في زراعة الحب، وسيموت الجميع جوعاً.

---

(١) يغور: الصيغة الدارجة شعبياً لاسم غيورغي، أما يغوروشكا فهي إحدى صيغ التصغير الكثيرة لهذا الاسم، ومنها: يغوركا ويورا الخ... (المترجم).

(٢) ميخائل لومونوسوف (١٧١١-١٧٦٥) أول عالم طبيعيات روسي ذو أهمية عالمية، وشاعر كلاسيكي كان له الفضل في إرساء أسس اللغة الروسية الأدبية المعاصرة، ورسام وعالم لغات ومؤرخ. عمل على نشر الثقافة وتطوير العلم والاقتصاد في روسيا وساهم في تأسيس جامعة موسكو. يضرب به المثل في العصامية. (المترجم).

- وإذا صار الجميع يتاجرون ويزرعون الحب عندها لن يبقى أحد لتحصيل العلم.

اعتقد كل منهما أنه قال شيئاً ما مقنعاً وقاطعاً، فرسما على وجهيهما سيماء الجد وتنحنحا معاً. أما دينيسكا الذي كان يصغي إلى حديثهما دون أن يفهم شيئاً فقد نفض رأسه، ونهض بعض الشيء، وألهب ظهري الحصانين بالسوط. ثم ساد الصمت.

وفي أثناء ذلك انبسط أمام بصر المسافرين سهل رحب لا نهاية له، تتخلله سلسلة من الروابي، تتزاحم ويطل بعضهما من خلف بعض، وتندمج كلها في هضبة تمتد عن يمين الطريق حتى الأفق، وتختفي في المدى الليلكي. إنك تسير وتسير ولا تستطيع أن تميز أين تبدأ هذه الهضبة وأين تنتهي... في الخلف كانت الشمس قد أطلت من وراء المدينة وانصرفت بهدوء ودونما ارتباك إلى عملها... في البداية ظهر بعيداً في الأمام، حيث تلتقي الأرض والسماء، بالقرب من أكمات صغيرة وطاحونة هوائية تشبه عن بعد رجلاً صغيراً يلوح بيديه، شريط عريض من نور أصفر ساطع، وراح يزحف على الأرض، وبعد دقيقة ضاء شريط آخر مثله في موضع أقرب قليلاً، ثم أخذ يزحف نحو اليمين حتى شمل الروابي، وأحس يغوروشكا بشيء دافئ يلمس ظهره، وتسلل شريط نور من الخلف وانسل عبر العربة والحصانين وخف لملاقاة الشريطين الآخرين، وفجأة ألقى السهب الشاسع كله بأنصاف الظلال الصباحية عن جسده، وابتسم، وراح يتلألأ بالندى.

ولم يلبث الجودار المحصود والفَرْبيون والقنب السهبي والأعشاب البرية التي كان القيظ قد لفحها، فاربدت صهبتها وأشرفت على الهلاك، أن اغتسلت بالندى، وداعبتها أشعة الشمس فانتعشت وعادت إلى الازهرار. وحامت فوق الطريق طيور السَّمام وهي تزقزق بجذل، وتنادت سناجيب الأرض الجاثمة بين الأعشاب، وفي مكان ما بعيد إلى اليسار كانت طيور الزقزاق تبكي.

وهب سرب من الحجل أجفلته العربة وطار صوب الروابي مصفقاً بأجنحته، وشرعت الجنادب والجداجد والصرّارات والحواليش تعزف تحت العشب موسيقاها الصارّة الرتيبة.

ولكن ما إن مضى بعض الوقت حتى تبخر الندى، وسكن الهواء، واستعاد السهب المخدوع منظره التموزي الكئيب. ذوى العشب، وخبت الحياة، وبات يخيل للرائي أن الروابي، التي سفعتها الشمس فدكنت خضرتها وبدت في المدى البعيد ليلكية ذات تلاوين هادئة كالظلال، وأن السهل الذي تغشت أطرافه المترامية بالضباب، وأن السماء المنكبة فوقهما والتي تبدو في السهب الخالي من الغابات والجبال العالية شديدة العمق والصفاء، أنها كلها تمتد الآن إلى مدى لا نهاية له وقد غشيها الوجوم من شدة الوحشة والحنين...

ما أشد كآبة هذا الجو الخانق! العربة تعدو، ويغوروشكا لا يرى إلا المناظر نفسها – السماء، والسهل، والروابي... خفتت الموسيقا المنبعثة من بين الأعشاب، وطار السمام بعيداً، وتوارى الحجل عن الأنظار، وراحت الغربان تحوم فوق العشب الذابل لأنها لا تجد ما تفعله، وكانت بتشابهها تزيد السهب رتابة.

ثمة حدأة تسف في طيرانها، وتنساب فوق الأرض وهي تخفق بجناحيها بخفة، وتتوقف فجأة في الهواء وكأنها تفكر في سأم الحياة، ثم لا تلبث أن ترفرف بقوة وتنطلق كالسهم فوق السهب، ولا أحد يدرك لِمَ هي تطير، وماذا تريد. وفي المدى البعيد تلوّح الطاحونة الهوائية بأجنحتها...

وقد تنقطع الرتابة أحياناً بمنظر جمجمة بيضاء، أو حجر كبير يلوح بين الأعشاب البرية. وربما لمحت العين نصباً حجرياً قديماً، أو صفصافة بيضاء يابسة يقف في أعلاها شقرّاق أزرق. وقد يجتاز الطريق سنجاب أرضي صغير، ثم تعود الأعشاب البرية والروابي والغربان تتراكض على الجانبين...

ولكن ها هو، والحمد لله، طنبر محمل بحزم السنابل يسير باتجاه العربة.. وقد استلقت فوق الحزم امرأة شابة أثقل النعاس أجفانها وأذبلها القيظ. رفعت المرأة رأسها بتثاقل ونظرت إلى السائرين باتجاهها، فحملق دينيسكا إليها، ومد الحصانان فميهما إلى السنابل، وقبّلت العربة الطنبر وهي تصرّ، ومسحت رؤوسُ السنابلِ الشائكةِ، وكأنها مقشة، قبعةَ الأب خريستوفور الأسطوانية.

صاح دينيسكا: - تصدمين الناس أيتها السمينة، مالك عوجت وجهك هكذا كأن نحلة قد لسعتك!

ابتسمت المرأة ابتسامة ناعسة وحركت شفتيها ثم استلقت ثانية.. وفجأة بدت على الرابية حورة وحيدة، من غرسها، ولم هي هنا – الله وحده يعلم. يشق على المرء أن يحول بصره عن قامتها الممشوقة وحلّـتها الخضراء. هل هذه الحسناء سعيدة هنا؟ قيظ في الصيف، وبرد قارس وعواصف ثلجية في الشتاء، وليال مخيفة في الخريف لا تَرين فيها سوى الظلمة ولا تسمعين سوى عويل الريح الرعناء الغاضبة – وأنت طوال الحياة وحيدة، وحيدة... وخلف الحورة تمتد من قمة الرابية حتى حافة الطريق سجادة صفراء زاهية من سنابل القمح. كان ستة من الحصادين قد انتهوا من حصاد السنابل التي على الرابية وجمعوها في أكداس، وهم الآن يحصدون سنابل السفح... إنهم يقفون صفا واحداً ويرفعون مناجلهم ذات المقابض الطويلة ويهوون بها فتلتمع بجذل وتصدر كلها صوتاً واحداً منسجماً «فجي، فجي!» ومن حركات النساء اللواتي يحزمن السنابل، ومن وجوه الحصادين، ومن التماع المناجل تحس أن القيظ يلسع الوجه ويكتم الأنفاس. كلب أسود مندلع اللسان يركض من جانب الحصادين باتجاه العربة وفي نيته على ما يبدو أن ينبح عليها، ولكنه يتوقف في منتصف الطريق، وينظر دون اكتراث إلى دينيسكا الذي يرفع سوطه مهدداً. ما له وللنباح في هذا الحر! تنتصب إحدى النساء ممسكة ظهرها المجهد بكلتا يديها وتتابع بنظراتها قميص يغوروشكا الأحمر القاني. أهو

اللون الأحمر قد أعجبها يا ترى، أم أنها تذكرت أطفالها؟ إنها تقف طويلاً بسكون وهي تنظر وتنظر...

ولكن ها هي سنابل القمح تغيب هي الأخرى. ومرة ثانية يمتد السهل المحروق والروابي المسفوعة والسماء القائظة، ومرة ثانية تنساب الحدأة فوق الأرض. ولا تزال الطاحونة تلوّح بأجنحتها في البعيد، ولم تزل كالسابق تشبه شخصاً صغيراً يلوّح بيديه. النظر إليها صار يبعث على الملل، وصار يبدو أنك لن تصل إليها أبداً، وأنها تهرب من العربة.

لاذ كل من الأب خريستوفور وكوزميتشوف بالصمت، فيما كان دينيسكا يسوط الحصانين ويصيح فيهما، أما يغوروشكا فقد كف عن البكاء وراح ينظر حواليه من دون اكتراث. كان الحر وملل السهب قد أضنياه، وخيل إليه أن وقتاً طويلاً قد مضى عليه وهو في العربة يهتز ويتأرجح، وأن الشمس تحرق ظهره منذ مدة طويلة. لم يكونوا قد قطعوا سوى عشرة فراسخ(١) عندما أخذ الصبي يفكر: «أما آن لنا أن نستريح!» وشيئاً فشيئاً زالت عن وجه خاله إمارات الدماثة، ولم يبق على صفحته سوى جفاف رجال الأعمال الذي كان يكسب الوجه الحليق النحيف، وخاصة عندما يضع صاحبه النظارة ويتغطى أنفه بالغبار، تعبيراً ينم على صرامة شرسة، كأنه وجه عضو في محاكم التفتيش. أما الأب خريستوفور فلم يكف عن النظر بدهشة إلى عالم الله الواسع والابتسامة لا تفارق وجهه. كان يفكر، وهو صامت، في شيء ما مُطمئن ومرح، وقد جمدت على وجهه ابتسامة تنم عن الطيبة والوداعة، وبدا كأن فكرة طيبة ومرحة قد جمدت هي الأخرى في دماغه من شدة الحر... سأل كوزميتشوف – ماذا يا دينيسكا، هل سندرك قافلة عربات الشحن قريباً؟

تطلع دينيسكا إلى السماء ثم نهض ولسع الجوادين بالسوط، وقال بعد ذلك:
- قبل الليل، بعون الله، سندركها...

---

(١) الفرسخ الروسي يساوي ١٠٠٦ كم.

ارتفع صوت نباح، واندفع بغتة باتجاه العربة زهاء ستة كلاب سهبية ضخمة وهي تنبح بضراوة وكأنها كانت متربصة في مكمن. كانت كلها مفرطة في الشراسة، وجوهها شعثاء عنكبوتية وعيونها حمراء من شدة الغضب. أحدقت بالعربة وراحت تتزاحم بغيرة وهي ترمجر زمجرة مبحوحة. كانت تتميز غيظاً وحقداً، وبدا أنها مستعدة لتمزيق الحصانين والعربة والبشر إرباً إرباً... سرّ دينيسكا بهذه الفرصة التي أتاحت له ممارسة هوايته في الاستفزاز واللسع بالسوط، وارتسمت على وجهه إمارات التشفي وانحنى وراح يلسع الكلاب بسوطه، فاشتدت زمجرتها، واندفع الحصانان يسابقان الريح. وكان يغوروشكا، الذي يجد صعوبة كبيرة في تثبيت نفسه على المقعد الأمامي، يدرك وهو ينظر إلى عيون الكلاب وأنيابها أنه إذا وقع من العربة ستتلقفه هذه الضواري في الحال وتمزقه شر ممزق، بيد أنه لم يكن يشعر بالخوف منها، بل كان ينظر إليها بتشف مثل دينيسكا، وكان يأسف لأنه لا يمسك بيده سوطاً مثله.

حاذت العربة قطيعاً من الغنم، فصرخ كوزميتشوف:

- قف! أوقف العربة. هش.. ش... ش[1]...

مال دينيسكا بكل جذعه إلى الخلف جاذباً عنان الحصانين، وأوقف العربة. ونادى كوزميتشوف الراعي:

- تعال هنا! ابعد هذه الكلاب الملعونة!

تقدم راع شيخ رث الثياب حافي القدمين، يعتمر قبعة شتوية، ويحمل على عجزه كيساً قذراً، ويمسك بيده عصا طويلة تنتهي بخطاف – كأنه شخص خارج من إحدى الحكايات القديمة. زجر الكلاب ثم خلع قبعته واقترب من العربة. عند الجانب الآخر من القطيع كان يقف شخص هرم آخر يشبه صاحبه في كل شيء، ينظر من دون اكتراث إلى المسافرين.

---

(١) في الأصل: ت ب ر ر ر (المترجم).

سأل كوزميتشوف: - لمن هذا القطيع؟

فأجاب الشيخ بصوت عال: - لفارلاموف.

وكرر الراعي الواقف في الجانب الآخر: - لفارلاموف.

- وهل مر فارلاموف من هنا البارحة؟

- لا.. هو لم يمر... بل مر وكيله، هذا أكيد...

- هيّا، سر.

استأنفت العربة سيرها، وخلفت الراعيين وكلابهما الشرسة وراءها. وراح يغوروشكا ينظر بامتعاض إلى المدى الليلكي البعيد، وبات يخيل إليه أن الطاحونة التي تلوح بأجنحتها أخذت تقترب رويداً رويداً، وتكبر شيئاً فشيئاً... إلى أن نهضت بكامل قامتها وظهر جناحاها للعيان بجلاء. كان أحدهما قديماً مرقعاً، أما الآخر فكان حديث العهـد، وقد صنع من خشب جديد يلمع في أشعة الشمس.

مضت العربة في سيرها قدماً إلى الأمام، بينما أخذت الطاحونة لسبب ما تنحرف إلى اليسار. ساروا وساروا وهي ما زالت تنحرف إلى اليسار أكثر وأكثر من دون أن تغيب عن العين.

قال دينيسكا: - ممتاز هذا الدولاب الهوائي الذي ركبه بولتفا لابنه.

- ولكن أين ضَيْعته؟... إنني لا أراها.

- هناك، خلف الوادي.

وسرعان ما بدت الضيعة للعيان، لكن الدولاب الهوائي لم يذهب إلى الخلف، لم يتقهقر، بل ظل ينظر إلى يغوروشكا بجناحه اللامع ويلوح له. يا له من مشعوذ!

- ٢ -

قبيل الظهر انعطفت العربة عن الطريق نحو اليمين وتباطأت في سيرها، ثم ما لبثت أن توقفت. وسمع يغوروشكا خريراً خافتاً بالغ العذوبة، وأحس بأن نسيماً مختلفاً لامس وجهه كالمخمل البارد. كانت المياه تنبثق تياراً رفيعاً من الرابية التي شكلتها الطبيعة من صخور ضخمة شوهاء، وتتدفق عبر أنبوبة من نبات الشوكران وضعها هناك محسن مجهول. وما إن تسقط على الأرض حتى تركض مسرعة إلى مكان ما نحو اليسار صافية جذلى، تتلألأ في أشعة الشمس وتهدر هديراً خافتاً وكأنها تتخيل نفسها تياراً قوياً هائجاً. وغير بعيد عن الرابية يتشتت جدول الماء مشكلاً بركة صغيرة، بعد أن تكون الأشعة الحارة، والتربة الساخنة التي تمتصه بنهم قد سلبتاه قوته. ولكنه لا يلبث بعد قليل أن يلتقي، على ما يبدو، جدولاً صغيراً مثله، إذ يزهو حول مجراه، على بعد مئة خطوة من الرابية، غيض من نبات السعادى الغضير الريان. لم تكد العربة تقترب من الغيض حتى طار من وسطه ثلاثة شناقب وهي تصيح بذعر.

نزل المسافرون قرب الجدول ليستريحوا ويطعموا الجوادين. وجلس كوزميتشوف والأب خريستوفور ويغوروشكا على بساط من اللباد في الظل المتقطع الذي تلقيه على الأرض العربة والجوادان المفكوكان، وشرعوا يأكلون. وبعد أن شرب الأب خريستوفور حتى ارتوى وأكل بيضة مشوية، انتعشت الفكرة الطيبة المرحة التي كانت قد تجمدت في دماغه من شدة الحر، واندفعت إلى الخارج، فنظر بحنان إلى يغوروشكا، وأكمل مضغ ما في فمه، وانبرى يقول:

- أنا نفسي، يا بني، كنت أدرس. فمنذ نعومة أظفاري أنعم علي الرب بالذكاء والفهم، وعندما كنت في مثل سنك، كنت متميزاً عن جميع أقراني، وكنت أدخل السرور إلى نفوس أهلي ومعلميّ بقدرتي على الفهم. ولم أكن قد بلغت الخامسة عشرة من عمري عندما كنت أتكلم وأنظم شعراً باللاتينية كما

بالروسية تماماً. أذكر أنني كنت في طفولتي أحمل الصولجان لنيابة الأسقف خريستوفور، وذات مرة بعد صلاة الصبح، وكما أذكر، في عيد شفيع جلالة القيصر الكسندر بافلوفتش المبارك. فيما كان الأسقف يخلع مسوحه الكهنوتي في الهيكل نظر إلي بحنان وسألني:

- «Puer bone, quam appellaris»[١]

فأجبته: «Christophorus sum»[٢]

فقال لي: «Ergo Connominati sumus» أي: إنك سميّي. ثم سألني باللاتينية: «ابن من أنت؟» فأجبته باللاتينية أيضاً: - إنني ابن الشماس السرياني في قرية ليبيدينسكويه. وعندما رأى صاحب النيافة حضور بديهتي ووضوح أجوبتي باركني وقال لي: «اكتب لأبيك أنني لن أتخلى عنه، أما أنت فستكون برعايتي» وقد دهش كبار القساوسة والكهنة الذين كانوا في الهيكل عندما سمعوا هذه المحادثة باللاتينية، وأثنى الجميع علي معبرين عن سرورهم. لم يكن شاربي قد نبت بعد، ومع ذلك فقد كنت أقرأ باللاتينية واليونانية والفرنسية، وألم بالفلسفة والرياضيات والتاريخ المدني وجميع العلوم. لقد أنعم علي الرب بحافظة مدهشة، حتى أنني كنت أحياناً إذا قرأت شيئاً ما مرتين حفظته عن ظهر قلب. وكان معلميّ ورُعاتي يتعجبون من هذا ويعتقدون أنني سأصبح في المستقبل عالماً كبيراً ونبراساً للكنيسة، وأنا ذاتي كنت أفكر في الذهاب إلى كييف لأتابع دراستي، ولكن والديّ لم يوافقا. وقال لي أبي عندئذ: «هل ستظل تدرس طول حياتك، وإلى متى سنظل ننتظرك؟» عندما سمعت هذه الكلمات لم أعد أفكر بالسفر لطلب العلم وتابعت الدراسة حيث كنت. لم أصبح عالماً بالطبع، هذا مفهوم، ولكنني بالمقابل لم أعص أبويّ ورعيتهما في شيخوختهما، ودفنتهما بشكل مشرف. طاعة الوالدين أفضل من الصيام والصلاة.

---

(١) ما اسمك أيها الصبي الطيب؟ (باللاتينية).

(٢) خريستوفور (باللاتينية).

قال كوزميتشوف: - لابد أنك نسيت كل ما تعلمته!

- وكيف لا أنسى؟! الحمد لله لقد بلغت الثمانين. لا أزال حتى الآن أذكر شيئاً ما من الفلسفة والبلاغة، أما اللغات والرياضيات فقد نسيتها تماماً.

ضيق الأب خريستوفور عينيه وفكّر قليلاً ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

- ما هو الجوهر؟ الجوهر هو القائم بذاته الذي لا يحتـــاج وجوده إلى قيامه بغيره.

وأدار رأسه ذات اليمين وذات الشمال وقال وهو يضحك من شدة التأثر:

- غذاء روحي! الحق أن المادة تغذي الجسد، أما الغذاء الروحي فيغذي النفس.

قال كوزميتشوف وهو يزفر:

- العلم علم.. نعم.. ولكن إذا لم نستطع اللحاق بفارلاموف لن ينفعنا العلم في شيء.

- الإنسان ليس إبرة، سنجده، إنه الآن يجول في هذه النواحي.

عادت الشناقب الثلاثة لتحوم فوق غيض السعادى وهي تطلق زعيقاً مفعماً بالقلق والحسرة لأنها طردت عن جدول الماء. وكان الحصانان يلوكان العليق بوقار وينخران من حين إلى حين. بينما كان دينيسكا يروح ويجيء بالقرب منهما متظاهراً بأنه لا يلقي بالا البتة إلى الخيار والبيض والفطائر التي يأكلها السادة، بل هو منصرف كلية إلى قتل النُعَر والذباب المتشبث ببطني الحصانين وظهريهما. كان يضرب ضحاياه بتلذذ وهو يطلق من حلقه صوتاً خاصاً يعبر عن مشاعر التشفي والظفر. وفي حالة الإخفاق كان يزحر متأسفاً وهو يلاحق ببصره الذبابة المحظوظة التي نجت من الموت.

ناداه كوزميتشوف وهو يزفر بعمق ليظهر أنه شبع:

- دينيسكا، أين أنت يا رجل؟ تعال كل.

اقترب دينيسكا من البساط بتهيب وانتقى لنفسه خمس خيارات كبيرة صفراء من النوع الذي يسمى «الصفاري» (منعه الخجل من انتقاء خيارات صغيرة وطازجة) وتناول بيضتين مشويتين سوداوين ومتشققتين، ثم مد يده متردداً وكأنه يخشى أن يضربوه عليها، ومس بإصبعه إحدى الفطائر. فقال كوزميتشوف مشجعاً – خذها، خذها.

فأخذها دينيسكا بثقة وانتحى مكاناً قصياً وجلس على الأرض مولياً العربة ظهره، وعلا على الفور صوت مضغ عال جعل حتى الحصانين يلتفتان ويرمقان دينيسكا بارتياب.

بعد أن انتهى كوزميتشوف من الأكل أخرج من العربة كيساً فيه شيء ما وقال مخاطباً يغوروشكا:

- أنا سأنام، وأنت انتبه، وإياك أن يسحب أحد هذا الكيس من تحت رأسي.

خلع الأب خريستوفور جبته وحزامه وقفطانه، وما كاد بصر يغوروشكا يقع عليه حتى جمد من الذهول. لم يخطر بباله قط أن الكهنة يرتدون البناطيل، ولكن ها هو الأب خريستوفور يرتدي بنطالاً حقيقياً من الكتان السميك وقد حشر نهايتيه داخل ساقي جزمته العالية، ويرتدي فوقه سترة ضيقة قصيرة من قماش خشن ملون. بدا الكاهن ليغوروشكا في هذا الزي الذي لا يتلاءم مع مقامه، وبشعره الطويل ولحيته الكثة شديد الشبه بروبنسون كروزو.

بعد أن خلع خريستوفور وكوزميتشوف ثيابهما الخارجية تمددا في الظل تحت العربة وجهاً لوجه وأغمضا عيونهما. وما إن انتهى دينيسكا من المضغ حتى استلقى على ظهره تحت أشعة الشمس اللاهبة وأغمض عينيه هو الآخر، وقال ليغوروشكا:

- انتبه لئلا يسرق أحد الحصانين.

وأغفى على الفور.

ران السكون، ولم يعد يُسمع سوى نخير الحصانين وصوت مضغهما وشخير النائمين. وفي مكان ما غير قريب كان ثمة زقزاق يبكي، وأحياناً كان يعلو زعيق الشناقب الثلاثة التي كانت تعود بين فينة وأخرى لترى هل غادر الضيوف المتطفلون المكان. وكان الجدول يلثغ بسقسقة ناعمة، بيد أن كل هذه الأصوات لم تكن لتعكر السكون أو لتوقظ الهواء الغافي، بل على العكس، كانت تدفع الطبيعة نحو النعاس.

ضاق نفس يغوروشكا من شدة الحر الذي أصبح شعوره به الآن بعد الأكل أقوى من ذي قبل، فعدا نحو غيض السعادى وطفق يتأمل المكان من هناك. لم يشاهد سوى ما كان قد رآه قبل الظهر: السهل، والروابي، والسماء، والمدى الليلكي، إلا أن الروابي غدت أقرب، والطاحونة لم تعد ترى، بقيت بعيداً في الخلف. ومن وراء الرابية الصخرية التي ينبثق منها الجدول برزت رابية أخرى أعرض منها وأكثر استواء. وقد تشبثت بها قرية صغيرة لا يزيد عدد دورها على خمس أو ست. لم يكن يُرى قرب البيوت لا أناس ولا أشجار ولا ظلال، وكأن القرية قد اختنقت في هذا الهواء الحار ويبست. لم يجد يغوروشكا ما يفعله، فأمسك بصرّار من بين الأعشاب وأطبق كفه عليه وقرب قبضته من أذنه وظل طويلاً يصغي إلى صوت الصرار وهو يعزف لحنه الرتيب. وعندما مل من الموسيقا طفق يطارد سرباً من الفراشات الصفراء التي جاءت إلى الغيض لتشرب، وفجأة وجد نفسه قرب العربة دون أن يلاحظ كيف عاد إلى هناك. كان خاله والأب خريستوفور غارقين في نوم عميق، ولابد أن نومهما سيدوم ساعتين أو ثلاث ساعات ريثما يستريح الحصانان... فكيف سيقتل هذا الوقت الطويل، وإلى أين يهرب من هذا القيظ؟ مسألة صعبة... وضع يغوروشكا فمه تلقائياً تحت تيار الماء المنبثق من الأنبوبة، فأحس بالبرودة في فمه وبرائحة الشوكران في أنفه. شرب في البداية بقابلية، ثم على مضض، وظل يشرب إلى أن سرت البرودة من فمه إلى سائر جسمه، وانسكب الماء

على قميصه. بعد ذلك اقترب من العربة وراح ينظر إلى النائمين. وجه خاله ما زال كالسابق يعبر عن جفاف رجال الأعمال. فكوزميتشوف المهووس بعمله كان نائماً، حتى وهو نائم، وحتى في أثناء الصلاة في الكنيسة وهم ينشدون ترنيمة الملائكة لا ينفك يفكر في أعماله، ولا يستطيع أن ينساها لحظة واحدة، وهو الآن على ما يبدو، يرى في نومه بالات الصوف، وقوافل العربات، والأسعار وفارلاموف... أما الأب خريستوفور، الإنسان اللين العريكة، الذي يتسم بالخفة والميل إلى الدعابة، فإنه لم يعرف في حياته كلها عملاً من شأنه أن يمتلك عليه نفسه ويلتف عليها كالثعبان ويقيدها. ففي جميع الأعمال العديدة التي تولاها في حياته لم يكن يغريه العمل بحد ذاته بقدر ما كان يغريه ما يلازم كل عمل تجاري من انغماس في دوامة الحياة وتعامل مع الناس. ففي رحلته هذه، على سبيل المثال، لم يكن يهمه الصوف وفارلاموف والأسعار بقدر ما كان يثير اهتمامه الطريق الطويل، وأحاديث السفر، والنوم تحت العربة، والأكل في غير موعده... وهو الآن، كما يدل التعبير المرتسم على وجهه، يحلم بنيافة الأسقف خريستوفور، وبالمحادثة باللغة اللاتينية، وبزوجته، وبفطائر القشدة، وبأشياء مشابهة لا يمكن أن يراها كوزميتشوف في أحلامه.

وفيما كان يغوروشكا يتأمل وجهي النائمين تناهى إلى سمعه فجأة صوت غناء خافت. في مكان ما غير قريب كان ثمة امرأة تغني. ولكن أين، وفي أية جهة، من الصعب أن تعرف. كان الغناء الخافت الممطوط الحزين الذي يشبه النواح ولا تكاد الأذن تلتقطه، يسمع تارة من اليمين، وتارة من الشمال، وتارة من الأعلى، وتارة من تحت الأرض، وكأن روحاً غير مرئي كان يطوف في السهب ويغني. أخذ يغوروشكا يتلفت إلى هنا وهناك دون أن يعرف من أين يأتي هذا الغناء الغريب. وعندما سكن وأصاخ السمع خيّل إليه أن الذي يغني هو العشب، وأن هذا العشب شبه الميت، الذي حكم عليه بالهلاك، يُقنع بغنائه أحداً ما بدون كلمات، ولكن بصوت مفعم بالشكوى والصدق، أنه غير مذنب، وأن الشمس

أحرقته تجنياً. وهو يؤكد أنه يتحرق رغبة في الحياة وأنه لا يزال فتياً، ولولا القيظ والجفاف لكان جميلاً. لم يكن مذنباً، ولكنه مع ذلك كان يطلب العفو من أحد ما ويقسم على أن ألمه لا يطاق، ولا حدود لحزنه وحسرته على نفسه.

أصغى يغوروشكا قليلاً، وبدا له أن هذا الغناء الممطوط الحزين يجعل الهواء خانقاً أكثر من ذي قبل، ويزيد من حرارته وسكونه... فشرع يدمدم بلحن ما، وركض صوب غيض السعادى وهو يخبط الأرض بقدميه ليطغى على صوت الغناء. نظر من هناك في جميع الجهات فرأى من كان يغني. قرب آخر دار في القرية كانت تقف امرأة ترتدي ثوباً داخلياً قصيراً يكشف عن ساقيها الطويلتين اللقلقيتين، وتنخل شيئاً ما. فيتساقط من منخلها غبار أبيض ينفرش بكسل على صخور الرابية. لقد أصبح من الواضح الآن أنها هي التي تغني. وعلى بعد ذراع[1] منها كان يقف بسكون صبي صغير حاسر الرأس، لا يستر جسمه سوى قميص قصير. كان الصبي لا يأتي بحركة، وكأن الأغنية سحرته، وقد ثبت نظره على شيء ما في الأسفل، لعله قميص يغوروشكا الأحمر. خفت الغناء، وسار يغوروشكا بخطوات بطيئة نحو العربة، وعاد من جديد يسلي نفسه بتيار الماء. ومرة أخرى علا صوت الغناء الممطوط. لقد عادت المرأة الطويلة الساقين نفسها تغني فوق الرابية. وعاود الملل يغوروشكا فجأة، فترك الأنبوبة ورفع بصره إلى الأعلى. وكان ما رآه غير متوقع، حتى أنه شعر بشيء من الخوف. ففوق رأسه كان يقف على إحدى الصخور الشوهاء صبي صغير لا يرتدي سوى قميص. كان الصبي سميناً بارز البطن دقيق الساقين. إنه الصبي نفسه الذي كان يقف قرب المرأة. كان يحملق بدهشة بليدة يخالطها الخوف إلى قميص يغوروشكا وإلى العربة من دون أن يطرف له جفن، وقد فغر فاه وكأنه يرى أمامه أناساً من عالم آخر. كان لون القميص الأحمر يجذبه ويبهجه، بينما كان منظر العربة والناس النائمين

---

(١) في الأصل: على بعد ساجن، والساجن مقياس طول روسي قديم = ٢،١٣٤ م. (المترجم).

تحتها يثير فضوله. وربما كان هو نفسه لا يدري كيف جذبه اللون الأحمر المبهج والفضول فأنزلاه من القرية إلى هنا، ولابد أنه الآن يعجب من جرأته. رنا إليه يغوروشكا طويلاً، وكان الصبي بدوره يحدق إليه، والاثنان صامتان يساورهما بعض الحرج. وبعد صمت طويل سأله يغوروشكا: - ما اسمك؟

ازدادت وجنتا الصبي السمينتان انتفاخاً، وأحكم إلصاق ظهره بالصخور التي خلفه وحملق، ثم حرك شفتيه قائلاً بصوت غليظ مبحوح:

- تيت.

ولم يتبادل الصبيان أية كلمة أخرى. وبعد فترة قصيرة من الصمت رفع تيت الغامض إحدى قدميه إلى الأعلى من دون أن يحول بصره عن يغوروشكا، وتحسس بعقبه نقطة ارتكاز قدمه وارتقى الصخرة، ومن هناك راح يتراجع إلى الوراء مثبتاً بصره على يغوروشكا وكأنه يخشى أن يضربه هذا من الخلف، ثم ارتقى الصخرة التالية، وظل يصعد ويصعد إلى أن اختفى تماماً خلف قمة الرابية.

تابعه يغوروشكا بنظره إلى أن توارى، ثم جلس محتبياً بيديه، وأحنى رأسه... وراحت الأشعة الحامية تلفح قفاه وعنقه وظهره. وما فتئت الأغنية الحزينة تخمد تارة وتنداح تارة أخرى في الهواء الساكن الخانق، فيما كان الجدول يتابع خريره الرتيب، والحصانان يمضغان العلف، والزمن ممتد دونما نهاية، وكأنه جمد هو الآخر، وتوقف عن المسير. وبدا كأن مئة عام قد مرت منذ الصباح... ألا يريد الرب يا ترى أن يجْمُدَ كل من يغوروشكا والعربة والحصانين في هذا الهواء، وأن يتحجروا كهذه الروابي، ويبقوا في أماكنهم إلى أبد الآبدين؟

رفع يغوروشكا رأسه ونظر بعينين ناعستين إلى الأمام. المدى الليلكي الذي كان حتى الآن ساكناً بدأ يهتز وامتد مع السماء إلى مكان ما أبعد.. وجر وراءه العشب المسفوع والسعادى، وانخطف يغوروشكا بسرعة لا عهد له

بمثلها خلف المدى الراكض. قوة ما كانت تشده بصمت إلى مكان ما، وخلفه كان يعدو القيظ والأغنية المضنية. أحنى يغوروشكا رأسه وأغمض عينيه..

كان دينيسكا أول من استيقظ. لابد أن شيئاً ما قرصه. فقد هب من مكانه وحك كتفه بسرعة وبربر قائلاً:

- عليك اللعنة، الموت قليل لك!

ثم ذهب إلى الجدول وشرب حتى ارتوى، وانهمك في غسل يديه ورأسه، وما لبث نخيره وصوت اصطفاق الماء أن أخرجا يغوروشكا من سباته، فنظر إلى وجه الحوذي المبلول، الذي جعلته قطرات الماء وبقع النمش الكبيرة شبيهاً بقطعة من الرخام، وسأل:

- هل سنتابع السير قريباً؟

رفع دينيسكا بصره ليرى موقع الشمس من السماء وأجاب:

- قريباً كما أظن.

ثم مسح وجهه بطرف قميصه وبدت عليه فجأة سيماء الجد الشديد. وقال وهو يقفز على قدم واحدة:

- هيا نتسابق لنرى من يصل أولاً إلى غيض السعادى.

كان يغوروشكا واهناً من القيظ والنعاس، ولكنه مع ذلك شرع يقفز خلف دينيسكا. كان دينيسكا يناهز العشرين من عمره، وهو يؤدي خدمته كسائق وينوي الزواج قريباً، ولكنه مع ذلك لم يكف عن كونه صغيراً. كان مولعاً جداً بإطلاق الطائرات الورقية، ومطاردة الحمام، واللعب بالعظام[١]، والسباق، وكان يتدخل دائماً في ألعاب الأولاد ونزاعاتهم. وما يكاد سادته يبتعدون أو يغفون حتى ينصرف إلى اللعب: كأن يقفز على قدم واحدة، أو يلهو بقذف الأحجار. وأي رجل بالغ كان يراه وهو منصرف بكليته إلى اللعب مع الصغار كان

(١) عظام المفاصل التي فوق الأظلاف، يُلعب بها (المترجم).

يصعب عليه أن يمسك نفسه عن القول: «يا له من قليل عقل!» أما الصغار فلم يكونوا يرون أي شيء غريب في اقتحام السائق الكبير عالمهم: فليلعب، المهم ألا يتشاجر! شأنهم في ذلك شأن الجراء الصغيرة التي لا ترى أية غرابة في انخراط كلب كبير سليم النية في مجموعتها ليلعب معها.

سبق دينيسكا يغوروشكا وبدا عليه أنه سُر جداً بهذا. غمز بعينه، وعرض على الصبي أن يقفزا معاً على طول الطريق ثم يعودا من دون أن يستريحا حتى العربة، وذلك ليظهر له أنه يستطيع القفز على قدم واحدة إلى أية مسافة يريد. ولكن يغوروشكا رفض العرض، فقد كان يلهث بشدة ويشعر بالإعياء.

وفجأة اتخذ وجه دينيسكا سيماء الجد إلى درجة لا يبلغها حتى عندما ينهال عليه كوزميتشوف بالشتائم، أو يرفع العصا في وجهه مهدداً، وركع على ركبة واحدة بهدوء وهو يصغي، وارتسم على وجهه تعبير ينم على الصرامة المشوبة بالخوف، كالتعبير الذي يرتسم على وجه من يسمع كفراً، وثبت بصره على نقطة واحدة، وجمع راحة يده على شكل زورق، ورفع كفه ببطء إلى الأعلى، ثم انبطح فجأة على الأرض ضارباً العشب براحته.

- أمسكته.

قال بنبرة انتصار مبحوحة، ونهض عن الأرض، وقرب من عيني يغوروشكا جندباً كبيراً. راح الاثنان يمسحان ظهره الأخضر العريض بأصابعهما، ويلمسان شاربيه ظناً منهما أن هذا يجلب له المتعة. وبعد ذلك أمسك دينيسكا بذبابة سمينة ملأى بالدم، وعرضها على الجندب، فحرك هذا فكيّه الكبيرين الشبيهين بواقية وجه المحارب، وقضم بطن الذبابة بمنتهى اللامبالاة، وكأنه كان يعرف دينيسكا من مدة طويلة. خليّا سبيله فالتمعت بطانة جناحيه الوردية وغاص في العشب، وبدأ على الفور ينشد أغنيته الرتيبة، وخليا سبيل الذبابة أيضاً، ففردت جناحيها وطارت دون بطن نحو الحصانين.

انطلقت من تحت العربة زفرة عميقة. لقد استيقظ كوزميتشوف. وما هي إلا لحظة حتى رفع رأسه بسرعة وطفق ينظر إلى المدى البعيد بقلق. وكانت نظرته التي انزلقت فوق يغوروشكا ودينيسكا بلا مبالاة تدل على أنه كان لحظة استيقاظه يفكر في الصوف وفارلاموف. قال باضطراب:

- انهض أيها الأب خريستوفور، حان الوقت. كفانا نوماً. لقد فاتنا الأمر ونحن نيام. هيا يا دينيسكا، جهز العربة.

استيقظ الأب خريستوفور وعلى شفتيه الابتسامة نفسها التي كانت عليهما عندما نام. لقد تجعد وجهه من النوم وتغضن وبدأ أنه تقلص إلى النصف. اغتسل، وارتدى ملابسه، وأخرج من جيبه على مهل سفر مزامير صغيراً ذا غلاف ملوث بالدهن، ويمم وجهه شطر المشرق، وشرع يقرأ همساً ويصلّب. قال كوزميتشوف بعتاب:

- لقد حان وقت الذهاب أيها الأب، العربة جاهزة.. وأنت.. والله لا أدري...

تمتم الأب خريستوفور:

- الآن.. الآن.. يجب أن أتلو التسبيحات، لم أتلها اليوم بعد...

- التسبيحات يمكنك أن تتلوها فيما بعد.

- ايفان ايفانوفتش، كل يوم وله عندي فرائضه... لا يجوز.

- ولكن الرب لن يعاقبك.

أمضى الأب خريستوفور ربع ساعة كاملاً وهو واقف بسكون باتجاه الشرق يتمتم، فيما كوزميتشوف ينظر إليه بشعور يقارب الكراهية، ويهز كتفيه بفراغ صبر، وكان انزعاجه يشتد إلى أقصى حد عندما كان الأب خريستوفور يأخذ نفساً طويلاً بعد كل «تسبيحة»، ثم يرسم شارة الصليب بسرعة ويقول بصوت عال عمداً ثلاث مرات كي يصلّب الآخرون:

- هللويا، هلليويا، هلليويا، سبحانك يا رب!

ابتسم أخيراً، ورفع بصره إلى السماء، وقال وهو يدس سفر المزامير في جيبه:

- انتهيت[١].

وبعد دقيقة انطلقت العربة، وبدا للمسافرين أنها تسير إلى الخلف لا إلى الأمام. فالأشياء التي يرونها الآن هي نفسها التي رأوها قبل الظهر. الروابي لا تزال غارقة في المدى الليلكي ولا تبين لها نهاية، والأعشاب البرية والأحجار الكبيرة تلوح فجأة ثم تختفي، وبقايا النباتات المحصودة تمتــد خطوطاً طويلة، ولا تزال الغربان والحدأة التي تحرك جناحيها بتؤدة تحوّم فوق السهب، والهواء ما انفك يزداد سكوناً من شدة الحر والهدوء. لقد وجمت الطبيعة مذعنة صامتة.. لا نسمة، ولا صوت نشيط يوحي بالانتعاش، ولا سحابة عابرة...

ولكن أخيراً، عندما أخذت الشمس تميل إلى المغيب، لم يعد السهب والروابي والهواء تتحمل الاضطهاد، ونفد صبرها، فحاولت أن تلقي عن نفسها بالنير الذي أعياها. وظهرت من خلف الروابي على غير انتظار سحابة جعداء وخطها الشيب فغدت رمادية. تبادلت النظرات مع السهب وكأنها تقول له: - أنا مستعدة، ثم عبست. وفجأة تمزق شيء ما في الهواء الساكن، وهبت ريح قوية، وراحت تدور في السهب وهي تصفر وتزمجر. وفي الحال ارتفع ضجيج الحشائش وأعشاب السنة الماضية، وتزوبع الغبار على الطريق وعدا في السهب جاراً وراءه القش واليعاسيب والريش، وانتصب عموداً أسود دوّاراً متجهاً نحو السماء وغشّى وجه الشمس. وتراكضت في السهب طولاً وعرضاً جصّيات عثكولية[٢] وهي تتعثر وتقفز وتعدو، ووقعت إحداها في قلب الزوبعة فدارت محومة كالطائر واندفعت نحو السماء، وما لبثت أن تحولت هناك إلى نقطة سوداء ثم اختفت عن الأنظار وتبعتها أخرى وثالثة،

---

(١) باللاتينية في الأصل Fini.

(٢) نباتات عشبية من الفصيلة القرنفلية تنفصل عن جذورها عند الازدهار وتحملها الرياح مسافات طويلة. (المترجم).

وشاهد يغوروشكا كيف اصطدمت جصّيتان في الزرقة الشاهقة، ونشبت كل منهما في الأخرى كأنهما تتصارعان.

وقرب الطريق صفقت حبارى صغيرة بجناحيها وطارت. والتمع جناحاها وذيلها في أشعة الشمس التي غمرتها فبدت كأنها طُعم معدني في شصّ أو فراشة من فراشات البحيرات التي يندمج جناحاها بقرنيها عندما تومض فوق الماء فيخيل للرائي أن لها قروناً من الأمام ومن الخلف ومن الجانبين...

اهتزت الحبارى في الهواء كالحشرة وهي تتلاعب بألوانها، ثم حلقت عالياً على خط مستقيم، ولكن ما لبثت أن انحرفت إلى جانب، ربما لأنها خافت من سحابة الغبار، وظلت برهة طويلة تومض في الجو.

وهب من بين الأعشاب صِفرِد أفزعته الزوبعة ولم يع ما حدث وطار باتجاه الريح وليس ضدها كما تفعل كل الطيور، فانتفش ريشه حتى أصبح بحجم الدجاجة، وبدا غاضباً ومهيباً. وحدها الغربان التي قضت عمرها وشاخت هنا في السهب، واعتادت كل تقلباته، كانت تحوم فوق العشب بهدوء، وتحفر الأرض القاسية بمناقيرها غير مكترثة بكل ما يجري حولها.

قصف الرعد بصوت أصم خلف الروابي، وهبت من هناك نسمات منعشة، فصفّر دينيسكا بمرح وألهب ظهري الحصانين بالسوط. وأمسك الأب خريستوفور وكوزميتشوف بطرفي قبعتيهما وصوبا بصرهما نحو الروابي... ليت المطر يهطل!

كان يبدو أن الأمر لم يعد يحتاج سوى إلى بعض الجهد، عصرة واحدة وينتصر السهب. بيد أن قوة طاغية غير مرئية أخذت تقيد الريح والهواء شيئاً فشيئاً، وتعود بالغبار إلى الأرض. ثم ما لبث السكون أن ران من جديد، وكأن شيئاً لم يكن. اختبأت السحابة، وعبست الروابي المسفوعة، وجمد الهواء مذعناً. الزقازيق القلقة وحدها كانت تبكي في مكان ما وتندب حظها.

وسرعان ما هبط المساء.

- ٣ -

لاح في الغسق بناء كبير من طابق واحد، ذو سقف حديدي صدئ ونوافذ معتمة. كان هذا البناء يسمى خاناً مع أنه لم يكن له فناء لمبيت الدواب والعربات، وكان يقوم وسط السهب بلا أي سياج. وغير بعيد عنه كان يبدو من خلل العتمة بستان كرز بائس مسور بسياج من عيدان متشابكة، وتحت النوافذ كانت تقف أعواد ضامرة من نبات عباد الشمس وقد نكست رؤوسها الثقيلة. وكانت تقرقع في البستان طاحونة صغيرة ليس لها من عمل سوى إخافة الأرانب البرية. وغير هذا لم يكن يُرى أو يُسمع بقرب البناء شيء سوى السهب.

ما إن توقفت العربة قرب الرواق حتى ارتفع من الداخل صوتان مبتهجان لرجل وامرأة، ثم صرّ الباب وانتصبت قرب العربة بغتة قامة طويلة نحيلة تلوح بيديها وبحاشيتيّ سترتها. كان هذا صاحب الخان مويسي مويسييتش، وهو رجل تخطى سن الشباب، ذو وجه شديد الشحوب ولحية جميلة حالكة السواد، يرتدي فراكاً عتيقاً أسود يتدلى من فوق كتفيه الضيقتين كأنه علق على مشجب، وتصطفق حاشيتاه كجناحين كلما صفق مويسي مويسييتش براحتيه تعبيراً عن الابتهاج أو الجزع، وبنطالاً أبيض عريضاً طرفاه مسدلان فوق ساقي الجزمة، وصداراً مخملياً رسمت عليه أزهار حمراء تشبه بقات عملاقة.

وعندما عرف مويسي مويسييتش القادمين جمد في البداية من فرط الانفعال، ثم صفق بيديه وتأوه، ولوحت سترته بحاشيتيها، وانحنى ظهره كالقوس، وتجعد وجهه الشاحب بابتسامة توحي بأن رؤية العربة لم تبهجه فحسب، بل جعلته ينتشي حتى الإرهاق.

- آه يا إلهي... يا إلهي – صاح بصوت رقيق مرخم وهو يلهث ويحوم ويأتي بحركات تعوق القادمين عن النزول من العربة – يا له من يوم سعيد في حياتي! آه، ماذا علي أن أفعل الآن! ايفان ايفانيتش! الأب خريستوفور!

وما أجمل هذا الفتى الصغير الجالس على مقعد القيادة! فضلت علي يا رب! آه، يا إلهي، ما لي أقف في مكاني هكذا ولا أدعو الضيوف إلى المضافة؟ تكرموا أرجوكم... تفضلوا بالدخول! أعطوني كل أمتعتكم... آه، يا إلهي!

مد مويسي مويسييتش يديه إلى داخل العربة لإخراج الأمتعة ولمساعدة القادمين على الخروج منها، ثم استدار بغتة إلى الخلف وصاح بصوت يائس شبه مخنوق كأنه يطلب النجدة لإنقاذه من الغرق:

- سلمون! سلمون!

وكرر صوت أنثوي النداء من الداخل:

- سلمون! سلمون!

زعق الباب، وظهر على العتبة شاب يهودي قصير القامة أحمر الشعر، له أنف كبير معقوف كالمنقار، وبقعة قرعاء في رأسه وسط شعر قاس جعد. كان يرتدي سترة قصيرة جد قديمة، طرفاها مدوران وكماها قصيران، وبنطالاً قصيراً من التريكو، مما جعله يبدو هو نفسه قصيراً وضئيلاً كطائر منتوف الريش. كان هذا هو سلمون شقيق مويسي مويسييتش. اقترب من العربة بصمت من دون أن يلقي التحية وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة. قال له مويسي بلهجة تنم على أنه يخشى ألا يصدقه:

- قدم إلينا ايفان ايفانيتش والأب خريستوفور، آه وأواه، يا له من أمر مدهش، هذان الشخصان الرائعان عزما على المجيء وجاءا! هيا يا سلمون، خذ الأمتعة! تفضلوا أيها الضيوف الأعزاء.

بعد قليل كان كوزميتشوف والأب خريستوفور ويغوروشكا يجلسون في غرفة كبيرة متجهمة إلى طاولة قديمة من خشب البلوط تكاد تكون وحيدة هنا، إذ لم يكن في هذه الغرفة الكبيرة من قطع أثاث أخرى سوى مقعد عريض مغطى بمشمع مليء بالخروق، وثلاثة كراسٍ. وهذه الكراسي ليس كل واحد يقدم على تسميتها كراسي. فهي شيء ما بائس لا يمت إلى الأثاث سوى بصلة

الشبه، وهي مغطاة بمشمع أكل الدهر عليه وشرب، ومساندها مائلة إلى الخلف على نحو شاذ يجعلها شبيهة جداً بزحافات الأطفال. وكان من الصعب على المرء أن يفهم ما هو وجه الراحة الذي توخاه النجار المجهول عندما صنعها وأمال مساندها من دون شفقة على هذا النحو، بل إن المرء ليميل إلى الاعتقاد في أن الذنب في هذا لا يقع على النجار، بل على نزيل ما جبار، أراد أن يتباهى بقوته فحنى ظهور الكراسي، ولما أراد تقويمها من جديد، انحنت أكثر من ذي قبل. بدت الغرفة كئيبة: فالجدران رمادية، والسقف والطنوف مغطاة بالسناج، والأرضية الخشبية تزخر بشقوق وثقوب لا تدري ما سببها (أغلب الظن أن ذاك النزيل الجبار نفسه قد أحدثها بكعب حذائه)، وبدا أنهم لو أشعلوا في هذه الغرفة عشرة مصابيح لظلت مع ذلك معتمة. لم يكن على الجدران أو النوافذ أي شيء يشبه التزيينات، اللهم إلا إطاراً خشبياً رمادياً معلقاً على أحد الجدارن، يضم لوحة كتبت عليها تعليمات ما، ورسم عليها نسر برأسين، كما علقت على جدار آخر لوحة في إطار مشابه حفرت عليها عبارة: «لا مبالاة الناس...» بأي شيء لا يبالي الناس؟ من المستحيل أن تعرف، وذلك لأن لون اللوحة كان باهتاً جداً من تقادم العهد، ولم يكن الذباب يبخل في ترك آثاره عليها. كانت تفوح في الغرفة رائحة نتانة وحموضة.

ما انفك مويسي مويسييتش بعد أن أدخل الضيوف الغرفة ينحني ويضرب كفاً بكف وينكمش على نفسه ويطلق صيحات ابتهاج. وكان يرى أن من الضروري القيام بكل هذا من أجل أن يبدو مهذباً ولطيفاً إلى حد غير مألوف. سأله كوزميتشوف:

- متى مرت عرباتنا من هنا؟

- اليوم صباحاً مرت مجموعة، أما الثانية يا ايفان ايفانتيش فقد استراحت هنا للغداء ثم تابعت سيرها قبيل المساء.

- آ... وهل مر فارلاموف من هنا؟

- لا، يا ايفان ايفانيتش. أمس صباحاً مر وكيله غريغوري يغوريتش، وقال إنه الآن لابد أن يكون في القرية عند الحليبي[1].

- ممتاز. إذن سنلحق الآن بالعربات، وبعد ذلك سنذهب إلى الحليبي.

صاح مويسي مويسييتش بجزع وهو يضرب كفاً بكف:

- لك الله، يا ايفان ايفانيتش، إلى أين ستذهبون في هذا الليل؟ تعشوا عندنا هنيئاً مريئاً، وبيتوا ليلتكم، وغداً، إن شاء الله، تسافرون وتلحقون بمن تشاؤون!

- لا وقت لدينا، لا وقت لدينا، اعذرنا يا مويسي مويسييتش، سنزورك مرة أخرى، أما الآن فالوقت غير مناسب، سنبقى الآن ربع ساعة ثم نتابع طريقنا، ويمكننا أن نقضي ليلتنا عند الحليبي.

قال مويسي مويسييتش بصوت كالزعيق:

- ربع ساعة! خافوا الله، يا ايفان ايفانيتش، أنتم بهذا تضطرونني إلى أن أخبئ قبعاتكم وأغلق عليكم الباب بالمفتاح! على الأقل يجب أن تأكلوا شيئاً وتشربوا الشاي!

قال كوزميتشوف:

- ولا وقت لدينا الآن للشاي والسكر وهلمجرا...

مال مويسي مويسييتش برأسه جانباً وثنى ركبتيه ومد كفيه إلى الأمام، وكأنه يتحاشى ضربات موجهة إليه، وراح يتوسل بابتسامة عذبة معذبة:

- ايفان ايفانيتش! أيها الأب خريستوفور! أرجوكما، اصنعا لي معروفاً واشربا الشاي عندي! هل أنا سيء إلى حد أنكما ترفضان شرب الشاي عندي، ايفان ايفانيتش!

---

(١) الحليبيون: طائفة مسيحية ظهرت في روسيا في أواخر الستينيات من القرن الثامن عشر وسمّت تعاليمها «الحليب الروحي الصافي» ومن هنا جاءت التسمية. (المترجم).

تنهد الأب خريستوفور بتعاطف وقال:

- ولم لا؟ يمكن أن نشرب كأس شاي، هذا لن يؤخرنا.

فقال كوزميتشوف موافقاً: - إيه، طيب.

اهتز مويسي مويسييتش وشهق بفرح، وانكمش على نفسه، كأنه قد خرج لتوه من ماء بارد إلى جو دافئ، وركض نحو الباب وصرخ بصوت يائس مخنوق كالصوت الذي نادى به سلمون من قبل:

- روزا! روزا! احضري السماور!

بعد دقيقة فتح الباب ودخل سلمون حاملاً صينية كبيرة. وضع الصينية على الطاولة، وحول نظره بهزء جانباً وهو لا يزال يبتسم ابتسامته الغريبة. لقد أصبح بالإمكان الآن تمييز ابتسامته في ضوء المصباح. كانت ابتسامة معقدة جداً وتعبر عن مشاعر كثيرة، ولكن الغالب فيها على كل ما عداه كان الاحتقار الواضح. كان يبدو أنه يفكر في شيء ما مضحك وسخيف، وأن ثمة شخصاً ما لا يطيقه ويحتقره، وأنه مسرور من شيء ما، وأنه ينتظر اللحظة المناسبة ليلذع أحداً ما بسخريته وينفجر ضاحكاً. أنفه الطويل، وشفتاه المكتنزتان وعيناه الجاحظتان الماكرتان كانت تبدو كلها متوترة من شدة الرغبة في الضحك. نظر كوزميتشوف إلى وجهه وابتسم باستخفاف وسأل:

- لماذا لم تأت يا سلمون هذا الصيف إلى بلدتنا ن. في موسم السوق لتمثل اليهود؟

لا يزال يغوروشكا يذكر جيداً كيف مثّل سلمون في أحد سرادقات الفرجة في بلدتهم ن. منذ سنتين خلال موسم السوق مشاهد من حياة اليهود وحظي بنجاح كبير.

لم تحدث هذه الذكرى أي انطباع في نفس سلمون، وخرج من الغرفة من دون أن يجيب، ثم ما لبث أن عاد حاملاً السماور.

وبعد أن أنهى مهمته قرب الطاولة انتحى جانباً، وصالب يديه على صدره، وقدم إحدى رجليه إلى الأمام، وصوب عينيه الساخرتين نحو الأب خريستوفور. كان في وقفته شيء ما يعبر عن التحدي والغطرسة والاحتقار، ويعبر في الوقت ذاته عن أعلى درجات البؤس والكوميدية، إذ كلما كانت وقفته تزداد تعاظماً كان يبرز إلى مقدمة المشهد بوضوح أشد بنطاله القصير وسترته المشمورة وأنفه الكاريكاتوري ومجمل هيئته التي تشبه منظر طائر منتوف الريش.

أحضر مويسي مويسييتش من الغرفة الأخرى كرسياً صغيراً لا مسند له، وجلس غير بعيد عن الطاولة، وشرع يؤانس الضيوف:

- شهية طيبة، صبوا الشاي وحلوه بالسكر واشربوا هنيئاً مريئاً. ما أعز ضيوفي اليوم! ما أعزهم! إنهم لا يزوروننا إلا نادراً. الأب خريستوفور لم أره منذ خمس سنوات.

ثم قال وهو ينظر بحنان إلى يغوروشكا:

- لا أحد يريد أن يقول لي ابن من هذا السيد الصغير الظريف؟

أجابه كوزميتشوف:

- إنه ابن أختي أولغا ايفانوفنا.

- وإلى أين هو ذاهب؟

- ذاهب للدراسة. سندخله المدرسة.

رسم مويسي مويسييتش على وجهه أمارات الدهشة على سبيل المجاملة، وأدار رأسه يمنة ويسرة تعبيراً عن الإعجاب، وقال وهو يهدد السماور بإصبعه:

- أوه، هذا جيد! هذا جيد! ستتخرج من المدرسة سيدا ًمحترماً نخلع جميعنا قبعاتنا أمامه. ستصبح ذكياً وغنياً ومعتداً بنفسك، وأمك ستفرح بك، أوه هذا جيد.

صمت قليلاً وأخذ يمسح ركبتيه براحتيه ثم استأنف الكلام باحترام يشوبه المزاح:

- أرجو المعذرة أيها الأب خريستوفور، إنني عازم على كتابة شكوى للأسقف أقول له فيها إنك تقطع رزق التجار. سأشتري ورقة رسمية وأكتب فيها إن الأب خريستوفور يعاني من ضيق ذات اليد. ولذا فقد أخذ يتعاطى التجارة، وهو الآن يتاجر بالصوف.

قال الأب خريستوفور وهو يضحك:

- نعم، أغوتني هذه الفكرة فجأة في آخر العمر. لقد نقلت اسمي يا أخ من خانة الكهنة إلى خانة التجار. كان ينبغي لي الآن أن أكون جالساً في بيتي أتعبد ربي، بينما أنا أعدو كفرعون في عربته... دنيا باطلة!

- ولكن بالمقابل قروشك ستتكاثر!

- من أين؟! لن ينوبني من البصلة سوى رائحتها. فالبضاعة ليست لي بل لصهري ميخايل!

- ولماذا لا يذهب هو بنفسه يبيعها؟

- لأن حليب أمه لم يجف عن شفتيه بعد. عقله لم يكفِ إلاّ لشراء الصوف، أما للبيع فلا... لا يزال غراً. أنفق جميع نقوده وكل ظنه أنه سيغتني ويروح يبذر كما يحلو له، راح وجاء وحاول، ولكنه لم يحصل حتى على السعر الذي اشترى به. وظل الفتى في حيص بيص سنة تقريباً، وبعد ذلك أتاني وقال لي: «أبتِ... اصنع لي معروفاً وبِع لي الصوف، فأنا لا أعرف شيئاً في هذه الأمور». هكذا إذن! عندما يحدث شيء، تعال يا أبتِ، ولكن قبل ذلك يمكن التصرف بدون «أبتِ». عندما اشترى لم يسأل أحداً، والآن عندما مسته الحاجة، تعال يا أبتِ! وماذا بإمكان الأب أن يفعل؟ لولا ايفان ايفانيتش لما استطاع الأب أن يفعل شيئاً. ليس منهم سوى الهموم!

تنهد مويسي وقال:

- نعم، الأولاد يورثون الهم، هذا حق. أنا نفسي عندي ستة أبناء. علّم هذا، وعالج ذاك، واحمل الثالث على يديك، وعندما يكبرون تكبر همومهم معهم. هذا ليس في أيامنا فقط، بل حتى في الكتاب المقدس كان الحال هكذا. فعندما كان أبناء يعقوب صغاراً كان يبكي، وعندما كبروا أصبح يبكي أكثر.

قال الأب خريستوفور موافقاً وهو يتأمل الكأس:

- أي نعم... أنا من جهتي ليس هناك ما أُغضب به الرب، لقد بلغت غاية العمر، ولينعم الرب على كل واحد بمثل هذا... بناتي زوجتهن لأشخاص طيبين، وأبنائي ربيتهم حتى أصبحوا رجالاً، وأصبحت الآن حراً، لقد قمت بواجبي وأصبح بإمكاني أن أذهب حيثما أشاء. أعيش بهدوء مع زوجتي، آكل وأشرب وأنام وأسعد مع أحفادي، وأتعبد ربي، ولست بحاجة إلى شيء أكثر من هذا. أعيش حياة كالسمن والعسل، لا أريد غير هذا، وطوال حياتي لم تصبني أية مصيبة، والآن لو فرضنا أن القيصر سألني: «ما هي حاجتك؟ وماذا تتمنى؟» سأجيب: لا أحتاج إلى شيء! لدي كل شيء، والحمد لله دائماً. ليس في المدينة كلها من هو أسعد مني. إلاّ أن ذنوبي كثيرة، ولكن من هو الخالي من الذنوب غير الرب وحده. أليس هذا صحيحاً؟

- لا شك أنه صحيح.

- لكن طبعاً الأسنان لم يعد لها وجود، والظهر هدته الشيخوخة، وشيء هنا وشيء هناك... كضيق النفس وما شابه ذلك، أصبحت مُعْتَلاً وجسدي ضعيف، ولكن... احكم بنفسك، لقد عشت طويلاً! ثمانية عقود! فهل يجب أن أتم القرن؟! كفى! الطمع بالجنة!

تذكر الأب خريستوفور شيئاً وهو يشرب الشاي فلم يملك نفسه عن الضحك، وشرق وأخذ يسعل. فضحك مويسي مويسييتش من قَبيل المسايرة وسعل هو الآخر. قال الأب خريستوفور وهو يشيح بيده:

- أمر مضحك! زارني مرة ابني الأكبر غافريلا الذي يعمل في مجال الطب، ويخدم كدكتور في المجلس البلدي في مقاطعة تشيرينغوف.. قلت له: «اسمع، إنني أشكو من ضيق النفس ومن كذا وكذا.. وأنت دكتور فداوِ أباك!» فنهض على الفور وكشف عن صدري ودقّ وتسمّع، وقام بأشياء أخرى كثيرة، ودعك بطني، ثم قال «يجب يا أبي أن تتعالج بالهواء المضغوط».

وهنا استغرق الأب خريستوفور في ضحك متشنج حتى دمعت عيناه، ونهض، وغالب نفسه ليقول من خلال الضحك وهو يشيح بكلتا يديه:

- قلت له «فليأخذه الرب هواءك المضغوط هذا». فليأخذه الرب، حقاً.

نهض مويسي مويسييتش أيضاً وهو يمسك بطنه وأغرب في الضحك بصوت رفيع يشبه نباح كلب منزلي صغير. وقال الأب خريستوفور ثانية وهو لا يزال يضحك:

- فليأخذه الرب، الهواء المضغوط هذا.

ورفع مويسي مويسييتش صوته طبقتين أخريين، وأمعن في ضحك متشنج حتى كادت قدماه لا تقويان على حمله، وقال من خلال الضحك بصوت كالأنين:

- آه يا إلهي. دعوني أسترد أنفاسي... لقد أضحكتموني إلى درجة... أوه! أكاد أختنق.

كان يضحك ويتكلم، وفي الوقت نفسه يختلس النظر إلى سلمون بتهيب وارتياب. وكان هذا لا يزال يقف وقفته تلك ويبتسم. عيناه وابتسامته كانتا توحيان بأنه يحتقر ويكره بجد، بيد أن هذا لم يكن ينسجم البتة مع مظهره الزري، مما جعل يغوروشكا يتصور أنه يتكلف هذه الوقفة المتحدية، وهذا التعبير الذي يشي بالاحتقار والسخرية، لأنه يريد أن يلعب دور المهرج ويجعل الضيوف الأعزاء يضحكون.

شرب كوزميتشوف نحو ست كؤوس وهو صامت، ثم نظّف مكاناً أمامه على الطاولة وتناول الكيس الذي كان قد وضعه تحت رأسه عندما نام تحت العربة، وفك عقدته ونفضه، فسقطت منه رزم من الأوراق النقدية. قال مخاطباً خريستوفور:

- تعال أيها الأب نعد النقود ما دام لدينا وقت.

ما إن شاهد مويسي مويسييتش النقود حتى شعر بالحرج، وكإنسان حساس لا يريد أن يطلع على أسرار الآخرين، نهض وسار على أطراف أصابعه موازناً جسمه بيديه وخرج من الغرفة. أما سلمون فقد بقي واقفاً في مكانه.

سأل الأب خريستوفور: كم يوجد في رزم الروبلات؟

- في كل واحدة خمسون، وفي كل من رزم فئة الثلاثة روبلات تسعون، أما ذوات الخمسة والعشرين وذوات المئة فقد وضعت ألفا ألفاً. عد سبعة آلاف وثمانمئة روبل لفارلاموف، وأنا ســأعد حصة غوسيفتش، ولكن انتبه لئلا تخطئ.

لم يشاهد يغوروشكا في حياته مثل هذه الكومة من النقود المكدسة على الطاولة. لابد أن المبلغ كان كبيراً جداً لأن الرزمة التي وضع فيها الأب خريستوفور حصة فارلاموف وهي سبعة آلاف وثمانمئة روبل كانت صغيرة جداً بالقياس إلى الكومة الأصلية. ربما لو شاهد يغوروشكا هذا القدر الضخم من النقود في وقت آخر لأصيب بالذهول، ولطفق يفكر في الكمية الكبيرة من الكعك والفطائر وحلوى الخشخاش التي يمكن شراؤها به، أما الآن فقد كان ينظر إلى كومة النقود بلا مبالاة، ولم يكن يحس سوى برائحة التفاح الفاسد وزيت الكاز المقززة المنبعثة منها. كان منهكاً من كثرة الاهتزاز في العربة طوال الطريق، وقد غلب عليه النعاس من الإعياء فراح رأسه يرتخي، وجفونه تنطبق، وأفكاره تختلط كالخيوط المتشابكة، ولو أمكنه لأسند رأسه إلى الطاولة بتلذذ، وأغمض عينيه كي لا يرى المصباح والأصابع التي تتحرك فوق كومة

النقود، ولأرخى لأفكاره الناعسة الذابلة العنان كي توغل في التشابك. وعندما كان يبذل جهده للتغلب على النعاس كانت شعلة المصباح والكؤوس والأصابع تزدوج أمام عينيه، ويتأرجح السماور، وتغدو رائحة التفاح الفاسد أحدّ وأنتن.

تنهد الأب خريستوفور وقال مبتسماً:

- آه، أيتها النقود، أيتها النقود، تعساً لك! أغلب الظن أن صهري ميخايلو يرى في نومه الآن أنني سأجلب له مثل هذه الكومة.

فقال كوزميتشوف بصوت منخفض:

- صهرك ميخايلو تيموفييتش شخص عديم الفهم. إنه يتعاطى عملاً ليس عمله، أما أنت فتفهم وتستطيع أن تفكر وأن تحاكم الأمور. إن من الأفضل لك أن تعطيني الصوف، كما عرضت عليك، وتعود إلى بيتك، وأنا سأعطيك نصف روبل علاوة على سعر شراء كل وحدة وزن. إنني في الحقيقة لا أقدم على هذا إلاّ لأنني أحترمك...

تنهد الأب خريستوفور وقال مبتسماً:

- لا.. يا ايفان ايفانيتش. أشكرك على اهتمامك.. طبعاً لو كان الأمر يعود لي لما كنت قلت شيئاً، ولكن، كما تعرف، البضاعة ليست لي..

دخل مويسي مويسييتش على أطراف أصابعه محاولاً، من باب اللباقة، تجنب النظر إلى كومة النقود، وانسل إلى خلف يغوروشكا وجذبه من قميصه وهو يقول له بصوت خافت:

- تعال معي أيها السيد الصغير، سأريك دُبَيْباً لم تر مثله! إنه هائج ومخيف! أوه!

نهض يغوروشكا والنعاس يثقل أجفانه، وجر نفسه بكسل خلف مويسي مويسييتش ليرى الدب. دخل غرفة صغيرة، وقبل أن يرى أي شيء انكتمت أنفاسه من رائحة شيء ما حامض ونتن. كانت الرائحة هنا أقوى بكثير مما

في الغرفة الكبيرة، ويبدو أنها تنتشر من هنا في البيت كله. نصف الغرفة كان مشغولاً بسرير كبير مغطى بلحاف متسخ، ونصفها الآخر كان يشغله صوان ذو أدراج، وأكداس مكدسة من الثياب والخروق بدءاً بالتنورات المنشاة حتى القساوة وانتهاء بسراويل الأطفال والشيّالات. وقد وضعت فوق الخزانة شمعة دهنية مشتعلة، وبدلاً من الدب الموعود شاهد يغوروشكا أمامه امرأة يهودية سمينة جداً، ترتدي ثوباً أحمر من الفانيلا مرقطاً بنقاط سوداء، وقد أرخت شعرها على كتفيها. كانت المرأة تتحرك بصعوبة في الحيز الضيق بين السرير والصوان مطلقة زفرات طويلة كالأنين، وكأنها تشكو من ألم في أسنانها، وما إن رأت يغوروشكا حتى ارتسمت على وجهها إمارات البكاء وأطلقت تنهدة مديدة، وقبل أن يدير الصبي نظره فيما حوله كانت قد أدنت من فمه قطعة خبز مدهونة بالعسل وقالت:

- كل يا ولدي، كل، أنت هنا بعيد عن أمك وليس لك من يطعمك. كل.

بدأ يغوروشكا يأكل على الرغم من أنه بعد السكاكر وفطائر الخشخاش التي كان يأكلها في البيت كل يوم، لم يجد ما يغريه في هذا العسل المخلوط إلى النصف بالشمع وأجنحة النحل. وفيما كان يأكل كان مويسي مويسييتش وزوجته ينظران إليه ويتنهدان. سألته المرأة: - إلى أين أنت مسافر يا ولدي؟ فأجابها: - للدراسة.

- وكم أخا أنتم في البيت؟

- أنا وحيد، ليس لي أخوة.

قالت اليهودية وهي تتنهد وترفع عينيها إلى الأعلى:

- آه، أوه، مسكينة أمك، مسكينة أمك! كم ستشتاق إليك وتبكي! بعد سنة نحن أيضاً سنأخذ ابننا نحوّم إلى المدرسة. أوه!

زفر مويسي مويسييتش وقال وبشرة وجهه الشاحب ترتعش بعصبية: - آخ، نحوم، نحوم، إنه مُنهك من المرض.

تحرك اللحاف المتسخ وبرز من تحته رأس طفل جعد الشعر يرتكز على عنق شديد النحول. لمعت عينا الطفل السوداوان وراحتا تحدقان إلى يغوروشكا بفضول. اقترب مويسي مويسييتش والمرأة من الصوان وهما لا يزالان يطلقان التنهدات. وأخذا يتحادثان حول أمر ما بالعبرية. كان مويسي مويسييتش يتكلم بصوت خافت من طبقة الباس الخفيض مما يجعل المستمع يظنه يردد دون انقطاع «غال – غال – غال – غال...». وكانت زوجته تجيبه بصوت رفيع يشبه صوت الدجاجة الرومية فيظنها المستمع تقول: «تو – تو – تو – تو...» وفيما هما يتشاوران برز من تحت اللحاف رأس جعد آخر ذو عنق نحيل، ثم رأس ثالث، ثم رابع، ولو أن يغوروشكا كان يتمتع بخيال واسع لأمكنه أن يتصور أن ثعباناً بمئة رأس كالذي يتحدثون عنه في الحكايات يستلقي تحت اللحاف.

كان مويسي مويسييتش يقول: - غال – غال – غال – غال..

وكانت زوجته تجيبه: - تو – تو – تو – تو...

ثم انتهى التشاور إلى أن تفتح المرأة أحد أدراج الصوان وهي تزفر بعمق، وتتناول من هناك خرقة خضراء ملفوفة، فتفردها وتخرج منها كعكة كبيرة على شكل قلب، مخبوزة من دقيق الجودار. قالت وهي تمد يدها بالكعكة إلى يغوروشكا:

- خذ يا ولدي، أمك الآن ليست موجودة، وليس من أحد يعطيك ما تحلي به فمك.

دس يغوروشكا الكعكة في جيبه وتراجع نحو الباب لأنه لم يعد قادراً على التنفس في هذا الجو المشبع برائحة النتن والحموضة الذي يعيش فيه أصحاب البيت. عاد إلى الغرفة الكبيرة واتخذ لنفسه مجلساً مريحاً على المقعد وأطلق لتفكيره العنان.

كان كوزميتشوف قد فرغ لتوه من عد النقود وشرع يعيدها إلى الكيس. لم يكن يتصرف معها باحترام، بل كان يرميها في الكيس بكثير من الاستخفاف

وعدم الاكتراث حتى لكأنها ليست نقوداً بل أوراقاً بالية. وكان الأب خريستوفور يتحادث مع سلمون. سأله وهو يتثاءب ويرسم شارة الصليب على فمه:

- إيه، يا سلمون الحكيم، كيف الأحوال؟

فسأل سلمون وهو ينظر بخبث وكأنهم لمحوا له إلى ارتكابه جريمة ما:

- عن أية أحوال تسألون؟

- بشكل عام... ماذا تفعل في هذه الأيام؟

- ماذا أفعل؟ - كرر سلمون السؤال وهو يهز كتفيه – أفعل ما يفعله الجميع... أنا خادم، كما ترون. أنا خادم عند أخي، وأخي خادم عند النزلاء، والنزلاء خدام عند فارلاموف، ولو كنت أملك عشرة ملايين لكان فارلاموف خادماً عندي.

- ولماذا يكون خادماً عندك؟!

- لماذا؟ لأنه ليس هناك سيد أو مليونير غير مستعد لتقبيل يد أي يهودي أجرب من أجل الحصول على كوبيك إضافي. أنا الآن يهودي أجرب وشحاذ، الجميع ينظرون إلي كما ينظرون إلى كلب، ولكن لو كان معي نقود لكان فارلاموف هرّج أمامي كما يهرّج مويسي أمامكم الآن.

تبادل الأب خريستوفور وكوزميتشوف النظرات، فلا هذا ولا ذاك فهم ما يريد سلمون أن يقوله. صوب كوزميتشوف نحوه نظرة صارمة جافية وسأل:

- كيف تساوي نفسك أيها الغبي بفارلاموف؟!

فنظر سلمون إلى محدثَيْه بشيء من السخرية وأجاب:

- أنا لم أبلغ بعد من الغباء ما يجعلني أساوي نفسي بفارلاموف. إن فارلاموف، على الرغم من أنه روسي، ليس سوى يهودي أجرب في داخله. لقد قضى حياته كلها راكضاً وراء المال والكسب السهل، أما أنا فنقودي أحرقتها في الموقد. أنا لست بحاجة إلى نقود ولا إلى أرض ولا إلى غَنم،

ولست بحاجة إلى أن يخافوني وينزعوا قبعاتهم عندما أمر في الطريق، أي أنني أذكى من فارلاموفكم هذا، وأشبه منه بالإنسان!

وبعد قليل سمع يغوروشكا وهو شبه نائم كيف بدأ سلمون يتحدث عن اليهود بصوت أصم مبحوح وهو يلثغ ويعجل في كلامه والشعور بالكراهية يكاد يخنقه. في البداية كان يتكلم بلغة روسية سليمة، ثم اتخذ كلامه بعد ذلك نبرة القصاصين الذين يروون قصصاً من حياة اليهود، وراح يتحدث باللكنة اليهودية المبالغ فيها التي كان يروي بها قصصه يوماً ما في سرادق الفرجة. قاطعه الأب خريستوفور قائلاً: - كفى... إذا كانت عقيدتك لا تعجبك غيّرها، أما السخرية فإنها إثم. من يستهزئ بعقيدته يكن آخر الناس.

بيد أن سلمون اعترض بفظاظة قائلاً:

- أنتم لا تفقهون شيئاً... أنا أقول لكم شيئاً وأنتم تتحدثون عن شيء آخر...

زفر الأب خريستوفور وقال:

- ها قد اتضح الآن أنك شخص غبي. أنا أعظك بقدر ما أستطيع وأنت تستشيط غضباً. أنا أخاطبك بحنو ورفق وأنت كديك الحبش: - بلا – بلا – بلا! غريب الأطوار حقاً...

دخل مويسي مويسييتش ونظر بقلق إلى سلمون وإلى ضيوفه، وارتعشت بشرة وجهه بعصبية مرة ثانية. هز يغوروشكا رأسه وأجال بصره فيما حوله، فرأى لمحا وجه سلمون في اللحظة التي كان فيها هذا الوجه متجهاً نحوه بثلاثة أرباعه، وكان ظل أنفه الطويل يمتد عبر وجنته اليسرى كلها. ابتسامة الاحتقار الممزوجة بهذا الظل، والعينان البراقتان الساخرتان، والتعبير المتعجرف والمظهر القميء بمجمله، كل هذا كان، وهو يزدوج ويتأرجح أمام عيني يغوروشكا، يجعل من سلمون الآن شخصاً لا يشبه المهرج، بل يشبه شيئاً ما يظهر أحياناً في الحلم، لعله الشيطان ذاته.

قال الأب خريستوفور مبتسماً:

- إن أخاك هذا ممسوس يا مويسي مويسييتش، ليتك تجد مكاناً مناسباً ترسله إليه أو تزوجه... إنه لا يشبه الإنسان.

عبس كوزميتشوف بغضب، ونظر مويسي مويسييتش بقلق وفضول إلى أخيه وإلى الضيوف، ثم قال بنبرة صارمة:

- سلمون! اخرج من هنا! هيا اخرج!

وأضاف بضع كلمات بالعبرية. فضحك سلمون ضحكة حادة متقطعة وخرج.

- ماذا حدث؟

سأل مويسي مويسييتش الأب خريستوفور بتوجس. فأجابه كوزميتشوف:

- ينسى نفسه، إنه فظ ومغرور.

- هذا ما كنت أخشاه. – صاح مويسي مويسييتش بجزع. ثم غمغم بصوت خافت: - آه، يا إلهي! يا إلهي! اعملوا معروفاً، اعذروني ولا تغضبوا، يا له من إنسان! يا له من إنسان! آه، يا إلهي! يا إلهي! إنه أخي الشقيق ولكن لم ينبني منه سوى المصائب. إنه كما تعلمون...

وهنا أدار مويسي مويسييتش إصبعه قرب جبينه وتابع:

- مشوش العقل... إنسان ضائع، لا أدري ماذا أفعل به! إنه لا يحب أحداً، ولا يحترم أحداً، ولا يخاف أحداً... يضحك من الجميع ولا يكف عن الهذر وتوجيه اللوم إلى كل الناس. لا يمكن أن تصدقوا. مرة جاء فارلاموف فقال له سلمون كلاماً جعله يضربه ويضربني بالسوط... لماذا يضربني أنا؟ هل أذنبت في شيء؟ إذا كان الرب قد حرمه العقل فهذه مشيئته، ما ذنبي أنا؟

انقضت عشر دقائق ومويسي مويسييتش يبرر بصوت خافت ويتنهد:

- في الليل لا ينام، بل يفكر ويفكر ويفكر، ولا يعرف إلاّ الله فيمَ هو يفكر. إذا أتيت إليه ليلاً وجدته يغضب تارة ويضحك تارة. إنه لا يحبني أنا

أيضاً... وهو لا يريد شيئاً! عندما مات أبونا خلّف لكل منا ستة آلاف روبل. أنا اشتريت هذا الخان وتزوجت، وعندي الآن أولاد، أما هو فقد أحرق نقوده في الموقد. يا للأسف! يا للأسف! لماذا أحرقتَها؟ إذا كنتَ لست بحاجة إليها أعطني إياها، لماذا أحرقتها؟

فجأة صرّ الباب واهتزت الأرضية تحت وطأة خطى شخص ما. وهب نسيم ضعيف على يغوروشكا وبدا له أن طائراً أسود كبيراً رفّ بجناحيه قرب وجهه وطار. فتح عينيه، فرأى رجلاً يقف قرب المقعد، وهو يحمل بين يديه كيساً ويستعد للسفر. وكان الأب خريستوفور يمسك قبعته الأسطوانية العريضة الحافة بيديه، وينحني لشخص ما وهو يبتسم ابتسامة ليس فيها الرقة والدماثة المعهودتان، بل فيها احترام وتصنع لا يتناسبان البتة مع قسمات وجهه. أما مويسي مويسييتش فكان يبدو أن جسمه قد تكسر إلى ثلاثة أجزاء، وأنه يبذل كل جهده كي يتوازن فلا يتفكك وينهار. سلمون وحده كان يقف في الزاوية غير مبال بشيء مما حوله، وقد شبك يديه فوق صدره، وارتسمت على شفتيه كالسابق ابتسامة احتقار.

- اعذرينا يا صاحبة السناء، المكان عندنا غير نظيف...

كان مويسي مويسييتش يقول هذا متنهداً وهو يبتسم ابتسامته العذبة المعذبة. إنه الآن لم يعد يلقي بالاً إلى كوزميتشوف والأب خريستوفور، بل كان كل همه أن يتوازن كيلا يتفكك جسمه وينهار.

- إننا أناس بسطاء يا صاحبة السناء.

فرك يغوروشكا عينيه. وسط الغرفة كانت تقف ذات سناء فعلاً، بهيئة امرأة شابة، عبلة الجسم، بارعة الجمال، ترتدي ثوباً أسود، وتعتمر قبعة من القش. وقبل أن يتبين يغوروشكا قسماتها، لا يدري لماذا نهضت في ذاكرته تلك الحورة الوحيدة الممشوقة التي رآها اليوم على الرابية. سألت المرأة –

هل مر فارلاموف اليوم من هنا؟

- لا يا صاحبة السناء.

أجاب مويسي مويسييتش.

- إذا رأيتموه غداً قولوا له أن يمر علي لدقيقة.

وفجأة ومن دون أي توقع شاهد يغوروشكا على بعد إصبع عن عينيه حاجبين أسودين مخمليين، وعينين بنيتين نجلاوين، وخدين أنثويين أسيلين، تتوسطهما غمازتان تنفسح منهما ابتسامة على الوجه بأكمله، كما الأشعة من قرص الشمس. وفغمت أنفه رائحة رائعة.

قالت السيدة: - ما أحلى هذا الصبي! ابن من هو؟ انظر يا كازيمير ميخايلوفتش ما أجمله! يا إلهي، إنه نائم! يا حبوبي اللطيف...

وقبلت السيدة يغوروشكا بحرارة في كلتا وجنتيه، فابتسم وظن نفسه نائماً فعلاً، فأغمض عينيه. وصر الباب، وارتفعت أصوات خطوات سريعة: بعضهم كان يدخل ويخرج. همس صوتان أجشان: - يغوروشكا، يغوروشكا، انهض، سنغادر.

شخص ما، يبدو أنه دينيسكا، أوقف يغوروشكا على قدميه وقاده من يده، وفي الطريق فتح يغوروشكا عينيه قليلاً، ومرة أخرى رأى المرأة الحسناء ذات الرداء الأسود التي قبلته. كانت تقف وسط الغرفة وتتابعه بنظراتها وهي تبتسم وتومئ له برأسها بود. وعندما دنا من الباب شاهد شخصاً أسود الشعر، وسيما، ممتلئ الجسم، يعتمر قبعة مدورة، ويغطي ساقيه بقماطين جلديين. كان هذا، على ما يبدو، مرافق السيدة. ترامى صوت من الفناء يصيح: هش.. ش ش ش[1].

وشاهد يغوروشكا عند عتبة البناء مركبة جديدة فاخرة، يجرها حصانان ويقودها خادم يرتدي بزة رسمية ويحمل بيده كرباجاً طويلاً. لم يخرج لوداع المغادرين سوى سلمون. كان وجهه متوتراً من شدة الرغبة في القهقهة. وكان

(١) في الأصل: ت ب ر ر ر.

منظره يوحي بأنه ينتظر بفارغ الصبر مغادرة الضيوف كي يضحك منهم ما طاب له الضحك. همس الأب خريستوفور وهو يصعد إلى عربتهم المتداعية:

- الكونتيسة درانيتسكايا.

فثنىّ كوزميتشوف همساً أيضاً:

- نعم. الكونتيسة درانيتسكايا.

لا شك في أن الانطباع الذي أحدثه قدوم الكونتيسة كان قوياً جداً. فحتى دينيسكا أخذ يتكلم همساً، ولم يقدم على لسع الحصانين بالسوط والصياح بهما إلاّ بعد أن قطعت العربة نحو فرسخ[1]، ولم يعد يُرى من الخان النائي سوى ضوء ضعيف شاحب.

- ٤ -

من هو، في نهاية المطاف، هذا الفارلاموف الغامض الذي لا يمكن أن تدركه في أي مكان، والذي يتحدثون عنه كثيراً، ويحتقره سلمون، ويحتاج إليه الجميع حتى الكونتيسة الحسناء؟ كان يغوروشكا الذي يغالب النعاس وهو جالس بجانب دينيسكا على مقعد القيادة الأمامي يفكر في هذا الرجل بالذات. لم يكن قد رآه قط، ولكنه سمع عنه كثيراً، وكان في بعض الأحيان يرسم له صورة في خياله. كان يعرف أن لدى فارلاموف عشرات الآلاف من الديسيتينات[2] ونحو مئة ألف شاة ونقوداً كثيرة جداً. ولكنه لم يكن يعرف عن أسلوب حياته وأعماله سوى أنه كان دائماً «يجول في هذه النواحي»، وأنهم دائماً يبحثون عنه.

كما أن يغوروشكا سمع كثيراً وهو في البيت عن الكونتيسة درانيتسكايا. هي أيضاً تملك عشرات الآلاف من الديسيتينات وكثيراً من الأغنام ومزرعة لتربية الخيول ونقوداً كثيرة، ولكنها «لا تجول» كثيراً، بل تعيش في عزبتها

(١) الفرسخ الروسي = ١،٠٦ كم (المترجم).

(٢) الديسيتينا: مقياس مساحة روسي قديم = ١،٠٩ هكتار. (المترجم).

الباذخة التي كان معارف الكونتيسة، وكذلك ايفان ايفانوفتش الذي زارها أكثر من مرة لأسباب تتعلق بالعمل، يروون عنها العديد من الأعاجيب. كانوا يقولون فيما يقولونه إن في صالة الضيوف، حيث علقت صور جميع الملوك البولونيين، توجد ساعةُ منضدةٍ كبيرةٌ على شكل صخرة، وعلى الصخرة حصان ذهبي يقف على قائمتيه الخلفيتين، عيناه من الألماس المصقول، ويمتطي صهوته فارس من الذهب يلوح بسيفه ذات اليمين وذات الشمال كلما دقت الساعة. ويقولون أيضاً إن الكونتيسة كانت تقيم حفلتين راقصتين في السنة تدعو إليهما النبلاء وكبار الموظفين من جميع أرجاء المحافظة، وحتى فارلاموف كان يحضرهما، وجميع الضيوف كانوا يشربون الشاي من سماورات فضية، ويتناولون أطعمة في غير أوانها (كانوا مثلاً يقدمون التوت البري والفريز شتاء في عيد الميلاد) ويرقصون على أنغام الموسيقى التي كانت تصدح ليلاً ونهاراً.

«ما أجملها!» - فكر يغوروشكا وهو يستعيد في ذاكرته وجهها وابتسامتها. وكان كوزميتشوف على ما يبدو يفكر هو الآخر في الكونتيسة، فبعد أن قطعت العربة قرابة فرسخين قال: - إيه.. إن كازيمير ميخايليتش هذا ينهبها من دون رحمة. منذ ثلاث سنوات عندما اشتريت منها الصوف، أتتذكر؟ هبش نحو ثلاثة آلاف من صفقتي وحدها.

فقال الأب خريستوفور:

- وماذا تتوقع من البولوني غير هذا؟

- وهي لا تلقي بالاً. صدق من قال: - فتيّة وغبية، الريح تجول في رأسها الفارغ.

لسبب ما لم يكن يغوروشكا يجد رغبة في التفكير إلاّ في فارلاموف والكونتيسة، ولاسيما الكونتيسة. دماغه الوسنان كان يرفض تماماً أية أفكار عادية. فقد كان يغشيه الضباب، ولا تتماسك فيه إلاّ الصور الخيالية الخرافية، تلك الصور التي تريح صاحبها لأنها تنشأ من تلقاء نفسها من دون أي عناء،

وتختفي دون أن تخلف وراءها أي أثر بمجرد أن ينفض رأسه كما يجب. ثم إن كل ما كان يحيط بيغوروشكا لم يكن يغريه بالتفكير في الأمور المألوفة. إلى اليمين كانت العتمة تهبط على التلال التي تبدو كأنها تحجب شيئاً ما مجهولاً ومخيفاً، وإلى اليسار كانت السماء فوق الأفق تلتهب بوهج قان، وكان من الصعب على المرء أن يميز: أهذا حريق شب في مكان ما، أم أنه القمر يهم بالبزوغ. المدى البعيد كان بادياً للعيان كما في النهار، بيد أن لونه الليلكي اللطيف طمسته ظلمة المساء فاختفى، واختبأ السهب كله تحت ستار الظلام، كأولاد مويسي مويسييتش تحت اللحاف.

في أمسيات تموز ولياليه لا تصيح السمانى والصفارد، ولا تغرد البلابل في الوهاد الحرجية، ولا يتضوع شذى الأزهار، بيد أن السهب يظل رائعاً مفعماً بالحياة. وما إن تغرب الشمس وتتغشى الأرض بالظلام حتى تُنسى وحشة النهار، ويُصفح عن كل ما مضى، ويتنفس السهب بيسر ملء صدره الرحب، وربما لأن العشب لا يرى في الظلمة شيخوخته يتعالى فيه صخب مرح فتي لا عهد له به في النهار، صرير وصفير وخربشة، باسات وتينورات وديسكانتات سهبية، تختلط كلها في لغط رتيب متواصل يطيب للمرء وهو يسمعه أن يستسلم لذكرياته ويأسى. الصخب الرتيب يهدهدك كترنيمة المهد، وتشعر والعربة تسير بك أن النعاس يغلبك، وفجأ يصل إلى سمعك من مكان ما صياح متقطع قلق يطلقه طائر جافاه النوم، أو يدوي صوت مبهم يشبه صوت إنسان يصيح «آ – آ!» ثم يطبق الوسن جفنيك. ويحدث أحياناً أن تكون سائراً قرب وهدة تتناثر في قاعها الشجيرات فتسمع الطائر الذي يسميه سكان السهب (الوسنان) كيف يصيح بشخص ما «وسو! وسو! وسو!» بينما يقهقه طائر آخر أو ينفجر في بكاء هستيري – فتعرف أنه البوم. لمن تصيح هذه الطيور، ومن يصغي إليها في هذا السهل؟! الله وحده يعلم. ولكن صياحها فيه الكثير من الأسى والشكوى... الجو يعبق برائحة الحشائش والأعشاب المجففة والأزهار المتأخرة، رائحة كثيفة تفغم الأنف ولكن بحلاوة ولطف.

عبر الظلمة يمكنك رؤية كل شيء، ولكن يصعب عليك أن تميز ألوان الأشياء وتقاطيعها. كل شيء يبدو الآن على غير ما هو عليه فعلاً. فبينما أنت تسير ترى فجأة أمامك على جانب الطريق هيكلاً منتصباً يشبه الراهب، إنه لا يتحرك، بل يقف مترقباً وقد أمسك بيديه شيئاً ما... أهو قاطع طريق يا ترى؟ ها هو يقترب ويكبر، وما إن يحاذي العربة حتى تكتشف أن ما تراه ليس إنساناً، بل هو شجيرة وحيدة أو حجر كبير. وأمثال هذه الهياكل الساكنة المتربصة بشخص ما تراها واقفة على الروابي، أو مختبئة خلف التلال، أو مطلة من بين الأعشاب البرية، وكلها تشبه البشر وتبعث على الريبة.

وعندما يبزغ القمر يشحب الليل ويسجو، وتنقشع الظلمة كأنها لم تكن. الهواء شفيف ونقي ودافئ، والرؤية واضحة حيثما نظرت، حتى أنك لتستطيع أن تميز سيقان الأعشاب البرية واحداً واحداً على طول الطريق، وترى الجماجم والأحجار في المدى البعيد. أما الهياكل المريبة التي تشبه الرهبان فإنها تبدو على خلفية الليل المنير أكثر سواداً وتجهماً. وتتردد أكثر فأكثر وسط الصخب الرتيب صيحة التعجب «آ – آ!» مقلقة الهواء الساكن، وترتفع صيحة طائر أصابه الأرق أو انتابه الهذيان. وتجوب السهل ظلال عريضة كغيوم في السماء، وإذا ما أطلت التحديق إلى المدى المبهم رأيت خيالات ضبابية ذات أشكال عجيبة تتعالى ويتراكب بعضها فوق بعض، فيعتريك شعور بالرهبة. فإذا ما تطلعت إلى السماء الخضراء الشاحبة المرصعة بالنجوم، الخالية من أية غيمة أو بقعة، أدركت لِمَ آثر الهواء الدافئ السكون، ولماذا وقفت الطبيعة متيقظة وتخشى أن تأتي بأي حركة: إنها تضن بكل لحظة من لحظات الحياة وتستهول إضاعتها. وأنت لا تستطيع أن تحكم على مدى عمق السماء السحيق واتساعها اللامتناهي إلاّ عندما تكون في البحر أو في السهب ليلاً والقمر بازغ. عندئذ تبدو لك السماء مهيبة جميلة حنوناً، تنظر إليك بفتور وتدعوك إليها، وحنانها يسبب لك الدوار.

تسير ساعة أو ساعتين... وتصادفك في الطريق تلةُ رمسٍ عجوزٌ صموت، أو نصب حجري لا يدري سوى الله من أقامه هنا ومتى، وينساب فوق وجه الأرض دون ضجيج طائر ليلي، وشيئاً فشيئاً تتوارد إلى الذاكرة أساطير السهب، وقصص من صادفتهم في الدرب عنه، وحكايا المربية السهبية، وكل ما تسنى لعينيك أن تراه ولنفسك أن تدركه. وعندئذ يشرع يتراءى لك في صرير الحشرات، وفي الشخوص المريبة، والتلال – الرموس، وفي السماء العميقة، وضياء القمر، وانسياب الطائر الليلي، وفي كل ما تراه وتسمعه، انتصارُ الجمال، وزهو الشباب، وتفتح القوى، والظمأ الشديد إلى الحياة. وتتجاوب روحك مع الوطن الرائع القاسي، وتهفو إلى الطيران فوق السهب مع الطائر الليلي. وفي انتصار الجمال وفيض السعادة تحس التوتر والوحشة، وكأن السهب يدرك أنه وحيد، وإن ثراءه وإلهامه يُهدران دون فائدة للعالم، فلا أحد يتغنى بهما ولا أحد يحتاج إليهما، ومن خلال اللغط البهيج تسمع نداءه المفعم بالحنين واليأس: أيها المغني! أيها المغني!

- هش ش ش[١]! مرحبا يا بانتيلي! هل كل شيء على ما يرام؟

- الحمد لله يا ايفان ايفانيتش!

- ألم تروا، أيها الفتيان، فارلاموف؟

- لا، لم نره.

استيقظ يغوروشكا وفتح عينيه. العربة كانت واقفة. وإلى اليمين امتدت بعيداً إلى الأمام على طول الطريق قافلة من عربات الشحن، وبقربها أناس لا يكفون عن الحركة. وبما أن العربات كانت كلها محملة ببالات ضخمة من الصوف، لذا فقد كانت تبدو عالية جداً ومنتفخة، فيما تبدو الخيول التي تجرها ضئيلة وقصيرة القوائم.

---

(١) في الأصل: ت ب ر ر ر.

قال كوزميتشوف بصوت عال:

- إذن سنذهب نحن الآن إلى بيت الحليبي. فاليهودي قال إن فارلاموف يبيت عنده! وداعاً أيها الأخوة! بأمان الله!

وأجابته عدة أصوات معاً:

- وداعاً ايفان ايفانيتش.

ولكن كوزميتشوف ما لبث أن أردف بحيوية:

- اسمعوا أيها الفتيان! هلا أخذتم فتاي هذا معكم، فما له وللتخبط معنا هنا وهناك دون فائدة؟ أجلسه يا بانتيلي عندك فوق بالة الصوف، وليذهب معكم على مهل، ونحن سنلحق بكم فيما بعد. هيا يا يغور! اذهب، لا بأس!

نزل يغوروشكا عن المقعد الأمامي فتلقفته عدة أيد ورفعته إلى الأعلى فإذا به يستقر فوق شيء كبير وطري ورطب بعض الشيء من أثر الندى. وبدا له الآن أن السماء غدت قريبة منه والأرض بعيدة. وصاح به دينيسكا من مكان بعيد في الأسفل:

- هيه، خذ معطفك!

وسقط المعطف والصرة اللذان قذفا من الأسفل بجانبه. وما لبث الصبي الذي كان راغباً عن التفكير في أي شيء أن وضع الصرة تحت رأسه، وتدثر بالمعطف، ومد رجليه على طولهما، ثم انكمش من الإحساس بالندى، وضحك بغبطة وفكر: - «النوم، النوم، النوم...». وتناهى إليه من الأسفل صوت دينيسكا وهو يصيح:

- أنتم، أيها الشياطين، إياكم أن تزعلوه!

وصاح كوزميتشوف:

- وداعاً أيها الأخوة! بأمان الله! إنني أعتمد عليكم!

- كن مطمئناً، ايفان ايفانيتش.

صاح دينيسكا بالحصانين، فزعقت العربة وانطلقت، ولكنها لم تسر في الطريق، بل انعطفت إلى جهة ما أخرى. وساد الهدوء دقيقتين وكأن القافلة قد غفت، ولم يكن يُسمع سوى قرقعة الدلو المربوط بمؤخرة العربة المبتعدة وهي تخمد شيئاً فشيئاً. وفجأة صرخ شخص ما في مقدمة القافلة:

- كيريوخا، هيّا...

فصرّت العربة الأمامية ثم التي تليها ثم العربة الثالثة... وأحس يغوروشكا أن العربة التي يستلقي فوقها قد اهتزت وصرّت هي الأخرى. وانطلقت القافلة. تمسك يغوروشكا بقوة بالحبل الذي حزمت به البالة، وضحك مرة ثانية مغتبطاً، وأصلح من وضع الكعكة في جيبه، وبدأ يغفو كما اعتاد أن يغفو وهو مستلق في سريره...

عندما استيقظ كانت الشمس قد أشرقت، وكانت ثمة تلة تحجبها، فيما هي تحاول أن ترش نورها على العالم، وتجهد لتنشر أشعتها في جميع الاتجاهات، وتسكب ذهبها على الأفق. بدا ليغوروشكا أن الشمس ليست في مكانها، فهي بالأمس طلعت من الوراء، من خلف ظهره، أما اليوم فهي منحرفة كثيراً نحو اليسار... ثم إن المكان كله لا يشبه مكان الأمس. لم يعد ثمة رواب، وحيثما نظرت لا ترى سوى سهل أسمر كئيب يمتد بلا نهاية، تنهض في بعض أنحائه تلال صغيرة، وتحلق في سمائه غربان الأمس، وبعيداً في الأمام تلوح أبراج نواقيس، وبيوت قرية ما. كان الأوكرانيون يجلسون في بيوتهم بمناسبة الأحد، يخبزون ويطبخون، وكان هذا واضحاً من الدخان الذي يتصاعد من جميع المداخن، وينعقد فوق القرية غلالة شهباء شفافة. وكانت تلوح من الفجوات بين البيوت ومن خلف الكنيسة زرقة نهر بعيد، يمتد وراءه مدى ضبابي. وكان الطريق في السهب اليوم أقل الأشياء شبهاً بما كان فيه بالأمس. فبدلاً من الطريق، كان ثمة شيء ما عريض إلى حد غير مألوف، وفسيح، وعملاق، يمتد في السهب: مضمار رمادي مذلل جيداً من كثرة ما طُرِق، ومغطى بالغبار ككل

الطرقات، بيد أن عرضه يبلغ بضع عشرات من الساجنات[1]. أثار الطريق برحابته حيرة يغوروشكا، ودفعه إلى التفكير في أشياء خرافية. من يسير عليه يا ترى؟ ومن الذي يحتاج إلى كل هذه السعة؟ شيء غريب وغير مفهوم، حتى ليمكن الظن حقاً أن الجبابرة الضخام ذوي الخطوات الواسعة من أمثال ايليا موراميتس وسولوفيي رازبوينيك[2] لم يبيدوا في روسيا، وأن خيولهم العملاقة لم تنقرض بعد. تخيل يغوروشكا وهو ينظر إلى الطريق ست عربات عالية تعدو جنباً إلى جنب، كتلك التي كان يراها في رسوم كتاب التاريخ المقدس، تجرها ستة أحصنة برية شوامس، وعجلاتها العالية تثير سحباً من الغبار تصل إلى عنان السماء، ويقود هذه الأحصنة رجال لا وجود لهم إلاّ في الأحلام والتخيلات الخرافية. لكم كانت هذه الشخوص تليق بالسهب وبهذا الطريق لو أنها كانت موجودة!

عن يمين الطريق وعلى امتداده كله كانت تنتصب أعمدة برق ذات سلكين، لا تنفك تصغر كلما ابتعدت إلى أن تختفي عند القرية خلف البيوت والخضرة، ثم تعود للظهور في المدى الليلكي على شكل عصيّ صغيرة دقيقة تشبه أقلام رصاص مغروسة في الأرض. وعلى الأسلاك كانت تجثم بواشق وعواسق وغربان وهي تنظر بلا مبالاة إلى القافلة السائرة.

كان يغوروشكا يستلقي في العربة الأخيرة، ولذا فقد كان بمقدوره أن يرى القافلة كلها. العربات كانت نحو عشرين، وكل ثلاث منها يقودها سائق واحد. بقرب العربة الأخيرة التي تحمل يغوروشكا كان يسير شيخ ذو لحية شمطاء، نحيل وقصير كالأب خريستوفور، إلاّ أن وجهه الذي سفعته الشمس كان صارماً وموسوماً بالتأمل العميق. من الممكن جداً ألاّ يكون هذا الشيخ صارماً أو ميالاً إلى التأمل، بيد أن جفنيه المحمرين، وأنفه الطويل الدقيق كانا يكسبان

---

(١) الساجن: مقياس طول روسي قديم = ٢،١٣٤ م (المترجم).

(٢) من أشهر أبطال القصص الشعبية الروسية. ويوصف أبطال هذه القصص وخيولهم بالضخامة الشديدة والقوة الخارقة (المترجم).

وجهه ملامح الصرامة والجفاف، التي تسم من اعتادوا التفكير دائماً في أمور جدية وعلى انفراد. كان كالأب خريستوفور يعتمر قبعة أسطوانية عريضة الحافة، ولكنها ليست من النوع الراقي، بل هي لبّادية سمراء دكناء، أشبه بالمخروط المبتور منها بالأسطوانة. وكان يسير حافي القدمين. ولعل العادة التي اكتسبها في مواسم الشتاء الباردة عندما كان يتعرض لخطر التجمد بجانب القافلة هي التي كانت تجعله لا يفتأ يضرب فخذيه بكفيه ويخبط الأرض بقدميه في أثناء سيره. وعندما لاحظ أن يغوروشكا قد استيقظ نظر إليه وقال وهو يقلص جسمه كمن أصابه الصقيع:

- آ.. هل استيقظت يا فتى! أنت ابن ايفان ايفانوفيتش أليس كذلك؟

- لا.. أنا ابن أخته...

- ابن أخت ايفان ايفانيتش؟ أنا كما ترى خلعت حذائي وأمشي حافياً. قدماي مريضتان أصابهما الصقيع، وبدون حذاء أشعر بحرية أكبر، بحرية أكبر، أيها الفتى... أي عندما أكون بدون حذاء... إذن أنت ابن أخته؟ إنه إنسان طيب، لا بأس به.. ليمنحه الله العافية.. لا بأس به... أقصد ايفان ايفانيتش... لقد ذهب إلى الحليبي.. ارحمنا يا رب.

كان الشيخ يتكلم كما لو أنه كان في أثناء ذلك يشعر ببرد شديد، فهو يقطّع كلامه، ولا يفتح فمه كما يجب، ويتلجلج في نطق الحروف الشفوية الساكنة وكأن شفتيه قد تجمدتا. لم يبتسم البتة وهو يخاطب يغوروشكا وبدا وجهه صارماً.

وبعد عربتين كان يسير إلى جانب القافلة شخص يحمل كرباجاً ويرتدي معطفاً طويلاً أحمر، ويعتمر سدارة، وينتعل جزمة مرخية الساقين. لم يكن متقدماً في السن، بل يناهز الأربعين. وعندما التفت رأى يغوروشكا وجهاً طويلاً أحمر ذا لحية خفيفة مدببة، وعُجرة إسفنجية تحت عينه اليمنى. وإضافة إلى هذه العجرة الشديدة القبح كان الرجل يتميز بسمة فارقة أخرى تلفت النظر: فقد كان يمسك بيده اليسرى كرباجاً ويلوح بيده اليمنى كأنه يقود

جوقة غير مرئية. وفي بعض الأحيان كان يضع الكرباج تحت إبطه ويلوح بكلتا يديه ويدندن بكلمات ما.

وكان السائق الذي يليه شخصاً ذا قامة طويلة مستقيمة، وكتفين شديدتي الانحدار، وظهر مسطح كأنه لوح خشبي. كان يسير مستقيماً كما لو في صف عسكري أو كأنه ابتلع مسطرة، ويداه لم تكونا تتحركان، بل كانتا معلقتين على جانبيه كعصوين مستقيمين. وكانت مشيته متخشبة، إذا جاز التعبير، كمشية تماثيل الجنود التي يلعب بها الأطفال، فهو يكاد ألاّ يثني ركبتيه، ويحاول أن يوسع خطوته ما أمكنه ذلك. وفيما كان الشيخ وذو العجرة الأسفنجية يخطوان خطوتين كان هذا لا يستطيع أن يخطو سوى خطوة واحدة، ولذا كان يبدو أنه أبطأ من الجميع، وأنه يتأخر عنهم. كان وجهه مربوطاً من أسفل الذقن بخرقة، ورأسه مغطى بشيء يشبه قلنسوة الرهبان، وكان يرتدي سترة أوكرانية قصيرة مرصعة بالرقع من جميع الجوانب، وسروالاً أزرق مسدلاً فوق ساقي نعليه المضفورين من لحاء الشجر.

أما السائقون الأبعد فلم يكن يغوروشكا بقادر على أن يتبين ملامحهم. كان يستلقي منبطحاً وينقب البالة بإصبعه، وما لبث أن أحدث فيها ثقباً، وراح يتسلى بفتل خيطان من الصوف. واتضح أن الشيخ الذي يسير في الأسفل ليس صارماً وجاداً كما يمكن أن تحكم عليه من قسماته، فهو إذا ابتدأ الحديث لا يعود يكف عنه. سأل وهو يخبط الأرض بقدميه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فأجاب يغوروشكا:

- للدراسة.

- للدراسة؟ آ.. آ.. إذن فلتساعدك ربة السموات. العقل جيد، ولكنْ عقلان أحسن من واحد. بعض الناس يعطيهم الرب عقلاً واحداً، وبعضهم يعطيهم عقلين، وهناك من يعطيهم ثلاثة عقول. ثلاثة عقول، هذا صحيح... العقل

الأول هو الذي يولد معه، والثاني من العلم، والثالث من الحياة الجيدة. وهكذا يا أخ.. إذا كان لدى شخص ثلاثة عقول، فهذا ممتاز. مثل هذا الشخص لن تكون الحياة فقط أسهل عليه، بل الموت سيكون أسهل أيضاً. الموت، نعم... كلنا سنموت... هذا صحيح.

حك الشيخ جبينه، ونظر بعينيه المحمرتين إلى يغوروشكا ومضى يقول:

- العام الماضي مكسيم نيكولايفيتش، وهو سيد من نواحي سلافيانوسيربسك أخذ ابنه للدراسة أيضاً. لا أعرف كيف هو الآن هناك يتفهم العلم، ولكنه هو أيضاً فتى لا بأس به... جيد... فليعطهم الله العافية، سادة طيبون. نعم أخذه للدراسة أيضاً... في سلافيانوسيربسك لا يوجد معهد، يعني، يمكن أن يكمل فيه دراسته. لا يوجد... مدينة لا بأس، جيدة، فيها مدرسة عادية للمراتب البسيطة، لكن من أجل الدراسة الكبيرة.. لا يوجد فيها... لا يوجد، هذا صحيح. ما اسمك؟

- يغوروشكا.

- يعني يغوري... القديس الشهيد الأكبر يغوري المنتصر الذي يصادف عيده الثالث والعشرين من نيسان. وأنا اسمي المقدس بانتيلي... بانتيلي زاخاروف خولودوف... نحن من عائلة خولودوف... أنا ولدت في بلدة تيم، ربما سمعت بها، في مقاطعة كورسك. إخوتي انتقلوا إلى المدينة وعملوا هناك حرفيين، أما أنا فقد بقيت قروياً كما كنت. منذ سبع سنوات عدت إلى هناك... إلى البيت يعني. زرت القرية وزرت المدينة... أقول يعني زرت تيم. حينئذ كان الجميع والحمد لله بصحة جيدة... أما الآن فلا أعرف.. ربما مات أحد منهم... فالأجل قد حان، لأنهم كلهم مسنون، وبينهم من هو أكبر مني... الموت لا بأس.. جيد، ولكن، طبعاً، المهم ألاّ يأتي إلاَّ بعد التوبة. لا شرَّ أكبر من الموت الوقح. الموت الوقح بهجة الشيطان. وإذا كنت تريد أن تموت تائباً، أي إذا كنت لا تريد أن تحرم من الدخول إلى مقاصير الرب فعليك أن

تتضرع للشهيدة الكبرى فارفارا. فهي شفيعتنا. هي... هذا صحيح. لأن الرب قد قدر لها هذه المكانة في السماء، بحيث يكون لدى كل واحد كامل الحق في أن يتضرع إليها طلباً للتوبة.

كان بانتيلي يثرثر من دون أن يهتم، على ما يبدو، بيغوروشكا هل يصغي إليه أم لا. كان يتكلم بفتور، كأنه يكلم نفسه، من دون أن يرفع صوته أو يخفضه، ولكنه استطاع أن يتحدث خلال وقت قصير عن أشياء كثيرة، وكان حديثه كله يتألف من نتف لا يربط بينها سوى رباط واه جداً، ولا تهم يغوروشكا في شيء، وربما لم يكن يتكلم إلاّ لكي يتحقق بصوت عالٍ، الآن، في الصباح، بعد أن قضى الليل كله صامتاً، من أن أفكاره كلها ما زالت هنا، في البيت. وبعد أن أنهى حديثه عن التوبة، عاد من جديد للحديث عن المدعو مكسيم نيكولايفيتش من نواحي سلافيانوسيربسك:

- نعم، لقد أرسل ابنه... أرسله، هذا صحيح.

وثب أحد السائقين الذين يسيرون بعيداً في المقدمة من مكانه، وانحرف جانباً بسرعة، وراح يضرب الأرض بكرباجه. كان الرجل طويل القامة، عريض المنكبين، يناهز الثلاثين، ذا شعر بني جعد، ويبدو عليه أنه قوي جداً ومتين البنية. وكانت حركات كتفيه وكرباجه، والحرص النهم الذي تعبر عنه وضعيته، يدلان على أنه يضرب كائناً حياً. ركض نحوه سائق آخر قصير ومكتنز، ذو لحية سوداء عريضة، ويرتدي صداراً وقميصاً مسدلاً فوق سرواله. أغرب هذا في الضحك الممتزج بسعال أجش وصاح:

- يا شباب، ديموف قتل حية! أقسم بالله.

ثمة أناس يمكنك أن تصدر حكماً صائباً على عقلهم من صوتهم وضحكهم. وذو اللحية السوداء كان من هؤلاء المحظوظين بالذات: فصوته وضحكه كانا ينمان على غباء مطبق. توقف ديموف ذو الشعر البني عن الضرب، ورفع بكرباجه عن الأرض شيئاً ما يشبه الحبل، وقذف به نحو السائقين وهو يضحك. صاح أحدهم:

- هذا ليس حية سامة، بل حنش حشيش.

سار الرجل ذو المشية المتخشبة والوجه المضمد بخطىً سريعة نحو الأفعى المقتولة ونظر إليها، ثم رفع يديه اللتين تشبهان العصوين، وراح يضرب كفا بكف، ويصيح بصوت مخنوق باك:

- أيها المجرم! لماذا قتلت حنش الحشيش؟ ما الذي فعله لك أيها اللعين؟ شاطر، قتل حنش حشيش! أترضى أن يفعلوا بك ما فعلته به؟

تمتم بانتيلي بهدوء:

- حنش الحشيش لا يجوز قتله، هذا صحيح... لا يجوز.. هذا ليس حية. ومع أنه بالشكل يشبه الحية، إلاّ أنه مخلوق مسالم لا يؤذي.. يحب الإنسان... نعم.. حنش الحشيش.

يبدو أن ديموف وذا اللحية السوداء خجلا لأنهما ضحكا بصوت عال، وسارا بتكاسل نحو عرباتهما من دون أن يردا على تذمر الآخرين. وعندما حاذت العربة الأخيرة مكان الأفعى المقتولة التفت الرجل المضمد الوجه الذي كان واقفاً هناك نحو بانتيلي وسأله بصوت باك:

- قل لي أيها الجد لماذا قتل حنش الحشيش؟

كانت عيناه اللتان رآهما يغوروشكا الآن بوضوح، صغيرتين كابيتين، ووجهه رمادياً عليلاً ويبدو كابيا هو الآخر، وذقنه أحمر وشديد التورم.

كرر سؤاله وهو يسير بجانب بانتيلي.

أجاب الشيخ: - إنسان غبي، يداه تحكانه، ولذلك قتله. حنش الحشيش لا يجوز قتله.. هذا صحيح.. ديموف معروف عنه أنه مشاكس، يقتل كل ما يقع تحت يده، وكيريوخا لم يمنعه، كان عليه أن يمنعه، لا أن يقهقه هاهاها، هوهوهو... وأنت يا فاسيا لا تغضب... لِمَ الغضب؟ قتلاه، فلنتركهما للرب... ديموف مشاكس، وكيريوخا قليل عقل... بسيطة.. شخصان غبيان لا يفهمان،

لنتركهما للرب. ها هو يميليان، لا يمس ما لا يجب أن يمسه... أبداً، هذا صحيح.. لأنه شخص مثقف، أما هما فغبيان... أي نعم، يميليان لا يمس...

السائق ذو المعطف الأحمر والعجرة الأسفنجية الذي يقود جوقة غير مرئية توقف عن السير عندما سمع اسمه، وانتظر ريثما حاذاه بانتيلي وفاسيا، وسار بجانبهما، وسألهما بصوت أبح مخنوق: - عم تتحدثان؟

قال بانتيلي: - فاسيا غاضب، كما ترى، وأنا أقنعه بمختلف الأقوال أن لا داعي للغضب، يعني... آه قدماي مريضتان، أصابهما برد! إيه! نَقُّهما ازداد، بسبب الأحد، عيد الرب!

قال فاسيا: - هذا من المشي.

- لا، يا فتى، لا.. ليس من المشي. عندما أمشي يخف الألم، أما عندما أستلقي وأدفأ، فيا ويلاه. المشي يريحني.

وقف يميليان بمعطفه الأحمر بين بانتيلي وفاسيا ولوح بيده كأن هذين يهمان بالغناء، ثم أرخى يده بعد قليل، وزحر قائلاً بيأس: - ليس لدي صوت. مصيبة لعينة! طوال الليل والصباح ترن في أذني ثلاثية «ربنا ارحمنا» التي غنيناها في حفل التكليل عند مارينوفسكي... تعشش في رأسي وحنجرتي... يخيل إلي أنني إذا حاولت سأغنيها، ولكنني لا أستطيع! ليس لدي صوت.

صمت دقيقة وهو يفكر في أمر ما ثم أردف:

- ظللت خمس عشرة سنة أغني، وأظن أنه لم يكن في مصنع لوغانسكي كله من كان له مثل صوتي، ولكن منذ أن اغتسلت، يلعن الشيطان، من ثلاث سنوات في دونيتس، لم أعد أستطيع أن أضبط أية نغمة بشكل صحيح. أصبت بالبرد في حلقي، وأنا بدون صوت مثل العامل بدون يد.

قال بانتيلي موافقاً: - هذا صحيح.

- بالنسبة لي أعرف أنني الآن إنسان انتهى أمره ولا شيء أكثر.

وفي هذه اللحظة وقع بصر فاسيا مصادفة على يغوروشكا، فالتمعت عيناه وازدادتا صغراً، وقال وهو يغطي أنفه بكمه كالخجلان:

- أرى سيداً صغيراً يرافقنا، يا له من سائق مهم! ابق معنا، ستصبح من مرافقي القافلة، وستنقل الصوف معنا.

يبدو أن فكرة الجمع بين السيد والسائق في شخص واحد بدت له طريفة وذكية، لأنه ما لبث أن استغرق في ضحك عال واستطرد في تطويرها. تطلع يميليان أيضاً إلى يغوروشكا ولكن لمحاً وببرود. فقد كان منشغلاً بأفكاره، ولولا فاسيا لما شعر بوجوده. ولم تكد تمضي خمس دقائق حتى عاد ثانية إلى التلويح بيده، ثم وضع الكرباج تحت إبطه، وراح يلوح بكلتا يديه وهو يصف لرفيقه محاسن «ربنا ارحمنا» التكليلية التي عاودته ذكراها ليلاً.

قبل القرية بفرسخ توقفت القافلة قرب بئر ركب عليها شادوف. دلّى كيريوخا ذو اللحية العريضة دلوه في البئر وانبطح على إطارها، وأدخل في فوهتها المعتمة رأسه الكث الشعر، وكتفيه وبعض صدره، بحيث أن يغوروشكا لم يعد يرى سوى قدميه القصيرتين اللتين لا تكادان تلامسان الأرض. وما إن شاهد كيريوخا صورة رأسه بعيداً في قاع البئر حتى ابتهج واستغرق في قهقهة عالية مجلجلة، ورد عليه الصدى بمثل ذلك، وعندما نهض كان وجهه وعنقه أحمرين كالدم. كان ديموف أول من ركض نحو البئر ليشرب. وراح في أثناء الشرب يضحك، ويبعد الدلو عن فمه بين لحظة وأخرى ليتحدث إلى كيريوخا عن شيء ما مضحك، ثم يدير وجهه جانباً ويتفوه بخمس أو ست كلمات بذيئة بصوت عال يتردد رجعه في السهب كله. لم يكن يغوروشكا يفهم معاني أمثال هذه الكلمات، ولكنه كان يعرف جيداً أنها كلمات سيئة. كان يعرف شعور الاشمئزاز الذي يبديه بصمت أقرباؤه ومعارفه عند سماعهم هذه الكلمات، وكان يشاطرهم هذا الشعور من دون أن يعرف لماذا، وقد اعتاد التفكير في أن السكارى والعربيدين وحدهم هم الذين يتمتعون بامتياز النطق

بهذه الكلمات بصوت عال. تذكر قتل حنش الحشيش وأصغى إلى ضحك ديموف، وساوره شعور مبهم نحو هذا الرجل يشبه الكره. وفي هذه اللحظة بالذات، وكما لو أن الأمر مقصود، وقع بصر ديموف على يغوروشكا الذي نزل من العربة قاصداً البئر فقهقه بصوت عال وصاح:

- يا شباب، الشيخ وَلَد في الليل صبياً!

انتاب السعال كيريوخا من شدة الضحك، وضحك شخص آخر أيضاً. فيما تضرج وجه يغوروشكا بالحمرة، وقرر بينه وبين نفسه نهائياً أن ديموف شخص شرير جداً.

كان ديموف الحاسر الرأس، بشعره البني المجعد، وقميصه المفتوح عند الصدر، يبدو وسيماً وذا قوة خارقة. كل حركة من حركاته كانت تنم على أنه شخص مشاكس وقوي ويعرف قيمة نفسه. كان يحرك كتفيه بخيلاء، ويضع راحتيه على خاصرتيه، ويتكلم ويضحك بصوت يطغى على أصوات الجميع، ويتخذ وضعاً يجعل الرائي يتخيل أنه يهم برفع شيء ثقيل جداً بيد واحدة، ليدهش بذلك العالم كله. وكانت نظرته المستهترة الهازئة تنزلق فوق الطريق والقافلة والسماء دون أن تتوقف على شيء، وكأنه كان يبحث عن مخلوق آخر يقتله ليتسلى، أو عن شيء ما يضحك عليه. كان واضحاً أنه لا يخاف أحداً ولا يتقيد بحد، وأغلب الظن أنه لم يكن يهتم البتة برأي يغوروشكا... أما يغوروشكا فقد كانت نفسه قد امتلأت كرهاً لرأسه ذي الشعر البني، ووجهه النظيف، وقوته، وكان يشعر بالتقزز والخوف عندما يسمع ضحكه، ويجهد ذهنه ليجد الشتيمة المناسبة التي ينتقم بها منه.

اقترب بانتيلي هو الآخر من الدلو وأخرج من جيبه كؤيسة سراج خضراء، ومسحها بخرقة، وغرف بها من الدلو وشرب، ثم غرف بها مرة ثانية، ثم لفها بالخرقة وأعادها إلى جيبه. سأله يغوروشكا متعجباً: - أيها الجد، لماذا تشرب من السراج؟ فأجابه الشيخ مراوغاً: بعض الناس يشرب من الدلو،

وبعضهم يشرب من السراج، كل واحد يشرب على طريقته... أنت تشرب من الدلو، اشرب هنيئاً مريئاً...

فجأة شرع فاسيا يقول بصوت حنون باك:

- آه يا حمامتي، يا حنونتي، يا جميلتي، آه يا حمامتي!

كانت عيناه تنظران إلى المدى البعيد وهما تلتمعان وتبتسمان، وقد ارتسم على وجهه التعبير نفسه الذي بدا عليه عندما كان ينظر إلى يغوروشكا. سأله كيريوخا: - لمن تقول هذا؟

- للحنون الثعلبة... استلقت على ظهرها وبدأت تلعب، كالكلب تماماً...

صوب الجميع أبصارهم إلى المدى البعيد، وراحوا يفتشون بعيونهم عن الثعلبة... ولكنهم لم يجدوا شيئاً. فاسيا وحده كان يرى شيئاً ما بعينيه الرماديتين العكرتين، ويعبر عن انبهاره. كان بصره، كما اقتنع يغوروشكا فيما بعد، حاداً إلى درجة مدهشة. ووضوح الرؤية الفائق لديه كان يجعل من السهل الأغبر المقفر عالماً مليئاً بالحياة والمحتوى أمام ناظريه. كان يكفي أن يرنو إلى المدى البعيد كي يرى ثعلباً أو أرنباً أو حبارى أو أي حيوان آخر قد نأى عن الناس بقدر ما يستطيع. ليس من الصعب، بالطبع، أن ترى أرنباً هارباً أو حبارى طائرة، فكل مسافر في السهب يرى أمثال ذلك، ولكن ليس كل واحد بمقدوره أن يرى الحيوانات البرية في حياتها البيتية، عندما لا تكون مضطرة إلى الركض أو الاختباء أو النظر فيما حولها بقلق وارتياب، وفاسيا كان يرى الثعالب والأرانب وهي تلعب وتغسل نفسها ببراثنها، ويرى الحبارى الكبيرة وهي تفرد أجنحتها، والحبارى الصغيرة وهي تنقر «نقاطها». وبفضل حدة البصر هذه كان لفاسيا إلى جانب العالم الذي يراه الجميع عالم آخر خاص به غير متاح لأحد غيره، ومن المؤكد أنه عالم مبهج جداً، لأنه عندما كان ينظر وينبهر إعجاباً كان من الصعب ألا تحسده.

عندما تحركت القافلة متابعة سيرها تعالى رنين ناقوس الكنيسة إيذاناً بالصلاة.

- ٥ -

ألقت القافلة عصا المسير على ضفة النهر متنحية عن القرية. كانت الشمس لافحة كالأمس، والهواء ساكناً يبعث على الكآبة. وكانت تنتصب على الضفة بضع صفصافات، إلاّ أن ظلها لم يكن يقع على الأرض، بل على الماء، ويذهب هدراً، في حين أن الجلوس في فيء العربات كان يكتم الأنفاس ويورث الضجر. وكانت المياه التي تنعكس فيها زرقة السماء تغري المرء وتجذبه إليها بشدة.

السائق ستيبكا الذي لم يلفت نظر يغوروشكا إلاّ الآن، وهو فتى أوكراني في الثامنة عشرة من عمره، يرتدي قميصاً طويلاً دون حزام، وسروالاً عريضاً مسدلاً ترفرف ساقاه كعلمين في أثناء المشي، تعرى بسرعة وركض إلى الأسفل على الضفة المنحدرة وألقى بنفسه في الماء. غطس ثلاث مرات ثم راح يسبح على ظهره مغمضاً عينيه من الغبطة. وجهه كان يبتسم ويتغضن كأن أحداً كان يدغدغه ويؤلمه ويضحكه.

في اليوم القائظ، عندما لا يجد المرء مكاناً يلوذ به هرباً من الحر والجو الخانق، يقع صوت اصطفاق الماء وتنفس السابحين العالي على مسامعه كموسيقى عذبة. وقد سارع ديموف وكيريوخا إلى نزع ملابسهما وهما ينظران إلى ستيبكا، وركضا وهما يضحكان بصوت عال مستشعرين اللذة القادمة، وارتميا في الماء أحدهما إثر الآخر. وامتلأ النهير الهادئ المتواضع بالنخير الضاحك واصطفاق الماء والصراخ. كان كيريوخا يسعل ويضحك ويصرخ صراخ من يريدون إغراقه. وكان ديموف يطارده ويحاول الإمساك به من قدمه وهو يصيح: - هه – هه – هه – هاته، امسكه!

ومع أن كيريوخا كان يقهقه مستمتعاً، إلاّ أن تعبير وجهه بقي كما كان على اليابسة: غبياً، مبهوتاً، كأن أحداً تسلل إليه من الخلف وضربه بمطرقة على رأسه، نزع يغوروشكا أيضاً ملابسه، ولكنه لم يهبط على الضفة، بل

ركض بأقصى سرعته وقفز من ارتفاع ساجنٍ ونصف، فرسم في الهواء شكل قوس، ثم سقط في الماء وغاص فيه عميقاً، ولكنه لم يصل إلى القاع، قوة ما باردة ولطيفة الملمس تلقفته وأعادته إلى الأعلى. طفا على السطح وفتح عينيه وهو ينخر ويطلق فقاعات، فإذا بالشمس تنعكس على صفحة الماء قرب وجهه بالضبط. في البداية دهمت عينيه شرارات باهرة وتلتها أقواس قزح ولطخ معتمة، فسارع إلى الغطس ثانية، وفتح عينيه في الماء فشاهد شيئاً ما أخضر عكراً يشبه السماء في ليلة مقمرة، ومرة أخرى أعادته تلك القوة نفسها إلى الأعلى من دون أن تسمح له بملامسة القاع، والمكوث قليلاً في البرودة. فطفا وتنفس بعمق جعله يشعر بالرحابة والانتعاش لا في صدره فحسب، بل في بطنه أيضاً. ولكي يأخذ من الماء كل ما يمكن أخذه أباح لنفسه التمتع بكل صنوف الترف: فكان يستلقي مسترخياً بتلذذ، ويتخبط في الماء مثيراً الرذاذ، ويتقلب ظهراً لبطن ويسبح على صدره وعلى جنبه وعلى ظهره وواقفاً في مكانه، ويفعل ما يحلو له إلى أن تعب. وكانت الضفة الأخرى مكسوة بقصب كثيف يلمع تحت أشعة الشمس بلون الذهب، وقد مالت أزهاره على الماء عناقيد زاهية. في أحد الأمكنة كان القصب يرتعش وينحني بأزهاره ويطقطق – ذلك أن ستيبكا وكيريوخا كانا يطاردان هناك السرطانات. صاح كيريوخا بنبرة الظافر:

- سرطان! انظروا يا شبان، سرطان!

وعرض بالفعل سرطاناً أمام أنظار الجميع.

سبح يغوروشكا نحو دغل القصب، وغطس وراح يعيث بيديه قرب الجذور، وفيما كان يبحث في الطمي المائع اللزج لمس شيئاً ما حاداً ومقززاً، ربما كان سرطاناً بالفعل، ولكن في هذه اللحظة أمسك به شخص ما من قدمه وجذبه إلى الأعلى. شرق يغوروشكا وأخذ يسعل، وعندما فتح عينيه رأى أمامه وجه المشاكس ديموف ضاحكاً والماء يقطر منه، كان المشاكس يلهث

مبهور الأنفاس، وتنم النظرة التي تطل من عينيه على أنه يريد الاستمرار في عبثه. أحكم قبضته على قدم يغوروشكا ورفع يده الأخرى ليمسكه من عنقه، بيد أن يغوروشكا انتتر باشمئزاز وخوف وكأنه كان يتقزز من ملامسة هذا الجبار، ويخشى أن يغرقه، وقال بعصبية:

- أحمق! ابتعد وإلا لطمتك على وجهك.

وشعر أن هذا غير كاف للتعبير عن كراهيته فأضاف بعد تفكير قصير:

- وغد! ابن كلب!

كان ديموف في أثناء ذلك قد ترك يغوروشكا متجاهلاً وجوده وكأن شيئاً لم يكن، وسبح نحو كيريوخا وهو يصيح:

- هيه – هيه! تعال نصطد سمكاً! هيا يا شباب إلى صيد السمك!

قال كيريوخا موافقاً:

- ولِمَ لا. لابد أنه يوجد هنا سمك كثير...

- ستيبكا، اذهب إلى القرية واجلب لنا شبكة من عند الفلاحين!

- لن يعطونا!

- يعطون! اذهب أنت واسألهم! قل لهم أن هذا سيكون كالصدقة التي تعطى لوجه المسيح، فنحن الآن مثل الدراويش السائرين لزيارة الأماكن المقدسة.

- هذا صحيح!

خرج ستيبكا من الماء وارتدى ثيابه على عجل وركض حاسر الرأس نحو القرية وهو يخفق بسرواله الواسع...

بعد الاصطدام بديموف فقد الماء كل جاذبيته لدى يغوروشكا، فخرج من النهر وشرع يرتدي ملابسه. وكان بانتيلي وفاسيا يجلسان على الضفة الشديدة الانحدار وقد دلّيا أقدامهما وراحا ينظران إلى السابحين. أما يميليان فقد كان يقف في النهر عارياً قرب الضفة تماماً حيث الماء لا يتجاوز ركبتيه، ويتمسك

بإحدى يديه بالأعشاب كيلا يقع ويمسح جسمه باليد الأخرى. كان منظره، بعظمتي لوحيه البارزتين، والعجرة الناتئة تحت عينه، وانحناءته التي تدل بوضوح على أنه يخاف الماء، يبعث على الضحك. وجهه كان جاداً صارماً، وكان ينظر إلى الماء بغضب، وكأنه كان يزمع على الانهيال عليه بالشتائم، لأنه كان سبب إصابته بالبرد في دونيتس، وفقدانه صوته.

سأل يغوروشكا فاسيا: - لماذا لا تسبح؟

فأجابه هذا: - لا لشيء... لا أحب السباحة.

- ومِمَّ انتفخ ذقنك هكذا؟

- هذا مرض... فقد كنت، أيها السيد، أعمل في مصنع كبريت، وقال الدكتور إن هذا بالذات هو الذي أدى إلى ورم حنكي... الهواء هناك غير صحي. وقد أصيب ثلاثة آخرون بورم الحنك أيضاً وأحدهم فسد حنكه بالمرة.

سرعان ما عاد ستيبكا حاملاً شبكة صيد. ومع أن ديموف وكيريوخا كانا من طول بقائهما في الماء قد اصطبغا بلون ليلكي وبح صوتاهما، إلاّ أنهما أقبلا على الصيد بحماسة. في البداية سارا إلى مكان عميق يمتد على طول دغل القصب، فغمر الماء ديموف حتى العنق بينما غمر كيريوخا القصير إلى ما فوق الرأس، فشرق هذا بالماء وراح يطلق فقاعات من فمه، أما ديموف فقد داس على جذور شائكة ووقع وعلق في شبكة الصيد، وطفق الاثنان يتخبطان ويصخبان، وتحول صيد السمك لديهما إلى مجرد لهو عابث.

قال كيريوخا بصوت مبحوح: - النهر هنا عميق، لن نصيد شيئاً هنا!

فصرخ ديموف وهو يحاول تسوية وضع الشبكة:

- لا تجذبها أيها الشيطان! امسكها بيديك جيداً!

وصاح فيهما بانتيلي من الضفة:

- هنا لن تصيدا شيئاً. ستخيفان السمك لا أكثر أيها الغبيان! انحرفا إلى اليسار! هناك العمق أقل!

التمعت مرة فوق الشبكة سمكة كبيرة، فشهق الجميع، وضرب ديموف الماء بقبضته في المكان الذي اختفت فيه السمكة، وبانت الحسرة على وجهه. صاح بانتيلي وهو يخبط الأرض بقدميه:

- إيه! أضعتما الفرخة[(١)]! هربت!

انحرف ديموف وكيريوخا إلى اليسار، وانتقلا شيئاً فشيئاً، وهما ينتزعان أقدامهما انتزاعاً، إلى مكان ضحل، وهناك بدءا الصيد الحقيقي. ابتعدا نحو ثلاثمئة خطوة عن قافلة العربات، وكان الواقفون هناك يرون كيف كانا يحركان أقدامهما بصعوبة وهما يجران الشبكة صامتين، ويجهدان في إنزالها قدر الإمكان إلى الأسفل، وتقريبها من أعواد القصب، وكيف كانا يخيفان السمك ويسوقانه نحو الشبكة بضرب الماء بقبضاتهما وهز نبتات القصب، وتوجها من دغل القصب إلى الضفة الأخرى، وجرّا هناك الشبكة على القاع، ولكنهما ما لبثا أن عادا أدراجهما وهما يرفعان ركبهما عالياً وخيبة الأمل بادية عليهما. كانا يتحادثان عن أمر ما، ولكن عَمَّ؟ الصوت لم يكن مسموعاً. وكانت الشمس تلفح ظهريهما والذباب يقرصهما وقد تحول لون جسميهما من الليلكي إلى الأرجواني. ستيبكا كان يسير خلفهما حاملاً بيديه دلواً وقد شمر قميصه حتى الإبطين وعض على طرفه بأسنانه. وكان بعد كل صيد ناجح يرفع سمكة ما إلى الأعلى ويصيح وهي تلتمع تحت أشعة الشمس:

- انظروا هذه الفرخة! أصبح لدينا نحو خمس سمكات مثلها حتى الآن.

كان الواقفون على الضفة يرون كيف ينهمك ديموف وكيريوخا وستيبكا طويلاً بعد أن يسحبوا الشبكة في نبش الطمي ثم يضعون شيئاً ما في الدلو، ويقذفون بأشياء ما بعيداً، وفي بعض الأحيان كانوا يتناولون بالتعاقب شيئاً ما مما وقع في الشبكة فيتأملونه بفضول، ثم يلقون به بعيداً كذلك، فيصيح بهم أولئك مستوضحين: - ما هذا؟

---

(١) الفرخ: اسم نوع من السمك (المترجم).

فيجيب ستيبكا بكلمات ما يتعذر فهمها. وها هو يخرج من الماء حاملاً الدلو بكلتا يديه، ويركض نحو العربات ناسياً أن يرخي قميصه. وما إن وصل حتى صاح وهو يتنفس بصعوبة:

- كفى هذا... دعونا نفعل شيئاً آخر...

تطلع يغوروشكا إلى الدلو فوجده ملآن، وكانت تطل من الماء كركية فتية بوجهها الدميم، وبجانبها تضطرب سرطانات وسُمَيكات صغيرة. أنزل يغوروشكا يده إلى قاع الدلو وخضخض الماء، فاختفت الكركية تحت السرطانات وطفت بدلاً منها فرخة وشبوطية. نظر فاسيا أيضاً إلى الدلو فالتمعت عيناه، وبدا الحنان على وجهه، كما حدث عندما رأى الثعلبة. أخرج شيئاً ما من الدلو ووضعه في فمه وطفق يمضغه، وانبعث صوت طقطقة من بين أسنانه. قال ستيبكا مندهشاً:

- يا شبان، فاسكا يأكل القوبيون[١] حياً! تفوه!

فرد عليه فاسيا بهدوء دون أن يتوقف عن المضغ:

- هذا ليس قوبيوناً بل برعان[١].

ثم أخرج ذيل السمكة من فمه ونظر إليه بحنان وأعاده إلى فمه ثانية. وفيما كان فاسيا يمضغ ويطقطق بأسنانه كان يبدو ليغوروشكا أن هذا الذي يراه ليس إنساناً. فذقن فاسيا المنتفخ، وعيناه الكابيتان وبصره الحديد بقدر غير عادي، وذيل السمكة في فمه، والحنان الذي كان يمضغ به البرعان، كل هذا جعله يشبه الحيوان.

تسرب الملل إلى نفس يغوروشكا وهو يقف بالقرب منه، كما أن صيد السمك كان قد انتهى، فراح الصبي يتمشى قرب العربات، ثم فكر قليلاً، ودفعه الملل إلى التوجه صوب القرية.

---

(١) سمكة من الشبوطيات (المترجم).

بعد وقت قصير كان يقف في الكنيسة مسنداً جبهته إلى ظهر شخص ما تفوح منه رائحة القنّب، ومصغياً إلى أصوات فرقة المنشدين. كانت الصلاة قد شارفت على النهاية، ولم يكن يغوروشكا يفهم شيئاً في الإنشاد الكنائسي، ولذا فإنه لم يكترث به. أصغى بعض الوقت، ثم تثاءب وطفق يحدق في أقفية المصلين وظهورهم. وميز من بينها قفاً أحمر لا يزال ندياً من الاغتسال القريب العهد. إنه قفا يميليان. وكان محلوقاً على شكل قوس، ولكن أعلى من المتعارف عليه، وكان الفودان محلوقين أيضاً إلى أعلى مما ينبغي، وكانت أذنا يميليان الحمراوان بارزتين وكبيرتين كأنهما ورقتا أرقطيون، ويبدو أنهما كانتا تشعران بأنهما ليستا في مكانهما. وفيما كان يغوروشكا ينظر إلى قفا يميليان وأذنيه، خطر في باله لسبب ما أن يميليان هذا هو، على الأرجح، إنسان تعِس جداً. تذكر قيادته للجوقة، وصوته المبحوح، والخوف الذي بدا عليه في أثناء الاغتسال، فأحس نحوه بإشفاق شديد، وشعر بالرغبة في أن يلاطفه بكلمة ما. قال وهو يشده من كمه:

- أنا هنا!

الأشخاص الذين ينشدون في الجوقة بأصوات من طبقة التينور أو الباس، وعلى الأخص أولئك الذين تسنى لهم ولو مرة واحدة في العمر أن يقودوا جوقة، يعتادون النظر إلى الصِّبْية بصرامة وجفاء، وتظل هذه العادة ملازمة لهم حتى بعد اعتزالهم الإنشاد. التفت يميليان نحو يغوروشكا وقال له وهو يحدجه بنظرة قاسية:

- لا تعبث في الكنيسة.

بعد قليل تسلل يغوروشكا إلى الأمام مقترباً من الفاصل الايقوني. وهنا شاهد أشخاصاً مثيرين للاهتمام. أمام الجميع إلى اليمين كان يقف سيد وسيدة على سجادة، وخلف كل منهما كرسي. السيد كان يرتدي بزة حديثة الكي، ويقف ساكناً كجندي يؤدي التحية، رافعاً إلى الأعلى ذقنه الحليق الضارب إلى

الزرقة. وكان يتبدى في ياقته المنشاة العالية وزرقة ذقنه وصلعته الخفيفة وعصاه اعتزاز شديد بالنفس. ومن فرط هذا الاعتزاز توترت رقبته وارتفع ذقنه إلى الأعلى بشدة جعلت رأسه يبدو في كل لحظة كأنه يوشك أن ينقطع وينقذف إلى فوق. أما السيدة، وهي كهلة وسمينة، فقد كانت تتشح بشال حريري أبيض، وقد أمالت رأسها إلى جانب وراحت تنظر نظرة من أسدى للتو معروفاً ويريد أن يقول: «لا تزعج نفسك بالشكر! أنا لا أحب هذا...». وكانت السجادة مطوقة بسور كثيف من الأوكرانيين!

دنا يغوروشكا من الفاصل الأيقوني وطفق يقبل الأيقونات المحلية المعلقة عليه. كان يقف أمام كل منها ويركع بتمهل، وقبل أن ينهض عن الأرض يلتفت إلى الوراء نحو الناس، ثم ينهض بعد ذلك ويقبل الأيقونة. وكانت ملامسة الأرضية الباردة بجبهته تشيع في نفسه شعوراً عميقاً بالغبطة. وما إن خرج الحارس من المذبح حاملاً ملقطاً طويلاً لإطفاء الشموع حتى وثب يغوروشكا عن الأرض واندفع إليه بسرعة متسائلاً:

- هل وزعوا القربان المقدس؟

فدمدم الحارس بتجهم: - لا.. لا... هيا من هنا!

انتهت الصلاة، وخرج يغوروشكا على مهل من الكنيسة، وذهب يتجول في الساحة. لقد شاهد في حياته غير قليل من القرى والساحات والفلاحين، ولذا فإن كل ما كانت تقع عليه عيناه لم يكن يثير اهتمامه البتة. ودفعه الملل والرغبة في أن يقتل الوقت كيفما كان إلى أن يدخل أحد الدكاكين. كان الدكان يتألف من قسمين واسعين سيئي الإنارة، وقد علقت فوق بابيهما قطعة عريضة من قماش أحمر قان. أحد القسمين كان مخصصاً لبيع الأقمشة والبقالة. أما القسم الآخر فقد وضعت فيه براميل ملأى بالقطران، وعلق في سقفه عدد من أطواق حيوانات الجر. ومن كلا القسمين كانت تنبعث رائحة الجلد والقطران اللذيذة. أرض الدكان كانت مرشوشة، ويبدو أن الذي رشها ذو خيال واسع وفكر

متحرر، لأنها كانت موشاة بزخارف وعلامات ذات دلالات غامضة. كان صاحب الدكان السمين ذو الوجه العريض واللحية المدورة، الذي ينم مظهره على أنه روسي، يقف خلف النضد مستنداً إليه ببطنه، ويرشف الشاي قاضماً قطعة سكر عند كل رشفة، ومطلقاً زفرة عميقة بعد كل بلعة. كان وجهه يعبر عن لا مبالاة تامة، ولكن كل زفرة من زفراته كانت تقول: «مهلاً علي.. سأريك الويل». توجه إليه يغوروشكا قائلاً: أعطني بكوبيك بزر عباد الشمس.

رفع صاحب الدكان حاجبيه، ثم كال القدر المطلوب من البزر بعلبة دهون فارغة وخرج من وراء النضد وصب البزر في جيب الصبي. ولكن يغوروشكا لم يكن يرغب في الذهاب. وظل طويلاً يتأمل الصناديق الملأى بالكعك، وفكر ملياً، ثم سأل وهو يشير إلى كعك صغير مبّهر علاه الصدأ من تقادم العهد:

- بكم هذا الكعك؟

- الزوج بكوبيك.

أخرج يغوروشكا من جيبه الكعكة التي أهدتها إليه اليهودية أمس وسأل: - وبكم تبيع مثل هذه الكعكة؟

تناول صاحب الدكان الكعكة، ونظر إليها من جميع الجوانب، ورفع أحد حاجبيه وسأل: - مثل هذه؟

ثم رفع الحاجب الآخر وفكر قليلاً وأجاب: - الزوج بثلاثة كوبيكات... ران صمت. ثم سأل صاحب الدكان وهو يسكب الشاي في كأسه من إبريق نحاسي أحمر: - ابن من أنت؟

- ابن أخت ايفان ايفانيتش.

- الايفانات ايفانيتشات كثيرون.

قال صاحب الدكان وهو يزفر، ونظر من فوق رأس يغوروشكا إلى الباب وصمت قليلاً ثم سأل: - هل ترغب في شرب الشاي؟

- لا مانع...

وافق يغوروشكا على مضض، مع أنه كان يشعر بحنين شديد إلى شاي الصباح.

ملأ صاحب الدكان كأساً وقدمها له مع قطعة سكر مقضومة. جلس يغوروشكا على كرسي صغير وطفق يشرب. كان يريد أن يسأل أيضاً عن سعر رطل اللوز الملبس بالسكر، ولكنه ما إن بدأ الكلام حتى دخل زبون، فنحىّ البائع كأسه جانباً وانصرف إلى العمل. أخذ الزبون إلى القسم الآخر من الدكان حيث كانت تفوح رائحة القطران وتحدث وإياه طويلاً حول أمر ما. كان الزبون، وهو على ما يبدو شخص عنيد جداً وحريص، يهز رأسه طوال الوقت تعبيراً عن عدم موافقته، ويتقهقر نحو الباب، وقد أقنعه البائع بأمر ما، وبدأ يضع له الشوفان في كيس كبير. ولكن الزبون قال بأسى:

- وهل هذا شوفان؟ هذا ليس شوفاناً بل عصافة، حتى الدجاج سيسخر منه... لا.. سأذهب إلى بوندارينكو!

عندما عاد يغوروشكا إلى ضفة النهر شاهد هناك شعيلة غير كبيرة يتصاعد منها الدخان. وكان سائقو العربات منهمكين في إعداد طعام الغداء، وقد وقف ستيبكا وسط الدخان وراح يحرك ما في القدر بملعقة كبيرة مثلمة. أما كيريوخا وفاسيا اللذان احمرت عيونهما من الدخان، فقد انتحيا جانباً وانكبا على تنظيف السمك، وأمامهما كانت تقبع شبكة الصيد مغطاة بالطمي والأعشاب المائية، وفوق الشبكة كانت تلمع بعض الأسماك وتزحف السرطانات.

كان يميليان الذي عاد منذ قليل من الكنيسة يجلس بجانب بانتيلي ويلوح بإحدى يديه ويدندن بصوت ضعيف مبحوح لا يكاد يسمع: «لك ننشد...» فيما كان ديموف يتجول قرب الخيول.

عندما فرغ كيريوخا وفاسيا من التنظيف جمعا السمك والسرطانات الحية في دلو، وغسلاها ثم ألقيا بها جميعاً في الماء الغالي.

سأل ستيبكا وهو يزيل الرغوة بالملعقة:

- هل أضع دهناً؟

فأجابه كيريوخا:

- ما الداعي؟ السمك يفرز دهنه منه.

وقبل أن ينزلوا القدر عن النار ألقى ستيبكا في المرق ثلاث حفنات من جريش الدخن، وملعقة ملح، وفي الختام تذوق العصيدة وتلمظ، ولحس الملعقة وزحر بتلذذ – وكان هذا يعني أن الطعام قد استوى.

تحلق الجميع حول القدر ما عدا بانتيلي، وانهمكوا في العمل بملاعقهم. قال بانتيلي بصرامة: أعطوا الفتى ملعقة، فربما كان هو أيضاً يريد أن يأكل.

فقال كيريوخا وهو يزفر: - أكْلُنا أكْلُ عوامّ.

- أكل العوامّ أيضاً يفيد الصحة إذا وُجدت القابلية.

ناولوا يغوروشكا ملعقة فبدأ يأكل، ولكنه لم يجلس، بل بقي واقفاً قرب القدر ناظراً إليها كأنه ينظر في حفرة. كانت تنبعث من العصيدة رائحة السمك غير الناضج، وتبدو بين الفينة والفينة وسط جريش الدخن بعض الحراشف. ولم يكن بالإمكان غرف السرطانات بالملعقة. لذا كان الآكلون يتناولونها من القدر بأيديهم. وكان فاسيا بخاصة لا يجد في هذا أي حرج، حتى أنه لم يلوث يديه فحسب، بل بلل كميه أيضاً بالعصيدة. ومع ذلك فإن يغوروشكا وجد الطعام لذيذاً جداً، وذكّره بحساء السرطانات الذي تطبخه أمه في أيام الصيام. كان بانتيلي يجلس منزوياً ويأكل خبزاً، فسأله يميليان:

- لماذا لا تأكل معنا أيها الجد؟

أجاب الشيخ: - أنا لا آكل السرطانات... لا أطيقها.

وأدار رأسه باشمئزاز.

وفي أثناء الطعام راح السائقون يتجاذبون أطراف الحديث. وفهم يغوروشكا من حديثهم أن جميع معارفه الجدد هؤلاء، على الرغم من الفروق التي بينهم

في السن والطباع، يجمعهم جامع واحد يجعلهم متشابهين: فكلهم كانوا أناساً ذوي ماض رائع وحاضر سيء. كلهم على الإطلاق كانوا يتحدثون عن ماضيهم بإعجاب شديد وينظرون إلى حاضرهم بما يشبه الاحتقار. الإنسان الروسي يحب أن يتذكر لكنه لا يحب أن يعيش. لم يكن يغوروشكا يعرف هذا آنذاك. وقبل أن يؤتى على العصيدة، كانت قد ترسخت لديه قناعة عميقة بأن هؤلاء الذين يجلسون حول القدر أناس ظلمهم القدر وأذلهم. تحدث بانتيلي عن أنه في الأيام الخوالي، قبل أن تمدد الخطوط الحديدية كان يرافق قوافل العربات إلى موسكو وإلى نيجني، وكان يكسب مالاً كثيراً لا يعرف أين يذهب به، وأي تجار كانوا تجار ذاك الزمن! وأي سمك كان آنذاك! وكم كانت أسعار الأشياء رخيصة! أما الآن فالطرقات أصبحت أقصر، والتجار أبخل، والشعب أفقر، والخبز أغلى، وكل شيء صغر وضاق إلى أقصى حد. وقال يميليان إنه كان قبلاً يعمل منشداً في مصنع لوغانسكي، وكان له صوت رائع، وكان يجيد قراءة النوتات، أما الآن فقد تحول إلى إنسان عامي يعيش من صدقات أخيه الذي يرسله مع خيوله ويأخذ لقاء ذلك نصف أجره، وفاسيا كان في الماضي يعمل في مصنع كبريت، وكيريوخا كان سائقاً مرفهاً عند أناس طيبين، وكان مشهوراً في المنطقة كلها كأحسن سائق ترويكا. أما ديموف، وهو ابن فلاح ميسور، فقد كان يعيش خلياً لاهياً لا يكدر صفو حياته مكدر، ولكن ما إن بلغ العشرين حتى صار أبوه الصارم الحازم يرسله مع القافلة كأي فلاح معدم كادح، حرصاً منه على تعويده العمل، وخوفاً من أن يفسده البقاء في البيت. ستيبكا وحده ظل صامتاً، ولكن التعبير المرتسم على وجهه الحليق الشارب كان يدل بوضوح على أن حياته في الماضي كانت أفضل بكثير من حياته الآن.

عندما تذكر ديموف أباه كف عن الأكل وقطب جبينه، ثم نظر إلى رفاقه بعبوس، وثبت بصره على يغوروشكا وقال له بفظاظة:

- أنت أيها الكافر، انزع قبعتك! أيجوز أن تأكل وقبعتك على رأسك؟ وتسمي نفسك سيداً!

نزع يغوروشكا قبعته دون أن ينبس بكلمة، ولكنه لم يعد يميز طعم العصيدة، ولم يسمع كيف انبرى بانتيلي وفاسيا للدفاع عنه. تململ في صدره الحقد على المشاكس حتى أوجعه، وقرر أن يلحق به الأذى مهما كلفه الأمر.

بعد الغداء سار الجميع بتثاقل نحو العربات واستلقوا في الظل. سأل يغوروشكا بانتيلي:

- أيها الجد! هل سنتابع السير قريباً؟

- عندما يشاء الرب سنتابع السير... الآن لا يمكن السير، الحر شديد... أوه، يا إلهي، هذه إرادتك يا رب... استلق أيها الفتى!

وسرعان ما تعالى الشخير من تحت العربات. أراد يغوروشكا أن يعود ثانية إلى القرية ولكنه فكر قليلاً وتثاءب، ثم استلقى بجانب الشيخ.

- ٦ -

ظلت القافلة متوقفة قرب النهر طوال النهار، ولم تتحرك إلاّ عند الغروب. وعاد يغوروشكا إلى الاضطجاع على البالة، وعادت العربة تصر صريراً خافتاً وتهتز، وسار بانتيلي في الأسفل وهو يخبط الأرض بقدميه ويضرب فخذيه بيديه ويغمغم. وعلت في الجو كأمس طقطقة موسيقى السهب. استلقى يغوروشكا على ظهره، وتوسد راحتيه، وطفق ينظر إلى السماء. شاهد كيف اشتعل الأفق، وكيف انطفأ بعد ذلك، وكيف فرش الملائكة – الحافظون أجنحتهم الذهبية على الأفق، واستعدوا للمبيت. لقد مر النهار بسلام وأقبل ليل هادئ آمن، وغدا بإمكانهم أن يقروا باطمئنان في بيتهم السماوي... وشاهد يغوروشكا كيف أخذت السماء تعتم رويداً رويداً والظلمة تهبط على الأرض، وكيف شرعت النجوم تضيء واحدة بعد أخرى.

عندما تنظر طويلاً إلى أعماق السماء دون أن تحول بصرك عنها تجد، من دون أن تدري ما السبب، أن أفكارك ونفسك تمتزجان معاً في شعور

بالوحدة. وتبدأ تحس أنك وحيد إلى حد اليأس، وأن كل ما كنت تعده قريباً منك وعزيزاً عليك يبتعد عنك إلى ما لا نهاية له، ويفقد قيمته. وعندما تبقى على انفراد مع النجوم التي تتطلع من السماء منذ آلاف السنين، ومع السماء الغامضة نفسها، ومع الظلمة، وتحاول أن تكتنه مغزى هذه الظواهر اللامبالية بحياة الإنسان الوادعة، تجدها تمضّ روحك بصمتها، وتخطر لك فكرة الوحدة التي تنتظر كلاً منا في القبر، ويبدو لك جوهر الحياة مقنطاً.. فظيعاً...

طفق يغوروشكا يفكر في جدته التي ترقد الآن في المقبرة تحت أشجار الكرز، وتذكرها وهي مسجاة في التابوت وفوق عينيها قطعتا نقد نحاسيتان. وتذكر كيف وضعوا الغطاء فوق التابوت وأنزلوه في القبر. وعاود سمعه صدى الصوت الأصم لارتطام كتل التراب بغطاء التابوت... تصور جدته وهي في التابوت الضيق المظلم، وقد تركها الجميع وبقيت وحدها عاجزة دون معين. وصور له خياله أن جدته استيقظت فجأة، ولم تدرك أين هي، وراحت تدق غطاء التابوت وتستغيث، وفي نهاية الأمر خارت قواها من شدة الهول، وماتت ثانية. وتصور أمه والأب خريستوفور والكونتيسة درانيتسكايا وسلمون ميتين. ولكنه على الرغم من كل الجهود التي بذلها لكي يتصور نفسه بالذات في قبر مظلم بعيداً عن البيت، ومهجوراً من الجميع، وعاجزاً أو ميتاً، فإنه لم يستطع. خياله كان لا يجيز إمكانية موته شخصياً، وكان يشعر أنه لن يموت أبداً.

في هذه الأثناء كان بانتيلي الذي آن له أن يموت يسير في الأسفل بمحاذاة العربة، ويتفقد أفكاره. كان يتمتم:

- لا بأس، سادة طيبون... أخذوا الفتى للدراسة، كيف هو هناك، لم نسمع عنه شيئاً... في سلافيانوسيربسك، أقول، لا يوجد معهد يوصل إلى العقل الكبير... لا يوجد، هذا صحيح... والشاب جيد... لا بأس، عندما يكبر سيساعد أباه. أنت يا يغوري لا تزال صغيراً، ولكن عندما تكبر ستصبح المعيل لأبيك وأمك. هذا أمر الرب... احترم أباك وأمك. أنا نفسي كان عندي

أولاد، لكنهم احترقوا، زوجتي احترقت، وأولادي احترقوا... هذا صحيح، عشية عيد الغطاس في الليل احترقت الدار... أنا لم أكن في البيت.. كنت مسافراً إلى أريول... إلى أريول.. ماريا ركضت إلى الشارع، ثم تذكرت أن الأولاد نائمون في الدار، فعادت مسرعة واحترقت مع الأولاد... نعم.. وفي اليوم التالي لم يجدوا سوى العظام.

نحو منتصف الليل تحلق السائقون ويغوروشكا ثانية حول شعيلة غير كبيرة. وفيما كانت الأعشاب البرية تتأجج ذهب كيريوخا وفاسيا ليجلبا الماء من مكان ما في الوهدة، ومع أن الظلمة أخفتهما عن العيون إلاّ أن طقطقة دلويهما وصوتيهما وهما يتحادثان ظلاَ مسموعين طوال الوقت، معنى هذا أن الوهدة غير بعيدة. كانت الشعيلة تلقي ضوءها على الأرض بقعةً كبيرةً لا تني تومض، ومع أن القمر كان بازغاً فإن كل ما كان يقع خارج حدود هذه البقعة الحمراء كان يبدو حالك السواد. وكان ضوء النار يبهر أبصار السائقين فلا يرون سوى جزء من الطريق الكبير... وكانت العربات المحملة بالبالات، والخيولُ المشدودة إليها تكاد لا تُرى في الظلمة، وتبدو كأطياف جبال لا تستقر على شكل. وعلى بعد عشرين خطوة من النار، على الحدود بين الطريق والحقل، كان يلوح صليب خشبي يقوم مائلاً فوق قبر. وكان يغوروشكا قد لمح قبل أن يشعلوا النار، عندما كان بإمكانه الرؤية إلى بعيد، صليباً قديماً ومائلاً مثل هذا تماماً منصوباً على الجانب الآخر من الطريق الكبير.

عاد كيريوخا وفاسيا بالماء وملأا به القدر حتى شفتها ورفعاها فوق النار. واحتل ستيبكا مكانه المعهود قرب القدر وسط الدخان، حاملاً الملعقة المثلمة، وراح ينظر إلى الماء وهو غارق في تأملاته، منتظراً ظهور الزبد. وكان بانتيلي ويميليان يجلسان بالقرب منه صامتين، يفكران في أمر ما. وقد انبطح ديموف على بطنه وأسند رأسه إلى قبضتيه وطفق يحدق إلى النار. وكان ظل ستيبكا يتراقص فوقه مما يجعل وجهه الوسيم يغرق في العتمة تارة ثم لا يلبث أن يومض فجأة تارة أخرى... وكان كيريوخا وفاسيا يتجولان بعيداً باحثين

عن الأعشاب البرية ولحاء الأشجار لإذكاء النار. أما يغوروشكا فقد كان يقف قرب بانتيلي واضعاً يديه في جيبه وينظر إلى النار وهي تلتهم العشب.

الجميع كانوا يستريحون ويفكرون في أمور ما وينظرون لمحاً إلى الصليب الذي كانت تتراقص عليه بقع حمراء. إن القبر الذي يقف وحيداً يوحي إليك بشيء ما حزين وحالم وشاعري إلى حد بعيد. إنك تسمع صمته، وتحس في هذا الصمت حضور روح الشخص المجهول الذي يرقد تحت الصليب. هل تشعر هذه الروح بالطمأنينة في السهب؟ ألا ينتابها الشعور بالوحشة في الليالي المقمرة؟ إن السهب قرب القبر يبدو حزيناً، كئيباً، غارقاً في التأملات، والعشب يبدو أكثر أسىً، والجنادب هنا تبدو متحفظة في صريرها... وليس من عابر سبيل لا يترحم على هذه الروح الوحيدة، ولا يظل يتلفت نحو القبر إلى أن ينأى عنه ويغرق في الظلام. سأل يغوروشكا:

- أيها الجد، لماذا ينتصب هذا الصليب هنا؟

نظر بانتيلي إلى الصليب، ثم إلى ديموف، وسأل:

- ميكولا... أليس هذا هو المكان الذي قتل فيه الحصادون التاجِرَيْن؟

رفع ديموف جذعه على مضض معتمداً على مرفقه ونظر إلى الطريق وأجاب: - هو ذاته...

ساد صمت. ثم خشخش العشب اليابس بين يدي كيريوخا وهو يكوره ويدسه تحت القدر. وتوهجت النار ولفّت ستيبكا غمامة دخان أسود، وركض ظل الصليب على الطريق في الظلمة قرب العربات.

قال ديموف بفتور:

- نعم.. قتلوهما... التاجرين... الأب وابنه. كانا مسافرين لبيع أيقونات، توقفا هنا في خان غير بعيد.. الخان الذي يديره الآن ايغنات فومين. شرب الشيخ أكثر من اللزوم وبدأ يتباهى بكثرة نقوده. من المعروف أن التجار يحبون التباهي والعياذ بالله، ولا يطيقون ألاّ يظهروا أمام أمثالنا بأحسن حال.

في ذاك الوقت كان هناك مجموعة من الحصادين تبيت في الخان، وقد سمعوا كيف كان يتباهى التاجر، ووضعوا هذا في بالهم.

قال بانتيلي وهو يتنهد:

- يا إلهي... يا سيدتي البتول!

ومضى ديموف يقول:

- في اليوم التالي عند الفجر، وفيما كان التاجران يتأهبان للسفر احتك الحصادون بهما وقالوا لهما: «لنمش معاً أيها الموقران. معاً نتسلّى ونأمن مخاوف الطريق، فالمنطقة هنا مقطوعة...» والتاجران، من خوفهما على الأيقونات من الكسر، أخذا يسيران ببطء... وكان هذا في صالح الحصادين...

جثا ديموف على ركبتيه وتمطى، وتابع حديثه وهو يتثاءب:

- إيه... سار الجميع دون أن يحصل شيء إلى أن وصلوا إلى هذا المكان، وهنا هجم الحصادون على التاجرين بالمناجل. الابن كان مقداماً واستطاع أن ينتزع المنجل من أحدهم ويهجم عليهم. ولكن الغلبة، بالطبع، كانت لأولئك، فقد كانوا ثمانية. وقد انهالوا على التاجرين بالضرب حتى لم يبقوا في جسميهما أي مكان سليم. وبعد أن أجهزوا عليهما جروا الجثتين من الطريق، جثة الأب إلى ناحية، وجثة الابن إلى الناحية الثانية... مقابل هذا الصليب في الناحية الثانية يوجد صليب آخر... ولا أدري هل ما زال سليماً أم لا... من هنا لا يُرى شيء...

قال كيريوخا: - ما زال سليماً.

- يقولون إن الحصادين لم يجدوا سوى قليل من النقود.

قال بانتيلي مؤكداً: - قليل... وجدوا نحو مئة روبل.

- نعم وقد مات ثلاثة منهم فيما بعد، فابن التاجر كان قد جرحهم بالمنجل جروحاً بليغة... ونزف دمهم. ابن التاجر بتر يد أحدهم، ويقولون إن الجريح

سار أربعة فراسخ دون يد، وقد وجدوه على تلة قرب قرية كوريكوفو. كان يجلس القرفصاء مرخياً رأسه فوق ركبتيه وكأنه مستغرق في التفكير، ولما تفرسوا فيه وجدوه قد فارق الحياة..

قال بانتيلي: - لقد وجدوه بتتبعهم أثر الدم.

نظر الجميع إلى الصليب وران السكون مرة أخرى... ومن مكان ما، لعله الوهدة، علا نداء طائر شجي: «وسو... وسو... وسو..»

قال يميليان: - الشريرون كثيرون في هذا العالم.

- كثيرون، كثيرون!

أكد بانتيلي وهو يقترب من النار وقد بدت عليه إمارات انقباض شديد. وتابع بصوت منخفض:

- كثيرون... لقد شاهدت منهم في حياتي عدداً لا يحصى... مِنْ هؤلاء الناس الشريرين... وشاهدت كثيراً من القديسين والصالحين، ولكن الخاطئين لا يمكن عدهم... نجينا وارحمينا يا ربة السموات. أذكر أنني كنت مرة منذ ثلاثين سنة، وربما أكثر، أنقل تاجراً من مورشانسك. كان تاجراً ممتازاً... ذا جاه ومال... وإنساناً طيباً... هذا التاجر.. لا بأس... نعم... سرنا سرنا ثم توقفنا للمبيت في خان على الطريق. والخانات في روسيا ليست كالتي في هذه النواحي. الخانات هناك مسقوفة على شكل الحظائر، أو على شكل المتابن في المزارع الكبيرة، إلاّ أن المتابن أعلى. الحاصل، نزلنا هناك، وكل شيء لا بأس به. التاجر نزل في غرفة وأنا عند الخيل، وكل شيء حسب الأصول. وأنا يا إخوتي صليت للرب كي أنام، وذهبت أتمشى في الفناء. الليل كان دامساً، ترفع إصبعك أمامك فلا تراها، وكأن عينيك مغمضتان. سرت قليلاً، مسافة قصيرة كالمسافة من هنا حتى العربات تقريباً، وإذا بي أرى بصيص ضوء. ما هذه القصة؟ كنت أعرف أن أصحاب الخان قد ناموا منذ مدة، ولم يكن في الخان نزلاء سوانا أنا والتاجر.. فمن أين أتى الضوء؟ امتلأت نفسي بالوساوس... اقتربت من الضوء أكثر... آه،

يا إلهي، ارحمينا ونجيبنا يا ربة السموات! نظرت فإذا بنافذة صغيرة على سوية الأرض مغطاة بشبك، في المبنى... انبطحت على الأرض وتطلعت من النافذة... وما إن تطلعت حتى اقشعر بدني كله...

دس كيريوخا في النار حزمة من الأعشاب محاولاً ألاّ يحدث أي ضجة، وانتظر الشيخ إلى أن كف العشب الملتهب عن الطقطقة والفحيح ثم تابع حديثه:

- تطلعت إلى الداخل فرأيت قبوا كبيراً معتماً وكئيباً... كان الضوء ينبعث من مصباح موضوع على برميل. وفي وسط القبو كان يقف رجال عشرة يرتدون قمصاناً حمراء طويلة، وقد شمروا عن سواعدهم وانهمكوا في شحذ سكاكين طويلة... آه! معنى هذا أننا وقعنا في أيدي عصابة من قطاع الطرق، فما العمل؟ ركضت إلى التاجر وأيقظته بهدوء وقلت له: «لا تخف أيها التاجر.. لا تخف.. نحن في وضع سيء.. فقد وقعنا في وكر لقطّاع الطرق»، فاصفر وجهه وسألني: «وماذا سنفعل الآن يا بانتيلي؟ معي مبلغ كبير من المال... وهو مال يتامى... بالنسبة إلى حياتي أنا... الرب حر فيما يفعله بي، أنا لست خائفاً من الموت، ولكنني خائف من فقدان أموال اليتامى...». ماذا يمكن أن نفعل في هذه الحالة؟ البوابة مقفلة، ولا يوجد منفذ للخروج بالعربة ولا سيراً على الأقدام... لو كان هناك سياج لكان من الممكن القفز من فوقه، ولكن الفناء مسقوف! قلت للتاجر: «أنت، أيها التاجر، لا تخف بل صل لله عسى الرب لا يكسر خاطر الأيتام. ابق هنا وتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً وأنا سأرى... فربما خطرت لي فكرة ما...» وصليت أنا للرب، فأرشدني إلى فكرة... صعدت على عربتي وأخذت أنكش قش السقف بهدوء شديد لئلا يسمع أحد شيئاً... وظللت أنكش حتى فتحت طاقة وانسللت منها إلى الخارج... نعم إلى الخارج، وقفزت عن السطح وركضت في الطريق بكل قوتي... ركضت... ركضت حتى الإعياء... ربما قطعت خمسة فراسخ من دون أن

أتوقف... وربما أكثر.. وشكرت الله أخيراً على أنني شاهدت أمامي قرية. ركضت إلى إحدى الدور وأخذت أدق على النافذة وأصبح: «أيها المؤمنون، القصة كيت وكيت، لا تدعوهم يقتلوا نفساً مسيحية...» أيقظت الجميع... اجتمع الفلاحون وساروا معي... بعضهم أخذ حبلاً، وبعضهم أخذ عصا، وبعضهم أخذ مذراة... كسرنا بوابة الخان وهجمنا على القبو... كان اللصوص قد انتهوا من شحذ السكاكين ويستعدون لذبح التاجر، أمسك الفلاحون بهم جميعاً كما هم، وربطوهم وساقوهم إلى المسؤولين. وقد تبرع التاجر للفلاحين من فرحه بثلاثمئة روبل، وأعطاني خمس مخمسات ذهبية، وكتب اسمي في دفتره للذكرى. يقولون إنهم وجدوا في القبو فيما بعد كمية كبيرة جداً من عظام بني آدم. أي نعم.. عظام... فاللصوص كانوا ينهبون الناس ثم يدفنونهم حتى لا يبقى منهم أي أثر. إيه... وبعد مدة أرسلوهم إلى مورشانسك، وهناك أعدموهم.

أنهى قصته ونظر إلى مستمعيه، وكان هؤلاء يحدقون إليه صامتين. غلى الماء وراح ستيبكا يزيل الطفاحة عن صفحته.

سأل كيريوخا همساً: هل الدهن جاهز؟

- انتظر لحظة... الآن...

ركض ستبيكا نحو العربات دون أن يحول بصره عن بانتيلي، وكأنه كان يخشى أن يستأنف هذا حديثه في غيابه، ثم ما لبث أن عاد حاملاً جرناً خشبياً صغيراً وراح يدعك فيه قطعة من دهن الخنزير.

وعاد بانتيلي إلى الحديث بصوت خافت كالسابق ودون أن يطرف بعينيه:
- في مرة أخرى كنت أرافق تاجراً أيضاً يدعونه، وأذكر كما لو كان الأمر الآن، بيوتر غريغوريفتش، وكان هذا التاجر إنساناً طيباً... وقد نزلنا في خان كما في تلك المرة... هو في غرفة وأنا عند الخيل... وكان صاحبا الخان، الزوج الزوجة، يبدوان شخصين طيبين وأنيسين، والعاملون أيضاً لا بأس

بهم، ومع ذلك يا إخوان لم أستطع أن أنام، فقلبي لم يكن مطمئناً! لم يكن مطمئناً وكفى. البوابة مفتوحة، والناس حولنا كثيرون، ومع ذلك كنت أحس بالخوف من شيء ما، ولا أستقر على حال. كان الجميع قد ناموا منذ مدة طويلة، والليل يوشك أن ينتهي، وقريباً سيحين وقت الاستيقاظ، وأنا وحدي أستلقي في عربتي، ولا يغمض لي جفن. كأني بوم. وفجأة يا إخوان، سمعت وقع خطوات: توب! توب! توب! أحدهم كان يقترب من العربة متسللاً. مددت رأسي ونظرت – فرأيت امرأة ليس عليها سوى جلباب وقدماها حافيتان. سألتها: «ما بك يا امرأة؟» وإذا بها ترتجف كلها... أي نعم... ووجهها لا يعرف لونه.. قالت لي: «انهض أيها الإنسان الطيب! مصيبة... أصحاب الخان يضمرون الشر... يريدون أن يذبحوا التاجر الذي معك، سمعت بأذني كيف كان صاحب الخان وزوجته يتهامسان»... إذن وساوسي كانت في محلها! وسألتها: «وأنت من تكونين؟» فقالت: «أنا الطباخة..» طيب، نزلت من العربة وذهبت إلى التاجر، أيقظته وقلت له: «القصة كيت وكيت يا بيوتر غريغوريفتش، الأمور لا تبشر بخير... فيما بعد سيكون بإمكانك النوم قدر ما تريد أيها المحترم، أما الآن فالبس ثيابك ما دام هناك وقت ودعنا نبتعد عن الشر بأمان وسلامة».. ولكن ما إن بدأ التاجر يلبس ثيابه حتى فُتح الباب، وأهلاً وسهلاً... نظرت – يا ربة السموات! دخل الغرفة صاحب الخان وزوجته وثلاثة من عماله... معنى هذا أنهما استمالا العمال أيضاً. كان مع التاجر نقود كثيرة، هيا إذن، يعني، نتقاسمها... كل واحد من الخمسة كان يمسك بسكين طويلة... أي نعم... سكين طويلة. أقفل صاحب الخان الباب، وقال: «صليا للرب أيها المسافران، أما إذا صرختما فإننا لن نمهلكما حتى لصلاة ما قبل الموت» ولكن من أين كان لنا أن نصرخ؟ لقد انسد حلقانا من شدة الخوف، ولم نكن نفكر في الصراخ... أخذ التاجر يبكي ويقول: «أيها المؤمنون! أنتم قررتم أن تقتلوني، لأنكم طمعتم في نقودي... فيلكن ما تريدون. فأنا لست الأول ولن أكون الأخير، كثيرون من التجار أمثالي ذُبحوا في

الخانات، ولكن ما ذنب سائقي، أي إخوتي المؤمنين، حتى تقتلوه؟ وما الذي يجعله يلاقي العذاب من أجل نقودي؟» وظل يتكلم هكذا عساهم يشفقون علي! ولكن صاحب الخان قال له: «إذا نحن أبقينا عليه فسيكون أول الشهود علينا. وسيان قتلنا واحداً أو اثنين. سبعة ذنوب وحساب واحد... صليا للرب وانتهى الأمر، فالكلام لا فائدة منه!» ركعنا أنا والتاجر على ركبنا وانخرطنا في البكاء والتضرع للرب. وهو صار يتذكر أطفاله، أما أنا فكنت آنذاك شاباً، وكنت أريد أن أعيش... أخذنا ننظر إلى الأيقونات ونتضرع إلى الله بكلمات مؤثرة تستدر الشفقة إلى درجة أن دمعتي تكاد الآن أن تطفر من عيني. وكانت زوجة صاحب الخان تنظر إلينا وتقول: «أنتما من الناس الطيبين، لا تذكرانا بسوء في الآخرة، ولا تدعوا علينا، لأننا لا نفعل هذا إلاّ من الحاجة». صلينا صلينا وبكينا بكينا، واستجاب الرب لدعواتنا. أشفق علينا، أي نعم... ففي اللحظة التي أمسك فيها صاحب الخان بالتاجر من لحيته لكي يحز رقبته بالسكين دق أحدهم فجأة على النافذة بقوة! فسقط الجميع على ركبهم وارتخت يدا صاحب الخان من الفزع، وعاد الطارق يدق على النافذة ويصيح: «بيوتر غريغوريفتش! أنت هنا؟ هيا استعد، حان وقت السفر!» وعندما رأى أصحاب الخان أن أشخاصاً قد أتوا يستدعون التاجر خافوا وأطلقوا سيقانهم للريح... ونحن خرجنا بسرعة إلى الفناء وشددنا الخيل إلى العربة وانطلقنا كالطير الطائر. سأل ديموف:

- ومن الذي كان يدق على النافذة؟

- على النافذة؟ لابد أنه أحد الصالحين أو أحد الملائكة... لا أحد غير هؤلاء... فعندما خرجنا من الفناء لم نجد في الشارع أي شخص... قضية ربانية!

روى بانتيلي بعض القصص الأخرى، وفي جميع هذه القصص كان ثمة دور بالقدر نفسه «للسكاكين الطويلة»، وكنت تحس فيها بالقدر نفسه من الاختلاق. تُرى هل سمع بانتيلي هذه القصص من شخص آخر، أم ألّفها بنفسه في الماضي البعيد، ثم اختلط لديه الواقع بالخيال فيما بعد عندما ضعفت

ذاكرته، ولم يعد يميز أحدهما من الآخر؟ كل هذا ممكن، ولكن الغريب في الأمر أنه كان طوال الطريق، عندما يروي قصة، يفضل ما يوحي إليه به خياله، ولا يتحدث البتة عما جرى معه في الواقع. آنذاك كان يغوروشكا يتلقى كل ما يقال على أنه حقيقة واقعة، ويصدق كل كلمة يسمعها. وقد بدا له غريباً فيما بعد أن هذا الإنسان الذي جاب في حياته روسيا كلها، هذا الإنسان الذي احترقت زوجته وأولاده، كان يبخس حياته الغنية قيمتها إلى حد أنه كان في كل مرة يجلس فيها حول النار، إما أن يصمت، أو يتحدث عن أشياء لم تقع.

على العشاء لاذ الجميع بالصمت، وطفقوا يفكرون فيما سمعوه قبل قليل. الحياة مخيفة وعجيبة، ولذلك فإن أية قصة مرعبة ترويها في روسيا، مهما زركشتها بأوكار اللصوص والسكاكين الطويلة والعجائب، تجد لها في نفس المستمع وقع الحقيقة، إلا إذا كان المستمع شخصاً مثقفاً واسع الاطلاع، فإنه سينظر شزراً غير مصدق، ولكنه مع ذلك سيلوذ بالصمت.

الصليب بجانب الطريق، والبالات التي تلفها الظلمة، والمدى الفسيح، ومصائر هؤلاء الناس المجتمعين حول النار – كل هذا كان بحد ذاته عجيباً ومخيفاً إلى درجة تجعل خيالية الخرافة أو الحكاية تشحب وتندغم بالحياة.

كان الجميع يأكلون من القدر ما عدا بانتيلي الذي انزوى وحده، وراح يأكل العصيدة من قصعة خشبية. ملعقته لم تكن كملاعق الآخرين. كانت مصنوعة من خشب السرو، ومقبضها بشكل صليب.

تذكر يغوروشكا وهو ينظر إليه كؤيسة السراج فسأل ستيبكا بصوت خافت:

- لماذا يجلس الجد وحده؟

فأجابه ستيبكا وفاسيا همساً وهما ينظران نظرة توحي بأنهما يتحدثان عن عادة سيئة أو عيب مستور:

- إنه من ذوي العقيدة القديمة.

صمت الجميع وطفقوا يفكرون. فبعد سماع القصص المرعبة لم تكن ثمة رغبة في الحديث عن أشياء عادية. وفجأة وسط الهدوء الشامل رفع فاسيا جذعه وصوب عينيه الكابيتين إلى نقطة واحدة وأصاخ السمع، فسأله ديموف:

- ما الأمر؟

أجاب فاسيا: - شخص قادم نحونا.

- أين تراه؟

هناك! لا يكاد يرى!

ولكن هناك، حيث ينظر فاسيا، لم ير أحد شيئاً سوى الظلام. أصاخ الجميع، بيد أن أحداً لم يسمع وقع خطوات.

سأل ديموف: - هل يسير في الطريق؟

- لا.. في الحقل.. إنه قادم إلى هنا.

ساد الصمت دقيقة ثم قال ديموف:

- ربما كان هذا هو التاجر المدفون هنا يتجول في السهب.

نظر الجميع إلى الصليب بأطراف أعينهم، ثم تبادلوا النظرات وانفجروا فجأة ضاحكين، لقد شعروا بالخجل من خوفهم.

قال بانتيلي: - ولماذا يتجول؟ لا يمشي في الليل إلاّ الذي ترفضه الأرض. أما هذان التاجران فلا بأس عليهما... هذان تكللا بتاج الشهادة.

وفجأة سمعوا وقع خطوات. شخص ما كان يسير بسرعة.

قال فاسيا: - إنه يحمل شيئاً ما.

وأصبحوا يسمعون كيف يخشخش الحشيش، ويطقطق العشب تحت قدمي الشخص القادم، ولكنهم لم يشاهدوا أحداً خلف وهج النار. وفي النهاية اقترب وقع الخطى وسمعوا صوت سعال. ثم شعر السائقون كأن الضوء المتراقص قد انشق، وكأن غشاوة قد سقطت عن أعينهم فأبصروا فجأة شخصاً يقف أمامهم.

وهنا جرى أمر غريب! تُرى ألأن النار ومضت على نحو معين، أم لأن الجميع أرادوا أن يتبينوا قبل كل شيء وجه هذا الشخص؟! من الصعب الجزم، ولكن ما حدث هو أن ما شاهده الجميع قبل كل شيء لدى النظرة الأولى إلى القادم لم يكن وجهه ولا ملابسه، بل ابتسامته. كانت ابتسامة عريضة، وديعة، تنم على طيبة غير عادية كابتسامة طفل أيقظوه من النوم، ابتسامة مُعْدِية من تلك الابتسامات التي يصعب عليك ألاّ ترد عليها بابتسامة. وعندما تبينت العيون الغريب، اتضح أنه شخص في الثلاثين من عمره، وغير وسيم، ولا يمتاز بأي شيء. إنه أوكراني طويل القامة، وطويل الأنف، وطويل اليدين والقدمين. وكل شيء فيه على العموم كان يبدو طويلاً ما عدا رقبته التي كانت قصيرة إلى حد جعلته يبدو محدودباً. كان يرتدي قميصاً أبيض نظيفاً ذا ياقة مطرزة، وسروالاً أبيض، وجزمة جديدة، وبدا إلى جانب السائقين مفرطاً في الأناقة. كان يمسك بيده شيئاً ما كبيراً أبيض، ويبدو عند النظرة الأولى غريباً، ومن خلف منكبه كانت تطل ماسورة بندقية طويلة هي الأخرى.

ما إن خرج الرجل من أحشاء الظلمة إلى دائرة النور حتى جمد في مكانه كالمسمر، وظل نحو نصف دقيقة ينظر إلى السائقين وكأنه يريد أن يقول: «انظروا ما أروع ابتسامتي!». ثم خطا نحو النار، وقال وهو يبتسم ابتسامة أكثر تألقاً:

- بالخبز وبالملح يا إخوان!

فرد عليه بانتيلي نيابة عن الجميع:

- تفضل.

وضع القادم ما كان يحمله بجانب النار – وكان هذا حبارى مقتولة – وألقى التحية مرة ثانية.

اقترب الجميع من الحبارى وأخذوا يتفحصونها بنظراتهم. قال ديموف متسائلاً:

- طائر مهم! بم قتلته؟

- بخردق كبير... الخردق العادي لا يصل إليها... فهي لا تدعك تقترب منها... اشتروها يا إخوان! أبيعكم إياها بثلاثين كوبيكا.

- وماذا نفعل بها؟ هذه يمكن أكلها مقلية، أما مسلوقة فإنها، أكيد، قاسية، لا يمكن مضغها.

- إيه، يا للأسف! ليتني كنت أستطيع إيصالها إلى السادة في المزرعة! أولئك كانوا سيعطونني خمسين كوبيكا، ولكن المزرعة بعيدة، خمسة وعشرون فرسخاً من هنا.

جلس الغريب ونزع بندقيته ووضعها بجانبه، وقد بدا وسنان، فاتر الهمة، وكان لا يفتأ يبتسم ويضيق عينيه ليتقي وهج النار، ويفكر على ما يبدو في شيء ما سارٍ جداً. أعطوه ملعقة وشرع يأكل. سأله ديموف: - أنت من؟

لم يسمع الغريب السؤال فلم يجب، بل إنه حتى لم ينظر صوب ديموف. ويظهر أن هذا الشخص الباسم لم يكن يتذوق طعم العصيدة لأنه كان يمضغ الطعام بطريقة آلية، ويأكل بكسل، فتارة يحمل الملعقة إلى فمه ملأى تماماً وتارة فارغة. لم يكن مخموراً ولكن شيئاً ما يشبه الخبل كان يجول في رأسه بحرية. كرر ديموف:

- إنني أسألك: من أنت؟

اختلج الغريب وقال: - أنا...؟ قسطنطين زفونيك من روفنويه على بعد أربعة فراسخ من هنا.

ورغبة منه في أن يظهر منذ البداية أنه ليس من العوام كجميع الموجودين، بل أحسن منهم، بادر إلى القول:

- لدينا منحلة وزريبة خنازير.

- أتعيش عند والدك أم وحدك؟

- لا... الآن أصبحت أعيش وحدي. انفصلت. في هذا الشهر بعد عيد مار بطرس تزوجت. الآن أنا متأهل... وهذا هو اليوم الثامن عشر بعد تسجيل القران.

قال بانتيلي: - أمر جيد، الزوجة لا بأس بها... هذا شيء باركه الرب.

قال كيريوخا متضاحكاً:

- امرأة شابة تنام في البيت وهو يتجول في السهب – غريب الأطوار.

انتفض قسطنطين وكأن أحداً قرصه من أكثر الأماكن حساسية في جسمه، وضحك وتضرج بالحمرة... ثم قال وهو يخرج الملعقة من فمه بسرعة، ويلف الجميع بنظرة تفيض بالسرور والدهشة:

- آه يا إلهي! إنها ليست في البيت. لقد ذهبت لزيارة أمها مدة يومين. هي ذهبت وأنا كأنني لست متزوجاً، أي وربّي.

نفض قسطنطين يده وأشاح برأسه، كان يريد أن يواصل تفكيره، بيد أن السرور الذي أضاء وجهه منعه من ذلك. عدّل من جلسته وكأنه كان في وضع غير مريح، وضحك ونفض يده مرة أخرى. كان يحس برغبة جارفة في أن يشاركه أحد سروره. قال وهو يتضرج بالحمرة وينقل بندقيته إلى مكان آخر:

- ذهبتْ إلى ديميدوفو لتزور أمها... ستعود غداً.. قالت إنها ستعود قبيل الغـــداء.

سأل ديموف: - وأنت هل تحس بالملل؟

- آه يا إلهي، وكيف لا؟ لم يمر على زواجنا سوى أيام معدوات، وها هي تتركني وتسافر... آ؟ أوه، إنها عفريتة، عاقبني يا رب! ظريفة جداً وطيبة، تظل تضحك وتغني، دائماً تراها كالنار الملتهبة، بوجودها رأسي يلف لفاً، وبغيابها أحس كأنني أضعت شيئاً، وأجد نفسي أجول في السهب كالأبله. ها أنا منذ الظهر ولا يهدأ لي بال.

مسح قسطنطين عينيه ونظر إلى النار وضحك.

قال له بانتيلي: - تحبها إذن...

قال قسطنطين دون أن يصغي: - ظريفة جداً، وطيبة جداً، ومدبرة، وذكية وعاقلة، حتى أنك لو فتشت في المنطقة كلها فإنك لن تجد مثلها في أوساط الفئة البسيطة. هي سافرت... ولكنها الآن مشتاقة! أعرف هذا! أعرف عقعقتي! قالت إنها ستعود غداً قبيل وقت الغداء..

وفجأة رفع قسطنطين طبقة صوته، وعدل من جلسته، وقال بصوت كالصراخ: - يا لها من قصة! إنها الآن تحب وتشتاق، بينما في البداية لم تكن تريد الزواج مني.

قال له كيريوخا: - كل.. كل!

ولكن قسطنطين أردف دون أن يسمع: - لم تكن تريد الزواج مني.. ثلاث سنوات وأنا أحاول معها. رأيتها في السوق الموسمية في كالاتشيك. أحببتها حتى الموت. لم أعد أطيق الحياة بدونها... أنا في روفنويه وهي في ديميدوفو... بيننا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً، وأنا لم يعد لي قوة على الصبر بالمرة. وكلما كنت أرسل لها خطّابين كانت تقول لهم: لا أريد! آه منك يا عقعقة! حاولت معها بكل الوسائل، وأخذت أستمليها بالهدايا. حلق وحلوى وعسل بالأرطال. وهي: لا أريد. حرت في أمري. وفي الحقيقة إذا فكرت في القضية، أنا لست كفؤا لها. فهي شابة وجميلة وتغلي غلياناً، وأنا كبير في السن، قريباً سأتم الثلاثين. وجمالي لا يوصف: لحية عريضة – كالمسمار، ووجه صاف – كله بُجَر، فمن أين لي أن أساويها! ولكنْ هناك شيء واحد، وهو أننا نعيش ميسورين. وهم كذلك، عائلة فاخرامينكو، يعيشون عيشة جيدة. لديهم ثلاثة أزواج من الثيران وعاملان. أحببتها يا إخوتي، وفقدت صوابي... لم أعد أنام ولا آكل، ورأسي دائماً مملوء بالأفكار، وأحس كأن فيه خدراً ثقيلاً والعياذ بالله! أنا أريد أن أراها، وهي في ديميدوفو... فماذا تظنون كنت أفعل؟ فليعاقبني الرب إن كنت أكذب، كنت أذهب إلى هناك مشياً ثلاث مرات في الأسبوع لأنظر إليها. تركت أعمالي! أصابني الخبل في عقلي حتى أنني

فكرت في أن أعمل بالأجرة في ديميدوفو كي أكون قريباً منها. لاقيت الأمرّين! أمي استدعت لي عرافة، وأبي أكثر من عشر مرات همّ بضربي، وظللت ثلاث سنوات أتعذب، ثم قررت بيني وبين نفسي: عليك اللعنة ثلاثاً، سأذهب إلى المدينة وأعمل سائقاً، واضح أنه لا نصيب لي فيها! في عيد الفصح ذهبت إلى ديميدوفو كي أنظر إليها آخر مرة...

مال قسطنطين برأسه إلى الخلف، وأطلق ضحكة ناعمة مرحة وكأنه خدع للتو شخصاً ما بحيلة ماكرة... ومضى يقول:

- نظرت فإذا بها تقف مع شبانٍ قرب النهر... فثار حنقي... ناديتها، وأخذتها إلى جانب، وهات يا كلام... ساعة كاملة تقريباً، فأحبتني! ثلاث سنوات لم تحبني. ثم جعلها الكلام تحبني..

فسأله ديموف: - وما هو هذا الكلام؟

- الكلام؟ لا أتذكره... وهل يمكن أن أتذكر؟! الكلمات كانت تسيل كالماء من الميزاب... بنفس واحد... طا – طا - طا.. الآن لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة من تلك الكلمات... وهكذا تزوجتني... والآن ذهبت العقعقة تزور أمها، وأنا بدونها أهيم على وجهي في السهب... لا أستطيع الجلوس في البيت! لا قدرة لي على ذلك!

حرر قسطنطين قدميه من تحته بحركة خرقاء وتمدد على الأرض وأسند رأسه إلى قبضتيه، ثم نهض وجلس ثانية. الجميع أصبحوا الآن يدركون بوضوح أن هذا الإنسان عاشق وسعيد... سعيد حتى الوحشة، ابتسامته وعيناه وكل حركة من حركاته كانت تعبر عن سعادة ممضة. لم يكن يقر له قرار، ولم يكن يعرف أي وضع يتخذ، وماذا يفعل، كيلا يصاب بالإعياء من وفرة الأفكار اللذيذة. بعد أن أفرغ قسطنطين كل ما في قلبه أمام أناس غرباء، جلس في نهاية الأمر بهدوء، وراح يرنو إلى النار غارقاً في تأملاته.

شعر الجميع بالوحشة في حضرة هذا الإنسان السعيد، ودهمهم الحنين إلى السعادة. وغرقوا كلهم في التفكير. نهض ديموف وراح يتمشى بهدوء قرب النار، وكان واضحاً من مشيته، ومن حركات عظمتي لوحيه، أنه يعاني من الوحشة والضجر. توقف قليلاً ونظر إلى قسطنطين ثم جلس.

كانت النار على وشك أن تخمد، والضوء لم يعد يتراقص، والبقعة الحمراء ضاقت وبهتت... وبقدر ما كانت النار تسرع في الخمود كانت الليلة القمراء تتضح للعيان. لقد بانت الآن الطريق بكامل عرضها، واتضحت البالات، وأعرشة العربات، والخيول وهي تمضغ العليق. وفي ذاك الجانب من الطريق لاحت على نحو غير واضح معالم الصليب الآخر...

أسند ديموف خده إلى يده وشرع يغني بهدوء أغنية شجية. ابتسم قسطنطين بفتور وردد معه بصوت رقيق. غنى الاثنان نحو نصف دقيقة ثم صمتا... اختلج يميليان، وهز مرفقيه، وحرك أصابعه، وقال متضرعاً وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

- هيا أيها الإخوة نغن شيئاً ما ربانيا!

وعاد يكرر وهو يضع يده على قلبه متوسلاً:

- هيا أيها الإخوة نغن شيئاً ما ربانيا!

قال قسطنطين:

- أنا لا أجيد الغناء.

ورفض الجميع. فما كان من يميليان إلاّ أن شرع بالغناء وحده. لوح بكلتا يديه، ومال رأسه إلى الخلف، وفتح فمه، ولكن لم يخرج من حنجرته سوى نفس متحشرج لا صوت فيه. فطفق يغني بيديه ورأسه وعينيه وحتى بالعجرة التي تحت عينه، غنى بحرقة وألم، وكلما كان يزيد من توتر صدره كي ينتزع منه ولو نغمة واحدة كان صوت أنفاسه يزداد خموداً.

أحس يغوروشكا أيضاً بالضجر كالجميع، فذهب إلى عربته وارتقى البالة واستلقى عليها، وسرح بصره في السماء وهو يفكر بقسطنطين السعيد وزوجته. لماذا يتزوج الناس؟ ولماذا وجدت النساء في هذه الدنيا؟ كان يغوروشكا يطرح على نفسه أمثال هذه الأسئلة الغامضة، ويفكر في أن الرجل سيكون على الأرجح مسروراً إذا كانت تعيش إلى جانبه باستمرار امرأة محبة ومرحة وجميلة. ولا يدري لماذا تذكر الكونتيسة درانيتسكايا، وفكر في أن الحياة مع مثل هذه المرأة ستكون على الأرجح لذيذة جداً. ولولا أن الأمر فيه كثير من الإحراج لكان تزوجها بكل سرور. تذكر حاجبيها، وبؤبؤي عينيها، والمركبة، والساعة ذات الفارس...

وهبط فوقه الليل الساكن الدافئ وهمس له بشي ما في أذنه، وخيل إليه أن تلك المرأة الحسناء هي التي تنحني فوقه، وأنها ترنو إليـــه وهي تبتسم، وتريد أن تقبلّه.

لم يبق من النار سوى عينين حمراوين صغيرتين لا تنفكان تصغران. وقد جلس السائقون وقسطنطين بالقرب منهما ساكنين داكنين. وبدأ كأنهم الآن أكثر عدداً بكثير مما كانوا قبلاً. وبان كلا الصليبين على حد سواء. وفي البعيد البعيد، في مكان ما على الطريق الكبير كان يومض ضوء أحمر – لعل جماعة ما هناك كانت هي الأخرى تطبخ عصيدة.

«أمنا روسيا –رأس الدّنيـــــا كلها!»

غنى كيريوخا فجأة بصوت وحشي، ثم سعل وسكت. فحمل الصدى السهبي صوته وسار به. وبدا أن الغباء نفسه يجري في السهب على عجلات ثقيلة.

قال بانتيلي: - حان وقت المسير، انهضوا يا شباب.

انهمك السائقون في تهيئة العربات، فيما كان قسطنطين يروح ويجيء بالقرب منهم ويتحدث بإعجاب عن زوجته. وعندما انطلقت القافلة صاح:
– الوداع يا إخوان! شكراً لكم على الخبز والملح! سأذهب ثانية إلى حيث توجد نار. لا قدرة لي على البقاء وحدي.

وسرعان ما غاب في العتمة وظل وقع خطواته يُسمع مدة طويلة وهو يسير صوب الضوء الذي يومض عن بعد ليحدث أناساً غرباء آخرين عن سعادته.

عندما استيقظ يغوروشكا في اليوم التالي كان الصباح في أوله. ولم تكن الشمس قد بزغت بعد. القافلة كانت متوقفة، وكان ثمة رجل يعتمر سدارة بيضاء، ويرتدي بزة من قماش رمادي رخيص، ويمتطي حصاناً قوزاقياً، يقف قرب أول عربة. وكان الرجل يكلم ديموف وكيريوخا حول أمر ما. وفي الأمام، على بعد فرسخين من القافلة، كانت تلوح عنابر طويلة غير عالية، وبيوت واطئة مسقوفة بالقرميد. وقرب البيوت لم تكن تُرى أحواش أو أشجار.

سأل يغوروشكا: - ما هذه القرية أيها الجد؟

فأجاب بانتيلي: - هذه، يا فتى، ضياع أرمنية. هنا يعيش الأرمن. شعب لا بأس به... الأرمن هؤلاء.

أنهى الرجل الذي يرتدي الرمادي حديثه مع ديموف وكيريوخا، وشدّ عنان جواده إلى الخلف، وسدد بصره نحو القرية. نظر بانتيلي هو الآخر صوب القرية، وقال وهو يتنهد ويتقبّض من نداوة الصباح:

- يا لها من أمور.. شيء غريب! أرسلَ شخصاً إلى الضيعة لإحضار ورقة، وحتى الآن لم يعد... لو أنه أرسل ستيبكا!

سأل يغوروشكا: - ومن هذا! أيها الجد؟

- فارلاموف.

يا إلهي! وثب يغورُوشكا بسرعة، وجثا على ركبتيه وراح ينظر إلى صاحب السدارة البيضاء. كان من الصعب على المرء أن يخمن أن هذا الشخص الرمادي القصير الضئيل، الذي ينتعل جزمة كبيرة، ويمتطي حصاناً قميئاً، ويتحدث مع السائقين في مثل هذا الوقت الذي يكون فيه جميع الناس المحترمين نائمين، هو فارلاموف الغامض الذي لا تدري أين تجده، والذي يبحث عنه الجميع، والذي يظل دائماً «يجول»، والذي يملك من الأموال أكثر مما تملك الكونتيسة دارنيتسكايا.

قال بانتيلي وهو ينظر نحو القرية:

- شخص لا بأس، جيد... ليعطه الرب الصحة، سيد ممتاز.. نعم... فارلاموف سيميون الكساندريتش... على أمثال هؤلاء الناس، يا أخ، يقوم العالم، هذا صحيح. قبل أن يصيح الديك تجده واقفاً على قدميه، غيره تجده نائماً أو في منزله يثرثر مع ضيوفه كذا وكذا وكيت وكيت، أما هو فطوال يومه في السهب... يجول.. لا يفوّت أي عمل.. لا.. أبداً! شخص همام...

كان فارلاموف يتكلم دون أن يحول بصره عن القرية، فيما كان حصانه الذي فرغ صبره لا ينفك يتحول في وقفته من قدم إلى قدم.

صاح بانتيلي وهو ينزع قبعته: - سيميون الكساندريتش، أرسلوا ستيبكا إذا سمحتم! ناد عليهم يا يميليان كي يرسلوا ستيبكا!

ولكن ها هو خيّال ينفصل عن القرية أخيراً، وقد مال بشدة إلى جانب وراح يلوح بالسوط فوق رأسه وكأنه يعرض مهارته في الفروسية، ويرغب في إدهاش الجميع بجرأته. وها هو يندفع بسرعة الطير نحو القافلة.

قال بانتيلي: - هذا أحد الحراس الدوّارين. عنده منهم، من هؤلاء الحراس، نحو مئة، وربما أكثر.

عندما حاذى الخيّال العربة الأمامية أوقف فرسه، وخلع قبعته، وناول فارلاموف دفتراً ما. فأخرج هذا من الدفتر بضع أوراق، ونظر فيها ثم صاح:

- وأين رسالة ايفانتشوك؟

استرد الخيال الدفتر ونظر في الأوراق وهز كتفيه، ثم راح يتحدث عن شيء ما. كان على ما يبدو يحاول تبرئة نفسه، ويرجو السماح له بالعودة إلى القرية. فجأة تحرك حصان فارلاموف على نحو يجعل الرائي يظن أن راكبه أصبح أثقل. وتحرك فارلاموف كذلك وصاح بغضب وهو يلوح بالسوط أمام وجه الخيال: - هيا من هنا!

ثم لوى عنان حصانه ونظر ثانية في الأوراق وسار الهوينى بمحاذاة القافلة. وعندما اقترب من العربة الأخيرة حدد يغوروشكا بصره إليه متفرساً إياه. إنه

متقدم في السن، ووجهه ذو اللحية الصغيرة التي وخطها الشيب، هذا الوجه الروسي البسيط الملوح بالشمس، كان أحمر، ومبللاً بالندى، ومغطى بعروق زرقاء، ويتسم بالجفاف العملي نفسه الذي يتسم به وجه ايفان ايفانيتش. نعم، إنه التزمت العملي نفسه، ولكن مع ذلك كان الرائي يحس بفارق ما بينه وبين ايفان ايفانيتش! فالخال كوزميتشوف كان وجهه يتسم دائماً إلى جانب الجفاف العملي بالهم والخوف من أن لا يجد فارلاموف، ومن أن يتأخر فتفوته فرصة الحصول على سعر جيد، في حين أنك لا ترى شيئاً من هذا الذي يتصف به الصغار والتابعون، لا في وجه فارلاموف، ولا في سائر قوامه. فهذا الرجل هو الذي حدد الأسعار، وهو لا يبحث عن أحد، ولا يتعلق بأحد، ومع أن مظهره كان جد عادي، إلا أن كل ما فيه، حتى طريقة إمساكه بالسوط كان يشعرك بإحساسه بالقوة، وبسيطرته التقليدية على السهب.

مر فارلاموف بيغوروشكا دون أن ينظر إليه، حصانه وحده أنعم على الصبي بالتفاتة، ناظراً إليه بعينين كبيرتين غبيتين ولكن من دون أي اكتراث. انحنى بانتيلي لفارلاموف فلاحظ الأخير ذلك، وقال بلسان ألثغ دون أن يحول نظره عن الأوراق:

- مغحبا[١] أيها الشيخ!

كان من الواضح أن حديثه مع الخيّال وتلويحه بالسوط قد خلفا في نفوس السائقين كافة شعوراً عميقاً بالغم. الجميع كانت وجوههم جدية. والخيّال الذي انخلع قلبه من غضب هذا الإنسان الجبار، وقف قرب العربة الأمامية حاسر الرأس، معقود اللسان، مرخياً عنان جواده، وكأنه لم يكن يصدق أن نهاره بدأ بكل هذا السوء. غمغم بانتيلي: - شخص عنيف. عنيف بشكل فظيع! ولكن لا بأس... إنسان جيد... لا يتجنى على أحد... لا بأس...

بعد أن تفحص فارلاموف الأوراق ودس الدفتر في جيبه، انتفض حصانه وكأنه قد فهم أفكار صاحبه، واندفع في الطريق الكبير دون أن ينتظر أمره.

---

(١) مرحبا.

- ٧ -

في الليلة التي تلت ذلك توقف السائقون في محطة أخرى وطبخوا عصيدة. ولكن في هذه المرة كان كل شيء يبعث منذ البداية على شعور مبهم بالوحشة، الجو كان خانقاً. والجميع كانوا يشربون كثيراً ولكنهم لا يستطيعون نقع غلتهم. وعندما بزغ القمر كان شديد الاحمرار وعابساً كأنه مريض. والنجوم أيضاً كانت عابسة، والظلمة كانت أكثف، والمدى أكثر عكراً. وكأن الطبيعة كانت تتوجس أمراً ما وتكابد.

لم تتسم الجلسة حول النار بالحيوية، ولم تنعقد فيها الأحاديث كالأمس. الجميع كانوا يشعرون بالضجر ويتكلمون بذبول ومن دون رغبة. وكان بانتيلي لا ينفك يتنهد ويشتكي من قدميه ويدير الحديث بين فينة وأخرى حول الموت الوقح.

أما ديموف فقد انبطح على بطنه، وراح يلوك في فمه قشة وهو صامت. كان وجهه يعبر عن الاشمئزاز وكأن القشة كانت تصدر رائحة كريهة، وترتسم عليه أمارات الغضب والتعب... وفاسيا كان يشتكي من ألم فكه ويتنبأ بطقس سيء. ولم يكن يميليان يلوح بيديه، بل كان يجلس ساكناً وينظر بتجهم إلى النار. ويغوروشكا كان يعاني كذلك. فالسير البطيء قد أتعبه، وقيظ النهار سبب له الصداع.

عندما استوت العصيدة راح ديموف يتحرش برفاقه من الضجر. قال وهو ينظر بحقد إلى يميليان:

- جلس وانفلش، العجرة، وهو أول من يتقدم بملعقته. منهوم! يهجم هجوماً ليكون أول الجالسين إلى القدر. لأنه كان منشداً يظن نفسه سيداً. كثيرون من أمثالك من المغنين يشحذون على قارعة الطريق.

فسأله يميليان وهو يحدجه بنظرة حاقدة كذلك:

- ما لك تتحرش بي هكذا؟

- لأنك أول من يحشر نفسه ليصل إلى القدر. لا تبالغ في تقدير نفسك.

قال يميليان بصوت مبحوح:

- أحمق وكفى!

وهنا تدخل بانتيلي وفاسيا اللذان كانا يعرفان بالتجربة إِلامَ تنتهي على الأغلب أمثال هذه الأحاديث، وأخذا يقنعان ديموف بالكف عن التشاتم من دون داعٍ. ولكن المشاكس لم يكف، وقال وهو يضحك بازدراء:

- منشد... أي واحد يمكنه الإنشاد على هذه الشاكلة. ما عليك إلاّ أن تجلس في رواق الكنيسة وتنشد «اعطوني صدقة كرمى للمسيح». هكذا أنتم.

لاذ يميليان بالصمت، فاغتاظ ديموف من صمته، وقال له وهو يحدجه بنظرة أشد كراهية:

- لا أريد الاشتباك معك، وإلاّ لكنت أريتك قدر نفسك.

فسأله يميليان بحدة:

- لماذا تتحرش بي يا مازيبا[1]؟ هل أتعرض لك بشيء؟

اعتدل ديموف في جلسته وسأل وقد احتقنت عيناه بالدم: ماذا سميتني؟ ماذا؟ أنا مازيبا؟! آ؟ إذن تلقّ نصيبك! اذهب ابحث عنها.

قال ديموف هذا وهو ينتزع الملعقة من يد يميليان ويقذف بها بعيداً. هب كيريوخا وفاسيا وستيبكا وركضوا يبحثون عنها، فيما راح يميليان يرمق بانتيلي بنظرة متوسلة ومتسائلة. فجأة غدا وجهه صغيراً وتغضن، وارتعش جفناه، وشرع المغني السابق يبكي كالأطفال.

شعر يغوروشكا الذي كان يضمر الكراهية لديموف منذ مدة طويلة أن الجو أصبح فجأة خانقاً إلى حد لا يطاق، وأن لهب النار يلفح وجهه ويحرقه،

(١) مازيبا (١٦٤٤-١٧٠٩) حاكم أوكرانيا، عمل على فصلها عن روسيا وانضم إلى السويديين فوصم بالخيانة (المترجم).

وتملكته رغبة شديدة في أن يركض بأقصى سرعته في قلب العتمة إلى حيث تقف القافلة، بيد أن عيني المشاكس الغاضبتين الضجرتين كانتا تشدانه إليهما. خطا نحو ديموف مندفعاً برغبة جارفة في أن يقول له شيئاً ما مهيناً إلى أقصى حد، وقال وهو يلهث:

- أنت أسوأ من الجميع! أنا لا أطيقك.

بعد هذا كان عليه أن يركض نحو القافلة، بيد أنه لم يستطع التحرك من مكانه ومضى يقول:

- في الآخرة سوف تحترق بنار جهنم! سأشكوك إلى ايفان ايفانيتش! إياك أن تسيء إلى يميليان!

قال ديموف وهو يضحك ساخراً:

- وهذا أيضاً، تفضل خذ! خنوص صغير لم يجف الحليب عن شفتيه بعد ويجعل من نفسه آمراً. وماذا إذا شددتك من أذنك؟

شعر يغوروشكا أنه لم يعد يستطيع التنفس، وفجأة أخذ يرتعش بجسمه كله – ولم يكن هذا قد حدث معه من قبل قط – وخبط الأرض بقدميه وصرخ بصوت حاد:

- اضربوه، اضربوه!

طفرت الدموع من عينيه، وشعر بالخجل فركض نحو العربات مترنحاً، دون أن يرى الانطباع الذي خلفته صرخته. استلقى على بالة الصوف وانخرط في البكاء، وراحت يداه وقدماه تنتفضان، وشفتاه تهمسان:

- ماما! ماما!

وبدا له أن هؤلاء الناس، وهذه الظلال المتراقصة حول النار، والبالات القابعة في الظلمة، والبرق البعيد الذي لا ينفك يومض كل دقيقة – كلهم متوحشون ومرعبون. أحس بالهلع وراح يتساءل بيأس: كيف ولماذا وصل

إلى هذه الأرض المجهولة، ووقع بين هؤلاء العوامّ المرعبين؟ أين خاله الآن، وأين الأب خريستوفور، وأين دينيسكا؟ لماذا تأخروا كل هذه المدة؟ أتراهم نسوه؟ وعندما خطرت له فكرة أنه منسي، وأنهم تركوه يواجه عسف الأقدار وحده، سرت في جسده قشعريرة، وأحس بضيق جعله يهم عدة مرات بالقفز من فوق البالة والركض دون أن يلوي على شيء إلى الخلف، على طريق العودة. لكن ذكرى الصليبين المعتمين المتجهمين اللذين سيلاقيانه حتماً في الطريق، والبرق الذي يومض في البعيد كانا يوقفانه... ولم يكن يشعر ببعض الارتياح مما هو فيه إلاّ عندما كان يهمس: «ماما... ماما...»

ويبدو أن السائقين كانوا يشعرون كذلك بالضيق. فبعد أن غادر يغوروشكا المجلس حول النار ظلوا في البداية فترة طويلة صامتين، ثم أخذوا يتحدثون بصوت هامس مكتوم عن شيء ما، وعن أن هذا الشيء قادم نحوهم، وأن عليهم أن يتأهبوا بأسرع ما يمكن، ويبتعدوا عنه... عجلوا في تناول عشائهم، وأطفؤوا النار وراحوا يشدّون الخيل إلى العربات بصمت. وكان يبدو من انهماكهم المتعجل وعباراتهم المتقطعة أنهم يتوقعون مصيبة ما.

وقبل أن ينطلقوا اقترب ديموف من بانتيلي وسأله:

- ما اسمه؟

فأجابه بانتيلي:

- يغوري...

وقف ديموف بإحدى قدميه على دولاب العربة وتمسك بالحبل الذي حزمت به البالة، وارتفع بجسمه إلى الأعلى. فشاهد يغوروشكا وجهه ورأسه ذا الشعر الجعد. الوجه كان شاحباً، مجهداً، جدياً، ولم يكن فيه أثر للحقد. قال بصوت منخفض:

- يورا! هاك، اضرب!

نظر يغوروشكا إليه بدهشة، وفي هذه اللحظة لمع البرق. وعاد ديموف يقول:

- لا بأس، اضرب!

ودون أن ينتظر حتى يضربه يغوروشكا أو يكلمه قفز إلى الأسفل وقال:

- أنا ضجر!

وبعد ذلك سار بمحاذاة القافلة مائلاً على إحدى قدميه تارة وعلى الثانية تارة أخرى ومحركاً لوحيه بكسل، وقال مكرراً بصوت لا تدري أيغلب عليه البكاء أم الغيظ:

- أنا ضجر! آه يا إلهي!

وعندما حاذى يميليان توجه إليه قائلاً:

- وأنت يا يميليان لا تزعل، حياتنا فاسدة، قاسية.

لمع البرق من اليمين، وعلى الفور لمع في البعيد وكأنه انعكس هناك في مرآة. صاح بانتيلي:

- يغوري، خذ!

ورفع إلى الصبي شيئاً ما كبيراً أدكن.

- ما هذا؟

- خيشة! المطر سيهطل خذ هذه تغطّ بها.

نهض يغوروشكا بجذعه وتطلع حواليه.

المدى كان يتلبد بالسواد، وكل دقيقة يومض فيه أكثر من مرة ضوء شاحب كبصر يطرف. وقد مال سواده إلى اليمين وكأنه ينوء بثقله. سأل يغوروشكا: - هل ستهب العاصفة أيها الجد؟

لم يسمع بانتيلي السؤال، وقال بصوت ممطوط وهو يخبط الأرض بقدميه:

- آه، يا قدميّ المريضتين المتجمدتين!

من اليسار ومض خط فوسفوري شاحب وانطفأ، كأن أحداً حكّ عود ثقاب بالسماء، وارتفع صوت تخاله وقع خطوات شخص ما يسير في مكان بعيد

على سقف معدني. ويبدو أن هذا الشخص يسير حافياً لأن المعدن كان يزمجر بصوت أصم.

صاح كيريوخا: - إنه عامّ.

التمع البرق بين المدى والأفق اليميني، وكان من السطوع بحيث أنار جزءاً من السهب والمكان الذي تتجاور فيه السماء الصافية والسواد. كان ثمة غيمة مخيفة تزحف رويداً رويداً كتلةً متماسكةً، وقد تعلقت على طرفها ندف سوداء كبيرة. وكانت تتكاثف في الأفق من اليمين واليسار ندف مماثلة يزحم بعضها بعضاً. وكان مظهر الغيمة الرث المشعث هذا يجعلها تبدو بهيئة عربيد ثمل. زمجر الرعد بصوت واضح غير أصم هذه المرة، فرسم يغوروشكا علامة الصليب، وبادر إلى ارتداء معطفه على عجل.

- أنا ضجر! ضجر!

ترامى من جهة العربات الأمامية صياح ديموف، وكان صوته يدل على أنه بدأ يحنق من جديد.

وفجأة هبت الريح بقوة عاتية فكادت تنتزع الصرة والخيشة من يغوروشكا. راحت الخيشة تخفق وتندفع في جميع الاتجاهات وتضرب البالة ووجه الصبي. وعدت الريح في السهب وهي تصفر، ودارت بفوضوية، وأثارت مع العشب ضجيجاً طغى على هزيم الرعد وصرير العجلات. كانت الريح تهب من الغيمة السوداء حاملة معها سحباً من الغبار ورائحةَ المطرِ والأرضِ المبلولة. غام ضوء القمر وبدا كأنه ازداد عكراً، واشتد عبوس النجوم، وكانت سحب الغبار وظلالها تعدو على جانب الطريق إلى الخلف مسرعة إلى مكان ما. وأغلب الظن أن الدوامات التي لا تنفك تدور حاملة من الأرض الغبار والأعشاب الجافة والريش ترتفع الآن حتى عنان السماء. وربما كانت الجصيات تطير الآن قرب الغيمة السوداء، ولابد أنها تشعر هناك بخوف شديد! بيد أن المرء لم يكن يرى عبر الغبار الذي يغشي العيون سوى التماع البرق.

اعتقد يغوروشكا أن المطر سينهمر على الفور فجثا على ركبتيه وتغطى بالخيشة. وصاح أحدهم من الأمام:

- بانتيـــ... لي! آ... آ... فا.

فأجاب بانتيلي بصوت عالٍ ممطوط:

- لا أسمـــ... ـــا.. ع.

- آ... آ... فا... أريا.. آ!

قصف الرعد بغضب، وتدحرج في السماء من اليمين إلى اليسار، ثم إلى الخلف وخمد قرب العربات الأمامية.

طفق يغوروشكا يهمس وهو يرسم شارة الصليب:

- قدوس، قدوس، قدوس، يا إلهي، املأ السموات والأرض بمجدك...

فتح السواد في السماء فمه ونفث ناراً بيضاء، وعلى الفور قصف الرعد مرة ثانية. وما إن خمد حتى لمع البرق على مساحة عريضة بحيث أن يغوروشكا رأى فجأة عبر فرجات الخيشة الطريق الكبير كله حتى المدى البعيد، والسائقين جميعاً، وحتى صدار كيريوخا. وارتفعت الندف السوداء التي في جهة اليسار نحو الأعلى، وتطاولت واحدة منها فظةً خرقاء تشبه كف حيوان ذي أصابع، وامتدت نحو القمر. قرر يغوروشكا إغماض عينيه بقوة، وعدم الانتباه إلى ما حوله، والانتظار إلى أن ينتهي كل شيء.

وظل المطر لسبب ما محتبساً مدة طويلة. وعلى أمل أن تكون الغيمة قد انحرفت إلى جانب وابتعدت، قرر يغوروشكا أن يتطلع من تحت الخيشة. كان الظلام دامساً، ولم ير الصبي لا بانتيلي ولا البالة ولا نفسه. حول بصره إلى حيث كان القمر قبل قليل فإذا بالظلام يسود هناك كما هو عند العربة، في حين أن البرق كان يبدو في الظلمة أكثر بياضاً وسطوعاً من المعتاد، ويسبب ألماً في العينين.

- بانتيلي!

نادى يغوروشكا. بيد أنه لم يتلق جواباً. وفي النهاية جذبت الريح الخيشة مرة أخيرة، وركضت إلى مكان ما. وارتفعت ضجة رتيبة هادئة. وسقطت نقطة باردة كبيرة على ركبة يغوروشكا، وانزلقت نقطة أخرى على يده. وانتبه الصبي إلى أن ركبتيه مكشوفتان، فأراد أن يصلح من وضع الخيشة، ولكن في هذه اللحظة انهال شيء ما من الأعلى، وسُمع صوت سقوطه على الطريق، ثم على عريشي العربة وعلى البالة. إنه المطر. وبدا كأنه قد تفاهم مع الخيشة فراح يتحادث معها بسرعة ومرح وسماجة لا تطاق كعقعقين.

ركع يغوروشكا على ركبتيه، أو بعبارة أدق جلس على جزمته.

وعندما أخذ المطر يضرب الخيشة مال بجذعه إلى الأمام ليحمي بجسمه ركبتيه اللتين تبللتا فجأة. ونجح في ستر ركبتيه، ولكن بعد ما يقل عن دقيقة شعر برطوبة بغيضة حادة تضايقه من الخلف، وفي أسفل ظهره، وعلى عضلتي ساقيه. فعاد إلى وضعه السابق معرضاً ركبتيه للمطر، وراح يفكر فيما يفعله ليصلح من وضع الخيشة التي لا يستطيع رؤيتها في الظلمة. وفي أثناء ذلك تبللت يداه، وسال الماء تحت كميه وياقته، وشعر أن لوحيه يرتعشان من البرد.. قرر أن لا يفعل شيئاً، وأن يجلس ساكناً وينتظر إلى أن ينتهي كل شيء. وطفق يهمس: - قدوس، قدوس، قدوس...

فجأة تكسرت السماء فوق رأسه بالضبط مصدرة قعقعة مهولة تصم الآذان. فانحنى وحبس أنفاسه منتظراً انهيال الحطام على قفاه وظهره. وانفتحت عيناه عن غير قصد منه، فشاهد كيف التمع على أصابعه وكميّه المبتلين، وعلى خطوط المياه المنسابة من الخيشة، وعلى البالة، وعلى الأرض في الأسفل ضوء حاد مبهر، وكيف ومض نحو خمس مرات. ودوى الرعد من جديد بهزيم قوي مخيف كذاك، ثم لم تعد السماء تقصف أو تقعقع، بل أخذت تصدر أصواتاً جافة ذات صرير يشبه طقطقة شجرة تتكسر.

«طر راخ! طاخ! طاخ! طاخ!» جلجل الرعد بصوت واضح، وضربات رتيبة، وتدحرج في السماء، وتعثر ثم سقط في مكان ما عند العربات الأمامية، أو بعيداً في الخلف مصدراً صوتاً غاضباً متقطعاً «طرا...».

كان البرق قبل هذا مخيفاً فقط، أما مع هذا الرعد فقد أصبح ينذر بالشؤم، وأصبح ضوءه السحري يتسلل عبر الجفون المطبقة ويبعث القشعريرة في الجسم كله. فماذا عليه أن يفعل كيلا يراه؟ قرر يغوروشكا أن يدير وجهه إلى الخلف. استند على يديه وقدميه بحذر وكأن أحداً يراقبه، وانزلق على كفيه فوق البالة المبتلة واستدار إلى الجهة الثانية. «طراخ! طاخ! طاخ!» مر الدوي من فوق رأسه وسقط تحت العربة وانفجر «ر ر ر را».

وانفتحت العينان ثانية عن غير قصد. وشاهد يغوروشكا خطراً جديداً. فقد كان يسير خلف العربة ثلاثة عمالقة ضخام يحملون رماحاً طويلة. لمع البرق على أسنة رماحهم، وأضاء أجسامهم بوضوح، فإذا هم أشخاص ذوو أجرام هائلة، يسيرون بخطىً ثقيلة وقد تلثموا ونكسوا رؤوسهم. كان يبدو أنهم مفعمون بالحزن والكآبة وغارقون في تفكير عميق. ربما لم يكونوا يسيرون وراء القافلة ليلحقوا بها أذى، ولكن مجرد قربهم منها كان شيئاً مخيفاً.

أدار يغوروشكا رأسه إلى الأمام بسرعة وصاح وجسده كله يرتعش:

- بانتيلي! أيها الجد!

«طراخ! طاخ! طاخ!»

ردت عليه السماء.

فتح عينيه ليرى هل السائقون موجودون. ولمع البرق في مكانين فأضاء الطريق حتى المدى البعيد، والقافلة بكاملها والسائقين جميعاً. وعلى طول الطريق كانت تسيل جداول صغيرة وتتواثب فقاعات. وكان بانتيلي يسير قرب العربة وقد غطى قبعته العالية وكتفيه بقطعة خيش صغيرة. وكانت هيئته لا تعبر عن الخوف ولا عن القلق وكأنه قد طرش من الرعد وعمي من البرق.

صاح يغوروشكا وهو يبكي:

- أيها الجد، العمالقة!

بيد أن الجد لم يسمع. بعده في الأمام كان يسير يميليان وقد تغطى من الرأس حتى القدمين بخيشة كبيرة فبدا بشكل مثلث. أما فاسيا فقد كان يسير دون غطاء بخطواته المتخشبة ذاتها كشأنه دائماً، رافعاً قدميه إلى الأعلى من دون أن يثني ركبتيه. وكان يبدو عند التماع البرق أن القافلة لا تتحرك، وأن السائقين قد جمدوا في أماكنهم وأن قدم فاسيا المرفوعة قد تحجرت...

نادى يغوروشكا الجد ثانية، وإذ لم يتلق جواباً جلس من دون حركة، ولم يعد ينتظر الوقت الذي سينتهي فيه كل شيء. فقد كان واثقاً بأن الرعد سيقتله في الحال، وأن عينيه ستنفتحان من دون قصد منه فيرى العمالقة المخيفين. لم يعد يصلّب أو ينادي الجد، ولم يعد يفكر في أمه، بل كان يتجمد من البرد ومن الثقة بأن العاصفة لن تنتهي أبداً.

وفجأة طرقت سمعه أصوات بشرية. وصاح بانتيلي من تحت:

- يغورغي، أأنت نائم أم ماذا؟ انزل! طرش الأحمق الصغير!

وقال شخص ما بصوت غليظ غير معهود:

- إيه، يا لها من عاصفة!

وزحر كأنه عب كأساً كبيرة من الفودكا.

فتح يغوروشكا عينيه. كان يقف في الأسفل بجانب العربة كل من بانتيلي ويميليان المثلث والعمالقة. وقد بدا هؤلاء الآن أقصر بكثير من ذي قبل، وعندما حدق يغوروشكا فيهم وجد أنهم رجال عاديون، وأن ما يحملونه على أكتافهم ليس رماحاً بل مذاري حديدية. وفي الفرجة التي بين بانتيلي والمثلث كان يلوح ضوء عبر نافذة في دار ريفية متطامنة. إذن فالقافلة واقفة الآن في إحدى القرى. ألقى يغوروشكا بالخيشة عنه، وتناول صرته، وأسرع بالهبوط

من العربة. فالآن، إذ ترتفع بالقرب منه أصوات الناس، وينبعث النور من إحدى النوافذ، لم يعد يشعر بالخوف، على الرغم من أن الرعد لا يزال يقصف كالسابق، والبرق يشق السماء من أقصاها إلى أقصاها.

همهم بانتيلي:

- العاصفة جيدة... لا بأس. الحمد لله... قدماي ابتلتا قليلاً من المطر... لكن لا بأس.. هل نزلت يا يغورغي؟ هيا.. اذهب إلى الدار.. لا بأس...

وَحْوحَ يميليان:

- قدوس، قدوس، قدوس... حتماً سقطت صاعقة في مكان ما...

ثم سأل العمالقة: - هل أنتم من هنا؟

- لا... من غلينوف... نحن غلينيون. نعمل عند السيد بلاتيروف.

- تعملون في الدراس؟

- في مختلف الأعمال. إلى الآن لا نزال نحصد القمح. أي برق هذا! أي برق! من مدة طويلة لم تهبّ مثل هذه العاصفة...

دخل يغوروشكا الدار فاستقبلته عجوز نحيلة حدباء مدببة الذقن تحمل بيدها شمعة. وما إن رأته حتى ضيقت عينيها وأطلقت زفرة طويلة وقالت:

- أية عاصفة قوية أرسل لنا الرب، وجماعتنا تبيت في السهب، سيعانون كثيراً، الأعزاء! اشلح يا ولدي، اشلح...

نزع يغوروشكا معطفه المبلل وهو يرتجف من البرد، ويتكمش متقززاً. فأقل حركة كانت تبعث فيه إحساساً مزعجاً بالبلل والبرد، إذ كان كُمّا القميص وظهره مبتلّين، والسروال ملتصقاً بالساقين، والماء ينقط من الرأس...

قالت العجوز: - ما لك يا صغيري تقف مفرشحاً هكذا؟ اذهب اجلس! اقترب يغوروشكا من الطاولة وهو لا يزال مباعداً ما بين رجليه، وجلس على المقعد قرب رأس شخص ما. تحرك الرأس وأطلق من منخريه تياراً من

الهواء وعلك قليلاً ثم هدأ. وكان يمتد من الرأس على طول المقعد مرتفَع مغطى بفروة خروف. كان هذا امرأة نائمة.

خرجت العجوز وهي تتنهد، ثم ما لبثت أن عادت وهي تحمل بطيختين خضراء وصفراء. وقالت للصبي وهي تتثاءب:

- كل يا ولدي! ليس لدي ما أقدمه لك غير هذا.

ثم مدت يدها إلى درج الطاولة، وتناولت من هناك سكيناً طويلاً حاداً، شديد الشبه بالسكاكين التي يذبح بها قطاع الطرق التجار في الخانات.

- كل يا ولدي!

أكل يغوروشكا وهو يرتعش كالمصاب بالحمى قطعة بطيخ أصفر مع الخبز، ثم قطعة بطيخ أخضر، فازداد شعوره بالبرد. وفيما هو يأكل كانت العجوز تقول وهي تتنهد:

- جماعتنا تبيت في السهب... عذاب الرب.. كان يجب أن أشعل شمعة أمام الأيقونة، ولكن لا أعرف أين وضعتْ ستيبانيدا الشمع. كل يا بني، كل...

تثاءبت العجوز، وألقت بيدها اليمنى إلى الخلف وحكت بها كتفها اليسرى، وقالت:

- لا بد أن الساعة قد بلغت الثانية الآن. اقترب وقت النهوض. جماعتنا تبيت في السهب.. ربما يكونون قد تبللوا كلهم...

قال لها يغوروشكا: - أريد أن أنام أيتها الجدة.

فقالت وهي تتنهد وتتثاءب:

- نم يا بني، نم. يا ربنا يسوع المسيح! أنا كنت نائمة، وسمعت كما لو أن أحداً يطرق الباب. استيقظت ونظرت فإذا بها العاصفة التي أرسلها الرب.. كان يجب أن أشعل شمعة، ولكنني لم أجد الشمع...

وفيما كانت تتحدث مع نفسها جذبت من فوق المقعد بعض الخروق، هي، على الأرجح، ملاءات فراشها، وانتزعت عن مسمار قرب الموقد فروتي خروف، وانهمكت في تهيئة فراش ليغوروشكا من دون أن تكف عن التمتمة:

- العاصفة لا تهدأ. يا خوفي من أن تحرق شيئاً. لا سمح الله، جماعتنا تبيت في السهب... استلق يا بني، نم... ليحفظك المسيح يا صغيري... لن آخذ البطيخة الصفراء، فربما أردت أن تأكل عندما تفيق.

كانت تنهدات العجوز وتثاؤبها، وتنفس المرأة النائمة الرتيب، وعتمة الدار، وصوت المطر خلف النافذة تبعث كلها على النوم.

خجل يغوروشكا من التعري أمام العجوز، فاكتفى بنزع جزمته وتمدد، وتغطى بفروة. وبعد دقيقة سمع صوت بانتيلي يسأل هامساً: - هل نام الصبي؟

فأجابته العجوز همساً: - نام! عذاب، عذاب الرب! ترعد، ترعد، ولا نعرف متى تنتهي...

قال بانتيلي بهمس كالفحيح وهو يجلس:

- ستنتهي الآن. لقد خفّت قليلاً... الشبان توزعوا على البيوت، وبقي اثنان عند الخيول... نعم اثنان... لا يجوز.. وإلاّ سرقوا الخيول... سأجلس قليلاً وأذهب لنوبة الحراسة... لا يجوز... وإلاّ سرقوها...

جلس بانتيلي والعجوز جنباً إلى جنب عند قدمي يغوروشكا، وراحا يتحادثان بهمس صافر تتخلله التنهدات والتثاؤبات. أما يغوروشكا فلم يستطع بحال من الأحوال أن يشعر بالدفء. ومع أنه كان يلتحف فروة دافئة ثقيلة فإن جسمه كله كان يرتجف، ويديه ورجليه كانتا تتشنجان، وأحشاءه ترتعش... تعرّى تحت الفروة، ولكن هذا لم يجده نفعاً، وظلت البرداء تشتد وتشتد.

ذهب بانتيلي إلى نوبة الحراسة، وعاد منها ويغوروشكا لم ينم بعد، وما زال جسمه كله يرتجف. شيء ما كان يضغط على رأسه وصدره ويرهقه، ولم يكن يعرف ما هو هذا الشيء: أهو همس العجوزين، أم رائحة الفروة التي تكتم الأنفاس؟ وقد خلّف البطيخ الأخضر والأصفر في فمه طعماً كريهاً كمذاق المعدن. وفوق هذا وذاك كانت البراغيث تقرصه.

- أيها الجد، أنا بردان!

قال هذا ولم يعرف صوته.

فقالت العجوز وهي تتنهد:

- نم، يا صغيري، نم...

اقترب تيت على قدمين دقيقتين من الفراش ولوح بيديه، ثم استطال حتى السقف وتحول إلى طاحونة هوائية. وجاء الأب خريستوفور ولكن ليس بالهيئة التي كان بها وهو في العربة، بل بكامل زيه الكنسي، ممسكاً بالمرشة في يده، وطاف بالطاحونة وهو يرشها بالماء المقدس، فكفت عن التلويح.

كان يغوروشكا يعرف أن هذا هلوسة. فتح عينيه ونادى:

- أيها الجد! أعطني ماء!

لم يجبه أحد. فشعر بضيق لا يحتمل، وبأنه غير مستريح في رقدته. فنهض وارتدى ثيابه وخرج من الدار. كان الصباح قد أقبل، وكانت السماء ما تزال مكفهرة، بيد أن المطر قد انقطع. سار يغوروشكا في الفناء الموحل وهو يرتعش ويلتف بمعطفه المبلول. وراح يصغي إلى السكون، وقع بصره على زريبة صغيرة بابها مصنوع من أعواد القصب. كان الباب موارباً فأطل منه، ثم دخل وجلس في زاوية معتمة على كومة من أقراص الجلّة.

في رأسه الثقيل كانت تختلط الأفكار، وفمه كان جافاً ومليئاً بطعم المعدن الكريه. تأمل قبعته وأصلح من وضع ريشة الطاووس المثبتة عليها، وتذكر كيف ذهب مع أمه لشرائها. دس يده في جيبه وأخرج منها كتلة من معجون بني لزج. كيف وصل هذا المعجون إلى جيبه. فكر قليلاً وتشمم الكتلة فأحس برائحة العسل. آ... آ... إنها كعكة اليهودية! يا للمسكينة كيف انعجنت!

تأمل يغوروشكا معطفه الرمادي ذا الأزرار العظمية الكبيرة، والمخيط على شكل «فراك». في البيت لم يكن هذا المعطف، بصفته شيئاً جديداً وثميناً،

يعلق في الردهة، بل في غرفة النوم، إلى جانب فساتين أمه. ولم يكن يُسمح له بارتدائه إلاّ في الأعياد. والآن، عندما نظر يغوروشكا إليه أحس نحوه بالشفقة، وخطر في ذهنه أنه ومعطفه قد تُركا وحيدين ليواجها عسف القدر، ولن يتسنى لهما العودة إلى البيت أبداً. وانفجر في بكاء عنيف حتى كاد يسقط من فوق كومة الجلة.

دخلت الزريبة كلبة ضخمة بيضاء مبللة بالمطر، تهدلت خصل وبرها على وجهها فبدت كأنها عاقصات شعر، وجعلت تنظر إلى يغوروشكا بفضول. كانت على ما يبدو تفكر: هل أنبح أم لا؟ وعندما قررت أنه لا داعي للنباح، اقتربت من يغوروشكا بحذر، وأكلت المعجون وخرجت.

صاح أحدهم في الشارع: - هؤلاء جماعة فارلاموف.

بعد أن بكى يغوروشكا حتى نزفت دموعه خرج من الزريبة، وتجاوز حفرة ملأى بالماء، واتجه صوب الشارع مجرجراً قدميه. كانت العربات تقف في الطريق أمام البوابة بالضبط، وكان السائقون المبللون الذين تلطخت أرجلهم بالوحل يتجولون قربها، أو يجلسون على أعرشتها ذابلين نعسانين كذباب الخريف. نظر إليهم يغوروشكا وفكر: «كم هي مملة ومتعبة حياة العوامّ!»[1]. اقترب من بانتيلي وجلس بجانبه على عريش عربته، وقال له وهو يرتجف ويدس كفيه في كميه:

- أيها الجد، أنا بردان!

فأجابه بانتيلي وهو يتثاءب:

- لا بأس، قريباً سنصل إلى المكان... لا بأس به.. ستدفأ هناك.

---

(١) الكلمة الروسية المستعملة هنا (الموجيك) تعني في هذا السياق فئة اجتماعية تشمل الفلاحين الكادحين والعوام الفعلة الذين يخدمون الفئات الغنية ويضطرون إلى مزاولة الأعمال الشاقة ويعيشون حياة بائسة. (المترجم).

تحركت القافلة باكراً لأن الجو لم يكن حاراً، وتمدد يغوروشكا على البالة وهو يرتجف من البرد، على الرغم من أن الشمس سرعان ما ظهرت في السماء، وجففت ثيابه والبالة والأرض. وما إن أغمض عينيه حتى رأى تيت والطاحونة من جديد. ومع أنه كان يعاني من الشعور بالغثيان والثقل في جسمه كله، فقد راح يستجمع كل قواه ليطرد عنه هذه الأشباح، ولكن ما إن كانت هذه الأشباح تختفي حتى كان يرى المشاكس ديموف وهو يهجم عليه مزمجراً، محمر العينين، رافعاً قبضتيه إلى الأعلى، أو يسمع صوته وهو يصيح مستوحشاً: «أنا ضجر!». مر فارلاموف على حصانه القوزاقي، ومر قسطنطين السعيد وهو يبتسم حاملاً حباراه. وكم كان هؤلاء الناس ثقلاء وسمجين ومملين!

مرة – وكان المساء قد اقترب – رفع رأسه ليطلب ماء. كانت القافلة تقف على جسر كبير يمتد فوق نهر عريض. وكانت تبدو من خلال الدخان المنعقد في الأسفل فوق النهر باخرة تقطر ماعوناً. وفي الأمام خلف النهر كان يربض جبل ضخم ترصعه البيوت والكنائس، وتعدو عند سفحه قاطرة تقف قربها عربات شحن.

لم يكن يغوروشكا قد رأى قبل الآن بواخر أو قاطرات أو أنهاراً عريضة. وعندما رآها الآن لم يشعر بالخوف أو بالدهشة، بل حتى لم يظهر على وجهه أي تعبير يشبه الفضول. لم يكن يشعر سوى بالدوار والغثيان. سارع إلى الانبطاح على بطنه والاستناد بصدره إلى حافة البالة وتقيأ.

رآه بانتيلي فزحر بأسف، وقال وهو يلوح برأسه يمنة ويسرة.

- مرض الصبي! لابد أن البرد أصابه في بطنه... الصبي... نعم... في منطقة غريبة... أمر سيء!

حطت القافلة الرحال في خان تجاري كبير غير بعيد عن المرسى. وفيما كان يغوروشكا ينزل من العربة سمع صوتاً جد مألوف لديه، شخص ما كان يقول وهو يساعده على النزول:

- نحن وصلنا البارحة مساءً... وانتظرناكم اليوم طوال النهار. كنا نريد أن نلحق بكم البارحة، ولكن هذا لم يتيسر لنا، فقد سرنا في طريق آخر، إيه. كيف دعكت معطفك! ستنال نصيبك من خالك!

حدق يغوروشكا في وجه المتكلم المرمري وتذكر أن هذا دينيسكا. وتابع الحوذي حديثه:

- خالك والأب خريستوفور في النزل الآن يشربان الشاي، هيا بنا!

قاد دينيسكا الصبي إلى بناء كبير من طبقتين، قاتم ومتجهم، يشبه بناء التكية في مدينة ن. وبعد أن اجتازا الردهة، والدرج المعتم، والممر الطويل الضيق، دلفا إلى غرفة صغيرة كان يجلس فيها ايفان ايفانيتش والأب خريستوفور إلى المائدة يحتسيان الشاي بالفعل. وما إن رأيا الصبي حتى ارتسمت على وجهيهما إمارات الدهشة والسرور. وصاح الأب خريستوفور كأنه يغني: - آ... آ... يغور نيكولا ا... ا... يتش. السيد لومونوسوف. وقال كوزميتشوف: - آ، السادة النبلاء، تفضلوا.

خلع يغوروشكا معطفه، وقبل يد خاله ويد الأب خريستوفور، وجلس إلى المائدة. وما لبث خريستوفور أن أمطره بالأسئلة وهو يصب له الشاي ويبتسم كعادته ابتسامته المشرقة:

- إيه كيف كانت سفرتك أيها الصبي الطيب[١]؟ لابد أنها كانت مملة؟ لا قدّر الله أن يسافر المرء في قافلة عربات أو على الثيران! تسير وتسير،

---

(١) باللاتينية في الأصل: Puer bone.

غفرانك يا رب، وتنظر إلى الأمام، فإذا السهب لا يزال منبسطاً بالطول والعرض كما لو كان لا أول له ولا آخر! السفر في السهب عذاب محض. لماذا لا تشرب الشاي؟ اشرب! نحن في غيبتك، بينما كنت أنت تتجرجر مع القافلة، سوّينا جميع الأمور على أحسن ما يكون والحمد لله. بعنا الصوف لتشيريباخين، وبالشكل الذي نرجو الله أن ييسره للجميع... استفدنا كثيراً.

ما إن وقع نظر يغوروشكا على ذويه حتى أحس بحاجة لا تقاوم إلى الشكوى. لم يكن يصغي إلى الأب خريستوفور، بل كان يفكر: من أين يبدأ، وماذا يشكو بالذات. بيد أن صوت الأب خريستوفور، الذي بدا له كريهاً وحاداً، كان يمنعه من التركيز ويشوش أفكاره. ولم يكد يجلس خمس دقائق حتى نهض من خلف المائدة وذهب إلى الديوان واستلقى عليه. قال الأب خريستوفور:

- عجباً لك! والشاي؟

وفيما يغوروشكا يفكر في الأمر الذي يريد أن يشكوه، استند بجبهته إلى مسند الديوان الجانبي، وانخرط فجأة في البكاء.

- عجباً لك! – قال الأب خريستوفور ثانية وهو ينهض ويقترب من الديوان – غيورغي، ماذا بك؟ لماذا تبكي؟

قال يغوروشكا بوهن: - أنا.. أنا مريض!

فسأله الأب خريستوفور بارتباك:

- مريض؟ لا... هذا أمر سيء يا أخ... وهل يجوز أن يمرض المرء وهو مسافر؟ آي.. آي... كيف فعلت ذلك يا أخ.. آ..؟

وضع يده على جبهة الصبي ولمس وجنته ثم قال:

- نعم، رأسك ساخن، لابد أنك أصبت ببرد، أو أكلت شيئاً ما... استعن بالله.

قال ايفان ايفانيتش مرتبكاً:

- هل نعطيه حبوب كينا؟

- لا.. الأحسن أن يتناول شيئاً ما ساخناً... غيورغي.. هل تريد حساء؟ آ؟

أجاب يغوروشكا: - لا... لا أريد.

- هل تشعر بالبرد؟

- قبلاً كنت أشعر بالبرد... الآن اشعر بالسخونة... جسمي كله يؤلمني..

اقترب ايفان ايفانيتش من الديوان وتحسس جبين الصبي وزحر بحيرة، وعاد إلى المائدة.

قال الأب خريستوفور مخاطباً يغوروشكا:

- الرأي عندي أن تخلع ملابسك وتنام. أنت بحاجة إلى النوم ملء جفونك.

ساعده على خلع ملابسه وناوله مخدة وغطاه ببطانية، ووضع فوق البطانية معطف ايفان، ثم ابتعد على رؤوس أصابعه، وجلس إلى المائدة. وما إن أغمض يغوروشكا عينيه حتى خيل إليه أنه ليس في غرفة في نزل، بل في الطريق الكبير قرب النار. لوح يميليان بيده، فيما كان ديموف ينبطح على بطنه وينظر بعينين حمراوين إلى يغوروشكا نظرة سخرية. صاح يغوروشكا:

- اضربوه! اضربوه!

فهمس خريستوفور:

- إنه يهذي...

وقال ايفان ايفانيتش متنهداً: - متاعب!

- يجب أن ندهنه بالزيت والخل، وإن شاء الله إلى الغد سيشفى.

فتح يغوروشكا عينيه ليتخلص من الخيالات المزعجة، وطفق ينظر إلى النار. كان الأب خريستوفور وايفان ايفانيتش قد فرغا من شرب الشاي، وراحا يتحادثان همساً حول أمر ما. الأول كان يبتسم بسعادة، ويظهر أنه لم يكن يستطيع أن ينسى الفائدة الكبيرة التي جناها من بيع الصوف. ولم تكن تسعده الفائدة بحد ذاتها، بقدر ما كانت تسعده فكرة أنه عندما سيعود إلى البيت

سيجمع أسرته الكبيرة كلها، وسيغمز بعينه بمكر ويقهقه. في البداية سيخدع الجميع ويقول لهم إنه باع الصوف بأرخص من ثمنه، ثم سيناول صهره ميخايل جزداناً سميكاً ويقول له: «هاك، اقبض! هكذا يجب أن تصرّف الأمور!» أما كوزميتشوف فلم يكن يبدو عليه السرور. وكان وجهه يعبر كالسابق عن الجفاف والهم كشأن رجال الأعمال. قال بصوت منخفض:

- إيه، لو كنت أعرف أن تشيريباخين سيدفع مثل هذا السعر، لما كنت بعت ماكاروف في البلد ثلاثمئة بود[1]! شيء مؤسف حقاً! ولكن من كان يعرف أنهم رفعوا السعر هنا؟

دخل شخص يرتدي ثوباً أبيض. رفع السماور عن المائدة، وأشعل سراجاً في الزاوية أمام الأيقونة. همس الأب خريستوفور في أذنه بضع كلمات، فرسم ذاك على وجهه علائم السرية كالمتآمر – يعني: فهمت – وخرج، ثم عاد بعد قليل حاملاً وعاء كبيراً وضعه تحت الديوان. مد ايفان ايفانيتش فراشاً لنفسه على أرض الغرفة، وتثائب عدة مرات، وصلى بكسل، وتمدد. قال الأب خريستوفور:

- أنوي الذهاب غداً إلى الكاتدرائية، المدبّر هناك من معارفي. وكان ينبغي أن أزور غبطة المطران بعد صلاة الضحى، ولكن يقولون إنه مريض.

تثاءب وأطفأ المصباح، وبقي سراج الأيقونة وحده يضيء الغرفة. ومضى الأب خريستوفور يقول وهو يخلع ملابسه:

- يقولون إنه لا يستقبل أحداً. معنى هذا أنني سأغادر من دون أن أراه. وعندما خلع قفطانه رأى يغوروشكا أمامه روبنسون كروزو. مزج روبنسون شيئاً ما في صحن صغير واقترب من يغوروشكا وهمس:

- لومونوسوف. هل أنت نائم؟ انهض! سأدهنك بالزيت والخل. هذا مفيد لك، فقط استعن بالله.

---

(١) البود: وحدة وزن روسية تعادل ١٦،٣ كغ.

نهض يغوروشكا بسرعة وجلس. نزع عنه الأب خريستوفور قميصه الداخلي، وراح يفرك له صدره وهو يتمتم:

- باسم الآب والابن والروح القدس.

وكان في أثناء ذلك يتجمع على نفسه، ويصدر أنفاساً متقطعة، وكأنه هو نفسه يحس بالدغدغة.

- انبطح على بطنك!.. أيوه هكذا. غدا ستكون معافى، ولكن إياك أن ترتكب معصية في المستقبل... حار مثل النار! أكنتم في الطريق عندما هبت العاصفة؟

- في الطريق.

- وكيف لا تمرض إذن! باسم الآب والابن والروح القـــدس.. وكيف إذن لا تمرض!

عندما فرغ الأب خريستوفور من دهن يغوروشكا، ألبسه قميصه، وغطاه، وأومأ بشارة الصليب، وابتعد. وشاهد يغوروشكا كيف أدى بعد ذلك صلاته. لابد أن الشيخ يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من الصلوات، فقد ظل مدة طويلة واقفاً أمام الأيقونة وهو يتمتم. وبعد أن أنهى الصلاة أومأ بشارة الصليب باتجاه النافذتين والباب، وباتجاه يغوروشكا وايفان ايفانيتش، ثم استلقى من دون وسادة على مقعد صغير، وتغطى بقفطانه. دقّت الساعة في الممر معلنة العاشرة فتذكر يغوروشكا أن وقتاً طويلاً ما زال بينه وبين الصباح. ألصق جبهته بظهر الديوان، ولم يعد يحاول التخلص من الخيالات الضبابية المرهقة. بيد أن الصباح جاء مبكراً أكثر مما يظن بكثير.

خيّل إليه أنه لم يستلق طويلاً ملصقاً جبهته بظهر الديوان، ولكنه عندما فتح عينيه رأى حزمتين من أشعة الشمس تمتدان مائلتين من نافذتي الغرفة إلى الأرض. الأب خريستوفور وايفان ايفانيتش لم يكونا موجودين. والغرفة كانت مرتبة ومضيئة وأنيسة تعبق برائحة الأب خريستوفور، الذي كانت

تفوح منه دائماً رائحة السرو، وأزهار القنطريون العنبري الجافة (في منزله كان يصنع من القنطريون مِرشّات وتزيينات لخُزُن الأيقونات، ولهذا فقد تشبع بأريجه). نظر يغوروشكا إلى الوسادة وإلى الأشعة المائلة وإلى جزمته التي نُظفت ووضعت قريباً منه بجانب الديوان، وابتسم. بدا له غريباً أنه لا يتمدد على البالة، وأن كل ما حوله جاف، وأن السقف ليس فيه برق ورعد. قفز من فوق الديوان، وأخذ يرتدي ملابسه. كان يشعر أنه قد استعاد عافيته ونشاطه، ولم يبق من آثار مرض البارحة سوى بعض الضعف في الساقين والعنق. أي أن الزيت والخل قد أجديا. فجأة تذكر الباخرة والقاطرة والنهر العريض التي رآها البارحة رؤية غائمة، فأسرع في ارتداء ملابسه ليركض إلى المرسى وينظر إليها. وعندما غسل وجهه، ولبس قميصه الأحمر الطويل، طقطق قفل الباب وظهر على العتبة الأب خريستوفور معتمراً قبعته الأسطوانية وممسكاً بعصاه، ومرتدياً جبة حريرية بنية اللون فوق قفطانه الكتاني السميك، وهو يبتسم ويشع (الشيوخ العائدون لتوهم من الكنيسة دائماً يشعون). وضع على الطاولة بعضاً من القربان المقدس وصرة ما وصلى وقال:

- أرسل لنا الله بعض نعمه! إيه، كيف الصحة الآن؟

أجاب يغوروشكا وهو يقبل يده: - الآن جيدة.

- الحمد لله... أنا عائد من صلاة الضحى... ذهبت إلى هناك لأزور صاحبي مدبّر شؤون الكنيسة. وقد دعاني لأشرب الشاي عنده ولكنني لم أذهب. لا أحب أن أضيف أحداً في الصباح الباكر، فليكن الله معهم!

خلع جبته، ومسح على صدره، وحل عقدة الصرة على مهل، فشاهد يغوروشكا علبة فيها كافيار، وقطعة من السمك المقدد، وخبزاً فرنسياً. قال الأب خريستوفور:

- مررت بدكان يبيع السمك فاشتريت هذه الأطعمة. في الأيام العادية لا يجوز للمرء أن يترف، ولكن فكرت في أن لدينا في النزل مريضاً، وعسى أن يكون في هذا بعض العذر. الكافيار جيد، من سمك الحفش...

أحضر الشخص ذو الثوب الأبيض سماوراً وصينية عليها آنية.

- كل.. – قال الأب خريستوفور مخاطباً يغوروشكا وهو يقدم له قطعة خبز مدهونة بالكافيار – كل الآن وتنزه، وعندما يئين الأوان ستتصرف للدراسة. انتبه، عليك أن تدرس بجد واجتهاد كي تصل إلى نتيجة. الشيء الذي ينبغي استظهاره استظهره، أما حيث ينبغي عليك أن تتحدث بكلماتك أنت عن المعنى الداخلي للموضوع من دون التعرض للشكل الخارجي فيجب أن تستعمل كلماتك أنت. وابذل جهدك لاستيعاب جميع العلوم. فبعضهم تراه يعرف الرياضيات بشكل ممتاز، ولكنه لم يسمع ببطرس موغيلا(١)، وبعضهم يعرف بطرس موغيلا ولكنه لا يستطيع أن يشرح لك شيئاً عن القمر. لا... أنت عليك أن تدرس بحيث تفهم كل شيء! ادرس اللاتينية والفرنسية والألمانية... والجغرافيا، والتاريخ طبعاً، واللاهوت، والفلسفة، والرياضيات... وبعد أن تدرس كل شيء بأناة، مع الصلاة والمثابرة، ادخل بعد ذلك مجال الخدمة. عندما ستعرف كل شيء يصبح من السهل عليك سلوك أي مضمار تشاء. أنت عليك فقط أن تتعلم وتنال البركة، والرب هو الذي يقدر لك من تكون: دكتوراً أم قاضياً أم مهندساً...

دهن الأب خريستوفور كسرة خبز بقليل من الكافيار ووضعها في فمه وقال: الرسول بولس يقول: لا تعكف على تعلم ما هو غريب وغير مألوف. طبعاً إذا كان التعليم هدفه السحر والتجديف أو استحضار الأرواح من العالم الآخر، مثلما كان يفعل شاول، أو دراسة علوم لا تفيد صاحبها ولا الناس فمن الأحسن للمرء أن لا يتعلم. يجب أن لا تتقبل إلا ما يبارك الله فيه. تشبَّه... الرسل المقدسون كانوا يتكلمون بجميع اللغات، وأنت تعلّم اللغات. باسيليوس

---

(١) بطرس موغيلا (١٥٩٦-١٦٥٧) كاتب كنسي. مطران كييف وغاليسيا منذ عام ١٦٣٢. عمل على نشر الثقافة وناصر الأدباء والفنانين.

العظيم[١] كان يدرس الرياضيات والفلسفة، وأنت ادرسهما. القديس نستور[٢] كان يكتب التاريخ، وأنت ادرس التاريخ واكتبه. تشَبّه بالقديسين...

رشف الأب خريستوفور رشفة من فنجان الشاي، ومسح شاربه، وهز رأسه يمنة ويسرة وقال:

- جيد! أنا متعلم على الطريقة القديمة، وقد نسيت الكثير، ومع ذلك أعيش بأسلوب مختلف عن الآخرين. لا يوجد حتى وجه للشبه. مثلاً نكون جالسين في مجتمع كبير من الناس، على الغداء أو في مجلس ما، وأقول شيئاً ما باللاتينية، أو أقص من التاريخ، أو أتحدث في الفلسفة، فترى الناس مسرورين، وأنا نفسي أكون مسروراً... أو عندما يأتي إلينا قاضي المنطقة ويتطلب الأمر حلف اليمين. كل الكهنة الآخرين يخجلون، بينما أنا أتباسط مع القضاة ووكلاء النيابة، ومع المحامين كذلك، وكأني واحد منهم: أتحدث معهم حديث متعلم، وأشرب معهم الشاي، وأضحك، أسألهم عما لا أعرفه.. وهم يسرون بهذا. نعم أيها الأخ... العلم نور، والجهل ظلام! تعلّم! الأمر صعب طبعاً: ففي وقتنا هذا الدراسة تكلف كثيراً... ووالدتك أرملة، تعيش على المعاش، ولكن مع ذلك...

نظر الأب خريستوفور بخوف إلى الباب وتابع همساً:

- ايفان ايفانيتش سيساعد. لن يتخلى عنك. هو ليس لديه أولاد وسيساعدك، لا تقلق.

وهمس بصوت أخفض وقد ارتسمت على وجهه إمارات الجد:

- ولكن عليك أن تنتبه يا غيورغي، إياك – حفظك الرب – أن تنسى أمك وايفان ايفانيتش. الوصايا تأمرنا باحترام الأم، وايفان ايفانيتش ولي نعمتك

---

(١) باسيليوس العظيم: (٣٣٠-٣٧٩) فيلسوف أفلاطوني ورجل لاهوت كبير. أسقف قيصرية (في آسيا الصغرى).

(٢) نستور: كاتب ومؤرخ روسي قديم (نهاية القرن ١١ – بداية القرن ١٢) راهب دير كييفو –بيتشيرسكي، أرخ لأحداث عصره. ألف تاريخ روسيا وسير بعض القديسين.

وبمقام أبيك. فإذا أنت أصبحت من العلماء، وصرت، لا سمح الله، تضيق بالناس وتستخفّ بهم بحجة أنهم أقل منك عقلاً، فالويل ثم الويل لك! ورفع يده إلى الأعلى وكرر بصوت رقيق:

- الويل! الويل!

استرسل الأب خريستوفور في الكلام، واستطاب الحديث كما يقولون. وكان يمكن ألا ينتهي حتى الغداء، بيد أن الباب فتح ودخل ايفان ايفانيتش. ألقى التحية بتعجل، وجلس إلى المائدة، واندفع يرشف الشاي بسرعة، ثم قال:

- أنهيت جميع الأمور، كان من الممكن أن نعود اليوم إلى البيت، ولكن بقيتْ قضية يغور. يجب أن ندبره. أختي قالت إن لها صديقة تعيش هنا اسمها ناستاسيا بيتروفنا، وربما بإمكانها أن تأخذه ليعيش معها في شقتها.

فتش في محفظته، وأخرج منها رسالة مجعدة وقرأ:

- «الشارع التحتاني الصغير، إلى ناستاسيا بيتروفنا توسكونوفا في منزلها». يجب الذهاب الآن والبحث عنها. متاعب!

وما إن انتهى ايفان ايفانيتش من شرب الشاي حتى غادر النزل هو ويغوروشكا، وطفق يدمدم:

- متاعب! دبِقْتَ أنت بي كالارقطيون، جازاك الرب على هذا! أنتم تريدون التعليم والنبالة وأنا لا ينوبني من هذا سوى العذاب...

عندما اجتاز الفناء لم يكن هناك لا عربات ولا سائقون. فقد غادروا منذ الصباح الباكر إلى المرسى. وفي زاوية الفناء كانت تقف عربتهم المعهودة، وبالقرب منها الحصانان الكميتان يلوكان الشوفان. قال يغوروشكا في نفسه: «وداعاً أيتها العربة»!

في البداية كان عليهما أن يسيرا صعوداً مسافة طويلة في طريق جبلي مشجر، ثم يجتازا ساحة تجارية واسعة. وهنا سأل ايفان ايفانيتش شرطياً عن الشارع التحتاني الصغير، فأجابه هذا متضاحكاً:

- أوه، إنه بعيد. إلى هناك باتجاه المراعي!

وفي الطريق كانا يصادفان عربات ركوب خفيفة، بيد أن الخال لم يكن يسمح لنفسه بأن يَضْعُف إلى حد استئجار عربة للتنقل، إلاّ في الحالات الاستثنائية، وفي الأعياد الكبيرة. سار هو ويغوروشكا طويلاً في شوارع مبلطة، ثم في شوارع ليس فيها سوى أرصفة من دون متون. ثم وصلا في نهاية المطاف إلى شوارع لا أرصفة فيها ولا متون. وعندما أوصلتهما الأقدام واللسان إلى الشارع التحتاني الصغير كانا قد تضرجا بالحمرة، ونزعا قبعتيهما، وراحا يمسحان عرقهما.

توجه ايفان ايفانيتش إلى شيخ جالس على مصطبة أمام بوابة وسأله:

- قل لي من فضلك أين منزل ناستاسيا بيتروفنا توسكونوفا؟

فأجابه الشيخ بعد تفكير قصير:

- لا يوجد هنا أية توسكونوفا، ربما تريد تيموشينكو؟

- لا.. توسكونوفا..

- عفواً، لا يوجد هنا توسكونوفا..

هز ايفان ايفانيتش كتفيه وتابع السير جاراً قدميـــه جراً. فصاح به الشيخ من الخلف:

- لا تبحث، قلت لك لا يوجد، يعني لا يوجد!

- اسمعي يا خالة – قال ايفان ايفانيتش مخاطباً عجوزاً تبيع كمثرى وبزر عباد الشمس على طبق عند زاوية الشارع – أين أجد هنا بيت ناستاسيا بيتروفنا توسكونوفا؟

نظرت إليه العجوز بدهشة وتساءلت وهي تضحك:

- وهل ناستاسيا بيتروفنا تعيش الآن في بيتها؟! يا إلهي، لقد زوجت ابنتها منذ ثماني سنوات، وتخلت عن بيتها لصهرها! الصهر هو الذي يعيش هنا الآن.

وكانت عيناها تقولان: «وكيف لا تعرفان، أيها الغبيان، هذا الأمر التافه؟»

سألها ايفان ايفانيتش: وأين تعيش هي الآن؟

فقالت العجوز بدهشة وهي تضرب كفا بكف:

- يا إلهي، إنها منذ مدة طويلة تعيش في شقة! لقد تخلت عن بيتها لصهرها منذ ثماني سنوات، عجباً لكما!

وكانت، على الأرجح، تتوقع أن يندهش ايفان ايفانيتش أيضاً ويصيح: «هذا غير معقول!!» بيد أنه سألها بمنتهى الهدوء:

- وأين هذه الشقة؟

شمرت البائعة كميها وراحت تشير بيدها العارية وتصيح بصوت حاد نافذ:

- امشيا إلى الأمام بخط مستقيم... وعندما تصلان إلى بناء أحمر وتتجاوزانه تجدان على اليد الشمال زقاقاً. امشيا في هذا الزقاق حتى تصلا إلى البوابة الثالثة على اليمين..

وصل ايفان ايفانيتش ويغوروشكا إلى البناء الأحمر، وانعطفا إلى اليسار، وسارا في الزقاق حتى البوابة الثالثة على اليمين. على جانبي هذه البوابة الرمادية العتيقة جداً كان يمتد سياج رمادي ذو فتحات واسعة، الجانب الأيمن منه كان مائلاً بشدة إلى الأمام ويوشك على السقوط، والجانب الأيسر كان مائلاً إلى الوراء نحو الفناء، أما البوابة فكانت تقف مستقيمة وكأنها لم تقرر بعد ما هو الأنسب لها، السقوط إلى الأمام أم إلى الوراء. فتح ايفان ايفانيتش باب الخوخة وشاهد هو ويغوروشكا فناءً واسعاً مغطى بالأعشاب البرية والأرقطيون. وعلى بعد مئة خطوة من البوابة كان يقوم منزل صغير ذو سطح أحمر ونوافذ خضراء، وفي وسط الفناء كانت تقف امرأة سمينة شمرت عن ساعديها، ورفعت مئزرها، وراحت تنثر على الأرض شيئاً ما وتصيح بصوت حاد نافذ كصوت البائعة تلك:

- تيعا... تيعا... تيعا[١]..

---

(١) في الأصل: تسيب... تسيب... تسيب..

وخلفها أقعت كلبة حمراء الشعر ذات أذنين حادتين. وما إن شاهدت الكلبة القادمين حتى ركضت نحو باب الخوخة وأخذت تنبح بصوت تينور (كل الكلاب الحمر تنبح بصوت تينور).

صاحت المرأة وهي تحجب بيدها الشمس عن عينيها:

- من تريدان؟

وصاح ايفان ايفانيتش أيضاً وهو يلوح بعصاه ليبعد الكلبة:

- مرحبا! قولي لي من فضلك هل هذا هو منزل ناستاسيا بيتروفنا توسكونوفا؟

- نعم! وماذا تريدان منها؟

اقترب ايفان ايفانيتش ويغوروشكا من المرأة، فجعلت هذه تتفرسهما بارتياب وكررت السؤال ثانية: - ماذا تريدان منها؟

- ربما كنت أنت ناستاسيا بيتروفنا؟

- نعم أنا!

- تشرفنا... في الحقيقة، تسلم عليك صديقتك القديمة أولغا ايفانوفنا كنيازيفا، وهذا ابنها، وأنا، لعلك ما زلت تذكرينني، أخوها ايفان ايفانيتش... فأنت، طبعاً، ابنة مدينتنا ن. هناك ولدتِ، وهناك تزوجتِ...

ران صمت. وطفقت المرأة السمينة تحدق بنظرة خالية من المعنى في وجه ايفان ايفانيتش وكأنها لا تصدق أو لا تفهم، ثم تضرجت كلها بالحمرة وضربت كفاً بكف، وتناثر الشوفان من مئزرها، وطفرت الدموع من عينيها، وزعقت وهي تتنفس بصعوبة من شدة الانفعال:

- اولغا ايفانوفنا. حمامتي الحنونة! آه، يا إلهي، ما لي أقف هكذا كالحمقاء؟ آه، يا ملاكي الصغير الجميل...

احتضنت المرأة يغوروشكا، وبللت وجهه بدموعها، واسترسلت في البكاء. ثم قالت وهي تعصر كفيها باضطراب:

- يا إلهي، إنه ابن أوليتشكا! أية سعادة هذه! كأنه أمه! أمه بعينها! مالكما لا تزالان تقفان في الحوش؟ تفضلا إلى البيت!

أسرعت المرأة نحو المنزل وهي تبكي وتلهث وتتكلم، وسار الضيفان خلفها وهما يجران أقدامهما. قالت وهي تدخلهما صالة صغيرة حبيسة الهواء، ومليئة بالأيقونات وأصص الأزهار:

- البيت غير مرتب، آه، يا والدة الإله! تعالي يا فاسيليسا افتحي النوافذ على الأقل! يا ملاكي الصغير! يا طفلي الجميل! لم أكن أعرف أن لدى أوليتشكا مثل هذا الابن.

وعندما هدأت وأَلِفت وجود ضيفيها دعاها ايفان ايفانيتش للتحدث على انفراد. وذهب يغوروشكا إلى غرفة أخرى. رأى في الغرفة آلة خياطة وقفصاً معلقاً على النافذة فيه زرزور، وكثيراً من الأيقونات والأزهار كما في الصالة. وإلى جانب آلة الخياطة كانت تقف بسكون بنت صغيرة ذات خدين سمينين كخدي تيت، لوحتهما الشمس، وترتدي ثوباً نظيفاً من الشيت. طفقت البنت تنظر إلى يغوروشكا دون أن تطرف، شاعرة على ما يبدو بحرج شديد. نظر يغوروشكا إليها ملياً وهو صامت، ثم سألها:

- ما اسمك؟

فحركت البنت شفتيها وتمتمت وكأنها توشك أن تبكي:

- آتكا...

وكان هذا يعني: كاتكا.

في الصالة كان ايفان ايفانيتش يقول همساً:

- سيسكن عندكم، إذا تكرمتِ وقبلتِ، ونحن سندفع لك عشرة روبلات في الشهر. إنه صبي هادئ غير مدلع...

تنهدت المرأة وقالت بصوت باك:

- في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول لك يا ايفان ايفانيتش. عشرة روبلات مبلغ جيد، ولكن تولي أمور طفل غريب شيء مخيف، فربما مرض فجأة، أو حدث شيء...

عندما دعي يغوروشكا للعودة إلى الصالة كان ايفان ايفانيتش يقف ممسكاً قبعته ويقول مودعاً صاحبة البيت:

- طيب، إذن فليبق الآن عندك. وداعاً!

ثم التفت إلى ابن أخته قائلاً:

- ابق هنا يا يغور، ولكن إياك أن تسيء الأدب، واسمع كلمة ناستاسيا بيتروفنا، وداعاً! سأمرّ غداً.

وما إن انصرف الخال حتى عادت ناستاسيا بيتروفنا وضمّت يغوروشكا إلى صدرها ثانية، ودعته بالملاك الصغير، ثم راحت تعد المائدة وعيناها مغرورقتان بالدموع. وبعد ثلاث دقائق كان يغوروشكا يجلس بجانبها ويجيب عن أسئلتها التي لا تنتهي، وهو يتناول حساء ملفوف ساخناً ودسماً.

وفي المساء جلس ثانية إلى الطاولة نفسها، وراح يصغي إلى ناستاسيا بيتروفنا مسنداً رأسه إلى راحتيه. وطفقت هذه تحكي له وهي تضحك تارة وتبكي تارة عن شباب والدته، وعن زواجها هي، وعن أولادها... ثمة جدجد كان يصر قرب الموقد، وكان المصباح يصدر هسيساً لا يكاد يسمع. وكانت ربة البيت تتكلم بصوت خافت، وبين فينة وأخرى تسقط الكشتبان من الاضطراب فتزحف كاتيا حفيدتها وراءه تحت الطاولة، وتمكث هناك طويلاً في كل مرة، لتتأمل قدمي يغوروشكا. وكان يغوروشكا يصغي إلى العجوز وهو يغالب النعاس، وبتأمل وجهها، وثؤلولتها الشعراء، وخطوط الدمع على وجنتيها ونفسه مفعمة بالأسى، بالأسى العميق. فرشوا له على صندوق كبير،

وأوصوه بأنه إذا أراد أن يأكل ليلاً ليخرج بنفسه إلى الممر، وليأخذ من على النافذة الفروج المغطى بالصحن.

في صباح اليوم التالي جاء ايفان ايفانيتش والأب خريستوفور ليودعاه. ففرحت ناستاسيا بيتروفنا وهمت بإعداد السماور، إلاّ أن ايفان ايفانيتش كان مستعجلاً جداً، وقال وهو يشيح بيده:

- لا وقت لدينا للشاي والسكر، سنغادر على الفور.

قبل الوداع جلس الجميع وصمتوا دقيقة، ثم تنهدت ناستاسيا بيتروفنا بعمق، ورنت بعينين باكيتين إلى الأيقونة.

ونهض ايفان ايفانيتش وهو يقول:

- إيه، إذن فأنت ستبقى...

زايل وجهه فجأة جفاف رجال الأعمال، وعلت وجنتيه بعض الحمرة، وابتسم بأسى وقال:

- انتبه... عليك أن تدرس... لا تنسَ أمك، وأطع ناستاسيا بيتروفنا، وإذا اجتهدت يا يغور في دراستك فإنني لن أتخلى عنك.

أخرج جزدانه من جيبه، وأدار ظهره ليغوروشكا، وبحث طويلاً بين قطع النقد الصغيرة إلى أن وجد قطعة بعشرة كوبيكات ناولها للصبي. وتنهد الأب خريستوفور وبارك يغوروشكا على مهل قائلاً:

- باسم الآب والابن والروح القدس... ادرس، واجتهد يا أخي... اذكرني إذا مت... واقبل مني أيضاً هذه الكوبيكات العشرة.

لثم يغوروشكا يده وبكى. شيء ما في نفسه همس له أنه لن يرى هذا الشيخ أبداً بعد الآن.

وقال ايفان ايفانيتش بصوت كما لو كان في الصالة ميت:

- أنا، يا ناستاسيا بيتروفنا، قدمت طلباً للمدرسة. في السابع من آب ستأخذينه ليقدم امتحان القبول، والآن، وداعاً! بأمانة الرب. الوداع يا يغور!

قالت ناستاسيا بيتروفنا بصوت كالأنين:

- لو تشربان الشاي على الأقل..

لم ير يغوروشكا من خلال الدمع الذي غشّى عينيه كيف خرج خاله والأب خريستوفور من الصالة. اندفع نحو النافذة، ولكنهما كانا قد غادرا الفناء. ولم ير سوى الكلبة الحمراء التي كانت قد كفت للتو عن النباح، وركضت عائدة من البوابة، وقد بدت عليها هيئة من قام بواجبه. واندفع يغوروشكا من مكانه من دون أن يعرف هو نفسه لماذا، وخرج من المنزل كالريح. وعندما تجاوز بوابة الفناء كان ايفان ايفانيتش والأب خريستوفور ينعطفان خلف الزاوية وهما يلوحان: الأول بمحجنه ذي الخطاف، والثاني بعصاه الطويلة. وشعر يغوروشكا بأنه مع ذهاب هذين الشخصين اختفى إلى الأبد، كما الدخان، كل ما عاشه حتى الآن. تهاوى بإعياء على المصطبة، وحيّا بدموع مرة الحياة الجديدة المجهولة التي بدأت بالنسبة إليه الآن.

فكيف ستكون هذه الحياة يا ترى؟

شباط ١٨٨٨

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

المترجم: عدنان جاموس

- لد عام ١٩٣٧ في مدينة صيدا لبنان لأبوين من بلدة دير عطية في سورية.
- أوفدته وزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة (الإقليم الشمالي) في عام ١٩٥٨ للدراسة في الاتحاد السوفييتي. حاز شهادة الدبلوم بدرجة ماجستير في «فقه اللغة الروسية وآدابها» من كلية الآداب في جامعة «لومونوسف» بموسكو عام ١٩٦٥.
- عمل مدرساً للغة الروسية في إعداديات دمشق، ثم مترجماً (رئيس شعبة) في المؤسسة العامة لسد الفرات، وعيّن مديراً لمكتب الترجمة في المؤسسة المذكورة حتى التقاعد في عام ٢٠٠١.
- عضو هيئة التحرير في مجلة «الآداب الأجنبية» (ثم «الآداب العالمية») التي يصدرها «اتحاد الكتاب العرب»، في الأعوام (٢٠٠١ – ٢٠٠٦) ثم عامي (٢٠٠٩ – ٢٠١٠).
- مقرر جمعية الترجمة في اتحاد الكتاب العرب عام ٢٠٠٧.
- عين مديراً للتحرير في مجلة «الآداب العالمية» عام ٢٠١١.
- ترجم عن الروسية العديد من النصوص الشعرية والقصصية والمسرحية والمقالات والدراسات الأدبية والنقدية والفلسفية والاقتصادية والسياسية والتقنية المنشورة في الصحف والمجلات أو الصادرة في كراسات مستقلة، فضلاً عن كتب عديدة منها.
- «الإنسان والارتقاء» (جون لويس) - «الحركات الفلاحية في لبنان النصف الأول من القرن التاسع عشر» (أ.سميلياتسكايا) - «أبطال الإغريق: أساطير يونانية» (فيراسميرنوفا) - «الفنيّ والجمالي» (غينادي يوسبيلوف) - «حوارات سجين» (فيكتور أنبيلوف) - «السهب وأقاصيص مبكرة» (أنطون تشيخوف) - «روسيا والعالم المعاصر» (غينادي زوغانوف) - «من باع التاريخ؟» (أوليغ شينين) – العمل السري في ك.ج.ب (فلاديمير كروتشكوف – رواية «الحفرة» (الكساندر كوبرين) - «العولمة والعلاقات الدولية» (غينادي زوغانوف) - «موسكو ١٩٣٧» (ليون فيختفانغر) - «الملحمة والشريعة: قصة للفتيان» (كلارا موئيسييفا) - «نصر لا لزوم له» (أنطون تشيخوف).

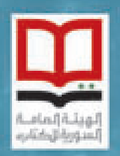


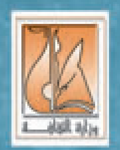
الطبعة الثانية / ٢٠١٢ م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



تصور مجموعة القصص التي يضمها هذا الكتاب، الحياة الروسية والمجتمع الروسي بكافة شرائحه وفئاته وطبقاته، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تصويراً صادقاً، مفعماً بالحب والشفافية والتعاطف مع الإنسان الفقير، الصغير، المحروم من الحقوق، وعبر ترجمة مرنة وجيدة وجذابة.





www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٢٨٠ ل.س أو ما يعادلها